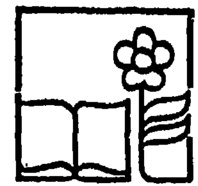
غيرد روغ

غورباتشيف

صانع القرار وضحيّته

تعريب

يوسف ضومط



مكتبة
بيسان
ص.ب: ٥٢٦١ـ١٣
بيروت

غورباتشيف

صانع القرار وضحيّته

الطبعة الأولى
١٩٩٢

إهداء

إلى سياسيِّينا وقادتنا.
لعلَّ في ذلك
ذكرى
لمن له قلبٌ
وألقى السَّمْعَ وهو شهيد.

ي.ض.

تمهيد وتعريف

ما إن عزمت « دار الجيل » في بيروت، على اصدار هذا الكتاب عن ميخائيل غورباتشيف، بطبعته العربية، حتى تلاحقت الأحداث في الاتحاد السوفياتي بشكل بدت كأنها في سباق مع الترجمة العربية، والتي ما إن انجزت حتى سقط غورباتشيف وانهار الاتحاد السوفياتي.

وإذا كان هذا الكتاب يروي سيرة حياة غورباتشيف منذ ولادته في ٢ آذار (مارس) ١٩٣١ حتى الأحداث الأخيرة، فانه يستقرئ أيضاً الأحداث التي ادّت الى انهيار الاتحاد السوفياتي وسقوط رئيسه في نهاية العام ١٩٩١.

غير اننا، استكمالاً للبحث، رأينا أن نقدم للقارئ العربي هذه الطبعة مضافاً إليها موجز لأحداث عام ١٩٩١ وللمحطات البارزة في المسيرة السياسية لميخائيل غورباتشيف، داخلياً وخارجياً، وحتى استقالته في ٢٥ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٩١. لذا يجد القارئ في آخر الكتاب، ملحقاً بهذه الأحداث وتحليلاً لنتائجها المأساوية، بدءاً من الإنقلاب الأول في ١٨ آب (أغسطس) عام ١٩٩١، حتى الإنقلاب الثاني والأخير في ٨ كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٩١، الذي أجهز على الاتحاد السوفياتي وأدّى إلى تفككه وزواله، وإلى استقالة ميخائيل غورباتشيف.

لا بدّ للقارئ من ان يلاحظ ان الكتاب قد كتب في مجمله بصيغة

الحاضر إلا فيما خصّ طفولة غورباتشيف والأحداث التي سبقت وصوله إلى منصب الأمين العام للجنة المركزية عام ١٩٨٥ ــ باعتبار ان الأعوام الستة التي أمضاها في الحكم ما تزال أحداثها حاضرة وحيّة في الأذهان.

اذا كان غورباتشيف قد أصبح الآن من الماضي، فإن الانجازات العظيمة التي حققها في المجتمع والنظام ستبقى مستمرة في الحاضر و ... المستقبل.

المترجم

المقدمة

لو لم يحدث ما حدث، في الاتحاد السوفياتي، لكان بالامكان اليوم قراءة الأخبار ومتابعتها في الصحافة السوفياتية، كالبرافدا مثلاً، على الوجه التالي :

تظهر صورة الصفحة الأولى ميخائيل غورباتشيف، يتلقى من عضو المكتب السياسي بوريس ن. يلتسين، وشاح بطل العمل الاشتراكي ذي النجمة المذهبة؛ وقد صرح في كلمة موجزة بأن الاتحاد السوفياتي قد دخل، بعد تجديد الاشتراكية، في طور الشيوعية.

في الصفحة الأولى، نقرأ بحروف كبيرة : « الى الأمام، في الزراعة، تحت راية الماركسية ـــ اللينينية ». ويشير المقال الى توفر محاصيل جيدة في انتاج الحبوب، ويعزو الخسائر، اثناء النقل، والخلل في الآليات، الى عملية التخريب التي تقوم بها بعض العناصر الواقعة تحت تأثير الفكر البورجوازي الغربي.

كانت الأيام الثلاثة لدورة الربيع لمجلس السوفيات الأعلى مناسبة للنواب كي يقّروا بالاجماع مشروع الموازنة العامة وكافة اقتراحات الحكومة وفقاً لما قرّرته اللجنة المركزية.

في بوخارست، منح الشعب نقولا تشاوشسكو لقب « منقذ الوطن » تقديراً له.

خلال احدى اجتماعات الحزب في برلين، أشاد رئيس مجلس الدولة، ايغون غرانز، بالمفاعل الحراري ـــ الكهربائي الجديد، الذي يشكل بناؤه نصراً رائعاً لجمهورية المانية الدمقراطية وشهادة على تفوق النظام الاشتراكي.

في الأمم المتحدة، اقترح احد نواب وزير الخارجية السوفياتية في خطاب دام ساعة ونصف الساعة، حلّ جميع الكتل العسكرية وجلاء كافة الجيوش من جميع القواعد الأجنبية ونزع السلاح الشامل.

في الصفحة الأخيرة، تبرز احدى الصور بعض بائعات الحلوى الشابات يعرضن الأطباق الوطنية لمختلف الجمهوريات، في أحد مقاهي موسكو. وفي أدنى الصفحة، مقالة صغيرة تبلغ المواطنين السوفيات بأن كمية السكر الموزعة بموجب بطاقات التموين سوف تخفض، هذا الشهر، الى النصف، وان المخازن لن تستطيع بيع أكثر من خمسة كيلوغرام من البطاطا.

في صحيفة « نيويورك تايمز » لليوم ذاته، يمكن قراءة الأخبار التالية : « نحو خطوات جديدة وحثيثة في سباق التسلح ». وقد أشار احد الخبراء المدنيين في البنتاغون الى التقاط اشارات سوفياتية مصدرها الفضاء الخارجي واستخلص منها ان الاتحاد السوفياتي قد حقق خطوات متقدمة في حقل التحكم باللازر بحيث أصبح من الضروري التعجيل في تكنولوجيا « حرب النجوم » في الولايات المتحدة الأميركية.

في موسكو، أفاد أحد المراسلين عن قيام تظاهرات واضرابات في مناجم كيميروفو والى اعتقال قادة الاضراب.

في لينينغراد، روى بعض السياح ان كاتبين شابين قد حُكم عليهما بالسجن لمدة خمس سنوات في ظروف قاسية جداً لتوزيعهما مؤلفات لسولجستين بصورة غير مشروعة.

في واشنطن، رفضت وزارة الخارجية منح تأشيرة دخول لوفد سوفياتي يضم سبعة اطباء أطفال.

في منظمة الأونيسكو في باريس، يشتدّ الصراع بين بلدان الشرق والغرب والعالم الثالث حول مسألتي منع بث البرامج التلفزيونية خارج الحدود واقامة محطات ارسال للتشويش.

في برلين، لقي أحد الشبّان في الجيش الشعبي مصرعه على يد رفاقه لمحاولته الافادة من غياب الحرس بصورة مؤقتة للقفز فوق الجدار.

هذا ما كان يمكن ان تكون عليه الأخبار عام ١٩٩١. أما اليوم، وبعد ثمانية عشر شهراً من التقلبات الكبيرة، بات من الواضح أن العالم لن يستطيع العودة الى هذا الوضع. غير ان الأمور كانت ستتخذ، من دون شك، هذا المنحى تقريباً لو لم يكن الأمين العام للحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي يدعى ميخائيل غورباتشيف أو كان سار على خطى أسلافه ــ كرئيس للدولة او الحزب ذي نزعة محافظة ــ يسعى قبل كل شيء للدفاع عن حكمه الشخصي والجهاز التابع له، ويستمد شرعيته من صيغ ايديولوجية بالية باتت اليوم فارغة من معناها.

لا ننوي هنا اعادة طرح الجدل الماركسي القديم على بساط البحث حول ما يلي : هل الرجال هم الذين يصنعون التاريخ أم الجماهير ؟ من المؤكد ان السنوات الأخيرة كانت ستكون، لولا غورباتشيف، على غير ما كانت عليه. ولا يبدو أي زعيم سوفياتي آخر في المكتب السياسي قادراً على مواجهة مثل هذه التقلبات وتمرير الاصلاحات اللازمة. مع ذلك، من دون غورباتشيف كانت الأمور ستتغير بالطبع، لأنه بات متعذراً، منذ مدة طويلة اخفاء أزمة النظام القائم. غير ان التغييرات كانت ستتم بالتأكيد بوتيرة ادنى والمحاولات الاصلاحية ستغوص في رمال متحركة كما في السابق. لا يساور الشك احد في الاتحاد السوفياتي ان الرجل الذي صاغت

خطاباته من عبارتي « بيريسترويكا » و « وغلاسنوست » مفاهيم مألوفة في لغات العالم كافة هو المحرك لهذا التغيير.

حتى السوفيات الذي يوجهون النقد والاتهام لغورباتشيف بأنه يبدو متردداً للغاية، فانهم يقرّون بأنه هو الذي أطلق هذه المسيرة ودفعها الى الأمام.

وصف غورباتشيف، ذات يوم، هذه المسيرة بالثورة. فالثورة أي الانقلاب الفعلي والكامل للعلاقات بين القوى، لم تكتمل بعد في الاتحاد السوفياتي. وقد لاحظنا بالمقابل انهيارات مهمة في العلاقات بين القوى، ما تزال نتيجتها غير محققة، وتغيّراً في المناخ السياسي (يمكن مناقشة مشاكل الاتحاد السوفياتي علانية) واصلاحاً اقتصادياً يخطو خطواته الأولى والنتائج المتوخاة منه غير كافية ولم يؤتِ ثماره بعد، وأخيراً مناخاً دولياً جديداً أدّى بالقوى العظمى بفضل « الفكر الجديد » لغورباتشيف الى الاقلاع عن المواجهة المتصلبة والشرسة. ما قاله غورباتشيف وفعله يهدف الى وضع سياسة أكثر انسانية. وهو يتابع هذا الهدف بصدق ومن دون خلفية عقائدية. وهكذا اصبحت كلمة بيريسترويكا اشارة رجاء، وتبدلت صورة الاتحاد السوفياتي في ذهن الأوروبيين الغربيين والأميركيين أكثر من أي وقت مضى، منذ بداية الحرب الباردة. فغورباتشيف متأكد من الفوز في جميع مباريات الجمال السياسية في العالم قاطبة. في الاتحاد السوفياتي، عرفت شعبيته الذروة حوالي ١٩٨٧؛ ومذاك أخذت بالاهتزاز؛ ففي كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٨٩، عبّر ٥٥٪ من السوفيات عن ارتياحهم لغورباتشيف. وفي كانون الثاني (يناير)، ما زالت نسبتهم بحدود ٤٤٪. وفي أيار (مايو)، تدنت هذه النسبة الى ٤٠٪. وهذه النتيجة ليست، في النهاية، على درجة عالية من السوء لرجل ما يزال في السلطة منذ ما يناهز الست سنوات. غير ان الناس في الإتحاد السوفياتي، حيث كانت الانتخابات تسفر في السابق عن نتائج ترضي ٩٩٪ منهم، يجدون ان غورباتشيف يتدبر بالأحرى أمره، بشكل سيّئ. قبل مؤتمر الحزب في حزيران (يونيو) سنة ١٩٩٠، عندما بدا

غورباتشيف متردداً، ومفسحاً في المجال لليمين، تدنت شعبيته أيضاً، ثم ارتفعت بعد انتصاره، وقبل ان يتآكلها مجدداً التدهور الاقتصادي خلال الصيف، تجاوزه يلتسين في بعض الأحيان. غير ان النقاد المثقفين انفسهم يقرّون لغورباتشيف بنواياه اليمينية، وهو يبقى بنظر العديد من الناس البسطاء، الرجل الذي يمكن الوثوق به ــ خلافاً لموظفي الحزب ــ لكنّ صورته التي تحمل الرجاء فقدت لمعانها طيلة ست سنوات من ممارسة السلطة.

أثارت الصورة الجديدة للاتحاد السوفياتي الارتياح في الأوساط العالمية، ومردّ ذلك الى الاعجاب شبه الاجماعي في الخارج بهذا الجبار الذي يتميز بقدرته على السلام وتأييده له. ساد الاعتقاد، خلال عشر سنوات مضت، ان سباق التسلح، مع المزيد من الصواريخ والأسلحة النووية، لن يتوقف أبداً : فالجباران يتبادلان التهديدات ويعززان ترسانتهما المسلّحة استعداداً لخوض صراع لا بدّ ان يفضي حتماً الى كارثة ضخمة. غير ان غورباتشيف كان يبدو مستعداً وعازماً على دفع بلده في طريق مفاوضات دولية لا يكون هدفها التسلح بعد اليوم بل المزيد من التعاون. وهذا ما استشعره المواطنون السوفيات بأنفسهم أيضاً. أما موقفهم الناقد لغورباتشيف فمردّه للنتائج غير الكافية التي تمخضت عنها الاصلاحات التي غالباً ما أدت حتى ذلك الحين الى اشتداد المصاعب والمظالم أو الى القاء الضوء عليها. وهذا الموقف أيضاً ناتج عن تفاؤل مفرط في الأيام الأولى للتغيير حين ساد الاعتقاد لدى القادة، كما لدى المواطنين العاديين، بأن التطور الجديد سيتوصل، في بضع سنوات، الى تحسين نوعية الحياة اليومية خصوصاً في الحقل الاقتصادي، والى تركيز المجتمع على أسس أكثر انسانية.

تلقّن غورباتشيف نفسه، خلال هذه السنوات، درساً قاسياً، اذ أدرك شيئاً فشيئاً، في خطاباته، ان الاصلاح الاقتصادي لا يقيّض له النجاح الا في سياق تحول عميق في النظام السياسي والمجتمع. وبصفته رجلاً سياسياً تلقى تنشئة شيوعية، وجب عليه تجاوز عدد لا بأس به من عاداته الفكرية

من خلال مواجهة مشاكل التجديد، لدرجة انه ـــ وهو الذي انطلق من فكرة الدولة الاشتراكية الحديثة ـــ ذات الحزب الواحد، سوف يصرّح في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٩٠، بأن تعددية الأحزاب لن تكون كارثة. بهذه القدرة على التكيف مع الحقائق الجديدة وخصوصاً بهذا الاخلاص ـــ اللذين لا نجدهما لدى أي رجل دولة آخر في زمننا ـــ يفكر غورباتشيف في مستقبل بلده والعالم، الأمر الذين يجعل منه شخصية ساحرة. سواء كان مشروعه التجديدي العظيم قابلاً للتحقيق وفقاً لما صممه، أم لا، وسواء تغلّب « الفكر الجديد » على الحقائق القديمة، فان الرجل الذي ارتقى سلّم قريته الفلاحية ليبلغ قمة احدى الدول العظمى، على يقين بأنه دخل التاريخ من بابه الواسع.

تلتقي الحركة التطويرية التي اطلقها غورباتشيف ـــ سواء وصفت، بالثورة أم لا ـــ مع كافة الثورات الأخرى على اعتبار أن النتيجة النهائية ستكون مختلفة عما كان متوقعاً في الأصل. ان التغيير قد بدأ خطواته الأولى في الاتحاد السوفياتي. وما يشهد لصالح البراعة السياسية لغورباتشيف ورفاقه في النضال، انهم لا يطوقون هذه الحركة التطويرية بحزام شبه علمي جامد، ولا يحبسونها في صيغ ايديولوجية بالية بل يأخذون في عين الاعتبار التطور الحي في أحداثه وتجاربه. وهم يكتسبون المعرفة كلما تقدموا الى الأمام. وهذا برأيي ما يصحح نقد الذين يتهمونهم بعدم بلورة خطة توضح بدقة المراحل المتتالية لهذا التغيير. ان المشورة والوصفات المأخوذة من التجربة السياسية الغربية لا تكفي لايجاد حل لمشاكل بهذه الدرجة من الأهمية التاريخية، أفضل من الصيغ الماركسية. لا أحد يستطيع القول فيما اذا كان بالامكان فقط عصرنة دولة واصلاحها وتعميم الدمقراطية فيها، متى كانت هذه الدولة اشتراكية وذات حزب واحد وعلى هذه الدرجة من المركزية. ولا أحد يستطيع القول فيما اذا كان لهذه الامبراطورية التي حكمها القياصرة ولينين وستالين والتي تمثّل سدس الكرة الأرضية، ان تتحول وتتغير من

دون هزات عنيفة. ان الخبرة السياسية في التاريخ السوفياتي لا تتيح الاجابة عن أي سؤال من هذه الأسئلة.

جذبني غورباتشيف وسياسته باكراً ــ بعيد بدء سطوع نجمه كأمين عام جديد للحزب الشيوعي السوفياتي. حتى ذلك الحين كنت لا أعرف الكثير عنه. حوالي عام ١٩٨٠، وفيما كنت أعمل كمراسل في موسكو، لاحظت ان بعض الاختصاصيين من معارفي كانوا يعلّقون الآمال على الرجل الأصغر سناً في المكتب السياسي. وكانوا يتحدثون عنه على أنه خبير في الاقتصاد وفي المسائل الزراعية ويتمتع بصفات المنظم وباستطاعته شق طريقه نحو القمة. ولكن، داخل القيادة في الاتحاد السوفياتي في ذلك الحين، لا يحق لرجل يرغب في ارتقاء السلم، ان يلفت الأنظار اليه من خلال أفكار شخصية. فاذا ابتعد عن أفكار الرئيس الأول أو لم يؤيدها من دون تحفظ، فانه يجازف بخسارة كل حظ في خلافته ذات يوم. ثم، في مطلع الثمانينات، برز اسمه لدي أثناء حديثي مع احد الاختصاصيين العلميين في « مؤسسة الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية ». وكانت هذه المؤسسة قد تعرضت لهجوم عنيف من جراء تناولها بالنقد الوضع الاقتصادي السوفياتي، ولأبحاثها حول الاصلاحات الضرورية المنشودة. فسألت ذلك الرجل الذي كنت على معرفة جيدة به، عما تنوي المؤسسة القيام به الآن. فأجاب : سوف نستمر في كتابة ما سبق لنا أن كتبناه. اذ، في كل حال، ليس هناك في المكتب السياسي من يقرأ ما نكتبه سوى غورباتشيف ». وكانت هي المرة الأولى التي أسمع فيها اسم غورباتشيف على نحو ايجابي لهذه الدرجة.

عام ١٩٨٥، وفّر عليّ وصول غورباتشيف الى السلطة صعوبات كان من شأنها ان تضع نهاية لعملي في الاتحاد السوفياتي. اذ كنت، في السنة الفائتة قد نشرت كتاباً عرضت فيه، بشكل نقدي، الأوضاع في الولايات المتحدة الأميركية، وفي الاتحاد السوفياتي. فتوقع بعض الزملاء السوفيات

ممن يستشف ردة الفعل الرسمية، انني لن أحصل قريباً على تأشيرة دخول الى البلاد. وتمّ تدارك عدم نشر مقالة انتقادية لاذعة في احدى الصحف، في آخر لحظة. وعندما شرعّت أبواب النقد الذاتي على مصراعيها، في عهد غورباتشيف، لقي كتابي انتشاراً واسعاً لكونه يستبق الأحداث التي تجري الآن. غير ان ما بدا لي مهماً، انني كنت أُلحَظُ، خلال المناقشات الجارية حينذاك في الاتحاد السوفياتي، اشارات، تذكرني بسنواتي الأولى في موسكو في عهد نيكيتا خروتشيف. وصلت موسكو عام ١٩٥٦، في فترة الانفراج وكُشف جرائم ستالين، وهي فترة تم فيها الافراج عن عشرات الألوف من السجناء في المعتقلات، وفي تلك الحقبة أيضاً شهد الفلاحون البائسون في القرى المحيطة بموسكو تحسناً ملموساً في مستوى معيشتهم، وتنفست موسكو الصعداء.

ذكرتني الحقائق التي شهدتها بأم العين، عام ١٩٨٥، في المسرح والأدب، بالسنوات الخمسين عندما ظهر كتاب فلاديمير دورينتسيف بعنوان : « ليس بالخبز وحده يحيا الانسان » ونجح خروتشيف في نشر « يوم في حياة ايفان دنيسوفيتش » لسولجنتسين. كانت تلك الحقبة تثير حماستي، على الرغم من وطأة جرائم الحرب التي كانت ترمي بثقلها علينا، نحن الالمان، ومن شبح ستالين الذي مات منذ ثلاث سنوات وما يزال يحوّم فوق روسيا. كان الكلام ممنوعاً في تلك الفترة، والعديد من الناس يخشى الاتصال بالغرباء، الذين كانوا يمثلون، منذ عشرات السنين خطراً مميتاً. كنا نتحدث على وجه الخصوص مع اناس نطلق عليهم « انصاف القادة » وهم مجموعة من الزملاء السوفيات الذين يملكون الاذن والتفويض لتزويدنا ببعض المعلومات، وما زلت أكنّ لبعضهم مشاعر الصداقة. غير انه كان يمكن في تلك الحقبة التقاء شخصيات « مستقلة » توافق على اجراء مقابلات معها. فالكاتب ايليا ايهرينبورغ الذي تركت روايته « الانفراج » أثرها في تلك السنوات، كان صادقاً، لكنه كان يبدي الحذر الشديد. أما المؤلف الموسيقي

ديمتري شوستا كوفيتش فكان يبدو أكثر اكتئاباً وعصبية. وكانت جلسات القراءات الشعرية تضم من سيصبحون من أشهر الأدباء الشباب أمثال : يفغني ايفتوشنكو واندره فوزنيسينسكي وبيلا اكمادولينا وبولات اوكودجافا الذين برزت اسماؤهم لأول مرة في معهد الأدب العالمي، وصارت أصواتهم، في ذلك الربيع أكثر صفاءً وحزماً. وكانت مناسبة المهرجان العالمي للشبيبة في موسكو، المرتقب افتتاحه عام ١٩٨٥، قد عرفت سابقة لها عام ١٩٥٧، عندما اتيحت الفرصة للشبان السوفيات، للقاء الآلاف من الشبان الأجانب المشاركين في المهرجان، وملاحظة طريقة عيشهم الأكثر استرخاءً منهم : وقد رقصوا معاً في الشوارع، حتى ان قادة الشباب الشيوعيين انفسهم الذين اشرفوا على تنظيم المهرجان استبد بهم الفرح والحماس وانجرفوا مع التيار...

غير انني خضتُ أيضاً تجربة تبدل المناخ السائد. كنت تسللت الى منزل بوريس باسترناك الذي اقدر صداقته، مستبدلاً سيارة التكسي والميترو والقطار للتضليل ولعدم لفت النظر. وقد علمّني درساً في التسامح عندما حدثّني بحزن عن زملاء له يطلقون الأحكام القاسية عليه ويضطهدونه، فيما هو يدرك حياة الازدواجية الرهيبة التي يعيشونها بين التشدد والتساهل وبين الفن والكذب. وعلمت كيف انه، بعد منحه جائزة نوبل، جرى حشد مجموعات من العمال والشيوعيين الشباب للتظاهر في الغابة أمام منزله، وهم يصفونه « بيوضاس » و« الخنزير الذي يغوط في حوضه ». بعض الشعراء الشباب الذي كان يلقي قصائده التحريضية في ساحة ماياكوفسكي، تعرضّ للتوقيف والمحاكمة. ومع ان فترة حكم خروتشيف كانت غنية بالآمال الواعدة، فقد باشرت الدولة خلالها تحويل مستشفيات الأمراض العقلية والنفسية الى سجون.

وها هو غورباتشيف يذكرنا ببعض الأمور التي كنا نأملها بالرغم من كل شي، تحت ظل حكم خروتشيف؛ لم تكن لهجته العامية فلاحية كتلك

التي كان يستعملها خروتشيف معنا، نحن معشر المراسلين، حين كان يتكلم عن الواقع الفعلي للزراعة ــ وكانت هناك هيئات الرقابة تحذف تلك المقاطع من تقاريرنا فيما بعد ــ كان غورباتشيف اكثر دقة ولا يستشيط غيظاً غير انه كان واضحاً أيضاً ــ وهو القروي الأصل ــ ويعرف وضع البلاد ويرفض غض النظر عنها.

كنت أقرأ عن غورباتشسيف انه تابع دروسه في موسكو في مطلع الخمسينات. واذكر الأحاديث التي تداولتها عام ١٩٥٦ مع بعض طلاب موسكو الذين كانوا يتحدثون بحماس عن نظام اشتراكي متجدد وأكثر دمقراطية. وكنت أتساءل عما اذا كان غورباتشيف قد تأثر بروح تلك الحقبة. ولاحظت أيضاً ان بعض الأصدقاء والمعارف ممن كان يعتبر نفسه بطل التغيير، في عهد خروتشيف، قد ارتقى المراتب العالية، او سعى للكتابة مجدداً في لغة توحي بأنه يراهن مرة أخرى على التغيير. وفي عهد بريجنيف، التقيت بالعديد منهم، وكانوا يشعرون بالخيبة والنقمة لأن انتصار جهاز الحزب على فكرة التجديد سلبهم سنوات ثمينة من العمل، حتى ولو كانوا تبوأوا مراكز مرموقة بطريقة نزيهة.

ما كنت اطلع عليه خلال زياراتي لموسكو، في عهد غورباتشيف، كان يستأثر باهتمامي. فخلال محاضرة حول المسائل الاقتصادية، لم يعد المشاركون السوفيات يكتفون بالتصريحات المعدّة مسبقاً حتى انهم تجادلوا خلال المناقشات ودحضوا اقوال بعضهم بعضاً حول اسباب الأزمة والحلول المطلوبة للخروج منها. أحياناً، كانت المناقشات بين الشرق والغرب تتخذ منحى مذهلاً : في مطلع عهد ريغان، كانت الحجج التي يدلي بها المشاركون الأميركيون متصلبة وجازمة وسجينة الأفق الضيق الذي كان العلماء السوفيات يحاولون الخروج منه.

كانت أجواء موسكو في تبدّل. وقلت في نفسي إن من واجبي الاطلاع

أكثر على أفكار ميخائيل غورباتشيف الذي حرّك هذا التغيير ودفعه باتجاه معين. الى أي مدى كانت هذه « الفكرة الجديدة » متجذرة في العمق ؟ وبأي قدرٍ كانت جديدة ؟ متى بدأ اهتمامه بالاصلاح والبيريسترويكا ؟ ما هي المعطيات الجديدة التي حملها هذا الموظف الذي ارتقى درجات الجهاز الحاكم وما هي حوافز هذا التفكير ؟ تذكرت كلمة باسترناك حول ازدواجية الحياة التي كان على الموظفين ان يعيشوها أكثر من سواهم، سواء اولئك الذين كانوا يعتبرون ان التغيير بات يفرض نفسه ولا يجرأون على قوله، او اولئك الذين يتمسكون بسلطتهم ويبشرون في الوقت عينه بالمساواة والدمقراطية.

عام ١٩٨٥، عزمت، مع زميل اميركي، على تحقيق برنامج تلفزيوني بعنوان : « عالم ميخائيل غورباتشيف ». كنا ننوي القيام بمقابلة شاملة، مع لقطات في مسقط رأسه ومقابلات مع بعض الأصدقاء ومشاهد عن الأمكنة التي عاش فيها. كنّا نبحث عن الجذور الفكرية للبيريسترويكا التي كان ظهورها المفاجئ غير متوقع من أحد. وبقيت طلباتنا الموجهة الى السفارات السوفياتية وكذلك كتابنا الى ميخائيل غورباتشيف دون جواب. قمت بمحاولات أخرى مع زملاء سويديين حول مشروع مقابلات في اطار برنامج بعنوان « أوروبا تسأل ». كانت عدة قنوات اوروبية غربية على استعداد لبثه. اخيراً حاولت مع المؤسسة الهولندية « اليردينك » وبرنامجها « وجه العالم » الذي كان التلفزيون السوفياتي يرغب بالمشاركة فيه. وكان الرئيس ريغان في عداد الشخصيات التي كان ينبغي مقابلتها أيضاً. غير ان هذا المشروع سقط، لأن السيدة نانسي ريغان كانت ترفض اجراء مقابلة مع زوجها من دون توجيه اسئلة مكتوبة. فاذا كان بقي لنا بعض الأمل، فقد خاب مع السوفيات الذين كانوا يحرصون على التساوي والتكافؤ مع الأميركيين.

عام ١٩٨٧، عدت الى موسكو كمراسل للتلفزيون. ولم تكن تستهويني

مدينة أخرى مثلها. كنت أرغب بمعرفة ما يحلّ بالناس في مرحلة التغييرات الكبرى. كان بعض الأصدقاء في موسكو يتكلم عن التحديث كما لو ان روسيا ستمسي أميركا ثانية. وهذا ما كان يدفعني للذهاب بهدف الاطلاع. كنت متلهفاً للحصول على معلومات عن غورباتشيف وكيفية اعداد سياسته وتأثيراتها. لكن الأخبار الواردة من « الداخل الكبير » كانت تزداد سوءاً يوماً بعد يوم. فالمعاونون المقيمون في البيت الكائن في الساحة القديمة استمروا في صمتهم وغموضهم. وقد قال لي صديق قديم سبق لي ان تحدّثت اليه بصراحة في السنوات الماضية : « سكوت. مَنْ يَعِشْ في الدير عليه التزام نظام الرهبانية ». وهذا ما يزال صحيحاً أيضاً. اذ لم نكن نملك سوى بعض المعلومات من غير مصادرها المباشرة حول اسلوب العمل المتصل بمشاريع الاصلاح ومضمونها، من خلال بعض الخبراء العلميين والكتّاب.

احدهم كان يشارك غورباتشيف غرفته في الجامعة امتنع عن قول كلمة عنه، في حين كان يعرف انني على اطلاع على هذا الأمر. اما غورباتشيف فكان لا يوافق على اجراء المقابلات الا قبل توجهه الى الخارج في زيارة رسمية ـــ وهي مقابلات تجريها أقنية التلفزيون التابعة للبلد الذي يزوره. وكانت هذه المقابلات تلقي بعض الضوء على طريقته في الكلام والتفكير، لكنها لا تكشف شيئاً عن شخصيته. في الاتحاد السوفياتي، لا شيء لافت حتى أغاني الاطراء التي تمتدح عمله اختفت. وفي المنطقة التي نشأ فيها، أي ستافروبول، قيل لي ان بعض الزملاء في التلفزيون حاولوا تصوير فيلم عن مرحلة شبابه غير انهم اصطدموا برفض صادر عن غورباتشيف ذاته. ولم ينشر أي شيء، في الاتحاد السوفياتي، عن حياته حتى عام ١٩٨٥. في هذه السنة نشرت الصحيفة الجديدة الناطقة باسم اللجنة المركزية مقابلة كشف فيها غورباتشيف عن بعض الجوانب الشخصية من حياته (ننشر في الملحق هذه الوثيقة الفريدة من نوعها). وقد صدرت في الفترة ذاتها تقريباً حين كانت محاولاتي المتكررة تبلغ مراميها. ربما كانت رسائلي

قد وصلت أخيراً الى العنوان الصحيح، وربما أيضاً سعى من وجهت اليهم هذه الرسائل الى اقناع غورباتشيف ان الوقت قد حان كي يبرز شخصيته ويقدم ذاته على نحو أكثر انسانية الى العالم.

كان الزميل الأميركي الذي اعددت المشروع معه قد احيل الى التقاعد، ولم يعد يرغب في متابعته، حين أشار اليّ احد معارفي في وزارة الخارجية السوفياتية بتكرار المحاولة مرة أخرى. ربما كان التوقيت ملائماً أكثر من أي وقت مضى اذ كان غورباتشيف يستعد للقيام بزيارة رسمية لألمانيا الاتحادية. ونصحني بما عليّ ان اكتبه ولمن أتوجه برسالتي. فتوجهت في الوقت عينه الى احد نواب رئيس محطة التلفزيون السوفياتية، الذي سبق لي ان تحدثت اليه طويلاً عن غورباتشيف. وكان هو أيضاً متحدراً من قرية صغيرة ويستهويه الحديث عن حياة الفلاحين وعن سياسة غورباتشيف. وقد أدرك لماذا كنت أبحث عن جذور الفكر السياسي لدى غورباتشيف ووثق بي عندما قلت له إنني لست بصدد اصطياد معلومات مثيرة تتعلق بحياته الخاصة. لم أعرف مطلقاً ماذا جرى فيما بعد وأين اتخذت القرارات بهذه المسألة.

ذات يوم، وقبل زيارة غورباتشيف لبون، اتصل بي أحد الأصدقاء من غرفة الهاتف في مطار موسكو. كان متوجهاً الى بكين لاعداد زيارة غورباتشيف الرسمية لها. قال لي : « هناك موافقة على القيام بذلك ». كان يجهل مضمون الموافقة التي حصلت عليها. وأضاف : قد يكون تصوير غورباتشيف محاطاً بحلقة ضيقة من المستشارين خلال زيارته لبكين، اضافة الى اجراء المقابلات مع بعض الأصدقاء القدامى والمساعدين؛ « فيما خص الباقي، سوف نرى فيما بعد ». ثم ركب الطائرة وسافر. في الطائرة التي اقلتنا الى بكين، رويت للناطق باسم وزارة الخارجية، انني مخوّل للجلوس قريباً جداً من غورباتشيف. فأجابني : « هذا غير وارد على الاطلاق، ولم يعلمنا أحد بذلك ». اتصلت بالناطق الرسمي باسم اللجنة المركزية، فلم

يقدم لي أي عون، ولم يكن يعلم شيئاً، غير انه خففّ عني كربتي بقوله : « لدينا مراجع مختلفة ولا تنسيق فيما بينها. ربما التصريح المعطى لك قد وقع بين يدي واحد لا أعرفه ». في بكين، لم يكن متيسراً عمل أي شيء بسبب الفوضى العامة التي سببتها التظاهرات الطالبية التي القت بظلها على زيارة غورباتشيف فضلاً عن ان احداث ساحة تيانانمان شغلتني وفريق المصورين بصورة كلية.

لدى عودتي الى موسكو، لم أكن امتلك شيئاً بين يدي. غير ان الزملاء السوفيات أخذوا بتهنئتي ـــ دون حسد ـــ لحصولي على التصريح بتصوير فيلم عن غورباتشيف والانتقال الى مسقط رأسه والاتصال بأصدقائه. لم يكن لدي أية توضيحات أخرى. تدبّر لي التلفزيون السوفياتي، بناءً لطلبي، محرراً يمكنه تأمين المقابلات المرتقبة مع أشخاص يمكنني محادثتهم عن غورباتشيف. اتصلت بصديقة قديمة ورجوتها مساعدتي. كنت أعلم ان هذه الصديقة الفطنة والشجاعة لن تخشى الصعاب. فالمواطن السوفياتي العادي لن يجرؤ بالطبع التنقيب في ماضي رئيس الحزب. وكنت في السنوات السابقة، قد أعددت لائحة بأسماء الأشخاص الذي يفترض بهم معرفة غورباتشيف عن كثب. وينبغي الآن ايجادهم واقناعهم باجراء المقابلة.

استقلّينا الطائرة الى ستافروبول، وفيها حالفنا الحظ. فمدير استوديوهات التلفزيون، ايفان ايفانوفيتش شلختين يمتلك حساً عملياً، وطيبة قروية صافية، وثقة بالنفس. وضعنا لائحة بأسماء بعض الفلاحين من قرية غورباتشيف. كان ايفان ايفانوفيتش يعرفهم وكذلك مدير الكولخوز الذي لا غنى عن الحصول على موافقته ومؤازرته في هذه المسألة. وهذا الأخير كان ينتظرنا على مفترق الطريق المؤدية الى القرية واعدّ لنا وليمة قروية سخية. لكنه تحدث الينا بلغة تقليدية عن الكولخوزات ونتائج أعمالها. فأصبت بالأسى الشديد. وقلت في نفسي : سيكون علينا الاكتفاء بالخطابات الروتينية. اصطحبت معي فريقاً من المصورين السوفيات لأنني اعتبرت ان الفلاحين

يتعاملون مع المصورين الروس بشكل أفضل من زملائي الألمان. وقد أفادوا فعلاً من الفرصة المتاحة لهم.

فيما كنت أتناول الطعام، كانوا يصورون كل ما يقع تحت انظارهم : الشوارع وبيوت القرية، الفلاحين المسنين وذويهم، الدّراجين والرعيان، والنهر الذي استحم فيه ميخائيل غورباتشيف عندما كان في سن الفتوة. لم يرغب ايفان ايفانوفيتش في ان يرشدهم الى منزل والدة غورباتشيف. وادّعى ان الشارع مسدود وغير سالك. وتبين عندما دخلناه بعد طول نقاش، انه مليء فقط بالوحول وزبل الدجاج. وسبق أن قيل لي في موسكو ان اجراء مقابلة مع والدة غورباتشيف امر غير وارد على الاطلاق. وقد اذعنت للطلب. أخيراً اكتفى التلفزيون السوفياتي بتزويدنا بفيلم قصير جرى عرضه في التلفزيون الصيني لدى زيارة غورباتشيف لبكين. خلال مقابلة طويلة عرض منها مقطع مدته خمس وعشرون ثانية، روت سيدة مسنة هي والدة غورباتشيف، وبلغة روسية تخالطها الأوكرانية، كم كان صعباً ان تجد، بنهاية الحرب، زوجي حذاء لميخائيل. عندما كنت أتناول الغداء مع مدير الكولخوز، اعتقدت بعدم جدوى ما نفعله، ولكننا سنكون أوّل من صوّر فيلماً عن مسقط رأس غوربتاتشيف.

فجأة، انفرج الوضع وزالت العقبات من وجهنا. فانتقلنا الى المدرسة الصغيرة حيث كانت تنتظرنا اوّل مدرّسة لميشا. ثم رأينا بعض الرجال المتقدمين في السن من اتراب غورباتشيف، يتوجهون بملابس الأحد الى مقر الكولخوز. فالتقيناهم حول طاولة كبيرة في مكتب المدير، تحت صورة غورباتشيف — التي رسمها بلا شك فنان محلي، لكونها مختلفة قليلاً عن الصور الرسمية التي نجدها في مكاتب المسؤولين — كان الارتباك بادياً على وجوه الفلاحين وكذلك على المدرّسة وعلى زميلة قديمة لغورباتشيف، فيما بقي اثنان منهم مكتوفي الأيدي. تحدث الخبير الزراعي المتقاعد كرجل مثقف عن سياسة غورباتشيف السلمية وطلب الينا نقل

تحياته للشعب الالماني، فيما اعتبر مدير الكولخوز الذي عرّفنا على الفلاحين ان عليه انجاز بعض الأعمال الهامة وغادر المكان.

بدأ الحديث يتقدم شيئاً فشيئاً وأخد الفلاحون يألفون الجوّ السائد. احدهم، وكان غليظ الفهم، لم يتوصل للفظ سوى بعض الجمل، وكان يعمل كسائق جرار لدى صاحب المنزل المجاور لغورباتشيف، وهذا الأخير عمل مع أبيه. وهناك آخر كان نبيهاً ولاذعاً ومرهف السمع وذا حس ساخر. ففيما كنا نتحدث عن السياسة الزراعية الجديدة التي كان الجميع يتوقع تحسنّها، قال بلهجة يمتزج فيها الجد بالهزل: « ليعطونا الدولارات التي يصرفونها لشراء القمح الأميركي، ونحن نشتري بها آلات حديثة وبذار الحنطة، وشبابنا يتولون انتاجه ولن نكون بعد اليوم بحاجة للقمح الذي ندفع ثمنه باهظاً للخارج ». كانت المرأتان جالستين بعيداً عن الطاولة، وبمحاذاة الحائط. أما زميلة غورباتشيف القديمة فكانت تبدو مرتبكة لانشغال فكرها بميشا الصغير الذي عرفته أيام الدراسة. وقالت إنها لم تعد تتذكر جيداً كيف كان يلبس، لكنها تتذكر انه كان جميل الطلعة. وكان علينا انتظار بعض الوقت قبل ان يستعيد الحاضرون ذكرياتهم عن صديقهم أيام الحداثة.

في البلدة المجاورة لكراسنوفارديسك حيث التحق ميشا بالمدرسة طيلة ثلاث سنوات، التقينا معلماته اللواتي امسين عجائز ولكنهن يتذكرن تلميذهم النجيب الذي صار مشهوراً. أمّا المدير الذي كان شاباً ولم يعرف غورباتشيف تلميذاً، فقد حمل الينا سجل الصف وعلامات الإنزعاج بادية على وجهه لكون غورباتشيف ترك المدرسة من دون الحصول سوى على الميدالية الفضية. خلال وجودنا في متحف المحلّة، روى لنا مدير مدرسة متقاعد قصة انتشار الاشتراكية في المنطقة. على الجدران، علقت صور قديمة لقرية بريفولنوي، اما مجموعة الصور فكانت تمثل الشاب غورباتشيف ووالده، وهي مجموعة تخص من دون شك، أحد اصدقاء العائلة وتردد في عرضها علينا.

رأينا أيضاً صوراً لستافروبول في المتحف الصغير التابع لاتحاد الشبيبة الشيوعية، في الطابق الأول لهذا المتجر الكبير، كان غروباتشيف يشغل اول وظيفة له. وفي احدى زوايا القاعة، علقت صور رسمية لرئيس الحزب. تحدثنا مع بعض الأصدقاء والمساعدين عن الحقبة التي كان يعمل فيها موظفاً في اتحاد الشبيبة الشيوعية وأمين سر الحزب. كانوا بالأحرى متحفظين وحذرين، ويتحدثون بالعموميات، ليس عن خوف، بل لأنهم على ما يبدو، لا يودّون التحدث عن الحياة الشخصية لغورباتشيف أكثر مما يرغب ذووه التحدث عنها. غير ان عقدة لسانهم انفكت شيئاً فشيئاً. تحدثنا أيضاً الى أساتذة المعاهد والمدارس حيث رايسا غورباتشيف مارست التعليم وحيث ابنتها ايرينا تابعت دراستها. وشاهدنا أيضاً البيوت التي سكنها آل غورباتشيف، باعتبار اننا كنا نترصد طريقة عيشهم وتصرفهم.

فيما بعد، في موسكو، كان من السهل التحدث الى رفاق غورباتشيف في الدراسة. وهم يشغلون مناصب استاذ جامعي، أو رئيس تحرير صحيفة او قاض في النيابة العامة. وبعضهم أحيل الى التقاعد. ولم تسنح لهم الفرصة، أكثر من سواهم للاتصال بالأجانب للتحدث عن غورباتشيف، غير انهم كانوا أكثر ثقة بالنفس من سواهم.

أحد الأساتذة طلب بشكل حذر من زميل له يشغل منصب مستشار لغورباتشيف في الشؤون الخارجية، اذا كان بامكانه التحدث عن زميله ملينار في عهد الدراسة، الذي كان يشغل في عهد دوبتشيك منصب أمين سر الحزب أبان ربيع براغ، فوجهت اليه النصيحة بالعدول عن ذلك لأن الوقت كان ربما سابقاً لأوانه. بعد عشرين سنة، خضع هذا الأستاذ للتحقيق لدى جهاز ك.ج.ب. حول الأحاديث التي قد يكون سمعها بين ملينار وغورباتشيف. في أيار عام ١٩٨٩، قال لي دون مواربة أنه لا يريد التحدث عن صديق غورباتشيف هذا. وبعد ستة أشهر، كان مستعداً لرواية كل ما يعرفه عن تلك الصداقة الخطيرة بين الرجلين. في غضون ذلك علم ان

زدينيك ملينار جاء الى موسكو عام ١٩٨٩ وزار غورباتشيف.

كانت لدينا فترة ثلاثة أسابيع كي نسجل تحقيقنا عن غورباتشيف ونجهز الشريط ونترجمه. لم تمنحنا مؤسسة أ.ر.د. أكثر من أربعين دقيقة عشية زيارة غورباتشيف لبون. فلم يكن باستطاعتنا معالجة موضوع ما تعلمه غورباتشيف وعاشه خلال المراحل الحاسمة من تنشئته الا معالجة سطحية.

الزملاء السوفيات الذين شاهدوا البرنامج في بون اكتشفوا للمرة الأولى بعض جوانب حياة غورباتشيف، وما شاهدوه نال اعجابهم. بعضهم وضع تقريره متسائلاً: متى يتاح أيضاً للمواطنين السوفيات مشاهدة برنامج مماثل عن رئيس الدولة والحزب. وتقرر في التلفزيون السوفياتي ان الوقت لم يحن بعد. غير ان الناس الذين طالبوا بالسماح لهم بتحقيق هذا المشروع سرعان ما شعروا بالطمأنينة؛ وقد حمل أحدهم شريط فيديو مسجلاً إلى غورباتشيف ولا بدّ أنه شاهده في الليلة التالية في بون. ربما تأثر بذكريات الطفولة التي استعادها. في كل حال، حرص مرافقوه في جهاز الأمن على التقاط الصور لهم، في اليوم التالي، وهم يصافحونني أمام قصر بروهل. تلك كانت ردة الفعل الواضحة التي وصلتني عن البطانة المحيطة مباشرة بغورباتشيف.

مما لا شك فيه، ان هذا الفيلم القصير الذي يفتقر للمعلومات والشروح، قد نجح في كل حال على تأكيد الأمر التالي: لدى تقديم الشريط للجمهور الأميركي قال جورج كينان وهو من أكبر الاختصاصيين الأميركيين في الشؤون السوفياتية انه اكتشف فيه اشارة عن الطباع الفذة لرئيس الدولة والحزب السوفياتي.

لم نتوقف عن البحث والاستقصاء وجمع المعلومات في موسكو. وتبين لنا انه من الصعب تشخيص الطريقة التي يتمّ فيها اعداد السياسة السوفياتية او تحديد معالم السيرة والمؤهلات العلمية التي تؤدي لبلوغ القمة في اللجنة

المركزية والمكتب السياسي. غير انه ثمة تغيير قد حصل بين ربيع وشتاء عام ١٩٨٩، اذ أصبح من الأسهل الآن الحصول على حديث عن غورباتشيف، من عالم أو نائب. بعض قدامى الأصدقاء والمساعدين أخذوا يتحدثون عنه بكل طيبة خاطر. لكن الناس الذين ساعدوا في مختلف المراحل في صياغة سياسته، ليسوا غالباً على يقين من الأسباب التي املت قراراته او جعلته يفاضل بين هذه او تلك من الخطط او التصريحات. وقد يقع أحياناً تعارض بين انطباعاتهم وتسلسل الذكريات القديمة عنه. بعضهم أمسى ناقداً خائباً من جراء عدم انجاز مشاريع الاصلاح على الوجه المطلوب. والبعض الآخر يرى في غورباتشيف الأمل الوحيد والأخير، لكنه كان يتمنى لو يتخذ قرارات أكثر وضوحاً ويقلل من التسويات التي يسلّم بها. يقول الزعماء الوطنيون في الجمهوريات ان غورباتشيف لم يفهم مشاكلهم او انه فهمها متأخراً، لكنهم لا يهاجمونه شخصياً أكثر من سواهم. غالباً ما تردد على مسامعي ان غورباتشيف يشكل لغزاً. وهذا ما قاله أيضاً عنه اندره ساخاروف قبل وفاته بوقت قصير. بعض العلماء والنواب عبّر بشكل مماثل حين كان يحاول الحكم على سياسة غورباتشيف بما لها وعليها. وحدها تصريحات بوريس يلتسين تحمل شحنة عاطفية. لا شك ان عدد النقاد يتضاعف في موسكو. ومنذ اندلاع الاضطرابات في اذربيجان، كثرت التساؤلات المشوبة بالقلق، كيف يستطيع غورباتشيف السيطرة على المستقبل. غير ان أحداً لم يتحدث عملياً عنه من دون احترام. ولا يبدو ان احداً ينوي التشكيك بنبل هذا الرجل. نحن أيضاً سعينا لاستكشاف هذه الجوانب السلبية. وما قيل لنا كان يبدو جميلاً لدرجة لا تصدق حتى ولو كانت المسألة لا ترتدي بالتأكيد طابع الممالأة.

اذا كان هذا الكتاب يقدم غورباتشيف كرجل نبيل، فليس لأنني وزملائي من أنصاره بدرجات متفاوتة، بل لأن أحداً لم يروِ لنا أية حكاية صغيرة من شأنها ان تبدّل في قناعتنا.

لا يشكل هذا الكتاب عن غورباتشيف مصنفاً علمياً في الشؤون السوفياتية، ولا دراسة نفسانية. انه كتاب محقق صحفي يفكر ملياً فيما يرى، عن رجل هو في الوقت عينه عادي واستثنائي وقائد قلّ نظيره في حقبة زاخرة بالمتغيّرات الدولية.

طفولته

يتحدر ميخائيل سيرغيفيتش غورباتشيف من قرية صغيرة حيث ولد في احضان أسرة فلاحية صغيرة. وهذا ما يميزه عن جميع أسلافه الذين تبوأوا السلطة في الاتحاد السوفياتي اذ لم ينشأ أي منهم في رحاب السهول الروسية، بمن فيهم نيكيتا خروتشيف، مع ان لهجته وتصرفاته كانت قروية للغاية. وقد ترعرعوا، على غرار قادة الثورة الروسية والسنوات العشرين، في المدن الصناعية وضواحيها. أما غورباتشيف فهو أول زعيم سياسي في تاريخ الاتحاد السوفياتي يقضي حداثته في القرية والحقول قبل ان يترقى في جهاز الحزب.

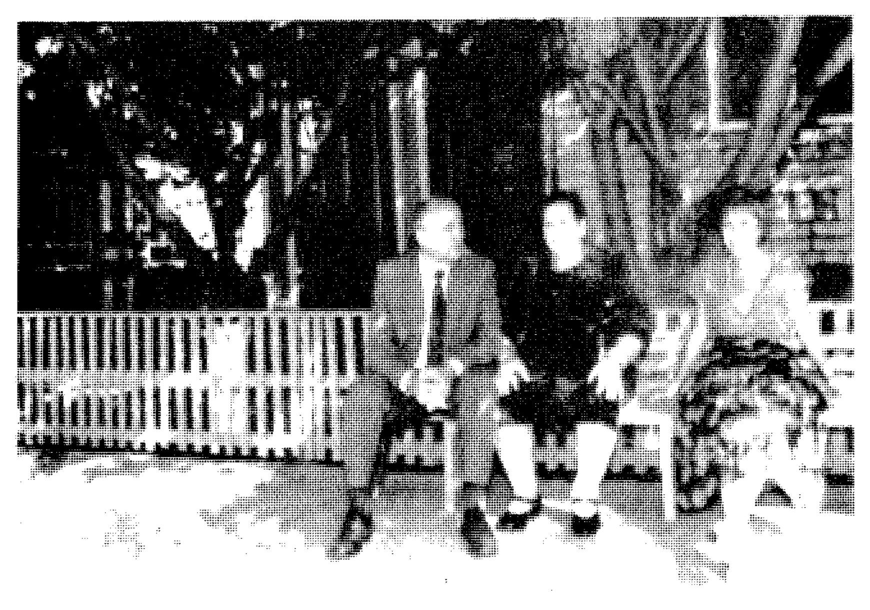
بقيت بريفولنوي قرية عادية كسواها من القرى في هذه المنطقة. بعض شوارعها فقط مبلطة او مفروشة بالاسفلت، وبيوتها ذات طابق واحد. وفي أفنيتها الصغيرة المحاطة بالأسوار، يربّي المزارعون (الكولخوزيون) بعض الحيوانات والدجاج والبط. ويقيم ثلاثة آلاف ومائتا نسمة في بيوتها القروية التي تناهز الألف. في وسط القرية، يرتفع البناء الحكومي، بطبقة واحدة، وبيت الثقافة، وهو أكبر منه، ويضم النادي الذي يتولى عرض الأشرطة السينمائية واقامة السهرات المنوعة والاجتماعات المختلفة. اما المرآب المعدّ لاصلاح المحركات والجرارات، فيأوي الآلات الزراعية ــ التي هي بحالة جيدة نسبياً ــ.

تتيح الأرض الخصبة تحقيق محاصيل جيدة للتعاونية الزراعية ـــ على الرغم من ان رعاة القطعان ـــ قرب النهر الصغير حيث كان يستحم غورباتشيف في السابق مع سائر اولاد القرية ـــ يذكّرون بالعالم ما قبل الصناعي. القرية على مسافة بضعة كيلومترات من الطريق المتجه الى الجنوب. الشوارع حيث بنى الفلاحون بيوتهم على جوانبها، غير مرصوفة بالبلاط، وبعد آخر منزل فيها، تمسي هذه الشوارع طرقات ريفية. السيارات نادرة والجرارات متوافرة بعدد أكبر. في عطلة نهاية الأسبوع، تنقل الشاحنة النساء الى مركز القضاء للتسويق. وفي طرف القرية، يقوم مدفن صغير بين أشجار السندر وجار الماء، وبجانبه مقاعد خشبية يتكئ عليها الفلاحون الذي يأتون لمؤانسة موتاهم خلال تناولهم الطعام، بمناسبة الأعياد. على سطوح العديد من البيوت الصغيرة في القرية، يرتفع هوائي التلفزيون. ويعاد طلي هذه البيوت القروية بالأبيض والأزرق، كل سنة، في عيد الفصح، وفقاً لتقليد كان سائداً قبل الثورة. الحدائق الصغيرة لا ينقصها السحر والجمال، وهي مليئة بالأزهار. وقد اشتهرت والدة غورباتشيف ببراعتها في الاهتمام بحديقتها. وهي ما تزال تقيم في المنزل الصغير الذي بناه زوجها ويطلق القرويون عليها لقب « ام مانيا ». اعتباراً من ربيع عام ١٩٩٠، يتولى رجل الأمن الجالس في الفناء ابعاد الفضوليين واولئك الذين يأتون لالتماس طلب او تقديم عريضة. لكن أبناء القرية ينظرون اليها باعجاب وتقدير لكونها لم تغيّر طريقة حياتها منذ وصول ولدها الى رئاسة الحزب والدولة، وما تزال تقيم في منزلها القديم وأثاثه العتيق، وتعيش من راتبها التقاعدي الذي يبلغ ستة وثلاثين روبل، ومن تربية الدجاج والأرانب.

مركز القضاء على مسافة عشرين كيلومتراً من القرية، ومدينة ستافروبول على بعدماية وسبعين كيلومتراً. قرية بريفولنوي لا تختلف عن القرى الأخرى الواقعة شمالي ستافروبول. لكن ما يثير دهشة كافة الزائرين القادمين من شمالي روسيا ان هذه القرى ببيوتها المهجورة والمهدمة، تلقى عناية أفضل



ماريا بانتلييفنا، والدة غورباتشيف.



غورباتشيف بصحبة رايسا ووالدته، في بريفولنوي، سنة ١٩٨٩،

مما تلقاه معظم القرى في شمالي روسيا ووسطها. فمنطقة ستافروبول تصلح بامتياز لزراعة الحنطة، وفلاحو جنوبي روسيا هم من طينة فريدة. على الرغم من ان بريفولنوي لم تكن يوماً مستعمرة قوزاقية فان تقاليد القوزاق واعرافهم وعاداتهم قد طبعتها بطابعها . وجدّ غورباتشيف لأمه يتحدر من أسرة قوزاقية.

كان القوزاقيون قد احتلوا هذه البلاد لصالح الامبراطورية الروسية. وفي القرن الثامن عشر، في ظل حكم القيصرة كاترين، استوطنوا في الجنوب وانشأوا مراكز عسكرية سكنوا حولها. ثم طردوا السكان الأصليين الى هضاب القوقاز وجبالها، لكنهم اختلطوا أيضاً مع الشيتشينيين والكابارد والكاراتشاي. وقد أسهم اليونانيون ثم الأوكرانيون والروس في تشكيل ملامح جنوب روسيا. ويقال ان سكان هذه المناطق يتميزون على وجه الخصوص بحدة الطباع والحيوية والقدرة على تدبير أمورهم. لم يعانِ أبناء هذه المنطقة من الرق القديم. انهم من أكثر الفلاحين الذين استوطنوا هذه المنطقة حباً بالمغامرة والاستقلال وتعطشاً للحرية، حتى ان اسم مسقط رأس غورباتشيف يوحي بهذه الارادة في الاستقلال، اذ تعني « بريفولنوي » « المساحة الواسعة » التي شكلت فيما مضى سهوباً رحبة، حين استوطنها الفلاحون الاوائل. هذه « المساحة » هي مرادف للحرية إذ لجأ بعض الفلاحين اليها هرباً من أسيادهم، فيما قدم آخرون من مستعمرات القوزاق. فالسهوب الرحبة وعشق الحرية هما السمتان البارزتان لتقاليد القوزاقيين وتاريخهم في هذا الجزء من روسيا.

كان القوزاقيون جنوداً وفلاحين يقيمون، بناءً لأوامر القياصرة، على حدود الامبراطورية التي وسعوها أكثر فأكثر باتجاه الجنوب والشرق. لم يخالجهم أي شعور بالتبعية للقيصر، بل بكونهم مستقلين واحراراً. ففي مستعمرتهم لم يكونوا خاضعين لسيد أو موظف، بل كانوا ينعمون باستقلالهم. في القرى التي لا يتجاوز عدد منازلها الثلاثين، كانت السلطة التقريرية منوطة بمجموع القرية. في الجاليات الأكثر عدداً، كان يجري انتخاب ممثل واحد

في مجلس القوزاق، لكل مجموعة من عشر عائلات. في معظم الأحيان، كانت الحقول والمراعي ملكية جماعية ـــ وبقي الأمر كذلك الى حين صدور مرسوم من القياصرة يكافئ بموجبه في مناطق عديدة الضباط القوزاقيين، بمنحهم الأراضي ملكاً لهم. غير ان القوزاقيين كانوا الوحيدين، في روسيا الكبرى، الذين يستطيعون اختيار رؤسائهم بأنفسهم، من صفوف الضباط الأدنى رتبة من الـ « هتمان »، رئيسهم الأعلى، وكانوا الوحيدين الذين يستطيعون خلعهم. في القرون الأخيرة لحكم القياصرة، كانت أفواج القوزاقيين بمثابة دعائم الحكم المطلق، اذ كانوا يقومون بتفريق المتظاهرين بالسوط ويظهرون بمظهر الخشونة والغطرسة، لأنهم كانوا يعتبرون، عملياً، جميع الآخرين كعبيد عليهم الخضوع والاذعان. كان القوزاقيون يرون ان حب الحرية والاستقلال أهم من كل شيء، ولا جدوى من البحث، في سائر انحاء روسيا عن معنى أكثر دقة للمساواة في الحقوق والدمقراطية. خلال الحرب الأهلية التي اعقبت الثورة، قاتل القوزاقيون من الطرفين مثلاً ـــ من أجل استقلال اوكرانيا منفصلة عن روسيا، ومن أجل الثورة ـــ في صفوف فرسان « بوديني » الحمر الذين كانت تحيط بهم هالة من الأساطير.

كان جد غورباتشيف، بانتلي افيموفيتش غوبكالو، يتحدر، اذن، من القوزاقيين. ويبدو، على ما يروى عنه، انه ورث عنهم حرية الفكر والحزم والحس بالمسؤولية. ويعتقد بعض اصدقاء غورباتشيف ان موقفه من الحياة نابع من تأثير التقاليد القوزاقية ـــ الفلاحية فيه. ويخبر القرويون ان بانتلي غوبكالو كان من أوائل الذين عملوا بعد الثورة على تنظيم الفلاحين في تعاونية، وأنشأ في القرية ما يعرف باسم « توز » وهي عبارة عن تعاونية تتيح للفلاحين التصرف الحر بأرضهم، غير أنهم يستطيعون معاً، من خلالها، تحسين طرق الزراعة والانتاج. كان بانتلي غوبكالو شخصية مرموقة في القرية، وكان فلاحاً ميسوراً، وتشيّع للحركة الثقافية التي أقامها فلاحون فقراء في معظم القرى. خلافاً للكولخوز التي فرضها ستالين على الفلاحين

فيما بعد، كانت « التوز » تعاونية متطوّعين، هدفها تحسين ظروف معيشتهم وعملهم. وعندما أقدم ستالين على تأميم الزراعة، ادرك بانتلي غوبكالو، كسواه من الفلاحين الواعين، انه لن يكون بمقدوره مواجهة هذا التطور. كان عضواً في الحزب الشيوعي وتولى تنظيم الكولخوز التي أصبح رئيساً لها. ويروي المعمّرون في القرية ان بريفولنوي مدينة له لكونها تخطت في مطلع الثلاثينات، مرحلة المجاعة واضطهاد الفلاحين، بشكل أفضل من معظم المجموعات الفلاحية في روسيا.

يتذكرون أيضاً، ان هذه المرحلة كانت قاسية جداً على بريفولنوي وسواها من القرى. ويروي الخبير الزراعي السابق في الكولخوز، نيقولاي ليوبينكو ما يلي : « اذكر جيداً مرحلة التأميم وما زلت حريصاً على عدم نسيانها. عام ١٩٢٩، وكنت ما أزال صغير السن، عملت اسرتي ما كان ضرورياً لتسجيلنا في الكولخوز. اتحدر من اسرة كبيرة وتخلينا عن كل ما نملكه للكولخوز. بادئ ذي بدء، اتوا الينا وأخذوا حتى الدجاجات من القن. ولم نستطع استعادتها الا بعد شهرين الى ثلاثة. خلال سنتين اصبحت القرية مؤممة تماماً. كانت اسرتنا تعدّ في حينه ثمانية اعضاء، وكنا ستة اشقاء. نفي أبي طيلة عشر سنوات وصودرت املاكه، وهدم بيتنا وصار قاعاً صفصفاً. واضطررنا، خلال سنة واحدة، الى الانتقال ست مرات من منزلنا. عام ١٩٣٣، توفي اثنان من اشقائي، ودفنت جثتهما في الحقول. كنت أخشى، أبان الحراثة، ان ينبش المحراث رفاتهما. تعرض شقيقي البكر للاضطهادات السياسية ومات. كانت أياماً صعبة للغاية. عام ١٩٣٢، وقعت المجاعة الكبرى. وتم الاستيلاء على كل ما يملكه الفلاحون. في القرى، كل بيت له ميته الذي قضى من الجوع. اعتقد ان بانتلي غوبكالو قد انقذ بريفولنوي لأنه كان ذا شخصية قوية. كان الجوع أقل ضراوة في قريتنا منه في أماكن أخرى. كنا نخشى اعتقاله خلال حملات التطهير في الثلاثينات. وقد سررنا لبقائه بيننا ».

ولد ميخائيل غورباتاشيف في الثاني من آذار (مارس) ١٩٣١. كانت والدته تعمل في الحقول. اشتغل والده « ميكانيكياً » وبقي في هذه المهنة اربعين عاماً تقريباً، اي انه كان يقود الحاصدة والجرار وكان مسؤولاً عن اصلاح الآلات الزراعية وصيانتها. كانت الأم، ماريا بانتيليفنا، امرأة حازمة في الأسرة، بحسب ما يروي جيرانها في ذلك الحين. « كانت تعرف كيف تفرض نفسها وتجاهر بذلك ». أما الأب سيرغي فكان رجلاً هادئاً ونشيطاً ويحترمه أبناء القرية. يقول عنه الخبير الزراعي ليو بينكو انه لم يكن ذا ثقافة عالية، غير انه اكتسب خبرة واسعة بصفته مسؤولاً عن المرآب. كنا، نحن الشباب، نستشيره بشأن هذه المسألة أو تلك. كان لهذا الرجل الذي توفي — للأسف — باكراً، تأثير شديد علي، من جراء الهدوء الذي لم يفارقه أبداً. وبقي دائماً متمالكاً نفسه ولسانه. ففي القرية، ينبغي توقع كل شيء عندما يقع عطل ما. غير ان احداً لم يسمعه يوماً يشتم ». وقد أكد هذه الرواية عنه أحد الشبان من الجوار وهو فلاح يدعى ايفان ماليكو وقد عمل في حداثته الى جانب سائق الجرار والميكانيكي سيرغي غورباتشيف : « لم يصدف له يوماً ان أهان كائناً من كان. مهما طلبت منه، كان دائماً على استعداد لمساعدتك. ولا يهمه اذا كنتَ أعلى منه مقاماً أو أدنى، فكان يساعد دائماً. كان من غير المألوف والمهم في القرية، في تلك المرحلة، ان يقضي الوقت في تعليم الشبان شيئاً ما، لأنهم نادراً ما كانوا يتلقون أي تدريب أو تنشئة. (وما يزال هذا الشعور سائداً لدى القرويين الى يومنا).

تتوافق هذه الانطباعات مع ذكريات غورباتشيف نفسه. يقول : « رفاق والدي يكنون له الاعتبار والتقدير لأنه كان رجلاً عاملاً، ورزيناً ومتفهماً. أنا فخور بوالدي » (راجع الملحق).

فيما كان الأهل ينصرفون للعمل، كان ميشا الصغير يقضي الكثير من الوقت في منزل جدّيه لأمه. وسوف يكتب نفسه عام ١٩٨٩، في اللمحة



ميخائيل غورباتشيف في السادسة من عمره، بين جدّه بانتلي ايفيموفيتش رئيس مجلس السوفيات في القرية، وجدّته.

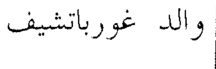






فلاحون من قرية بريفولنوي، قبل بدء موسم الزرع في اذار (مارس) سنة ١٩٣٢.



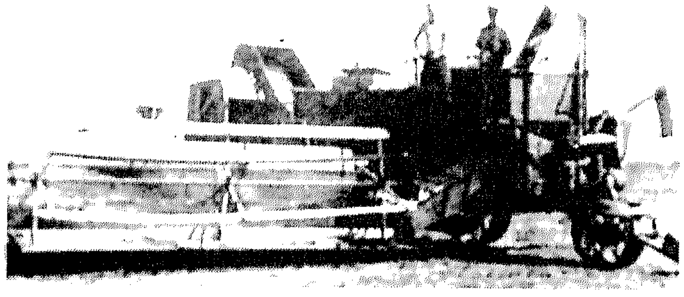

والد غورباتشيف



الضريح الذي شيده غورباتشيف لوالده في بريفولنوي.



كان لغورباتشيف سرير يرقد عليه في هذا البيت حين كان يتابع دروسه الثانوية في كراسنوفارديسك.



غورباتشيف ووالده فوق الحاصدة ـــ الدارسة.

الوحيدة ذات الطابع الشخصي والمعروفة الى يومنا عن سيرته الذاتية. ان جو العائلة القروية ونمط عيشها، والعمل الذي كان يتقاسمه مع الكبار، منذ نعومة أظفاره، قد أثّر، من دون منازع، في تطور طباعه وفي نظرته الى الحياة. كان لا يزال صغيراً جداً كي يستطيع الحكم على التأميم الاجباري والسنوات القاسية التي أعقبته. غير ان التجارب التي عاشها أهله واجداده قد أثرت فيه وطبعته بطابعها، حتى ولم يكن قد بلغ — في مرحلة عمليات التطهير السياسي الكبرى — السادسة او السابعة من عمره. خلال تلك السنوات، وفي منطقة كراسنو فاردسك الحالية وفي منطقة بتروفسك المجاورة، جرى ترحيل ٦٠ الى ٨٠٪ من مسؤولي الحزب والادارة او اعدامهم وجلّهم من كبار الموظفين والمناضلين في صفوف اتحاد الشبيبة الشيوعية ومن الناس العاديين. وأعقب سحق الفلاحين اضطهاد خصوم السياسة الستالينية المزعومين وادت هذه التصفية الى القضاء على الرجال الأكثر نشاطاً في صفوف النخبة في البلاد.

يروي أحدهم، وكان في الخمسينات رئيس غورباتشيف في ستافروبول، ومن أوائل الذين دافعوا عنه، ويدعى نيقولاي دورولين، فيقول عن تلك الحقبة : « كان والدي حداد القرية، وكان قد تابع دراسته لمدة سنتين فقط. جرى اعتقاله وتعذيبه خمس سنوات لاتهامه بالقيام بنشاط لا أساس له من الصحة ضد الثورة. كل ليلة، كان يجري توقيف من عشرة الى عشرين شخصاً. كان عدد الموظفين لا يكفي للبوليس السري كي يعتقل العدد الذي يفرض عليه اعتقاله. كذلك كان يهاجم أيضاً بعض الفلاحين الذين يكادون لا يعرفون القراءة والكتابة ».

يروي بعض اصدقاء غوباتشيف ممن عرفه خلال نضاله لاحقاً في الحزب في ستافروبول، مثل ليليا كولوديتشوك، الذي كان في حينه موظفاً شيوعياً شاباً، انه تحدث بالأمر مع غورباتشيف في السنوات التي تلت وفاة ستالين : « لقد كبر في السنتين ١٩٣٧ و ١٩٣٨. وعلى الرغم من صغر سنه، كان

يرى ما كان يصيب الناس حوله، وهم أناس عاديون وشرفاء، من الذين صنعوا الثورة وناضلوا في الحرب الأهلية وأسسوا التعاونيات الزراعية (الكولخوز). كانوا جميعاً ضحاياً بريئة. بالطبع لم يقبل بما كان يرى ».

غير انه يمكن التساؤل فيما اذا كان، حين وصل الى موسكو لمتابعة دراسته، قد استوعب حقاً ما جرى في مرحلة التأميم وحملات التطهير السياسي. حتى السنوات الأخيرة الماضية، كان معظم مواطني الاتحاد السوفياتي يجهلون مدى الاضطهادات والاعتقالات والاعدامات أو يعجزون عن تصوّرها. في الخمسينات، بعد وفاة ستالين، كان خروتشيف أول من انتهك المحرمات التي أحاطت بتلك الجرائم. في الستينات، اطلع المفكرون السوفيات على المزيد منها، من خلال النصوص السرية والمنشورات الغربية التي تسربت خلسة الى البلاد. الا انه في مرحلة الغلاسنوست، صدرت بعض المقالات المبنية على معلومات بالأرقام عن تلك السنوات الثلاثين الرهيبة. حتى اليوم، ما تزال تلك المأساة السوفياتية غير واضحة تماماً وغير معروفة بكاملها. ما جرى خلال فترة التأميم بقي طويلاً طي الكتمان كأحد أسرار الدولة في الاتحاد السوفياتي. وكبت العديد من الناس ما كانوا يعرفونه، فيما لم يقدر القسم الأكبر من وسائل الاعلام في الغرب نتائج التأميم وضخامة المجاعة حق قدرها، لأن الصحافيين لم يرغبوا بكل بساطة تصديقها.

بالطبع سرت شائعات في موسكو وفي المدن السوفياتية، غير انها كانت تدور همساً، ومعظم المواطنين السوفيات كانوا في غاية الخوف من الاستماع اليها، وكان من الأجدى من الوجهة الأمنية عدم تصديق ما ينقله الشهود عن تلك الأحداث التي لا مثيل لها. كان ميخائيل غورباتشيف ما يزال طفلاً عندما جرى تأميم قريته، وكان صبياً صغيراً حين عمّت موجة الاعتقالات البلاد بحجة التطهير. ولا بد انه شعر بجو الاضطهاد والظلم والوجوم في البيت. وربما لاحظ ان اقرباءه وجيرانه كانوا يعيشون حياة مزدوجة : استحسان وحماس في الظاهر وخوف في الواقع. وربما أيضاً تصرف أهله وجدّاه

كمعظم العائلات السوفياتية التي كانت تفضل عدم تحميل ابنائها عبء تلك التهديدات والمظالم، باعتبار ان اطلاعهم عليها يثير في نفوسهم الرعب ويشكل خطراً عليهم. وعندما بلغ سن الادراك، كانت الحرب قد وضعت أوزارها. وبرزت تجربة مؤلمة جديدة ادت الى طي ذكرى ما سبق. ومن السهل جداً للبشر ان يطووا صفحة الماضي ويتعلقوا بشعارات الحزب التفاؤلية التي تدعو للبناء والاعمار. فروسيا والاتحاد السوفياتي صمدا في وجه المعارك والآلام ويتطلعان الآن الى المستقبل المشرّع الأفق أمامهما. فضلاً عن ان الحديث عن الماضي يعدّ ضرباً من الانتحار، لأنه يشكل مجازفة بحياة العائلة وحريتها.

عندما شرع نيكيتاخروتشيف بتصفية حساباته مع الدكتاتور الراحل، قال عنه : ليس الفلاحون، بنظر ستالين، سوى قمامة ». لكن الفلاحين لم يصبحوا، تحت حكم ستالين وحده، كائنات شبه مجهولة وحتى مشبوهة، بنظر الماركسيين الروس. اذ ان بليخانوف نفسه، وهو في طليعة الماركسيين واكثرهم حذراً، كان يرى فيهم « عمال الأرض البرابرة، ومتوحشين ويفتقرون للطف والأناقة، ويشبهون الدواب ولا يكبدون أنفسهم عناء التفكير ». أما لينين فيستعيد قول ماركس مضيفاً اليه معنى آخر يتصل ببلاهة الحياة في الريف، حين يتحدث عن العزلة وتخلف الريف. فيما بعد، تكررت عبارة لينين على الأفواه دون كلل، ومؤداها ان المؤسسة الانتاجية الصغيرة تقود، يوماً بعد يوم، وساعة بعد ساعة، الى الرأسمالية. ذلك ان الاشتراكيين والبولشفيك كانوا يشكلون في الأصل أحزاب المدن التي تعج بالمفكرين والعمال. وكانت القرى، قبل الثورة، لا تضم سوى نصف دزينة من خلايا الحزب ولم ينخرط في الحزب الشيوعي من الفلاحين أكثر من خمسماية عضو.

بعد الثورة، تشيع بعض القرويين للشيوعيين الذين اخذوا يدعون لنقل ملكية الأراضي للفلاحين. غير ان الفلاحين كانوا ينظرون، على الأخص،

الى أراضي كبار الملاكين، وليس الى أراضي اغنياء الفلاحين، اذ كان ينقصهم، على حد قول الشيوعيين، وعي ضرورة صراع الطبقات. وقد أوضح ج.م. سيردلوف الذي كان ينظم منذ اندلاع الثورة، العلاقات بين القيادة الثورية والشيوعيين في المناطق، في حديثه أمام اللجنة التنفيذية المركزية، عام ١٩١٨ ما يلي : « علينا الاهتمام بكل جدّية بمشكلة احتمال فرز القرى الى طبقات، وامكانية خلق معسكرين متخاصمين، وعلينا تنظيم الطبقات الاجتماعية الأكثر فقراً بين السكان، ضد الغولاك. ولن نحقق في القرى ما انجزناه في المدن الا بشرط قسمة القرية الى فئتين واثارة الصراع الطبقي كما في المدن ». كان الغولاك يشكلون الفئة الأكثر ثراء بين الفلاحين، والتي حققت نجاحاً باهراً ونالت احترام الجميع، ولكنها تعرّضت، خلال السنوات العشر التي أعقبت الثورة، لحملات « تطهير » وصولاً الى عملية التأميم، عام ١٩٣٠، التي جرفت من استطاعت جرفه في القرية.

في السنوات الأولى التي تلت الثورة، وفي ظل « شيوعية الحرب »، صادر البولشفيك الحبوب في الريف. كان من الواجب تموين المدن والحفاظ على الطاقة الثورية الممثلة بالعمال. أما الفلاحون الذين كانوا يرغبون ببيع محاصيلهم من الحبوب فقد ظهروا بمظهر المضاربين الرأسماليين الذين يحاولون اخفاء تلك المحاصيل.

أودت الثورات الفلاحية خلال الحرب الأهلية بحياة عشرات الألوف من الضحايا. وقد أدرك لينين كم كان الصراع الناجم عن سياسة المصادرة مع الفلاحين، مؤذياً وخطراً. لذا فرضت السياسة الاقتصادية الجديدة على القرى تسليم حصص محددة، على طريقة فرض الضرائب، ولاقت نجاحاً باهراً، اذ في خلال فترة قصيرة نسبياً، تراجعت المجاعة، وازداد الانتاج واستعادت القرى هدوءها.

غير ان تلك السياسة تبدلت مرة أخرى، عندما وطّد ستالين والحزب سلطتهما على البلاد. فطلب من القرى ان تساعد على اقامة صناعة ضخمة

وعلى تمويلها من خلال عملها. وادّت السياسة الستالينية القائمة على الاستغلال الوحشي للفلاحين، الى نشوء أزمة جديدة، عام ١٩٢٩، على صعيد التموين بالحبوب. لم تكن الأزمة قد اتخذت احجاماً مأساوية، غير انها شكلت الذريعة والمسوّغ لستالين لهجومه الشامل ضد الفلاحين.

بدت التدابير الاستثنائية المتخذة لمصادرة المحاصيل بالقوة باهظة الثمن وحتى خطرة، وكانت تقضي بوضع المحاصيل تحت رقابة الحزب المباشرة. ومنذ البدء، انكر الحزب، بسبب حذر ايديولوجي، الحفاظ في اطار الاقتصاد الزراعي على طبقة فلاحية مستقلة وعلى عناصر تعمل لاقتصاد السوق. وجاءت عمليات تأميم الزراعة وتجميع الفلاحين في أراضٍ زراعية عرفت « بالكولخوزات »، تحت رقابة الموظفين، منطقية ومعقولة بنظر معظم الزعماء الشيوعيين. واستؤنف الصراع على أشده ضد جماعة الغولاك في الوقت الذي ما كان يمكن إطلاق مثل هذه التسمية عليهم قبل الثورة، قد أخذ عددهم بالانخفاض من جراء الحملات السابقة، ولم يعد لهم شأن كبير في اقتصاد الريف. تدفق عشرات الآلاف من الموظفين من المدن الى القرى. وتحمس العديد من بينهم لفكرة توفير المؤن للثورة والمساهمة في بناء الشيوعية، من خلال الاستيلاء على الحبوب المخزونة في الاهراءات وتنظيم القرى على أسس جديدة. من بين هؤلاء نجد بالطبع الموظفين والمتطرفين المتزمتين، وقد استطاعوا تسويغ التدابير الاستبدادية والمجاعة والبؤس، بالوعد بمستقبل مشرق. والى جانبهم كان الآخرون ومنهم فاسيلي غروسمان الذي كتب ما يلي : « كان الأكثر خبثاً وضرراً من كل هؤلاء، اولئك الذين عملوا على تصفية حساباتهم الخاصة. فقد كانوا يجاهرون بالوعي السياسي، فيما كانوا في الخفاء يعملون بدافع الحسد. كانوا بدافع الأنانية البحتة يسرقون ثياباً من هنا وأحذية من هناك ».

وصلوا جميعاً الى القرى تحت حراسة السلاح ورجال الشرطة السرية الذين يرتدون القمصان الجلدية ويحملون المسدسات من ماركة ماوزر.

وعندما عادوا أدراجهم، كان قد تم انشاء ٢٤٠,٠٠٠ مزرعة جماعية في تلك القرى. وجرى اعدام الملايين من الفلاحين او طردهم من قراهم. نقلوا الى سيبيريا في القطارات المعدة للبهائم، بمعدل اربعين الى ستين شخصاً في كل حافلة. مات العديد منهم خلال الرحلة. لم يتوافر أي شيء لايوائهم في منطقة الاورال وأقاصي سيبيريا. وجرى دفعهم الى المناطق الجليدية حيث تكبدوا المشقات في حفر حجر يأوون اليها. بالقرب من كراسنوياراسك، احتجز اربعة آلاف فلاح بين الأسلاك الشائكة، فمات نصفهم خلال مدة شهرين. ويروي فولغانغ ليونهارد ما شهده من ظروف الحياة التي فرضت عليهم في كازاخستان بالقول : غرزت عدة اوتاد في أرض جرداء وعليها الاعلانات التالية : « مستوطنة رقم ٥ » أو « مستوطنة رقم ٦ ». كان الفلاحون ينقلون اليها وعليهم تدبر شؤونهم في سبيل البقاء على قيد الحياة. كانوا يختبئون في حفر في الأرض، ومات الكثير منهم، في السنوات الأولى، من شدة البرد والجوع. تحدث فاسيلي غروسمان عن مرسوم ستالين بقوله : « كان يقضي بتجويع فلاحي اوكرانيا و « دون » و « كوبان » حتى الموت وبقتلهم مع صغار اولادهم ».

اهتم رجال الشرطة السرية والمتطرفون حتى باقفال المنافذ في تلك المناطق ومنع الفلاحين من مغادرتها. وقد وصف المناضل الثوري السابق فيكتور سيرج الوضع في مذكراته كما يلي: كانت جموع من الرجال والنساء والأطفال لا يعرفون أي قطار ينتظرون. كانوا يطردون فيعودون من دون مال ولا تذاكر، ويتسلقون اول قطار يأتي ويبقون فيه حتى انزالهم منه. انهم واجمون ومستسلمون. الى اين يرغبون بالذهاب ؟ الى أي مكان بحثاً عن الخبز والبطاطا، او عن عمل في المصانع حيث يتلقى العمال غذاءً جيداً.

خلال هذه السنوات، مات ما يناهز الخمسة ملايين نسمة في اوكرانيا. وكان الجوع قد استشرى على حد سواء في مناطق دون وكوبان وفي منطقة مسقط رأس غورباتشيف. وهي مناطق روسية اظهر فيها الفلاحون

نزعة حادة للاستقلال وكان اقتصادها الأكثر ازدهاراً. خلافاً لمناطق الشمال، حيث الظلم الناجم عن القنانة، قد اضعف روح المبادرة لدى الفلاحين، فان روح الاستقلال والسيادة في مناطق جنوبي روسيا، كانت المكوّنة للذات عندهم. لذلك قد تكون حملة ستالين استهدفتهم على وجه الخصوص. وصف احد الرحالة الانكليز، تلك المنطقة، عام ١٩٣٣ بأنها مثل معسكر في الصحراء : لا عمل، لا حبوب، لا بهائم، لا حيوانات، لا شيء سوى فلاحين وعمال في أرض شبه مدمّرة. لقد تم تحطيم روح التضامن القائمة بين القوزاقيين، بالموت والنفي. لدينا معطيات حول بعض الجاليات القوزاقية : لابينسكايا لم تعد تضم بعد اعمال النفي سوى ٢٤٠٠٠ شخصاً، منهم ١٤٠٠٠ قضوا جوعاً. في ستاروكورسونسكايا بقي على قيد الحياة الف شخص فقط من اصل ١٤٠٠٠ من المقيمين فيها. العديد من القرى كانت مهجورة اذ هرب سكانها الى السهوب حيث كانوا يقتاتون من جذور الأعشاب وصيد فأر الجبل (المرموط).

امتد الجوع أيضاً الى مدن جنوبي روسيا وشمالي القوقاز. وفي ستافروبول، حيث سيصبح غورباتشيف، بعد ثلاثين سنة، رئيساً للحزب، مات ١٥٠٠٠ شخصاً من الجوع، أي ما يعادل ثلث سكانها.

في قرية بريفولنوي، كان جد غورباتشيف، بانتلي غوبكالو، يشغل منصب رئيس الكولخوز، من المؤكد انه كان منذ البدء احد منشئيها — يزعم بعض سكان القرية، من دون توفر أية امكانية للتثبت من صحة ما يزعمون، ان جدّي غورباتشيف قد قاتلا في سبيل اقامة الحكم السوفياتي على جبال القوقاز ابان الثورة والحرب الأهلية. ولا يبدو أيضاً انهم يملكون معطيات دقيقة حول بدايات الحكم السوفياتي في منطقة ستافروبول، وهي بدايات تعود الى فترة تقارب ثلاثة أرباع القرن. ولا يخصص تاريخ الحزب الذي اعيدت كتابته مرات عدة، اكثر من حاشية في أسفل الصفحة، عن تلك الأحداث. من المؤكد انه في ظل « حكومة ستافروبول »، جرى اعلان

« جمهورية ستافروبول السوفياتية »، بعد شهرين من ثورة اوكتوبر. غير ان لا شأن للبولشفيك، في كل حال، بهذه المسألة، فهي تتعلق بالاشتراكيين ــ الثوريين اعضاء حزب يمتلك انصاراً في صفوف الفلاحين أكثر من الشيوعيين. بعد أسبوع من تولي الاشتراكيين ــ الثوريين السلطة في الجمهورية السوفياتية الصغيرة، حاول البولشفيك انتزاعها منهم، غير ان اجهزة الاستخبارات اعتقلتهم ثم أفرجت عنهم، وفي مطلع تموز (يوليو) عام ١٩١٨، انضمت جمهورية ستافروبول السوفياتية الى جمهورية شمالي القوقاز السوفياتية. وبعد بضعة أيام، احتل الحرس الأبيض ستافروبول التي بقيت على هذه الحال طيلة سنتين حتى غزاها الجيش الأحمر.

شهد تاريخ الثورة المحلي وما قبله منعطفات كثيرة، وحتى الذين عاشوا احداثه لم يعودوا قادرين على تكوين فكرة واضحة عنها. فمن هم من جيل غورباتشيف، ولم يكونوا قد ولدوا بعد في السنوات العشر الأولى للثورة، يتذكرون بالمقابل، وبوضوح كلي، نهاية الثلاثينات. ففي تلك الحقبة، كان بانتلي غوبكالو يحظى باحترام كبير، الأمر الذي مكّنه من حماية القرية والكولخوز، كما سبق لنا ذكره، من التدابير التي أصابت القرى الأخرى بشكل أقسى. لا نعرف بالتحديد كيف تصرف بانتلي غوبكالو خلال تلك السنوات. وفقاً للتقاليد القديمة، كانت الأراضي المحيطة بتلك القرى في جنوب روسيا، ملكية مشتركة، وبعد الثورة، حاول الشيوعيون تنشيط تلك التقاليد، كي يوافق القرويون على الأشكال التعاونية لتنظيم الزراعة، او بالأحرى ليقبلوا عليها بحماس. هذا ما قد يكون الدافع لدى بانتلي غوبكالو لتولي منصب رئيس كولخوز بريفولنوي. نجهل ما كانت عليه حالته النفسية خلال سنوات التأميم القسري. يروي رئيس تحرير احدى الصحف الكبرى في موسكو ان غورباتشيف قد قال في مجرى حديث له : « هل تعلم ان جدي قد سجن عام ١٩٣٧ لمدة سنة ونصف السنة، وان عائلتي قد اعتبرت « عدوة الشعب » ؟ » لم يلمح رئيس التحرير هذا في صحيفته الى هذه

المسألة على الاطلاق. ولا يجري الحديث رسمياً عن هذه الأمور في يريفولنوي. يخبر أحد موظفي المحلة الذي يفترض انه اطلع على المحاضر الرسمية ان بانتلي غوبكالو تعرض للسجن مدة خمسة عشر شهراً لرفضه تسليم احدى ابقار الكولخوز الى موظف القضاء. كان لا بد للسجن من أن يترك آثاره، في كل حال، على الفتى غورباتشيف الذي يكن الاعجاب لجدّه.

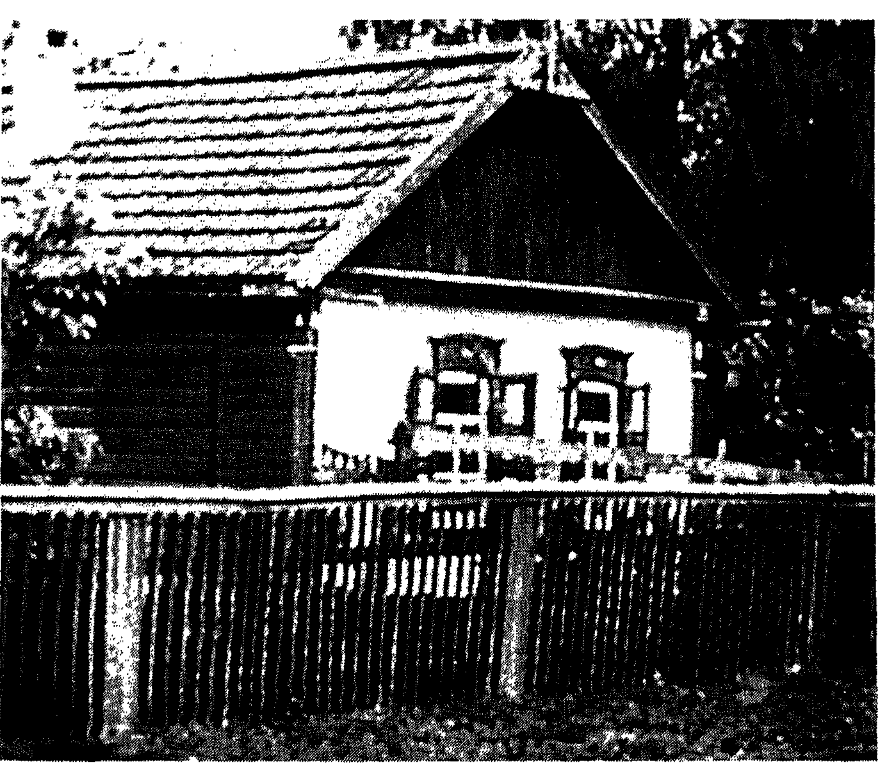
لسنا على اطلاع على مدى وعي غورباتشيف للمأساة التي عاشها الفلاحون السوفيات. ولا نعرف ما اذا كان قد اعتبر يوماً ان التأميم القسري بمثابة خطوة ضرورية على طريق الاشتراكية، وما اذا كان لم يجد في قصص المجاعة والاعتقالات سوى نتائج هامشية لمسيرة سياسية كبرى. لكن، عندما يعتبر اليوم بأن أحد أسباب الأزمة الزراعية ناتج عن « الغاء طبقة الفلاحين » فانه يفكّر بالتأكيد في فظاعة السياسة الستالينية في الحقل الزراعي.

كان جدّ غورباتشيف، رئيس الكولخوز، عضواً في الحزب، غير انه في بيته ــ كما في العديد من البيوت الأخرى في القرية ــ استمرت الحياة طوال هذه السنوات، وبقدر المستطاع، كما كانت عليه حياة الفلاح الروسي، بقي الجدّ يصطحب ميشا الصغير معه الى الكنيسة. في كل حال، خفت حدة الاضطهاد الديني خلال الحرب لأن ستالين كان بحاجة لحشد جميع القوى الحية في روسيا للدفاع عن الاتحاد السوفياتي.

أما امّه، بانتيليفنا، فكانت نجحت في تعميد ميشا الصغير، في فترة كان ارتياد الكنيسة أمراً خطراً. وقد روى غورباتشيف نفسه، ذات يوم، ان بعض الايقونات كانت تخبأ في منزل والديه، تحت صور لينين وستالين. ويقال ان والده لم يكن موافقاً، غير ان والدته كانت تفرض ارادتها يساندها في ذلك أهلها الذين لم يتخلوا عن ايمانهم، على الرغم من ان الوالد كان اصبح حينذاك شيوعياً ورئيساً للكولخوز.

كان المنزل الذي بناه أهله ذا طابق واحد ويشبه البيوت الأخرى في القرية. ويقول جارهم ايفان ماليكو : « كان بيتاً صغيراً، غير ان كل شيء فيه نظيف ومرتب، حتى الفناء الخارجي. كانوا بالطبع فقيري الحال، ولم يكن لديهم ثروة تذكر، كسواهم من أبناء القرية. كانت المؤونة قليلة -ولم يكن يحق لهم، بالطبع، قبض مخصصات محددة ».

كان ميخائيل غورباتشيف في سن العاشرة عندما دخل الجيش الالماني روسيا، محتلاً ومجتاحاً قسماً واسعاً من غربي الاتحاد السوفياتي. انخرط والده في الجيش السوفياتي طيلة اربع سنوات وشارك في معركة كورسك الكبرى. ومنح ميدالية البسالة تقديراً لوحدته التي اجتازت نهر « دنيبر ».



منزل غورباتشيف حيث تقيم فيه امه الى اليوم.

وسقط جريحاً في تشيكوسلوفاكيا ونقل الى المستشفى العسكري في كراكوفيا. وعاد من الحرب جندياً مدرباً وعضواً في الحزب وحاملاً اوسمة عدة.

لكن بريفولنوي لم توفّرها الحرب. فعلى نصب الموتى، يمكننا قراءة اسم غورباتشيف سبع مرات، وهو شائع جداً في القرية. وتجندت والدة غورباتشيف لتحميل القطارات بالبضائع في محطات بعيدة عن المنطقة. ونادراً ما كانت تعود الى البيت مساءً، وكان يتعين على ميشا الصغير الاهتمام بالحيوانات والدواجن. غير انه في تلك الفترة كان يمضي معظم اوقاته في بيت جدّيه. وطوال ما يقارب ستة أشهر، كانت القرية جزءاً من المنطقة الواقعة تحت الاحتلال. لكنها كانت بعيدة عن الطريق الرئيسية، وكان عدد الجنود الالمان فيها ضئيلاً. وعرفت البلدات الأخرى في منطفة ستافروبول الاعتقالات والاعدام. ويبدو انه لم يقع أي شيء من ذلك في بريفولنوي.

لا نعرف الشيء الكثير عن حياة ميشا غورباتشيف في تلك الفترة. كان في الحادية عشرة من عمره. خلال تلك الأشهر، كانت أمه غائبة عن بريفولنوي. وقد يكون للخدمة التي تجندت لها في المنطقة غير المحتلة، وللاوسمة العسكرية التي استحقها زوجها، دورهما في تجنيب العائلة الصعوبات، اذ كل من كان على إتصال مع الالمان — ولو من بعيد — مشبوهاً بنظر ستالين وشرطته. وفي أيام الاحتلال الالماني، كان ميخائيل سوسلوف يشغل منصب أمين سر الحزب في منطقة ستافروبول ويتولى في الوقت عينه تنظيم مقاومة الأنصار. واذا كان سوسلوف قد أصبح فيما بعد عضواً في المكتب السياسي وساعد غورباتشيف على الترقي في هرم الحزب، فهذا يتيح الافتراض بأن غورباتشيف وعائلته لم يتهما بأي شكل من أشكال بالتعاون مع الالمان. وبناء لأوامر ستالين وسوسلوف، جرى ابعاد جميع سكان مقاطعات تقع في جنوبي منطقة ستافروبول، على طول

جبال القوقاز، الى سيبيريا وآسيا بسبب وقوع هذه المقاطعات تحت الاحتلال الالماني.

اذا كان العمال والعاملات الروس الذي يستقلون القطار في المانيا، على نغمات الموسيقى العسكرية السوفياتية، يبتهجون لكونهم اصبحوا احراراً، غير انهم لم يكونوا على علم بانهم لن يعودوا أبداً الى وطنهم، لأن القطارات سوف تحوّل عن خطها الى معسكرات الاعتقال، اذ ان سجناء الحرب الذين بقوا على قيد الحياة في المعسكرات الألمانية، تعرضوا للاعتقال مرة أخرى، فور رجوعهم الى وطنهم. وتمّ اخفاء كل آثار السجناء المتوفين في المعسكرات الالمانية، وحتى اليوم ما تزال عائلاتهم تجهل كل شيء عن مصيرهم. وبعد الحرب بسنوات عديدة، كان يتعين على كل مواطن سوفياتي عاش بعض الوقت في المناطق التي احتلها الالمان، ان يشير الى ذلك في طلبه اذا كان يبحث عن عمل أو يتوجه بالتماس الى الادارة الحكومية. كانت تلك وصمة سوداء في سيرته، من شأنها ان تضع حداً لحياته المهنية في حال الشكوى او الوشاية. حتى اليوم، لا يحب الناس التذكير بأنهم عاشوا في منطقة محتلة، لأن ذلك كلفهم الكثير من المشقات بعد الحرب. كذلك في صيف ١٩٩٠، تجنب غورباتشيف خلال لقائه المستشار الألماني كول، في القوقاز، التعرض لمسألة ظروف الحياة في ظل الاحتلال، حين قال : « تعلمون، الحرب هي الحرب. بالنسبة لشعبنا، كانت حرباً قاسية ورهيبة، واعتقد بأن الشعب الالماني اصيب منها في اعماقه. لقد عاش شعبنا مأساة حقيقية، وكذلك شعوب أخرى مثل الشعب البولوني الذي يجب ألا ننساه أيضاً. كنا نعيش في زمن آخر. كانت الحرب تدور في الأمكنة التي عشت فيها. عاش والدي كل تلك المرحلة، من معركة كورسك، الى اجتياز نهر دنيبر، وجرح، ونقل الينا انه قتل. والعائلات التي فقدت اعز اعضائها كثيرة جداً. كل ذلك، لا يمكننا أن ننساه ».

عندما تحررت بريفولنوي، عادت الحياة شيئاً فشيئاً الى طبيعتها. وفتحت

المدرسة مجدداً أبوابها. غير ان غورباتشيف لم يكن في عداد تلامذتها. تقول والدته : صارت الحياة صعبة، وليس لديه ما يلبسه، خلال هذا الشتاء، واضطر للبقاء في البيت طيلة فصل كامل. روت ماريا بانتيليفنا غورباتشيف الى صحافي يعمل في التلفزيون السوفياتي في مقابلة بث منها مقطع واحد في محطتي التلفزيون الألماني والصيني : كتب لي زوجي من الجبهة طالباً الي العمل ما بوسعي كي يتمكن ميشا من الذهاب الى المدرسة. عندئذٍ اخذت الخراف لأبيعها في سالسك. واشتريت بثمنها ـــ ١٥٠٠ روبل في ذلك الحين ـــ جزمة عسكرية. ثم توجهت للقاء مدير المدرسة الذي كان يدعى جيتالو، فقال لي : « يا ماريا بانتيليفنا، هناك فصل قد انقضى ». لكنني اجبته : يقول ميشا انه سيعوّض كل شيء ».

عاد ميشا، اذاً، الى المدرسة. وكان مجتهداً ونبيهاً، لكنه لا يبدي أي طموح، على حد قول رفاق صفه. كانت هناك أمور أشد مرارة من المدرسة، بالنسبة لقروي صغير، في تلك السنوات التي أعقبت الحرب.

ففي تلك الفترة من اعادة اعمار بلاد هدمتها الحرب، وافتقرت الى الآليات والمواد الغذائية، كان على المرء ان يعمل بكل قواه. فالاعمار يتطلب العمل الدؤوب، والحزب والشرطة السرية يسهران على ذلك : كل من يهمل عمله او لا يستطيع القيام بمهامه، يتعرض لأشد العقوبات والى النفي، حتى ولو لم يكن مسؤولاً عن النتيجة الوخيمة لهذا العمل، أو حتى عن فقدان البذار او عدم وجود قطع غيار لاصلاح آلياته. عام ١٩٤٤، بدأ غورباتشيف، في سن الثالثة عشرة، العمل في الكولخوز؛ واعتباراً من الخامسة عشرة، اشتغل في مرآب الآليات والجرارات، في اصلاح الحاصدات، وكان غالباً يساعد والده في ذلك. عمل بجد وحمية، وأكثر من رفاقه في المدرسة، ربما لأن والده كان يتوقد حماسة ـــ وهو العضو الجديد في الحزب ـــ من خلال ايمانه بالمستقبل ويعرف كيف ينقله الى ولده.

ربما كان سيرغي غورباتشيف يظن أيضاً ان العمل النشيط يعطي نتائج

جيدة قد تعوض الأذى الذي لحق بسيرة ميخائيل الصغير من جراء اقامته خلال تلك الأشهر المعدودة في المنطقة التي احتلها الجيش الالماني.

نجح ميشا غورباتاشيف في مزاولة العمل الزراعي ومتابعة الدراسة معاً. ويتفق جميع رفاق دراسته على الاعتراف بكونه ولداً ذكياً، ذا ذاكرة حادة ويتعلم بسرعة. كان يتقن التحدث بطريقة مقنعة. هذه السهولة في الكلام عادت عليه بالنفع عندما تم قبوله، في سن الرابعة عشرة، في اتحاد الشبيبة الشيوعية، في كومسومول. لم يكن يتمتع بأية ميزة فريدة، كان فتى كسائر الآخرين، على حد ما يؤكده ابناء القرية، لكنهم يتحدثون عنه، في كل حال، كشخص يختلف عن سواه قليلاً، ويلفت النظر اليه بعض الشي.

احدى زميلاته في الصف، ليوبوف ستوليغا، المسؤولة عن مجموعة الشبان الشيوعيين في مدرسة القرية، و « رئيسة » مساعدها غورباتشيف كما يحلو لها ان تردد اليوم، لا تخفي اعجابها وتأثرها عندما تتحدث عن شخصيته الأنوفة بقولها : « في السنوات الأولى بعد الحرب، كان يرتدي سروال فارس، وهي قطعة من بزة عتيقة كانت تلائمه كثيراً. ويلبس أيضاً قميصاً مضلعة، ومموهة اللون ومزينة في اعلاها بشرائط وردية. واذا لم تخني الذاكرة، فانه لم يكن ينتعل جزمة جلدية خشنة بل من الجلد المدبوغ « بالكروم ». لست متأكدة تماماً مما قلته، لكنه كان جميل الطلعة. كان هذا شعوري، في كل حال، وكان أيضاً شعور باقي الفتيات. كما تعلمون، كان يحظى بتقدير الجميع، من الفتيات كما من الفتيان. وكان يدرك تماماً ما يعرفه ويثق بنفسه. ربما أكرر ما قلته، غير انه كان ذكياً وجميلاً. اذكر أيضاً انني رقصت معه عندما كنت شابة. كنت أكبره بسنة واحدة، ولذلك كنت أمينة سر اتحاد الشبيبة الشيوعية وكان مساعدي ويستحق ان يكون أميناً للسر لأنه كان اكثر اطلاعاً مني ويتقن الاجابة عن الاسئلة. كان محط اعجاب العديد من الفتيات. لكن كنا نشعر في قرارة نفوسنا انه قد يبحث عن زوجة في غير مكان وقد لا يبقى في القرية ».



غورباتشيف (الى اليمين) مع بعض رفاق المدرسة في بريفولنوي.



غورباتشيف (الثاني الى اليمين، يعتمر شعراً مستعاراً أسود) بمناسبة عرض مسرحية قدمها التلامذة.

الخبير الزراعي ليو بينكو اكبر سناً من غورباتشيف : « لكنني كنت ارغب بالتحدث مع هذا الشاب. كان واحداً من القلائل في القرية ممن يمتلكون مذياعاً صغيراً وكنت اطلع منه على الأوضاع الدولية، مع انني قاسيت الكثير وجرحت، وعانى والدي الاضطهاد السياسي، ومع ذلك كنا اصدقاء. منذ سنوات عندما قام غورباتشيف بزيارة القرية، وكان جالساً على منصة النادي الثقافي، فعاينني وسط الناس وقال لي : يا نيقولاي ايفانوفيتش، ينبغي عليك ان تجلس هنا، على المنصة، فأنت تستحق اكثر مني مكاناً لك في رئاسة مجلس السوفيات الأعلى ».

من ذكريات معلمته السابقة ننتقي بعض اللمسات التي تلقي الضوء على طباع غورباتشيف في فترة شبابه. تقول ماتيلدا اميليفنا : في الماضي كما اليوم، كانت المدرسة تقتصر على قاعتين. بعد الحرب، في عامي ١٩٤٦ و ١٩٤٧، كنا نفتقر الى كل شيء : الى الكتب والورق. كنا نقوم بتمارين الكتابة على قصاصات الجرائد القديمة. ولم يكن للأولاد الشيء الكثير

لارتدائه. كان غورباتشيف يرتدي سروالاً يعود لوالده وقميصاً خيطت من قميص عسكرية، غير ان مظهره كان على الدوام لائقاً. أما القلنسوة المصنوعة من فرو الحملان الصغيرة، وهي « كوبانكا » القوزاقيين، فكانت تليق به تماماً. كان فتى فضولياً يطرح اسئلة اكثر من سواه. هذا ما اذكره عنه. كان يثابر على العمل، ولا يسعى للتهرب من واجباته، ويرغب بالمزيد من المعرفة. ونال في النهاية ارفع العلامات في كافة المواد، باستثناء اللغة الالمانية. وهذا عائد لعدم توفر تعليم الالمانية في المدرسة قبل وصولي. كان يصغي بانتباه كلي عندما اتحدث عن عظماء الالمان وماركس وانغلز وليبنخث وتلمان. غير ان ما قلته عن رودولف ديزل اثر فيه كثيراً. كان يقوم عمله على اصلاح الجرارات والحاصدات ويتعامل مع محركات ديزل فلاقت هذه الكلمة صدى في نفسه. وطلب اليّ تزويده بأي شيء يقرأه عن هؤلاء الالمان.

كان في الحقيقة ولداً بشوشاً. يهوى الضحك والدعابة بطيبة خاطر. حاول ذات يوم احراجي، لدى وصولي الى المدرسة، وسلمني لائحة طويلة تتضمن كلمات المانية وطلب اليّ ترجمتها. اطلعت على اللائحة وبدت الكلمات كأنها المانية لكن لا معنى لها. فقلت له : « هذه ليست بكلمات المانية »، فابتسم ميشا (هكذا كنا نسميه) واعتذر : « لقد اخترعتها لأرى اذا كنت تتقنين الالمانية او تتظاهرين بمعرفتها ». فسألته : « كيف فعلتَ لاختلاق كلمات تشبه الى هذا الحد كلمات المانية، فقال : « من خلال المعجم ». وهكذا اكتشفت انه يملك معجماً المانياً ــ روسياً تلقاه هدية من والده العائد من الحرب، في وقت كانت القرية تفتقر الى الكتب والورق. الأمر الذي زاد في استغرابي.

هكذا سنحت الفرصة لميشا كي يؤدي لمعلّمة اللغة الالمانية خدمة جلّى. بعض تلامذتها انتقدها ووشى بها. ويبدو الدافع الى ذلك، اليوم، مضحكاً وتافهاً، ولكنه مباشرة بعد الحرب، كان يمكن ان يكون خطيراً. ماتيلدا

انياتينكو درست مع تلامذتها قصيدة مطلعها : لينين كان صديقاً وزعيماً (فوهرر). فاتهمها بعض الفتيان بأنها تقوم بدعاية فاشية وتهين لينين من خلال مقارنته بأدولف هتلر. وكان لمثل هذا الاتهام الأخرق، في ذلك الحين، ان يقود الى السجن. وأمست ماتيلدا انياتينكو مهددة بوجه خاص، اذ كانت تتحدر من اسرة المانية في روسيا. وعام ١٩٣٧، اعتقل والدها ونفي مع بعض جيرانه. وتزوجت رجلاً اوكرانياً، فوفّر اسمه الاوكراني انياتينكو، الحماية لها في مطلع الحرب، في حين ان سواها من الألمان الروس تعرضوا للنفي الى سيبيريا وآسيا الوسطى. « غير ان اسمي ماتيلدا كان يفضحني وهربت مع ولدي من قرية الى أخرى كيلا الفت الأنظار اليّ. مات زوجي في الجبهة، وكان من الصعب عليّ العيش بصفتي الالمانية هذه. وعندما اتهمني الفتيان بالقيام بالدعاية الفاشية وشتم لينين، ساورني الخوف الشديد. ولم أجد وسيلة للدفاع عن نفسي تجاههم. لكن في الغد، وصل ميشا غورباتشيف متأبطاً معجمه وأعلم الجميع ان كلمة فوهرر لا تنطوي على معني فاشي وان القصيدة هي قصيدة شيوعية. لقد اتخذ جانب الدفاع عني وانتهى التلامذة الآخرون الى تصديقه ».

لاحظت ماتيلدا انياتينكو، فيما بعد، ان ميشا، البالغ من العمر خمس عشرة سنة، في حينه، لم يكن خجولاً وكانت له أفكاره. وكان غالباً ما يرتبط بصداقة مع اناس أكبر منه سناً ــ احدهم كان يكبره بسبع سنوات ــ بعد عدة أسابيع من وصول ماتيلدا انياتينكو الى بريفولنوي، قال لهذا الصديق انها امرأة جذابة ومثقفة وتتقن الالمانية وانها مدرّسة جيدة. « حتي ولو كان لها ولد وتكبرك بخمس سنوات فهي امرأة مميزة وعليك ان تتزوجها ». اطلعت ماتيلدا على هذا الحديث بواسطة زوجها، صديق غورباتشيف، الذي طلب يدها بالفعل، حتى ولو لم يكن ذلك، بخسب ما تقول، بناء على نصيحة غورباتشيف وحده. « غير ان ميخائيل غورباتشيف فعل الكثير لأجلي في تلك المرحلة، لدرجة انني لم اعد ارغب بطلب اية مساعدة منه شخصياً

او من عائلته، على الرغم من ان والدته كانت تدعوني احياناً لبيتها وتقول لي : لقد عملتِ الكثير، يا ماتيلدا، الى اولادني، وميشا يحترمك كثيراً ». علماً بأن ماتيلدا تولت تدريس شقيقه الكسندر بعد عشر سنوات من تخرج ميخائيل غورباتشيف من مدرستها.

لا نعرف الكثير عن الكسندر سوى انه، اليوم، ضابط نظامي برتبة عقيد في اركان الجيوش السوفياتية ويقيم بالقرب من موسكو. في الصور التي اخذت له في الستينات حيث يظهر مع غورباتشيف، يبدو جميل الطلعة وشديد الشبه به. ولا يمتلك رفاق غورباتشيف في الدراسة، الكثير من الأخبار عن الكسندر، لأنه يصغر شقيقه بست عشرة سنة.

كانت الدراسة في مدرسة القرية تنتهي في الصف السابع. غير ان سيرغي غورباتشيف كان يرغب في ان يتابع ولده الدراسة حتى ولو عارضه الجميع. وأقرب مدرسة اليه تبعد عشرين كيلومتراً وتقع في مولدتوفسكوي، المعروفة اليوم بكراسنوفارديسك. كانت مسافة عشرين كيلومتراً سيراً على الأقدام، مرتين في اليوم، مسألة شاقة حتى ولو كان الشاب مستعداً لبذل ما يستطيعه في سبيل تحصيل علمه. فاستأجر له والده سريراً في غرفة يشاركه فيها شابان آخران من القرية داخل بيت خشبي صغير ذي طابق واحد، جرى هدمه فيما بعد. رفيقاه في الغرفة يشغلان اليوم منصبين هامين : الأول ضابط برتبة لواء والآخر استاذ جامعي ــ لا بأس بما حققه هؤلاء القرويون الثلاثة ــ بلغ بدل الايجار ماية وخمسين روبلاً في السنة، وهو مبلغ باهظ لأسرة قروية، فضلاً على ان الدراسة اصبحت مجدداً في تلك السنوات غير مجانية في الصفوف الثلاثة الأخيرة. من الواضح ان على ميشا ان يكد ويعمل خارج المدرسة أيضاً. ففي أيام العطلة كان يساعد في العمل الزراعي وخلال العطلة الصيفية كان يشتغل مع والده في اصلاح الحاصدات الزراعية.

الكسندر ياكوفنكو الذي يدانيه في السن بقي في بريفولنوي ويعمل اليوم في اصلاح الآلات الزراعية وسائق جرار، كما كان والد غورباتشيف. اشتغل

مع سيرغي غورباتشيف وساعد اباه في الصيف حين كان ميخائيل يعمل في الزراعة مع والده. كان فريقا العمل المؤلفين من الوالد وابنه يعملان بكدٍ ونشاط ويحصلان على مردود جيد، الأمر الذي اكسبهما التقدير فيما بعد. يقول الكسندر ياكوفنكو : خلال عطلة الصيف، يعود ميشا الى احضان امه وأبيه، خصوصاً أبيه الذي يقود الحاصدة فيساعده. اعتقد انه عمل كثيراً في المدرسة، لكنه، خلال العطلة، لم يهمل العمل الزراعي. لم يستفد من أوقات الراحة اذ كان ينصرف للعمل فور وصوله. كان علينا في الواقع العمل ليل نهار. كنا نبدأ عملنا عند الفجر، حين يجف الندى، اي عندما يصبح دراس الحبوب ممكناً، كنا نبدأ تشغيل الحاصدات ـــ الدارسات حالما نتمكن من ذلك.

في المساء، ننام في ساعة متأخرة، اذ كنا قد اعتدنا دائماً ـــ وهنا يكمن نشاطنا في العمل ـــ تنظيف الحاصدات ـــ الدارسات بعد العمل. ثم نستلقي بعدئذٍ على القش. ولم تكن لدينا بالطبع الأغطية والشراشف. كنا ننام بين القش وارجلنا تمتد الى الخارج. ونغفو على هذا النحو ساعتين او ثلاثة، قبل استئناف العمل. وبديهي القول اننا لا نستحم اذ كيف لنا ان نفعل ذلك من دون مياه ساخنة ؟ كنا نتمدد كما نكون، وسخين ومنهكين من التعب. أما لجهة الغذاء، فان الفقر كان شديداً في تلك الفترة. ففي الفطور الصباحي، نتناول شوربة دقيق الشعير، وعند الظهيرة، شوربة الملفوف وفي المساء فطائر محشوة. كل ذلك كان يشكل بالطبع طعاماً غير دسم على الاطلاق، ولا تدخله اللحوم أبداً. أما اليوم فان الوضع قد تحسّن كثيراً.

« لم تكن حياة ميشا سهلة في تلك الحقبة. لدى عودته من المدرسة، كان ينصرف على الفور الى العمل على الحاصدة ـــ الدارسة. وفي الوقت الذي كان رفاقه يستحمون في النهر صيفاً او يأخذون قسطاً من الراحة، كان ميشا يشتغل حتى أول أيلول أي موعد العودة إلى المدرسة. ولم تكن

لديه عطلة حقيقية او يعرف فترة راحة. كنت ادعوه ميشا، في تلك المرحلة، وكان يدعوني سانيا.

« كلا والدينا يقودان الحاصدات الدارسات. والدي لم يكن رجلاً شريراً، بل كان كسائر الناس في القرية. كنا نعمل بسرعة على اغضابه ولم نكن بحاجة الى الاكثار من الكلام، كي يبدأ باطلاق الشتائم، خصوصاً اذا تناول كأساً من الكحول. لكنه كان يتمالك دائماً نفسه بحضور العم سيرغي.

ان استعمال كلمة « عم » في القرية لا تفترض دائماً وجود صلة قرابة. واليوم أيضاً، تستخدم هذه الكلمة للدلالة على الاحترام. كان آل غورباتشيف وآل ياكوفنكو يعملون معاً على الحاصدات ـــ الدارسات ويجري تشبيه هذه الطريقة في العمل بـ « الثورين المقرونين ».

عملوا معاً بكد ونشاط طيلة اصياف عدة بحيث ذاع صيتهما في المنطقة. وفي عام ١٩٤٨، نشرت صحيفة القضاء ان آل غورباتشيف وياكوفينكو، على استعداد للمشاركة مع اولادهم على الحاصدات الدارسات، في معركة الحصاد. « في تلك السنة، ملأنا الاهراء بواسطة حاصداتنا، ١٩٦٠٠ كنتالاً، وهو رقم جيد » على حد قول الكسندر ياكوفينكو. « وكافأتنا الحكومة بأوسمة علقت على صدور الجميع. والدانا استحقا وسام لينين. أما نحن الشباب، فقد منحنا وسام العلم الأحمر للعمل. منحت لنا تلك الأوسمة في ستافروبول، وحصلنا فجأة على الترخيص بشراء بذلة من أحد محلات ستافروبول. لم تكن لدينا أية فكرة عن القياس الذي يلائمنا. في كل حال، لم يكن ارتداء البذلات مناسباً لنا، اذ كانت مصنوعة من الصوف الخشن. أما اليوم فلا أحد يرغب بها، غير اننا كنا، في ذلك الوقت في غاية الذهول، اذ كنا نعتبر ثيابنا هي الأفضل بين اولاد القرية ».

لم تكن الأوسمة تمنح في ذلك الحين، الى أبناء الريف الا فيما ندر، وبدرجة اقل الى شبان في مثل هذه السن. اذ كان ينبغي التمتع بمؤهلات

استثنائية في العمل اضافة الى مميزات اخرى كتلك التي يتمتع بها والد غورباتشيف، بصفته شيوعياً، في الحياة السياسية اليومية في القرية. ومما لا شك فيه ان الأوسمة التي استحقها الوالد وابنه قد ساعدت غورباتشيف على شق طريقه باتجاه موسكو، فيما بعد.

تابع غورباتشيف دروسه في مدرسة القضاء المجاورة، وكان مجتهداً ومثابراً على الدرس. ويعلم ان والديه يأملان بنجاحه حتى ولو لم يكن طموحاً جداً ــ لا أحد في هذه المدرسة أيضاً يذكر انه كان يرغب بالوصول بأي ثمن ــ فان رغبة والديه حرضته على الكد والاجتهاد. ويتذكر المعلمون زيارات والدته والأسئلة الدقيقة والذكية التي كانت تطرحها حول نتائج ولدها. أما والده الذي كان يأتي غالباً فكان يتوجه أيضاً الى المسؤول عن الصف، على حد ما يتذكر انطونينا تشوبارنوفا، ليسأل عن نتائج التلامذة الآخرين ومن بينهم الفتيات، قبل ان يطلع على علامات ابنه ويعلقّ عليها.

تقول ماريا غرتيشيفا مديرة المدرسة في حينه، وحالياً أمست في سن التقاعد : كان ميخائيل ــ او ميشا كما كان اسمه بالنسبة لنا ــ يشارك دائماً بصورة نشطة في اعمال الصف، ويرد على الأسئلة الصعبة ويعطي الأجوبة المفصلة عنها. لم نكن نتصور بالطبع انه سيصبح يوماً اميناً عاماً ولم يكن مختلفاً بصورة غير مألوفة عن سواه بيد انه يتميز، في كل حال عنهم، بكونه مجتهداً. وتضيف مدرّسة أخرى اصبحت هي أيضاً متقاعدة انه، حقاً ولد نشيط للغاية ويطرح باستمرار الكثير من الاسئلة، ولم يكن يقدم على شيء بمبادرة خاصة منه. كان يتناقش معي ومع تلامذة صفه بغية معرفة اذا كان هذا الأمر او ذاك صالحاً او سيئاً. وحين كانوا يتخاصمون ــ والأولاد يتخاصمون عادة ويشتبكون بالأيدي ــ كان ميشا يمتنع عن الاشتباك مع أحد، الا على مضض منه، حين كان لا يجد سبيلاً لغير ذلك، او كان احدهم يتطاول عليه. واعتقد انه لم يصدف له ان كان البادئ في المشاجرة. في حال نشوب الشجار كان يسعى دائماً لافهام

الطرفين وجوب عدم التصرف على هذا النحو. كان يسعى للقيام بدور الرادع حتى يتفهم الفتيان ما يدعو اليه وعندئذٍ يحلّ السلام بينهم ».

تقول ليديا تشايكو، احدى معلماته : « لا طاقة له على احتمال الكسلى في المدرسة، منذ تلك الفترة ». ويروي سواها انه كان يعيد الدروس لبعض التلامذة الضعفاء في الروسية والرياضيات، ولم يكن يتهرب من المساهمة في اعمال مجموعة تسعى للتعويض عن تقصيرها في الدراسة. يتذكر معلّموه انه كان يحترم، على العموم، الكبار ويطلب نصيحتهم ويصغي بانتباه اليهم. وما زالت مدرّسة التاريخ تتذكر كم كان خدوماً : كانت التدفئة في قاعة الصف تقوم على الحطب، وكان يتعين على المعلمات نشر الحطب وتقطيعه. فكان غورباتشيف يتولى غالباً هذه المهمة بدلاً منهن، من دون طلب من احد او توسّل الشكر بالمقابل.

من جهة أخرى، يؤكد الاساتذة وكذلك الزملاء ان هذا الشاب كان في غاية النشاط والترتيب وفي الوقت عينه محبوباً. كان يشارك بكل شيء بطيبة خاطر. كان يعزف على الأكورديون وعلى « بالالايكا »، ويهوى الغناء ويراقص جميع التلميذات تارة ضمن المجموعة فيما خص الرقصات الشعبية، وطوراً رقصاً ثنائياً. ويروى عنه انه كان مرحاً ويهوى التمثيل. وتعتقد مدرّسته للغة الروسية، جوليا شوشكوفا انها علّمته حبّ الكسندر بوشكين : كان لغورباتشيف ذاكرة قوية، وقد حفظ باكراً عن ظهر قلبه قصائد عدة لبوشكين. وكان يحب ليرمونتوف أيضاً. وفي مسرحية « المقنّعون لليرمونتوف، لعب دور زفيديتش، الذي يقتل، كعطيل، زوجته بسبب الغيرة.

تصوروا هذا القروي الشاب، بثيابه الرثة، ينتقل مسافة عشرين كيلومتراً مرتين في نهاية الأسبوع، سيراً على قدميه، للذهاب الى البيت والعودة منه، وفي الوقت عينه يهوى لعب دور الارستقراطي الروسي ! تلقى غورباتشيف في المدرسة ثقافة سوفياتية عامة وواسعة، على يد معلمات بذلن ما في

وسعهن لنقلها الى الشباب بكل محبة واخلاص. كان يقرأ المؤلفات الكلاسيكية الروسية كما يقرأ الكتب التي تضرب الرقم القياسي في المبيع في حينه، كروايات الحرب واعادة البناء. ولليوم ايضاً، ما يزال يحفظ غيباً قصائد تعلّمها في تلك الفترة ــ وهو أمر مألوف عند المثقفين الروس أكثر منه في أوروبا الغربية.

اكتسب قواعد صحيحة واطلع على مبادئ الأدب والثقافة. وعلى هذه القواعد سوف يشيد بناءه، فيما بعد، بمعاونة زوجته، في موسكو. كان يقرأ كثيراً ولا يكتفي بالكتب المنهجية، بل يسعى لاستكمال معارفه من المكتبة العامة. كان يشارك في المناقشات التي كانت تدور في المدرسة، في تلك الفترة، بشكل « مناظرات سياسية ». كان التلامذة يستعيدون الحجج التي تعلموها في مادة التنشئة السياسية، ويقومون بمناقشتها ونقضها، بطريقة منهجية. وغالباً ما كان يخرج غورباتشيف منتصراً في تلك المناظرات. كان يتقن الحديث ويعرف كيف يقنع سامعيه. غير ان ذلك وحده غير كاف، اذ كان عليه دراسة النصوص الرسمية عن كثب والوقوف عند الخط الذي رسمه لنفسه، وعرض الموضوع بطريقة مقنعة من دون الانحراف عنه. كان يتقن التنقيب، على ما يكمّل معلوماته حول النصوص التي درسها في الصف، سواء على سبيل الطموح او على سبيل الفضول البحت. ما كان يتعلمه بنفسه، كان يحقق له السبق في هذه المدرسة القائمة في المدينة الصغيرة. اذ لم يكن يكتفي بالبرنامج المدرسي وحده. تقول المسؤولة عن صفه، تشوربانوفا : في الصف العاشر، ادهشني غورباتشيف حين قدّم مسابقة في الانشاء عن لينين، وعلى الأصح حول ابحاث لينين المتعلقة بالحركة التعاونية. استطيع القول بأن التطرق لهذا الموضوع لم يكن مطلوباً في عام ١٩٥٠، ولم يكن يخلو من الخطر. ومعالجته غير مقبولة منذ قيام ستالين بتأميم الزراعة. لا يمكن لأحد اليوم ان يقول ان الاهتمام بالنص الذي وضعه لينين حول التعاونيات، له علاقة بموضوع قيام جدّ غورباتشيف بتأسيس تعاونية بريفولنوي ثم استبدالها بالكولخوز.

ما يرويه اصدقاء الحداثة والأساتذة اليوم عن غورباتشيف، جميل لدرجة يتعذر معها تصديقه. ولعلّ فيه حصة كبيرة من التنميق. غير ان ذلك لا يمكنه تفسير غياب اية ملاحظة سلبية. يبدو ان غورباتشيف لم يخاصم أحداً. كان يسعى للبقاء على صلات حسنة مع الجميع، يحرص على المصالحة اكثر من انجرافه الى المشاكسة، يحترم من يكبره سناً ويرفق بمن هو من عمره. في الوقت عينه، كانت له أفكاره، والحسّ بالحق والعدالة، وبعض الاستقلال الفكري الذي يعبّر عنه بطريقة لبقة. انها بعض الملامح التي نجدها اليوم في طباع غورباتشيف انما لا نجد في ذكريات اصدقائه زمن الحداثة، اية اشارة لقلة صبره واحياناً لعدم التسامح الذي ظهر فيما بعد، حين كان الأمين العام غورباتشيف يرفض مراعاة الخطباء خلال المناقشات السياسية.

يقول ابناء قريته اليوم عنه انه انساني جداً. كرجل سياسي، زار والدته في منزلها. وكأمين عام، سعى للتخلي عن مرافقيه عندما جاء لزيارة قريته. يقول احد اصدقائه: « تصوروا رجلاً يعود الى بيته ومرافقوه لا يريدون السماح لاصدقائه بالتحدث اليه. لكنه صرفهم بكل كياسة للتنزه بعيداً ». ويضيف، بأنه لم يأتِ يوماً الى القرية من دون الذهاب لزيارة قبر والده. ويقول الخبير الزراعي ليو بينكو: « ان هذه الأمور ترضي الناس، فهم يعرفون انه انساني ولم ينسَ كيف نعيش في القرية وكيف نكرم موتانا. ويقولون انه رجل طيب. ان ما نحبه في شخص ميخائيل سيرغيفيتش، بعد كل المحن التي عشناها في القرية، ليس لأنه سليل بريفولنوي فحسب بل بالأخص لأنه يتحدر من الشعب. فهو يريد للناس العاديين ان يكونوا أيضاً بشراً. في الماضي كنا مجرد دولاب في آلة كبيرة، اما الآن، فاننا ندرك اننا اصبحنا أيضاً بشراً ».

في مقبرة القرية، بين السندر والعوسج ينتصب اليوم كما بالأمس، العديد من الصلبان الخشبية الى جانب القليل من الأنصاب الحجرية. وقد أقام

غورباتشيف نصباً لوالده فيها. لدى وفاته، عام ١٩٧٦، حضر غورباتشيف الى القرية تاركاً على وجه السرعة مؤتمر الحزب في موسكو. ومن المقبرة توجّه الى نصب الأموات المشيّد تكريماً لشهداء الحرب، ثم انتقل الى منزل والدته. كانت تقف على عتبة البيت، ترتدي مريولاً على وسطها وخماراً على رأسها. ولدى رؤيتها غورباتشيف، طفقت تبكي، فابتسم وقال لها: هل طهوت لنا اللحم مع الهلام، يا امي؟ — بالطبع يا ولدي، أجابته المرأة العجوز. فقال ابنها: لا داعي، اذاً، للبكاء». هذه الرواية يتداولها ابناء القرية فيما بينهم. والفارق واضح بين الدعاية التي استمرت لسنوات عدة تصور كبار قادة الحزب كأنهم اسمى من البشر وبين صورة هذا الرجل المتحدر من قريتهم، وبلغ اعلى المراتب. ولا بدّ لهذه الصورة من ان تبدو لهم في غاية الانسانية.

يتذكر أبناء مدينة كراسنوفارديسك الصغيرة ان غورباتشيف انتقل اليها لزيارة مدرّساته السابقات في المدرسة، وتساءل عما يمكن ان يفعله في سبيل مدرسته. كذلك وصلت من موسكو بعض بطاقات التهنئة بمناسبة الأعياد. كل ذلك ليس فيه شيء غير مألوف، لكنه يتفق مع الصورة التي رسمها له اصدقاؤه واساتذته، منذ أربعين سنة. العديد من الأمثلة التي يسوقونها يمكن تفسيرها بمثابة اشارات مبكرة عن فنّه في قيادة الناس وعن الخطة التي وضعها لتمرير سياسته.

واليوم تستعيد العجائز، بسهولة أكبر، من خلال ذكرياتها، بعض الملامح التي تتفق مع الصورة التي نعرفها عن الأمين العام. لا شك ان الحاضر يجمّل الذكريات ويغيّرها، على الرغم من الانطباع الذي تملكّني احياناً فيما يعود لذكريات معلماته السابقات، من ان احد تلامذتهم قد صار نجماً. تقول ليديا تشايكو: «لم يساورنا الشك ابداً بأن غورباتشيف سوف يشغل ذات يوم منصباً رفيعاً. غير اننا كنا نعلم ان هذا الشاب سوف يشق طريقه في الحياة بنفسه».

دروسه

ترك غورباتشيف المدرسة عام ١٩٥٠، حاملاً شهادة تشير الى انهاء دروسه بتفوق كبير. فقد نال علامة خمسة في معظم المواد ــ أي ما يساوي على الأقل علامة ثمانية عشر في فرنسا ــ باستثناء مادة وحيدة هي اللغة الالمانية حيث لم ينل فيها سوى تقدير « جيد ». ويبدو ان ميخائيل الشاب لم يعوّض التأخير الذي تسبب به غياب تعليم اللغة الأجنبية لسنوات عدة عن مدرسة القرية. ولم يستحق سوى ميدالية فضية بدلاً من الميدالية الذهبية التي تفتح الطريق له تلقائياً نحو الجامعة. لكن لميخائيل ان يعتدّ بالتقدير الجيد الصادر عن المدرسة واتحاد الشبيبة الشيوعية، والذي يشير الى انه مؤهل لمتابعة الدروس الجامعية، باعتبار ان ذكاءه والنتائج المدرسية التي حققها يخولانه ذلك على نحو مشرّف جداً وقد أظهر في المدرسة، كما في العمل السياسي في كومسومول، نشاطاً وجدّية.

تميّز حكم ستالين في سنواته الأخيرة بعبادة الشخصية على نحو مفرط، اضافة الى اناشيد المديح وقصائد التعظيم، التي لا يجوز لاحد ان يتجاهلها او ينسى الاستشهاد بها. الجو في المدن خانق، خصوصاً في اوساط المفكرين والعلماء والأدباء، فالشرطة السرية التابعة لستالين ووزير داخليته، بيريا، تلاحق

كل من ينحرف عن الخط المرسوم وتعتقله، في مناخ ارهابي طاغ. هذا الخوف الدائم طبع حياة الناس العاديين ايضاً في الكولخوزات والمصانع حيث اي اخلال بسيط بالنظام او تخلف عن العمل كان يؤدي بصاحبه الى السجن او المعتقل. في الوقت عينه، كانت الصحف والاذاعة، فضلاً عن المعلمين في المدارس، يشيدون بعقيدة ستالين وانجازاته السياسية، ضمن حملة توجيهية عقائدية لا هوادة فيها. وكان النصر الذي حققه ستالين على المحتل الالماني وطرده من البلاد قد رفع من شأن ابن جيورجيا الى مصاف « المنقذ » وساهم في جعل كل الترويج الدعائي لستالين قابلاً للتصديق. والكل يرزح باستمرار تحت وطأة هذه الدعاية، ولا يجرؤ احد على توجيه النقد الى ستالين وحزبه والاتحاد السوفياتي وسياسته، والى الظروف المعيشية البائسة.

خضع غورباتشيف لهذه الدعاية السياسية باستمرار، وعلى الأقل طيلة السنوات الثلاث الأخيرة التي قضاها في مدرسة كراسنوفارديسك (وكان اسمها في حينه مولوتوفسكوي). وكان مدعواً بوصفه شيوعياً ان يروج لها. وقد زاد النجاح الذي حققه ستالين، بصورة متتالية، في ترسيخ قناعته. ولعلّ نظرته المستقبلية لجهة إمكانية متابعة دروسه في العاصمة قد عزز ثقته بالنظام القائم. كتب زدينيك مليبار (من التابعية التشيكية) الذي أصبح صديقاً لغورباتشيف في السنة الرابعة من دراسته في موسكو، ان هذا الأخير قد دخل الجامعة « ستالينيا » وهو يعني بذلك أنه كان يؤمن بستالين وسياسته. ولعل مليبار نفسه، الذي انتدب من تشيكوسلوفاكيا لمتابعة دراسته في جامعة موسكو، قد اعطى انطباعاً لمعلميه والموظفين المسؤولين بأنه جدير بالثقة الموضوعة فيه من وجهة النظر السياسية، والا لما كان وقع الاختيار عليه للذهاب الى موسكو. وبوصفهما شيوعيين شابين وطالبين مثاليين كانا يتشيعان عن قناعة وانقياد للنظام الذي وفّر لهما التقدم والرفعة. وهذا لن يمنعهما بأي حال من ان يصبحا مصلحين، الأول غورباتشيف، داخل الحزب الشيوعي

للاتحاد السوفياتي، والآخر، ملينار، في تشيكوسلوفاكيا ــ حيث سيصبح اميناً للحزب في عهد دوبتشيك في الفترة التي عرفت بربيع براغ.

من البديهي ان هذه المشاكل كانت ما تزال غريبة عن الشاب البالغ التاسعة عشرة من عمره والذي ينتقل من قريته بريفولنوي الى العاصمة موسكو. ويروي بعض اصدقائه انه كان ينوي ان يصبح طبيباً، فيما يقول الآخرون انه كان عليه دراسة الرياضيات في معهد ستافروبول العالي بناء على نصيحة والده الذي كان يخشى ان يلقى ميخائيل المصاعب في موسكو. لا شك ان مهنة التعليم تمثل الأمان والطمأنينة، غير انها لا تجتذب شاباً نشيطاً في مثل سنه، فضلاً عن انها في الغالب مهنة نسائية. يعتقد بعض اصدقاء غورباتشيف القدامى ان لا نصائح والده ولا قرار لجنة التوجيه كانا العاملين الحاسمين في توجيهه، اذ قرر وحده التقدم بترشيحه الى كلية الحقوق في موسكو. في تلك السنوات كان عشرات الألوف من الطلاب يتقدمون لامتحانات الدخول الى جامعة موسكو، التي تقبل نسبة ١ الى ٢٪ من المرشحين. والذين لا يجدون مسكناً خلال الامتحانات والعطلة، داخل حرم الجامعة، كانوا يفترشون الأرض لدى الأصدقاء او في قاعات الانتظار في محطات القطار. ويبدو ان غورباتشيف قال لوالده انه، في حال عدم قبوله في موسكو، ستبقى الفرصة متاحة له كي يتسجل بالمراسلة في معهد ستافروبول.

في ختام رحلة دامت يومين، في نهاية آب (اغسطس) عام ١٩٥٠، وصل غورباتشيف الى موسكو حاملاً صندوقاً خشبياً وبعض الزاد. وكان ذلك قبل بدء الفصل الدراسي بقليل. لا بد ان العاصمة، بفسيفسائها البديعة، والثريات المعلقة في محطات المترو، وشوارعها الواسعة، ومسارحها الكبيرة، وقصر الكرملين حيث يقيم ويعمل ستالين، قد تركت اثرها في نفس غورباتشيف الشاب، الذي لم يكن قد شاهد بعد مدينة اكبر من ستافروبول، والذي عاين من نافذة القطار خراب المدن الصناعية التي لم تنهض بعد

من تحت ركام الحرب. لا شك ان ما شاهده ميخائيل في العاصمة، بدا له واعداً بالمستقبل وبرهاناً على مدى صواب سياسة ستالين والحزب ونجاحها. وكان يمكن لكافة المناطق في الاتحاد السوفياتي ان تكون كذلك لولا النشاطات المعادية للثورة وضحايا الحرب والدمار الذي كان يعيق تقدم الاشتراكية...

لم ينقل عنه احد من الأصدقاء، الذين التقوه، لأول مرة، بعد خمسة عشر يوماً، انه سحر بموسكو. في ذلك الوقت، كان على غورباتشيف ان يتسجل في كلية الحقوق لاجراء مقابلة مع الأساتذة، اذ لم يحصل الا على ميدالية فضية، في ختام دراسته الثانوية، واذا كان لا يحتاج للتقدم لامتحان الدخول، فعليه اجراء مقابلة مخصصة لابداء الرأي في ذكائه وطبعه. وقد جاءت نتيجتها ايجابية، مع ان لغته تحمل سمة اللهجة السائدة في جنوبي روسيا، ويفتقر الى الكثير من المعارف والى طريقة في التعبير لا يتقنها، في حين ان مثل هذه الأمور بديهية لدى الطلاب من أبناء النخبة في المدينة. غير ان الأساتذة ضربوا صفحاً عن ذلك وقرروا قبوله في الكلية.

من البديهي ان وسام العلم الأحمر كان له شأنه في قرار قبوله، ولولا توصية رؤسائه في اتحاد الشبيبة الشيوعية، لما تم قبوله في الكلية. غير ان العديد من اساتذة موسكو، وعلى الأخص في كلية الحقوق، كانوا نجحوا في الاحتفاظ بقدر كاف من الاستقلال الفكري، لجهة عدم قبول مرشح استناداً الى مجرد توصية سياسية. ويعتقد بعض الطلاب القدامى من زملاء غورباتشيف ان هؤلاء الأساتذة قد تأثروا بالثقة الهادئة التي يتمتع بها هذا المرشح القادم من الريف، وبأجوبته السريعة القائمة على التفكير والوضوح. بالنسبة للاساتذة الأكبر سناً الذين يتمسكون بالمستوى العلمي للطالب، فقد كان المرشح من طينة غورباتشيف مفاجأة سارة لهم. وكانت التعليمات المعطاة لهم تنص على وجوب تخفيض عدد الطلاب المتحدرين من عائلات مثقفة واعطاء الأفضلية لأولاد العمال والفلاحين وقبول نسبة ادنى من اليهود

لصالح نسبة اعلى من الروس. كان حذر ستالين تجاه اليهود « والأعراق المختلطة » يجد ترجمته العملية في مناهضة السامية على الصعيد السياسي وفي الادارة. وحظر على اليهود اشغال الوظائف القيادية والدراسة الجامعية. وها هو روسي شاب يتمتع بالذكاء الحاد ويتحدر من اسرة فلاحية، يقف في حضرة هؤلاء الأساتذة. فتوفرت له كافة حظوظ النجاح كي يكون في عداد المقبولين.

لا شك ان الفرصة كانت مؤاتية لغورباتشيف للدخول الى كلية الحقوق في جامعة موسكو، اذ ما تزال هذه الكلية تتمتع ببعض الحرية ورحابة الفكر اللتين طبعتا جامعة موسكو القديمة قبل الثورة وحتى العشرينات. على الأساتذة بالطبع ان يتقيدوا بدقة وحكمة بخط الحزب، غير ان بعضهم يمكنه تشجيع طالب ذكي على ابداء رأيه الشخصي. ولم تكن حال غورباتشيف كذلك في سنوات دراسته الأولى، لكن، بعد موت ستالين، شهد الوضع انفراجاً واضحاً تصحبه حرية تحرك اوسع.

كان للأمور ان تكون مختلفة تماماً لهذا الطالب الشاب في الحقوق. اذ منذ المحاكمات الشهيرة في الثلاثينات، لم يعد للحق والقانون اي واقع فعلي، بسبب اخضاعهما لمتطلبات ستالين والحزب. وقد أقام النائب العام اندره فيشنسكي محاكمات رهيبة ضد مسؤولين في الحزب، من خصوم ستالين استناداً الى شعارات حاقدة، ووثائق مزوّرة واعترافات انتزعت قسراً من اصحابها. واصبح التعذيب رائجاً للغاية، والاعترافات الخرقاء والغريبة تنتزع من اصحابها ولا هدف منها سوى تسويغ المحاكمات السرية على صعيد الشكل. أدين ملايين الناس او اعدموا او تعرضوا للنفي والاعتقال من دون محاكمة، من قبل « ترويكا » البوليس السري. غير انهم كانوا يستخدمون رجال القانون لتسويغ القرارات المتخذة ووضع تواقيعهم عليها. وقد ادّى تشكيل مثل هذه المحاكم الى افساد الجيل الصاعد بكامله.

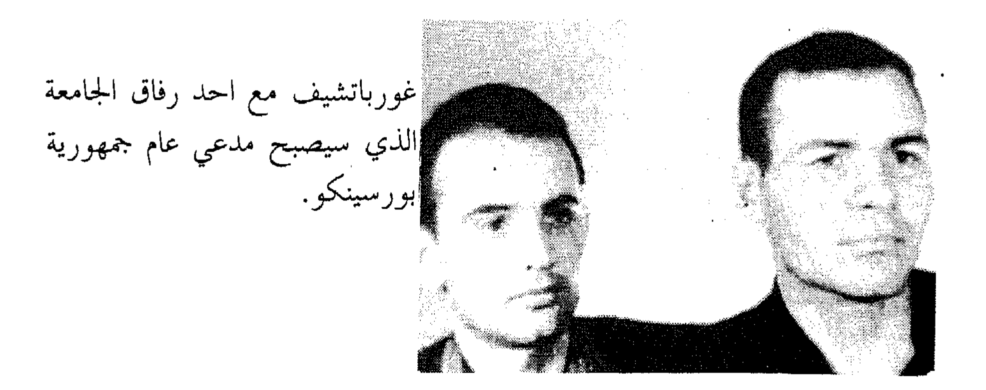
هذه الصورة لا تنطبق بدقة على جامعة موسكو التي كانت اقدم معهد للتعليم العالي في موسكو. وهي التي ساهمت في تنشئة نخبة أهل الفكر في روسيا ولم تفتح أبوابها او تعقد ندواتها إلاّ لخيرة الطلاب في الاتحاد السوفياتي. وكان التعليم فيها يتناول تدريس مادة الحقوق وتاريخ الفلسفة الأوروبية للحقوق ومشاهير الأدباء الماركسيين، حتى ولو حمل هذا التعليم طابع الايديولوجية الستالينية الضيقة التي لا يستطيع احد التملص منها. ولذلك كان ميخائيل غورباتشيف يعيش في أجواء مختلفة تماماً عمّا عرفه حتى الآن. وهذا عائد ايضاً للطلاب الذين يحسنون الظهور بمظهر استقلالي ويعبرون عن آرائهم بحرية، على الرغم من ولائهم لخطّ الحزب. وكان معظمهم يتحدر من عائلات تنتمي الى الطبقة المثقفة من أهل الفكر. وترعرع في أوساط الصحافيين والعلماء وكبار الموظفين. والعديد منهم يتقن لغات أجنبية وعلى اطلاع اوسع على الثقافة الروسية ممّا استطاع غورباتشيف تحصيله في مدرسة مولوتوفسكوي. وسبق له ان ثابر على ارتياد مكتبة المدرسة بحثاً عن المؤلفات التي تسدّ النقص القائم في الكتب المنهجية. ولكن هناك تلامذة آخرون ترعرعوا بين جدران مكتبة والديهم، واطلعوا على المؤلفات السياسية في نسختها الأصلية، في حين ان غورباتشيف لم يعرف منها سوى بعض المقتطفات المختارة التي تتلاءم مع خط الحزب. بعضهم شارك في الحرب وسنحت له الفرصة لزيارة بلدان اوروبية أخرى. وهناك بينهم من كان أكبر سناً من غورباتشيف، على الرغم من الزمن الذي هدره خلال سنّي الحرب، في مدرسة القرية، ومن هم اصغر سناً منه. كان غورباتشيف، في ذلك المحيط، طائراً في غير سربه، غريباً، ريفياً، كان يرتدي باستمرار البزة ذاتها، تلك التي اشتراها حين منحت له الميدالية. وثيابه كما لغته وقلة خبرته تفضح الجانب القروي فيه.

تجدر الملاحظة في هذا الصدد ان ميخائيل غورباتشيف لقي قبولاً سريعاً في اوساط الطلاب الآخرين، ومن الغريب أيضاً ان اصدقاءه الحميمين الثلاثة

كانوا طلاباً يتميزون بذكائهم ومنشأهم الأجنبي، فالأول كان يهودياً والثاني تشيكوسلوفاكياً والثالث روسياً وجميعهم يكبرونه سناً. ان يكون غورباتشيف ــ ذاك الولد القادم من الريف ــ على طريقته، وذلك « الخارجي » الذكي لا يفسر لماذا تصادق الآخرون معه ولماذا عقد هو نفسه صداقة مع اجنبي ويهودي، في وقت كان مثل هذا الاختيار من شأنه ان يثير الشكوك حوله ويلحق به اذىً جسيماً.

في الأول من ايلول ١٩٥٠، أنتقل غورباتشيف الى الغرفة رقم ٣٣٦ الكائنة في بيت الطلبة في شارع سترومينكا. الطريق بالحافلة الكهربائية طويلة للانتقال للجامعة الواقعة في ذلك الحين على اطراف موسكو. تقاسم الغرفة مع ستة عشر طالباً: « ففيها ستة عشر سريراً وبجانبها طاولات صغيرة وعدد ادنى من الكراسي، اضافة الى طاولة كبيرة يجلسون حولها لتناول الطعام والاحتفال بذكرى ايام العيد السنوي او للتباحث والمناقشة. الخزانة غير متوفرة وبيوت الخلاء والمغاسل كائنة في الجهة الأخرى من الممشى. كان معظم الطلاب يفيدون من منحة دراسية قيمتها تسعة وعشرون روبلاً في الشهر ــ من العملة الثابتة ــ اما الذين يحملون ميدالية وينالون علامة « جيدجداً » في كافة امتحاناتهم، فيقبضون ستين روبلاً. بعضهم الآخر يحوز على علاوة اضافية مخصصة له من ستالين.

رودولف كولتشانوف الحائز على منحة من ستالين، ويشغل حالياً منصب رئيس تحرير صحيفة « ترود » النقابية، تعرّف الى غورباتشيف في تلك الغرفة رقم ٣٣٦ في اليوم الأول من الفصل الدراسي. « كنا طلاباً فقراء. ففي الخمسينات، لم نكن نملك ما نسدّ به جوعنا لأن قيمة المنحة على وجه الخصوص، كانت متدنية. عند حلول آخر الشهر، كنا نقتات الشاي المحلّى بالسكر والخبز الجاف. وعند استحقاق المنحة في الشهر التالي، كان الجميع يفتقر الى المال. بعضهم يتلقى طروداً من أهله، فميخائيل مثلاً، كانت تصله



غورباتشيف مع احد رفاق الجامعة الذي سيصبح مدعي عام جمهورية بورسينكو.

غورباتشيف

مع رفيق الدراسة رودولف كولتشانوف، حالياً رئيس تحرير صحيفة « ترود »

غورباتشيف بين رفاق الجامعة في موسكو.



الشحوم وأشياء صغيرة كثيرة من قريته، ولا يتردد عن دعوتنا لمشاركته فيها. غير ان هذه الطرود لم تكن كبيرة الحجم ».

زميل آخر، متقاعد حالياً من منصبه كنائب عام تمييزي، ما يزال لعابه يسيل لذكرى المقانق والشحوم التي كان يبعث بها ذوو غورباتشيف من القرية الى موسكو. وجبات الطعام في مطعم الكلية كانت في الواقع على جانب كبير من التقتير. ويتذكر بعضهم الدكان الواقع في زاوية الشارع حين كان باستطاعتهم الحصول على كمية من الغذاء اكبر مما هي عليه اليوم، لكن المال لم يكن متوفراً لديهم في معظم الأحيان، بالقدر الكافي لشرائها. ويروي النائب العام التمييزي السابق، فلاديمير كوزمين ما يلي : « لدى قبض المنحة، كنا نعتبر انفسنا طيلة يومين اغنى اغنياء العالم، لكنها لم تكن تكفينا الشهر كله، ونفتقر إلى المال قبل حلول آخره بوقت طويل. كان المبلغ في ذلك الحين ضئيلاً، ويبدو اليوم تافهاً. لكننا عشنا ودرسنا. حتى ولو لم نشبع كان جو المرح سائداً بيننا كأصدقاء. في ذلك الحين، كان باستطاعتنا ايضاً الوقوع في الحب وملاحقة الفتيات والرقص والاحتفال بالأعياد مثل كل الطلاب الفقراء ».

ويضيف رودولف كوتشانوف : كانت غرفتنا تضج بالبهجة. كان بعضنا يتقن العزف مثل فلاديمير كوزمين، والبعض الآخر الغناء. كان غورباتشيف يبدع في الغناء. صحيح انه لم يكن يمتلك اذناً موسيقية، لكنه كان يتقن الغناء كثيراً. بعد التباحث والمناقشة، او في سبيل الترويح عن النفس، أيام العطلة، كنا نغنّي كثيراً او نرتكب عدداً لا بأس به من الحماقات، على الرغم من العمر الذي بلغناه. اذكر أيضاً انني ادّيت مع ميخائيل غورباتشيف اغنية : « السماء زرقاء فوق روسيا »، كنا نغنيها بصوت عال، وكان الوقت منتصف الليل، فسارع البواب لإسكاتنا.

غالباً ما كان يطلق على غرفتنا في ذلك المسكن : « الغرفة المفتوحة » ليس لأننا لا نستطيع اغلاقها (والباب كان فعلاً من دون قفل) بل لأننا

كنا فقراء ولا نخشى سرقة شيء منها. كانت غرفتنا تنعت على وجه التحديد، بالمفتوحة، لأن المناقشات كانت قائمة فيها بكثرة. ويأتي اليها طلاب آخرون ومن بينهم من هم في سنوات جامعية أخرى، وكنا نتباحث في كافة المشاكل الممكنة والمطروحة. كنا نناقش بلا انقطاع. وكان النقاش احياناً ممتعاً وذكياً، واحياناً اخرى بدرجة أقل. وكان تارة يتناول الشؤون الداخلية، وطوراً السياسة الخارجية. كنا نتحدث في كل شيء. لا أذكر شيئاً مما كان يقوله غورباتشيف خلال تلك المناقشات. ولا أذكر، في كلّ حال ما كنت أقوله شخصياً خلالها. لكنني اذكر جيداً مدى مشاركته فيها، وبأي انتباه كان يصغي الى المتحدث حتى ولو كان رأيه مخالفاً له. لقد احترم رأي الآخرين باستمرار. ولم يتحول الخلاف لديه يوماً الى حرب كلامية فظة، مصحوبة بالشتائم والضرب. كنا في سن الشباب، والأمور تتفاقم بسهولة بين الرفاق، لكنه كان يجد دائماً الكلمات الملائمة التي تساعد على مواصلة النقاش من دون التخبط فيه أو تأزيم الوضع. لكن ينبغي علي القول أيضاً انه لم يتخلَ يوماً عن مبادئه. وعندما كان يعتبر أنّ موقعه كان الأقوى، كان يتمسك به، وكان يعرف كيف يعرضه بطريقة تقنع الآخرين. وعندما كان يرى ان محاوره لا يودّ التسليم بما يقوله، فكان يدعه وشأنه. واذكر ايضاً انه لم يكن يخضع لغلاة المتطرفين على الاطلاق ».

يروي فلاديمير كوزمين ذكرياته عنه بالقول : كنت جالساً في بهو بيت الطلبة، حين رأيت شاباً ذا مظهر جذاب قادماً يحمل بيده صندوقاً صغيراً. كان يرتدي لباساً قروياً. فسألني أين أجد مكاناً له، كان ذلك في نهاية آب (اوغسطس) او مطلع ايلول (سبتمبر) عام ١٩٥٠. ولم تكن الأسرّة الستة عشرة مشغولة بعد كلها. غير اننا شئنا الاحتيال على القادم الجديد فارشدناه الى السرير الأكثر ازعاجاً بينها، فلم يطرح سؤالاً او يتذمّر، وبدا سعيداً لكونه وجد مكاناً. كان محيراً وبدا لنا فضولياً بعض الشيء. وكنا نجد في المتجر المقابل لسكننا فودكا رخيصة الثمن، لكن غورباتشيف

لم يكن يشرب الكحول، الأمر الذي أثار حذرنا منه. غير ان الأمور تبدلت، وسرعان ما عقد صداقة مع عدد كبير منا. كنا ستة عشر طالباً في الغرفة، وكان الوحيد الذي لم يتشاجر مع الآخرين، وهذا الأمر ليس بالسهل، حقاً. كان خدوماً ودمث الأخلاق. ذات يوم، اضطررت للذهاب باكراً الى المحطة. كان الوقت شتاءً والبرد قارساً. نهضت عند الخامسة صباحاً وهممت بالذهاب حين استيقظ غورباتشيف. وحين رأى معطفي رقيقاً قال : ارتدِ سترتي، فهي اكثر دفئاً ». عندما كنا نتمدد على أسرتنا، جنباً الى جنب، كنا نتجاذب في غالب الأحيان، اطراف الحديث بصوت منخفض، حتى ولو كنا وحيدين في الغرفة. كانت الأيام قاسية وخطرة، واية كلمة رعناء قد تجرّ عليك، في احسن الأحوال، عقوبة اللوم من الجامعة ».

ترى لودميلا كوماروفا التي تشغل حالياًمنصب استاذ جامعي، « ان ميشا لفت نظرها في قاعة المحاضرات من جراء وسام العمل الذي كان يحمله على صدره. وهذا أمر غير مألوف، اذ وحدها قلة من الطلاب الأكبر سناً كانت تحمل اوسمة الحرب.

لم يكن مديناً بنجاحه سوى لقدراته الذاتية، وهذا أمر جذبني اليه. فليس له أقارب او اصدقاء ذوو شأن ونفوذ، حتى انه لم يكن متحدراً في اصله من موسكو، جاء من ستافروبول ووصل وحيداً الى موسكو. كنا في سن واحدة تقريباً، غير انه كان يحمل وساماً.

عندما سنحت لنا الفرصة للمزيد من التعارف فيما بيننا، خلال مرحلة الدراسة، تبدّى لنا رفيقاً في غاية الطيبة، وحاضراً للممازحة والتفكهة، ثم في الكلية، انتخبناه عضواً في مكتب النقابة، وفي نهاية السنة، في مكتب اتحاد الشبيبة الشيوعية، غير انه لم يظهر يوماً بمظهر المتقدم عن سواه، وفيما بعد، حين أضحى رئيساً لاتحاد الشبيبة الشيوعية، لم يحاول ان يظهر نفسه ذا مكانة وشأن ».

يقول فلاديمير ليبرمان، احد اصدقائه المقربين في فترة الدراسة : اذهلتني بساطة غورباتشيف. كنا متوجهين لتقديم امتحان اللغة اللاتينية، فرأيت غورباتشيف يخلع الوسام عنه، أمام الباب. وفي الحال خلعت أيضاً وسام الحرب، ولم ننل كلانا سوى علامة اربعة على خمسة. أما لو ابقينا على الأوسمة، لكان الأستاذ ــ والأوسمة تغشّ ــ عاملنا بطريقة افضل، اذ كان يمكن ان نبدو شخصين جديرين بالاحترام. وانعكس عدم حصولنا على العلامة الأعلى، على قيمة المنحة، فالمرشحون الذين ينالون اربع علامات يقبضون مبلغاً ادنى ممن يحصلون على العلامات الخمس.

كان غورباتشيف مسؤولاً عن قطاع التعليم والتربية التابع لمكتب الشبيبة الشيوعية في الكلية. حياته السياسية بدأت في الجامعة حتى ولو كانت بخطوات صغيرة. كان الطلاب لا يرغبون، بصورة عامة، الاضطلاع بمهام تتصل باتحاد الشبيبة الشيوعية. فأيام الدراسة الأسبوعية تبلغ الستة، وكان ينبغي على الطالب بعد ذلك ان يعمل وحده او مع اصدقائه. واخيراً هناك نشاطات اجتماعية لدى النقابات واتحاد الشبيبة الشيوعية. ولن يبقى للطالب متسع من الوقت، في كل حال، لحياته الخاصة. غير ان الطلاب الأكثر ميلاً للفكر والثقافة، يعلقون أهمية كبيرة على المسرح والمطالعة، ويدافعون عن حريتهم من حيث المبدأ، وقدر المستطاع، ضد الاجتماعات السياسية الروتينية.

كان بعض الذين يقبلون الاضطلاع بوظائف محددة في اتحاد الشبيبة الشيوعية، او في النقابات، يرى فيها واجباً، فيما الكثيرون منهم يقومون باعبائها من دون حماس، اذ لم يبق من الاندفاع الذي ميّز الشبيبة الشيوعية في العشرينات، الشيء الكثير. وكان الأمر يتعلق، في الغالب بشبان يتهيأون لتولي احد المناصب في الحزب، وربما داخل الجامعة او في احدى المؤسسات العلمية. وكان العديد منهم من ابناء كبار الموظفين ويدينون بدخولهم الى الجامعة الى علاقاتهم العامة. ولا يلبثون في الغالب ان يدركوا

انهم لن يستطيعوا منافسة رفاقهم على صعيد نتائج الدراسة، وان الطريق التي تؤدي بهم الى احتراف مهنة الباحث او الاستاذ، غير سالكة امامهم. ولذلك كانوا يتطوعون في « العمل الاجتماعي »، كتنظيم ندوات المناقشة والحلقات الدراسية والاجتماعات السياسية.

اذا كان هؤلاء الطلاب يبدون من ذوي النفوذ على الصعيد السياسي، اقلّه من خلال التجسس على زملائهم، فانهم يأملون الحصول، عند الاقتضاء على سنة دراسية اضافية قبل الامتحان، او اعطاءهم مدة اطول لانجاز العمل المطلوب للامتحان. لم يكونوا جميعهم وقحين، ولكنهم كانوا يروجون لسياسة تقوم على المثالية والتضحية، فيما كانت القلة النادرة بينهم تلتزم بهذه المبادئ. فهناك تعارض ظاهر بين الايديولوجية التي يدافعون عنها وبين ما يقومون به كل يوم. كانوا يجاهرون علانية بتأييد الخط السياسي الرسمي، لكنهم يتهربون من المناقشات حول المضمون والمفاهيم لأنه لا بدّ لمثل هذه المناقشات من ان تطلق براهين غير صحيحة تماماً، وكان ممنوعاً وخطراً حتى الاشارة اليها ولو بمعرض دحضها.

هناك طلاب آخرون وخصوصاً اولئك الذين يتمتعون بذكاء حاد وفضول علمي حقيقي، يسعون لعدم ارباك حياتهم الخاصة بمهام سياسية. فكانوا يختلقون الأعذار بغية عدم المشاركة في الاجتماعات، ولا يوجهون اي نقد للنظام القائم، وهو نقد ينبغي تلافيه ليس علانية فحسب بل في الأحاديث الجارية بين الأصدقاء أيضاً، لأسباب امنية بديهية. والعديد من بينهم في كل حال، لم يكوّن لنفسه رأياً بعد، او هو بصدد جمع معلومات كافية من شأنها بلورة مشروع رفض النظام القائم. وكانت الصحف بالمناسبة، تدين روح اللامبالاة لدى هؤلاء الطلاب.

لا يمكن تصنيف غورباتشيف في احدى هاتين الفئتين من الطلاب، ولا حتى في تلك الفئة الأكثر عدداً التي توازن بدقة بين الولاء السياسي والولاء العلمي. مع ذلك، تسلم غورباتشيف وظيفة في اتحاد الشبيبة الشيوعي،

وبقي مضطلعاً بها طيلة اثني عشرة سنة. ومما لا شك فيه ان نشاطه السابق ضمن مجموعات الشبيبة الشيوعية في المدرسة لم يحتّم تعيينه فيها. والموظفون في اتحاد الشبيبة الشيوعية يعدون بمئات الآلاف والقليل منهم شق طريقه الى الجامعات التي تستقبل ١٪ من مجموع السكان. وبحسب الاحصاءات الرسمية هناك نسبة الثلث من الطلاب التي تتحدر من طبقات العمال والفلاحين — في الواقع، اقل من ذلك اذ ان نيكيتا خروتشيف سوف يتحدث عن نسبة ٨ الى ١٠٪، لأن من بين الذين يعتبرون ابناء عمال وفلاحين، كان العديد منهم ابناء عمال او فلاحين سابقين، واصبحوا فيما بعد موظفين كباراً.

تقول لودميلا كوماروفا : « بصورة عامة نحن معشر الطلاب في موسكو، لا نكن اعتباراً كبيراً لموظفي الشبيبة الشيوعية، معظمهم نفعيون ويظهرون انفسهم بمظهر الشأن والنفوذ، وفي أحسن الأحوال ليسوا سوى محاربين قدماء يحملون الأوسمة. لم تكن الغالبية بينهم تعود الينا. اما غورباتشيف فكان مختلفاً، اذ لم يكن يشير الى اصله الريفي او الى الوسام المعلق على صدره، خلافاً للوصوليين العاديين الذين لا يفوتهم ذكره بلا انقطاع، لأن السلطات العامة تحبذ ذلك. على العكس، كنا نلاحظ انه ينضم الى الطلاب الذين يعملون بجد ونشاط ويهتمون بشؤون الثقافة والتربية. وكان يفعل ذلك من دون ان يفرض نفسه على الآخرين او يعمل على ازعاجهم ». ويضيف فلاديمير ليبرمان شارحاً : « عندما حان موعد انتخاب مكتب الشبيبة الشيوعية، كان اسمه مدرجاً في مكان جيد، وهذا أمر طبيعي. كان واحداً منا وجديراً بالثقة ونعرف انه يولي الأمور عنايته. عندما تم قبوله في الحزب، في السنة الجامعية الثالثة، لم يظهر بمظهر المتحفظ ولم يتعجرف كسواه من الشخصيات الرسمية. بقي انساناً حساساً يتعاطف معنا ببساطة كلية ».

في تلك الفترة تعرّف ميخائيل غورباتشيف الى موظف شاب في اتحاد الشبيبة الشيوعية، فاعجب برزانته وتكتمه اضافة الى الاخلاص المقرون بحسّ التنظيم، وهي من الصفات التي يتحلى بها غورباتشيف نفسه. يشغل اناتولي

لوكيانوف حالياً منصب عضو في مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي، وهو من انصار غورباتشيف في رئاسة الدولة. لدى انتخاب لوكيانوف وانقلاب العديد من المندوبين ضده، موجهين الاتهام اليه بأنه رجل الحزب ويفتقر الى الصلابة، الأمر الذي أثار جدلاً حوله، قام غورباتشيف بالدفاع عنه ملاحظاً انه يحتاج الى ممثل يركن الى عمله من دون اي تحفظ. وتعود معرفته به الى خمس وثلاثين سنة، حين كان لوبيانكو رئيساً له في جامعة موسكو. في ذلك الحين اضطر لوبيانكو بصفته أمين سر مكتب كومسومول في كلية الحقوق، لتوجيه لوم علني لمساعده. حدث ذلك في تشرين الأول (اوكتوبر) عام ١٩٥٣، وجاء في الوثيقة الرسمية : « عقد الاجتماع الانتخابي لكومسومول في كلية الحقوق. وتبين وقوع تقصير كبير في عمل مكتب الشبيبة الشيوعية في الكلية واقسام التعليم. احد وجوه التقصير قائم على النقص في العمل التربوي. فعلى ٧٥٠ طالباً من الشبيبة الشيوعية، هناك ٦٣٣ فقط نالوا علامتي « جيد جداً » و « جيد » في دورة الربيع. لم يتخذ مكتب الكلية اجراءات فعالة لتحسين الوضع [كذا]. على الرغم من ان القسم التابع للمكتب المسؤول عن التعليم، يسمى أيضاً قسم التعليم والتربية (الرفيقان غورباتشيف وسيريبرياكوف) فهو لم يقم، في الواقع، بأي عمل تربوي. وهذا يدل على تقصير في التربية السياسية في كلية الحقوق. وغادر العديد من اعضاء الشبيبة الشيوعية في التعليم العالي، الاجتماع قبل موعد الانتخابات التي ستجرى لتشكيل هيئة المكتب. وعلى الهيئة الجديدة لهذا المكتب ان تدرك اخيراً ان العمل التربوي هو جوهري واساسي ».

ليس في هذا النص ما يتيح القول بوجود ملامة كبيرة، واسلوبه مبتذل للغاية. من المؤكد ان موظفي الشبيبة الشيوعية كانوا ينشطون بحماس وفعالية في مهماتهم، لكنهم يعتمدون الأسلوب البيروقراطي للحزب ويتصرفون في العمق كأنهم سيصبحون في المستقبل اعضاء الطبقة الجديدة.

سبق ان ذكرنا ان غورباتشيف كان طالباً يتحدر من اسرة فلاحية، وعمل في الحقول وحتى انه نال وساماً عن هذا العمل، كما أثبت جدارته على حد سواء كتلميذ ومناضل سياسي. وبالتالي كانت حظوظه في الترقي افضل من سائر موظفي الشبيبة الشيوعية. اذ انه انطلق من موقع يختلف عن سواه، فقد انتقل مباشرةً من قريته الى أشهر جامعة في الاتحاد السوفياتي، وكان بامكانه الاكتفاء بالنشاط الذي يبديه في عمله في اتحاد الشبيبة الشيوعية والحزب. غير ان غورباتشيف لم يكن وقحاً وصفيقاً، اذ لم يكن سوى ريفي يعرب بحماس ساذج عن تقديره لكل ما اعطي له من اسباب العيش في الجامعة والعاصمة.

غير ان وضع اصدقاء غورباتشيف المقربين لم يكن مماثلاً لوضعه. فبعضهم قاسى تجارب اخرى مختلفة عن المدرسة اذ ان يوري توبولين وفلاديمير ليبرمان خاضا كلاهما الحرب وعادا منها بالأوسمة. وتوبولين يتحدر من اسرة مثقفة في موسكو؛ وفلاديمير من اسرة يهودية يتعاطى أعضاؤها الحقوق والمحاماة، فوالداه وجدّاه كانوا من اليهود القلائل الذين حالفهم الحظ، منذ ما قبل الثورة، في الاقامة في احدى اكبر مدن الامبراطورية الروسية. اما زدينيك ملينار، التشيكي، فقد انضم في سنته الدراسية الأخيرة الى هذه المجموعة من الأصدقاء. وقد نال اعجاب الآخرين لاتقانه اربع لغات ولتحصيله الدراسي على الطريقة الأوروبية. « فكانت تلك المخالطة غير مألوفة، بالأحرى بالنسبة لريفي مثل غورباتشيف »، على حد ما يلاحظه فلاديمير ليبرمان اليوم. كنا نحن الثلاثة قد وصلنا الى الجامعة مزودين بقدر هام من الثقافة يفوق ما توافر لغورباتشيف. اضف الى ذلك ان زدينيك جاء، بالتأكيد، من بلد اشتراكي ارسله للدراسة في موسكو بصفته شيوعياً. غير ان كل صداقة مع الأجانب كانت مشبوهة في ذلك الحين، حتى ولو كانت مع رعايا البلدان الاشتراكية. لم يكن غورباتشيف يعرف بالطبع، في حينه ان ملينار من اصل يهودي، وانا شخصياً كنت أجهله وكذلك السلطات الحكومية، الأمر الذي كان من شأنه ان يزيد الوضع تعقيداً ».

فيما بعد، ارسل ملينار من براغ حيث يقضي عطلة الصيف، بطاقة بريدية الى بريفولنوي، وعلم من غورباتشيف ان رئيس الشرطة المحلية جاء اليه شخصياً فوجده يعمل في الحقل مع والده أثناء العطلة؛ فالبطاقة الواردة اليه من بلد أجنبي تثير الشبهات. ويروي ملينار ان غورباتشيف ضحك كثيراً ملاحظاً انه كان ينبغي المرور بالشرطة قبل استلام بطاقة مرسلة من الخارج.

في تلك السنوات الحافلة بالنضال ضد «الأعراق المختلطة» ــ وهي التسمية التي كانت تطلق على اليهود في اواخر عهد ستالين ــ كان الاختلاط بهم من شأنه عرقلة المسيرة المهنية لشخص ما. ومن المدهش حقاً ان القروي الشاب القادم من بريفولنوي والذي أصبح موظفاً في اتحاد الشبيبة الشيوعية في الجامعة، قد ارتبط بصداقة مع مفكر يهودي مثل ليبرمان الذي قادته افكاره المنحرفة عن الخط الرسمي الى الخلاف مع الحزب مرات عدة، وكان يشغل فيه مناصب عدة، قبل ان يقبل غورباتشيف في الحزب عام ١٩٥٢.

اختار غورباتشيف، اذاً، ثلاثة أصدقاء لا يجمعهم جامع من حيث النشأة والجنسية والأسرة والتعليم. والاختلاط بهؤلاء الأصدقاء يشكل في حدّ ذاته في ذلك الحين خطراً داهماً. من المذهل أيضاً ان هؤلاء الرجال الثلاثة قد ارتبطوا بصداقة معه، سيما وانهم قدموا من عالم آخر مختلف تماماً عن عالمه، وانهم يتطرقون الى مواضيع لم يسمع بها غورباتشيف على الاطلاق. كانوا على اطلاع على مؤلفات تجهل مكتبة غورباتشيف المدرسية حتى اسم مؤلفها. كان ملينار وليبرمان قد قرأا ماركس وهيغل بالالمانية، ويتقنان الاستشهاد بكلمات المؤلفين الكلاسيكيين الذين لا يجدون مكاناً لهم في الكتب المنهجية الستالينية. وهكذا استشهدا ذات يوم بقول لماركس جاء فيه : لكل امرأة في المجتمع الشيوعي الآتي، ان تختار بحرية أزواجها، اسوة بما يفعله الرجال اليوم في المجتمع الرأسمالي.

يقول رودولف كولتشانوف : « غداة الحرب، كان التحصيل الدراسي في مدارس الريف مختلفاً تماماً عن التحصيل في مدارس المدن. وفي السنة الجامعية الأولى، كان هذا الفارق في التحصيل واضحاً للغاية. غير ان غورباتشيف كان يعمل بجدية ومثابرة واندفاع بحيث ان هذا الفارق تضاءل شيئاً فشيئاً وتلاشى تماماً في السنة الثالثة على أبعد تقدير ».

يخبر ليبرمان عنه انه « كان يتميز عن رفاقه بنشاطه في الحلقات الدراسية. وكان يمتلك ذكاءً فطرياً، لا أجد تعبيراً آخر استعمله في وصفه ».

لم تكن تنقص غورباتشيف الشجاعة أيضاً. ذات يوم ثار اصدقاؤه ضد احد الأساتذة الذي اقتصرت استشهاداته في درس الاقتصاد، على مقاطع من نص ستالين. وكان هذا النص قد أمسى منذ فترة طويلة جزءاً من تعاليم الحزب وينبغي حفظه غيباً. فكتب احدهم ورقة موجهة الى الأستاذ هذا نصها : يمكننا الاستغناء عن مثل هذه الدروس، فنحن نحسن القراءة. كان من شأن هذا التصرف غير المقبول ان يعتبر تمرداً، ويفهم منه ان الاستشهاد بأقوال ستالين يدعو للملل... انتقلت الورقة بين طاولات الأصدقاء مرات عدة جيئة وذهاباً. وكان على احد منهم ان يوقعها اذا كان لا بدّ من ارسالها الى الأستاذ. فوقعها غورباتشيف. فيما بعد كان لا بدّ من تملق الأستاذ لتحاشي تلك الفضيحة الصغيرة... ويجهل اصدقاؤه كيف نجا غورباتشيف من العقوبة، لعل صيته كطالب مجتهد وموظف نشيط في الشبيبة الشيوعية، ساهم في انقاذه.

في مطلع عام ١٩٥٣، اظهر غورباتشيف قدراً كبيراً من الجرأة على حد ما يذكر فلاديمير ليبرمان بقوله : « في شباط (فبراير) ١٩٥٣، بعد شهر من اعلان الصحف عن اعتقال مجموعة من الأطباء عرفوا « بالأطباء القتلة »، عقد اجتماع الحزب. كان الأطباء الذين وجهت اليهم تهمة دس السم لبعض كبار موظفي الحزب، معظمهم من اليهود. لم اعد اذكر ما قلته بالضبط في ذلك الاجتماع، ولعلني قلت شيئاً مما يلي : « هل علي،

وانا اليهودي الوحيد بينكم، ان اتحمل كامل مسؤولية ما يقوم به بعض اليهود ». وهذا لم يمنع احد زملائنا من مهاجمتي، لأن والده كان ضحية احدى حملات التطهير، ولذلك طلب الكلام في هذا الاجتماع. تحدث عني، فيما سكت الجميع. تناول غورباتشيف الحديث. نادراً ما كان يظهر غضبه والكل يعلم ان غورباتشيف يتمالك نفسه بصورة مدهشة ونادرة، وما زال عليها الى اليوم ايضاً. غير انه كان ينفجر غضباً من وقت لآخر، اذا تعرض فعلاً للاثارة والغيظ. وهكذا انفجر غضباً بعد مداخلة الشاب المذكور وقال له : « انت تافه وحقير » ويقصد غورباتشيف بكلماته ادانة الشاب لافتقاره الى المثل والمبادئ. وقد وضعت فورة غضبه حداً نهائياً لكل الأقاويل حول شخصي ».

كانت مداخلة غورباتشيف، في الظروف الاجتماعية السائدة في تلك الحقبة، في غاية الجرأة. ويمكننا ان نعزو انفجار غضبه الى طبعه ومزاجه. ويلاحظ ان المسألة لم تسفر عن عواقب وخيمة، في الوقت الذي كان فيه الارهاب الستاليني قد بلغ اوجه.

قرابة نهاية الأربعينات، كان ستالين قد حقق الانتصار في صراعه على السلطة داخل الحزب اضافة الى انتصاره في الحرب العالمية الثانية. وكانت كل الدلائل تشير الى اشتداد حذره تجاه العالم كله، وتجاه اقرب المقربين اليه داخل حاشيته، وخصوصاً تجاه اليهود. وأوعز الى الدول المحتلة في اوروبا الشرقية، القيام بحملات تطهير. فكان القادة الشيوعيون يقرّون، تحت وطأة التعذيب، بذنبهم من خلال الاعتراف بكونهم عملاء للصهيونية، او للاستعمار الأميركي، او بعد القطيعة مع تيتو، لأجهزة الاستخبارات اليوغوسلافية. وكان يهيء حالياً حملة تطهير جديدة في الاتحاد السوفياتي.

في بعض الجمهوريات وعلى وجه الخصوص، في اوكرانيا، كان القادة يمارسون علانية سياسة مناهضة للسامية. اما في المنطقة التي جاء منها

غورباتشيف، فلا شيء من هذا القبيل. فبلاد الفلاحين والقوزاقيين كان لها في الواقع تقليد مناهض للسامية، غير انه كان اقل حدة فيها من المناطق الأخرى في الاتحاد السوفياتي. واخبار الجرائم المنشورة في الصحف السوفياتية تعج بالأسماء اليهودية. وهناك تحديد للمقاعد المخصصة لليهود في الجامعات لا يمكن تجاوزه.

يروي نيكيتا خروتشيف في مذكراته ان ستالين اوعز اليه شخصياً بتنظيم مذابح لليهود في مصنع بناء الطائرات رقم ٣٠ حيث كان العمال غير راضين عن ظروف العمل فيه. واقترح على خروتشيف توزيع هراوات على العمال كي يتمكنوا من ضرب اليهود، في المساء، عند انتهاء العمل. يذكر خروتشيف ان ستالين، في احدى جلسات المكتب السياسي، قلّد اللهجة اليهودية ــ الروسية واعلن صراحة مناهضته للسامية. عام ١٩٤٨، امر باعتقال وتعذيب وقتل الأعضاء الأحياء من اللجنة اليهودية المناهضة للفاشية التي كانت تضم كبار موظفي الحزب. ادت الحملة ضد من اطلق عليهم تسمية « الأجناس التي لا جذور لها » الى اعدام بعض الممثلين والكتّاب اليهود. ثم في عام ١٩٥٢، تم اعتقال اولئك الأطباء الذين اتهمهم ستالين بتدبير مؤامرة للقضاء على حياة وصحة قادة الدولة والحزب. وكانت احدى النساء الطبيبات تتعاون مع منظمات امن الدولة قد اتهمت هؤلاء الأطباء. في تلك الحقبة، كانت الشخصيات الأكثر نفوذاً في وزارة امن الدولة تستغل منذ فترة طويلة، جنون الاضطهاد المناهض للسامية لدى ستالين.

روى خروتشيف عام ١٩٥٦، بمناسبة انعقاد المؤتمر العشرين للحزب « ان رسالة عادية كانت كافية لستالين للاستنتاج بوجود مؤامرة يدبرها الأطباء في الاتحاد السوفياتي. وأمر باعتقال فريق من الاختصاصيين المرموقين. وكان يحضر مؤتمر الحزب الوزير السابق لأمن الدولة الرفيق اينياتييف، فقال له ستالين : « اذا لم تحصل على اعترافات هؤلاء الأطباء، سوف نقطع رأسك ». واستدعى ستالين المحقق واعطاه تعليماته حول الطريقة التي ينبغي اعتمادها

للتحقيق. وكانت هذه الطريقة في غاية البساطة : الضرب، والضرب والضرب. وعندما أعدنا النطر مجدداً في هذه « القضية »، بعد وفاة ستالين، تبين لنا ان كل شيء كان مختلقاً من البداية الى النهاية ».

عام ١٩٥٢، جرى اعتقال اطباء مستشفى الكرملين وتعذيبهم بوحشية لاتهامهم زوراً وبهتاناً بأنهم صمموا على قتل رئيس الحزب والدولة والجيش من خلال معالجته بطريقة غير ملائمة. كانت الاتهامات غير قابلة للتصديق لدرجة ان اباكوموف نفسه، وهو وزير امن الدولة، اعتبر تلك الاعترافات المزعومة غير معقولة. غير ان ستالين امر بمواصلة ضرب الأطباء حتى الحصول على اعترافات كاملة. وفي ١٣ كانون الثاني (يناير) ١٩٥٣، نشرت الصحف خبر المؤامرة التي دبرها اطباء يهود اطلقت عليهم تسمية « قتلة باللباس الأبيض » أو « الأطباء القتلة » وجرى تنظيم اجتماعات احتجاج وادانة في كافة انحاء الاتحاد السوفياتي. واجبر العلماء والكتاب والموظفون على المشاركة فيها.

خلال احدى اجتماعات الحزب، طالبت رئاسة اكاديمية العلوم بالاجماع بانزال عقوبة الاعدام بحق الاطباء. وفي المستشفيات رفض المرضى المعالجة لدى الأطباء اليهود، وازدادت الوشايات بحق صانعي السم المزعومين من اليهود، الى الشرطة السرية. وقامت المستشفيات والعيادات الخاصة بفصل الأطباء اليهود من العمل. ووضعت المعاهد العلمية والجامعات والهيئات الفنية ودور النشر والمصانع وخلايا الحزب، جداول بأسماء العلماء والمفكرين والمهندسين اليهود. وجرت الاستعدادات لنفي اليهود من موسكو. بعد انقضاء اربعين سنة، يتحاشى الناجون، استعادة احداث تلك السنوات العشر من الجنون المنظم ــ وعبارة « الدولة البوليسية » هو تلميح لطيف عنها ــ ويلقون مشقة في فهم معنى سلوكهم. في مثل هذا الجو، كان التدخل لصالح زميل يهودي ضرباً من الشجاعة الخارقة وغير المألوفة.

ليس هناك ما يثير الدهشة فيما لو القى غورباتشيف خطاباً هاجم فيه الصهاينة و « الأعراق المختلطة »، كما كان يفعل الأساتذة والكتّاب وممثلو جهاز الدولة ــ بعضهم بدافع تعصب حاقد، وبعضهم الآخر لا يستطيع التخلي عن واجبه. يتعذر علينا اليوم ادانة غورباتشيف، من الوجهة الأخلاقية، على مثل هذا الخطاب الروتيني وكان له من العمر الواحدة والعشرون سنة. في تموز (يوليو) عام ١٩٨٩، سرت شائعة مفادها ان غورباتشيف القى خطاباً مناهضاً للسامية، هاجم فيه « الأطباء القتلة »، في جامعة موسكو، في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٥٣. ويذكر احد المهاجرين السوفيات انه قرأ مثل هذا الخطاب، في نهاية كانون الثاني (يناير) عام ١٩٥٣، في صحيفة الشبيبة الشيوعية « موسكوفوسكي كومسومولت ». سعى اختصاصيون في الاتحاد السوفياتي، من انكليز واميركيين وفرنسيين للعثور على هذا النص. وازداد حذرهم عندما رفضت مكتبة لينين في موسكو اطلاعهم على الصحف الصادرة في الأسبوع المذكور بحجة انها بحالة سيئة للغاية.

بعد خمسة عشر يوماً، تكللت المساعي بالنجاح، حين توجه معهد باريسي للتاريخ الاجتماعي بطلب لمكتبة الكونغرس في واشنطن التي كانت تملك الأعداد المطلوبة من صحيفة « موسكوفسكي كومسومولت »، ووجد ان الخطاب منشور باسم غورباتشيف، غير ان هذا الاسم يعود لموظف في منطقة موسكو والحرفان الأولان من اسمه الأول كانا ف. أ؛ أما الخطاب، فلم يكن يتناول مؤامرة الأطباء، بل مسائل روتينية تتعلق بالمنظمة. لو تمت نسبة الخطاب الى غورباتشيف، لكانت تأثرت صورته في الغرب بشكل سلبي، حتى ولو ادرك المطلعون على أوضاع الاتحاد السوفياتي ان خطاباً يلقيه غورباتشيف في الظروف السائدة عام ١٩٥٣، لا يعبر بالضرورة عن حقيقة تفكير صاحبه. في الواقع، وبحسب رواية زملائه، تدخل غورباتشيف لصالح صديقه اليهودي، من دون ان يتعرض للاتهامات الموجهة ضد الأطباء اليهود.

في تلك المرحلة، اجتاح الاتحاد السوفياتي مجدداً جو من الخوف؛ وشعر الناس بأن هذا الجو ينذر بحملة تطهير جديدة، وان الاعتقالات والتصفيات الجماعية التي جرت في نهاية الثلاثينات سوف تتكرر. ولم يساور الطلاب وكذلك معظم المواطنين السوفيات الشك فيما يعدّه ستالين وما سيعلنه خلال المؤتمر العشرين للحزب وبعده، عام ١٩٥٦. وكان ستالين قام بتصفية كبار موظفي الحزب ومنع بعض اعضاء المكتب السياسي من المشاركة في الاجتماعات، لأن ستالين كان يرى فيهم عملاء بريطانيين. كان يتجسس عليهم ويعدّ العدة على حد ما قاله خروتشيف فيما بعد، لتصفية جميع اعضاء المكتب السياسي السابقين. وحده الموت منع ستالين من تصفية رجال الكرملين المرموقين.

ـ كان لهذه التصفية ان تكون مؤشراً لحملة اضطهاد جماعية تعم كل البلاد. فالمعسكرات، التي لم يكشف عن الارهاب السائد فيها الا لاحقاً، في أخبار « الغولاغ » (معسكرات الأشغال الشاقة)، تعد ما يناهز ثمانية ملايين من السجناء. من جهته، ضم جهاز الشرطة السرية سبعة ملايين من المتعاونين. في ذلك الوقت تم الاعلان عن موت ستالين.

يعود بنا رودولف كولتشانوف الى سنوات الدراسة التي شارك فيها غورباتشيف، فيقول : « مات ستالين عام ١٩٥٣ خلال سنتنا الدراسية الثالثة. ينبغي الأخذ بعين الاعتبار ــ واعتقد ان الالمان يستطيعون فهم ذلك اكثر من الأوروبيين الآخرين ــ المناخ الذي تربينا فيه. كنا متزمتين. وتزمتنا يختلف عن تزمت الشعب الالماني اذ لم يدعُ للعنصرية او لتفوق امة على أخرى.

بالمقابل، كان ايماننا اعمى بستالين. وينبغي ألّا ننسى ان تأثيره شمل العائلة والمدرسة والكتب المنهجية. لذلك حصل ما يشبه التصدع بين السنين الطويلة التي عشناها لتوّنا، وبين تلك التي اعقبتها. ما زلت اذكر جيداً

ليلة اعلان وفاة ستالين في الاذاعة، كنا نجلس حول الطاولة. وكان غورباتشيف معنا أيضاً. لم نتحدث عن النبأ مطلقاً. كنا نفكّر ونتبادل بعض الكلمات والعبارات الصغيرة : ما الذي سيحدث الآن ؟ حتى بعض زملائي بكى. أنا لم أبكِ. وغورباتشيف لم يبكِ أيضاً. هذا شيء مؤكد.

« لا شك إن الآخرين بكوا سواء من الحزن او من الحيرة التي غمرتهم من جراء خسارته، لأنهم لم يستطيعوا ان يتصوروا كيف ستستمر الأمور من دون ستالين، وما سيحدث الآن. كنا اذاً على هذه الصورة، وشعرنا ان موته يشكل مأساة. وعندما ألمح فلاديمير ليبرمان الى سروره لموت ستالين، رمقه غورباتشيف بنظرة اسكتته. لكن غورباتشيف لم يبك فيما الدموع ترقرقت على وجوه بعضهم حول الطاولة ».

وضع جثمان ستالين في القاعة الكبرى من بورصة العمل اي النادي السابق للطبقة الارستقراطية، الواقع في قلب موسكو. خلال الأيام الأربعة من الحداد الوطني، ألّف الشعراء والعلماء ومسؤولو الحزب الأناشيد تعظيماً له، وقام اعضاء المكتب السياسي بمهمة حرس الشرف حول نعشه، واخذوا يتهيأون للصراع حول خلافته. عشرات الآلاف من الأشخاص جاؤوا لالقاء النظرة الأخيرة على الجثمان وهم ينتحبون. موسكو كانت محاطة بوحدات خاصة من الشرطة السرية وساد الرعب داخل المدينة. ولقي اكثر من خمسمائة شخص مصرعهم دهساً او رفساً بأرجل الجمهور ورجال الشرطة. جاء موت الطاغية ليلقي البلبلة في نفوس المواطنين السوفيات، بعد ان كانت صورته حية امامهم ليل نهار. حتى ان بعض السجناء روى لي انه انفجر باكياً في المعتقل (غولاك) حين علم بموته.

تخلى القادة الجدد عن الممارسات الارهابية التي اتبعها ستالين. بعد شهر من موته، اطلق سراح اطباء الكرملين واعلنت صحيفة البرافدا الناطقة باسم الحزب ان اعمال التعسف ومخالفة القانون ستلقى عقاباً صارماً من

الآن فصاعداً. وصدر اول مرسوم بالعفو العام. وسعى الحزب لاستعادة سيطرته على الشرطة السرية. في تموز (يوليو) عام ١٩٥٣، اعتقل بيريا، رئيس الشرطة في عهد ستالين. وفي كانون الأول (ديسمبر)، اعلنت الصحف انه اعدم بالرصاص مع ستة من معاونيه المقربين، في ختام محاكمة سرية. في السنة التالية، تمّ اعدام اعضاء آخرين في الجهاز الحاكم، اولئك الذين تولوا التحقيق في « مؤامرة الأطباء » وزوّروا الوثائق ضد مسؤولي الحزب، خصوصاً في « قضية لينينغراد ». مئات الآلاف من العائدين من معتقلات سيبيريا عادوا لمزاولة اعمالهم التي كان يشغلها سواهم، والتقوا بذويهم واصدقائهم وزملائهم الذين كانوا وشوا بهم احياناً من جراء الحسد او الخوف...

تحدث رودولف كولتشانوف عن ردات الفعل في المدينة الجامعية بعد موت ستالين: « كانت مرحلة صعبة للغاية. خلال الأشهر والسنوات التي تلت ذلك، تبدلت طرائق تفكيرنا، خصوصاً بعد عام ١٩٥٦ والمؤتمر العشرين في عهد خروتشيف. صارت الحقيقة تظهر للعيان شيئاً فشيئاً من دون تصنع. ولمّا كانت مشاعرنا وعقولنا ما تزال لينة وسلسة فقد كان من السهل علينا اكثر من الكبار ان نتخلص من الماضي البشع، من مأساة الماضي، وندرك ما سيحدث لنا. اعتقد اننا نحن الذين نتابع دروسنا معاً، قد وجدنا بصورة سريعة نسبياً القدرة على القاء نظرة انتقادية على الماضي وابداء رأي نقدي واستخلاص النتائج التي تفرض نفسها ».

أما فلاديمير ليبرمان فيضيف: « عندما اطلعنا، في نهاية الصيف عام ١٩٥٣، على الوثائق الشهيرة لجلسة اللجنة المنعقدة في تموز، اي بعد اعتقال بيريا، اصيب الكثيرون بالذهول والعجز من جراء الخوف. أما غورباتشيف، الذي لم يبكِ بعد موت ستالين فلم الاحظ، بعد موت بيريا، ان الخوف تملكه، الأمر الذي يعني ان قواعد نظرتنا للحياة قد تزعزعت من خلاله. وبدا

غورباتشيف، بالأحرى، راضياً عن كشف الأمور التي كانت تعيق تقدّم الاشتراكية ».

هذا الموقف الذي اتخذه غورباتشيف لم يحير رفيقه فلاديمير كوزمين، ذلك ان دراسة الحقوق تؤدي بصورة طبيعية الى ادراك الفرق بين القانون كما كان يدرّس، وبين الواقع المعاش — وهذا ما بدا ظاهراً وواضحاً في احاديث الشباب. عندما درسوا قانون الكولخوز الذي يستند الى مرسوم صدر عام ١٩٥٣، شرح غورباتشيف الى بعض زملائه الذين لا يعرفون حياة الريف، ما كان عليه الوضع الحقيقي قائلاً : القانون لا يعني الشيء الكثير للفلاحين الكولخوزيين الذين هم تحت رحمة التدابير التعسفية التي اتخذتها الحكومة.

اعتباراً من الأشهر الأولى لدراسته في موسكو، تحدث غورباتشيف عن الوضع المحزن في الريف: « كان يتحدث عن الفقر المدقع إبان الاحتلال والذي امتد حتى بعد الحرب. كان الهزال والجوع في كل مكان، واليد العاملة لا تكفي. وليس من باب الصدفة انه اضطر للعمل في الثالثة عشرة من عمره. أما اليوم فان الشبان في الثامنة عشرة يتبخترون دون ان يعرفوا حتى معنى كسب لقمة العيش. قدم غورباتشيف من الريف وهو يعرف اكثر منا وبصورة عملية معنى كل ذلك. تعّلمت الكثير منه. وحتى قبل ستالين، قيّض لي ان اتحدث اليه، بصورة سرية للغاية، حول مسائل يمكننا طرحها معاً وتتصل بالاشتراكية في عهد ستالين. نحن، أي انا وهو، لم نكن راضين عن هذا النظام البشع لأننا كنا نعيش في جو من الخوف. تساءلنا بصورة سرية وحذرة حول الاشتراكية على طريقة ستالين : هل كانت جيدة ام سيئة ؟ ولكن من غير الوارد ان نتطرق الى هذا الموضوع علناً وأمام الغير، كنا في خوف شديد. وقد نتعرّض لخطر الموت. كانت عبادة الدكتاتور قد بلغت درجة من اللانسانية بحيث ان كل واحد منا قد يقع ضحية هذا المجنون، هذا المريض العقل، هذا القاتل الشرير وضحية حكمه

الأحمق. بعد موت ستالين، تحدثنا بصورة اكثر صراحة : هذه الاشتراكية ليست باشتراكية. هذه الاشتراكية كانت سيئة. وتحدثنا أيضاً عما كان يسمى القيادة الجماعية، وهي عبارة عن ديكتاتورية مجموعة حمقاء تمارسها عصابة متوحشة. تحدثنا مجدداً بصورة حميمة » بهذه العبارات يستعيد النائب العام التمييزي المتقاعد، اليوم، وبعد خمس وثلاثين سنة، احاديث اجراها مع غورباتشيف في حينه.

غينادي بورسينكو يشغل اليوم منصب استاذ في كلية الحقوق في جامعة موسكو، وقد تحدث عن المرحلة التي تلت موت ستالين، على الشكل التالي : « كان النقاش يحتدم فيما بيننا حول قضايا القيادة الجماعية والتغييرات السياسية. كنا، اولاً، تحت وطأة وفاة الزعيم، والعديد منا ما يزال قلقاً وحائراً ولا يعرف كيف ستستمر البلاد في تقدمها. عندما اقدم الحزب فيما بعد على اتباع طريق القيادة الجماعية — كانت تلك المرحلة في فترة الانفراج — تطرقنا بصورة خاصة الى هذه المسائل. اصبح مؤكداً عندنا ان رجلاً لا يستطيع قيادة البلاد وحده، ولا البتّ في كلّ القضايا نيابة عن الجميع. وبدأنا ندرك ان من واجبنا نحن أيضاً ان نشارك بشكل او بآخر في شؤون الدولة. بعد الصدمة والتوتر الداخلي اللذين اعقبا في الأشهر الأولى موت ستالين، حصل انبعاث وحيوية جديدة : اخيراً تنفسنا الصعداء. اذكر المناخ الذي ساد في أوساط الطلاب، وهو المناخ الذي نشأ فيه ميخائيل غورباتشيف. كنا نحب الدرس جميعاً ونستمتع به. وعندما استمع اليوم الى بعض خطابات ميخائيل سيرغيفيتش غورباتشيف لا اتعرف بالطبع الى المعارف التي اكتسبها في حينه، بل على اسلوب التفكير الذي ابتكره لنفسه في مجموعتنا الطلابية. وقد حافظ على هذا الأسلوب منذ تلك المرحلة. وهذا ما يجيز لنا منحه الثقة فيما يقول ويفعل حالياً ».

ما يرويه زملاء غورباتشيف في الدراسة في تلك المرحلة، عن المناقشات الدائرة فيما بينهم في حينه، تتوافق تماماً مع ما نعرفه عن المناخ السياسي

الذي كان يعيش فيه معظم طلاب جامعة موسكو، ابان الصراع على خلافة ستالين. ظهر الانفراج بصورة جلية ايضاً عام ١٩٥٦، بعد تصريحات خروتشيف المثيرة عن ستالين، عندما تجرأ الطلاب، في غمرة الانفراج، على مناقشة سياسة بلادهم بشكل صريح وعلني.

صدرت بعد ذلك منشورات رسمية تصف سلوك الطلاب وتنتقده بشدة. تحت عنوان : « ارفعوا عالياً راية الايديولوجية الماركسية ــ اللينية »، انتقدت مجلة الحزب « كومونيست » في عددها الصادر في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٥٧، المناقشات التي تنكر على الحزب دوره القائد وتطالب باعتماد سياسة اكثر دمقراطية. وفي ايلول (سبتمبر) عام ١٩٥٩، عندما سقطت سياسة الانفراج، انتقد احد رجال القانون، في مقال نشره في صحيفة « ازفستيا » الناطقة باسم الحكومة، بعض الأوساط الطلابية بقوله : « في تلك الفترة المضطربة، منذ ثلاث سنوات، عندما تعرضت شخصية ستالين لانتقادات جدية، اكتشفت اجهزة امن الدولة ان بعض الطلاب من الذين لا يعرفون شيئاً من حقائق الحياة، وافسدتهم الحياة المرفهة السهلة، قد وقع تحت تأثير العدو. كان هؤلاء الشبان يتلاقون ويتداولون في غالب الأحيان بشكل علني أحاديث معادية للاتحاد السوفياتي. حتى توصلوا إلى اثبات آرائهم السياسية، خطياً، بشكل ادبي بحت. وقد اعترفوا فيما بعد ان بعضهم اقترح طبع منشورات هدامة وتوزيعها ».

خلال اجتماعات منظمات الشبيبة الشيوعية، كانت المسائل الأساسية في تلك المرحلة تطرح على بساط البحث. فالكاتب الستاليني كولتشيتوف يصف في روايته « الاخوة ارشوف » كيف كان الطلاب يتطرقون الى هذه القضايا :
ــ « سأل احد الطلاب : اذا شئنا استئصال اشكال عبادة الشخصية، الا يتوجب علينا ايضاً قلب الجهاز السابق ؟ فسأله طالب آخر : اي جهاز ؟
ــ ردّ الأوّل : الجهاز كله، وقبل كل شيء الجهاز البيروقراطي ».

بحسب صحيفة الشبيبة الشيوعية « كومسومولوسكايا برافدا »، صدرت

صحف طلابية غير رسمية في جامعة موسكو تحمل عناوين مثل « هرطقات » او « الأصوات الجديدة » وهي تسخر من تصويب مسيرة الفن من خلال الواقعية الاشتراكية، وتوجه النقد للمسؤولين في كومسومول. بعض الصحف الأخرى الملصقة على الجدران اطالت المناقشات التي بدأت رسمياً في قاعات التدريس، حول ما اذا كان الأدب السوفياتي ما يزال على صلة بالحقيقة... وفي بعض الحلقات المصغرة، لم يعد يكتفي الحاضرون بالتستر خلف المناقشات الفنية حين يتطرقوا للمسائل السياسية. التقيت شخصياً، في آب (اوغسطس) عام ١٩٥٦، بعض طلاب الفلسفة في جامعة موسكو، الذين كانوا ينوون وضع برنامج للاصلاحات السياسية. وتتضمن النقطة الأولى منه اجراء انتخابات حرة ونزيهة ولكنها تؤكد ايضاً ان على كافة المرشحين ان يكونوا اعضاء في الحزب الشيوعي. في الواقع، ينطلق هؤلاء الطلاب من التنشئة السياسية التي اكتسبوها الى اعتبار ان لا حاجة لعدة احزاب سياسية نظراً لانتفاء صراع الطبقات. وفي نظام الحزب الواحد، يكفي ممثلي مختلف التيارات والآراء ان يتمكنوا من الترشيح.

علمت السلطات الحكومية بالمناقشات الدائرة بين طلاب الفلسفة الذين اضطروا لترك الجامعة، وفقدتُ كل اثر لهم، قبل ان التقي مجدداً باثنين منهم في مطلع الثمانينات : كانا يعملان كمساعدين نشيطين في احدى المؤسسات العلمية التي كانت تتولى وضع خطة اصلاحية للاقتصاد السوفياتي، من دون تفويض خاص من الحزب الذي كان ينتقدها أحياناً. في كلية التاريخ في جامعة موسكو، طبع الطلاب عام ١٩٥٦ منشورات تهاجم ديكتاتورية الحزب وتطالب بالعودة الى تعاليم لينين والى الدمقراطية السوفياتية. عام ١٩٥٧، تعرضوا للاعتقال وحكم عليه بالسجن من ثلاث الى ثماني سنوات.

كل ذلك، لم نطلع عليه الا بعد عام ١٩٥٦، عندما غادر غورباتشيف الجامعة. لكن يبدو لي مؤكداً ان مثل هذه الأفكار شهدت انتشاراً في

اوساط الطلاب في ذلك الحين وكان لها تأثيرها في مجرى تفكيرهم. فطلاب كلية الحقوق كانوا، في الاجمال، شباناً اذكياء، ويتم اختيارهم بدقة (على الطبلية) ويتقنون، منذ ما قبل وفاة ستالين، القراءة بين السطور ويفهمون جيداً تلك الملاحظات الساخرة التي يلقي بها بعض الأساتذة همساً خلال الحديث... ولم يتخذ الطلاب موقفاً استسلامياً ساخراً إلا بعد مرحلة الانفراج، لأنهم كانوا غير راضين عن الأوضاع المعيشية وعن الفرص المتاحة لهم في المستقبل. وشرع الفنيون الشباب (التقنوقراط) في التشدق بالتعابير السياسية الرسمية، وفي الوقت عينه، ابداء اعجابهم بالنظام الرأسمالي الذي يجدونه اكثر فعالية والعيش في ظله اكثر متعة.

بين عامي ١٩٥٣ و ١٩٥٨، كان الطلاب الأكثر نشاطاً ما يزالون يحلمون في اصلاح النظام وتطويره. وتنصّب انتقاداتهم على الطبقة البيروقراطية المتواجدة في كل مكان في اجهزة الدولة والحزب. ويقرأون مؤلفات لينين حول « الدولة والثورة » او « المهمات الآنية لسلطة المجلس السوفياتي »، فيكتشفون ان المجتمع السوفياتي قد ابتعد شيئاً فشيئاً عن افكار لينين. كانوا يرفضون الرأسمالية والغرب ويرون في النظام الاشتراكي افضل الأنظمة، على الرغم من الاعوجاجات البيروقراطية، وان هذه الأخيرة تمنع قيام اي تطور ايجابي في المستقبل. ويطالبون باعادة الدمقراطية داخل الحزب وفقاً للمعايير اللينينية، وكذلك بتغيير الجهاز الحاكم وباستبدال الطبقة البيروقراطية شبه الموروثة بحزب سياسي حقيقي. كما يرغبون بدولة تكون فيها السلطة بين يدي جمعيات منتخبة تخضع لسلطة الشعب ومشيئته.

لا شيء يدل على ان غورباتشيف كان على اتصال مع مجموعات تتداول بهذه المسائل، او بدرجة أقل، مع بعض المجموعات القليلة التي ذهبت بعيداً في نقدها للنظام الاشتراكي السوفياتي، لدرجة انها باتت ترى في ثورة تشرين (اوكتوبر) اول خطوة خاطئة. غير ان فكرة ضرورة اصلاح النظام ودمقراطيته لم تكن غريبة عن ذهن المسؤولين في اتحاد الشبيبة

الشيوعية، حيث اصرّ الطلاب عليهم بوجوب تقديم ترشيحهم للانتخابات بطريقة نزيهة. راجت هذه الأفكار في السنة الدراسية الأخيرة لغورباتشيف في جامعة موسكو، وهي افكار سوف نجدها، بعد ثلاثين سنة، في ذهنه وخطاباته.

من البديهي ان السياسة والعمل لا يملآن لوحدهما حياة الطلاب اذ كانوا يرتادون المسرح والحفلات الموسيقية، ويمرحون معاً ويغنون ويضحكون. ويحلو لاحدى النساء العاملات في سلك القضاء، من سكان موسكو ان تتذكر بأن ميخائيل غورباتشيف كان يزورها في شقة اهلها، ويبدي اعجابه بمكتبة والدها وجو الثقافة والرفاهية الذي تعيش فيه الأسر الميسورة في موسكو. كان يصغي اليها بجدية وصمت حين كانت تعزف لراشامينون على البيانو، مدندناً الأنغام معها. « بالنسبة لنا، نحن معشر السنوبيين في موسكو، كان شاباً من الريف، غير ان تعطشه للثقافة كان يدهشني ». هذه المرأة المسنّة تلمح اليوم بأن ميشا كان مغرماً بها، لكن اصدقاءه الطلاب يشككون بذلك.

« كان منجذباً الى عالم من الثقافة والتربية لم يعرفه على الاطلاق سواء في قريته او في غرفته في المدينة الجامعية. كنا نعجب بالأحرى لماذا كان يبقى لا مبالياً تجاه الفتيات في ذلك الحين، على حدّ ما يروي فلاديمير ليبرمان. كنت ويوري توبولين نعيش حياة متحررة نسبياً، كنا عائدين من الحرب، ونلقي الشتائم بغزارة ونجد من واجبنا عدم اهمال أية فتاة جميلة. ميخائيل لا يتفوه بالشتيمة ابداً ولا يلاحق الفتيات، واعتقدنا انه يتصنع الحياء ثم اكتشفنا لاحقاً ان طبيعته هي كذلك وانه لا يرغب بتقليد الآخرين؛ ثم كان له ايضاً مفهومه الخاص بالكرامة، الأمر الذي يفسّر ايضاً لماذا اصبحنا نحن الثلاثة اصدقاء حميمين خلال السنة الدراسية الثانية، قبل ان ينضم الينا زدينيك ملينار فيما بعد.

« عام ١٩٥٣، علّق ملصق في المدينة الجامعية يعلن عن افتتاح صف للرقص، فتناوله الطلاب بالسخرية لكونه يمثل مصروفاً اضافياً، في الوقت الذي كانت فيه الدروس باهظة الكلفة في ذلك الحين، وكنا نفتقر جميعاً للمال. غير انني ويوري توبولين قررنا الاشتراك به للتعرف الى الفتيات الجميلات القادمات الى صف الرقص. خلال الحصة الثانية من الدرس، كان علينا ان نتعلم رقصة الفالس ولم تتوفر لنا شريكة بعد. كنا ننتظر ان يعين استاذ الرقص فتاة لكل منا. فاحضر لنا رايسا تيتارينكو وصديقتها، فاختار يوري رايا كما كنا ندعوها وانا اخترت صديقتها. بعد قليل دخل غورباتشيف الى قاعة الرقص. وكان قدومه بهدف السخرية منّا، كما سبق له ان فعل عندما قال لنا : تبّاً لكما، على مَ تبحثان كلاكما هنا ؟ الخ... وها هو يأتي لمشاهدتنا كيف نتعلم الرقص : كان يعرض ابتسامة ساخرة ويلوّح لنا بيديه.

في ختام الدرس، قدّمت له يوري وانا، رايا وصديقتها. هكذا تعارفا. بعد ثلاثة او اربعة أيام، لم اعد أذكر بالضبط، ولكن لم يمضِ بالتأكيد أكثر من اسبوع، جاء الي يوري يقول بأن ميخائيل مغرم برايسا بشكل جدي. فوجدت الأمر ممتعاً سيما وان سلوك ميخائيل، على هذا الصعيد الحيوي، كان يبدو لي فريداً على الدوام. فقد كان جميلاً شكلاً وروحاً، وعازباً في مقتبل العمر فلمَ لا يلاحق الفتيات طالب مثله سواء كان روسياً، انكليزياً، ايطالياً او المانياً ؟ غير ان ميخائيل لم يكن قد اظهر حتى ذلك الحين اي ميل معين. ففي هذه المناسبة وحدها اضطرم قلبه حباً، ولمدى الحياة ».

لم تترعرع رايسا ماكسيموفنا تيتارينكو، هي أيضاً، في موسكو. لكنها، خلافاً لغورباتشيف، لم تتحدر من القرية. كانت سليلة اسرة يعمل ربّها في سكة الحديد، فنشأت في مدن مختلفة، حيث كان يتنقل والدها. حين ولادتها، كان والدها يعمل في مدينة روبسوفسك في مقاطعة ألتاي، في



العروسان
غورباتشيف ورايسا.



رايسا حوالى عام ١٩٥٥.



غورباتشيف، حوالي عام ١٩٥٥.

سيبيريا، على حدود الصين ومنغوليا والاتحاد السوفياتي. كانوا ثلاثة اولاد، وغالباً ما كانوا يضطرون لتغيير مدرستهم، حين كان الوالد ينقل الى محطة أخرى في تلك البلاد الواسعة، غير ان اولاد اسرة ماكسيم تيتارينكو كانوا جميعاً تلامذة نجباء وناجحين (على الرغم مما قاسته هذه الأسرة من الفاقة عندما سجن ماكسيم لسنوات عدة في عهد ستالين). الشقيقة البكر لرايسا تابعت دراستها في الطب في مدينة اوفا، وشقيقها الذي يكبرها اصبح صحافياً وكاتباً ويعيش في مدينة فورونيج حيث انهت رايسا دروسها الثانوية، وسوف تفاخر فيما بعد بأن تطلع زملاءها على كتب شقيقها. كانت علاماتها ممتازة على الدوام: وسجلّ نهاية دروسها لا يتضمن علامة واحدة على أربعة، اذ نالت علامة خمسة في كافة المواد ـــ وهي ارفع علامة ـــ ومنحت بالتالي الميدالية الذهبية.

هذه النتائج كانت تخولها متابعة دروسها في الجامعة او في معهد كائن في فورونيج، هذه المدينة الواقعة على بعد خمس مئة كيلومتراً جنوبي موسكو. لكنها آثرت الالتحاق بالعاصمة وخصوصاً كلية الفلسفة في جامعة موسكو، على الرغم من ان شروط القبول كانت الأصعب في كل انحاء الاتحاد السوفياتي. كانت تعمل بجد وعرفت بحسن الترتيب والتنظيم لدرجة الغرابة والتكلف، على حد ما يذكره بعض زملائها. بعضهم يؤكد انها كانت في ذلك الحين تلفت النظر بجمالها، في قسم الفلسفة وعلم النفس، وترغب الفتيات الجميلات على وجه الخصوص بالتقرب منها. والبعض الآخر يكتفي بالملاحظة انها كانت نضرة الوجه لكنه يؤكد ان اجمل ما فيها عيناها الروسيتان ـــ التتريتان.

شهدت كلية الفلسفة في جامعة موسكو، بعد موت ستالين سنوات مضطربة، ما يزال الطلاب يذكرونها. وكان قسم من الأساتذة يكتفي باتباع اسلوب تلك المرحلة الستالينية، بكل بلادته، فيما شرع القسم الآخر، الأصغر سناً، امثال الجيورجي ماماداشفيلي، وهو اليوم من المفكرين المرموقين في

الاتحاد السوفياتي، او الكسندر زينيوفييف الذي سوف يختار الهجرة لاحقاً، في اعادة النظر في اصول تدريس الفلسفة الماركسية ــ اللينينية. كان الطلاب يثيرون الاساتذة العقائديين بأسئلتهم وأجوبتهم. لا أحد يتذكر ان رايسا تيتارينكو كانت لها مداخلات هدامة، لكنها عاشت تلك المرحلة حيث باتت حرية التفكير والتعبير متوفرة من جديد في الجامعة. خلال سنوات قليلة، وحتى نهاية فترة الانفراج، كان باستطاعة بعض اساتذة الفلسفة فتح باب المناقشات الذكية وتنشيطها مع طلاب اذكياء، حتى ولو لم يكن خطهم الفكري يندرج ضمن الاطار الرسمي للحزب. في كل حال، تكللت دراسة رايسا تيتارينكا بالنجاح، ورشحتها الكلية، في ختام خمس سنوات دراسية، لنيل منحة للدكتوراه.

عندما تعرف غورباتشيف اليها، كانت امرأة جميلة، ورزينة ولكنها، بحسب رأي اصدقائها، تعي مكانتها تماماً. بعضهم يعتبر انها كانت تبدو في حينه اكثر ذكاء من غورباتشيف. والأدب والفن كانا، في كل حال، من الأمور المألوفة لديها أكثر منه، مذاك، اخذا يواظبان على ارتياد المسارح وحفلات الموسيقى معاً. لا شك ان الاهتمام الذي ابدته رايسا بالشأن الثقافي قد أثر في غورباتشيف في ذلك الحين وساهم في تكوين شخصيته لاحقاً. ويخبر بعض الاصدقاء ان علاقتهما، في تلك السنوات، تميزت بالأحاديث الطويلة، وهو امر مألوف لدى الشباب الروسي، اذ ان الروس جميعاً وخصوصاً الطلاب الشباب، يهوون الأحاديث الطويلة والعميقة حول المصير والدنيا والحب. ويتبادلون تلاوة القصائد، ويتميزون برومانسية وسذاجة اشد من الشباب الغربي. وكانوا يجدون انفسهم، منذ ثلاثين سنة، وبقدر اكبر من اليوم، في شخصيات روايات تولستوي وليرمونتوف. وجدت رايسا تيتارينكو في هذا الشاب القادم من قرية في جنوب روسيا، ــ وهي ارفع ثقافة منه ــ شريكاً يمتلك من التعطش للمعرفة والذكاء الشخصي ما أذهلها.

يقول فلاديمير كوزمين : « عندما تعرفت برايا، كانت صغيرة، نحيلة

وطرية كالعود. لم اعد اذكر بكثير من الدقة كيف تطورت الأمور بينها وبين ميخائيل. في كل حال، تزوجا، عام ١٩٥٣. نظمنا، او بالأصح، نظم ميشا حفلة الزواج. وكانت في تلك الحقبة، حفلة زواج كبرى. كانت الجامعة قد انتقلت الى تلة لينين، وتمّ اختيار مطعم المدينة الكائن في شارع سترومينكا لأنه كان أقل كلفة، اذ بالمبلغ ذاته يمكننا الحصول على وجبة عامرة. لم يحضر افراد العائلتين حفل الزواج. كنا خمسة عشر او عشرين طالباً مدعواً الى الوليمة التي اقيمت لدى عودة رايسا وميخائيل من مكتب الأحوال الشخصية. كانت الأطباق شهية والمدعوون في انشراح عارم، فجميعهم من الأصدقاء؛ فولوديا سوفرانوف، مسؤول الحزب، حمل الانخاب. كان الشراب متوفراً، وهذا ما كان يهمني بوجه الخصوص في ذلك الحين، وقد وضع احد مسؤولي الشبيبة الشيوعية بعض قناني الشراب في جيبه لمواصلة احتسائها بعد الحفلة. في الختام، ثمل الجميع باستثناء ميشا. ففي حفل زواجه، لم يشرب الا القليل، الأمر الذي يدل بوضوح انه معتدل بطبيعته.

كان على العروسين ان ينتظرا حتى عام ١٩٥٤، حين انتهت اعمال بناء المدينة الجامعية الجديدة القائمة على تلة لينين، لاستئجار غرفة فيها، وقضاء آخر سنة دراسية لهما في موسكو.

في تلك السنة، واجه ميخائيل ورايسا مسألة دقيقة تتصل بما سيعملان في ختام دراستهما. فرايسا بمقدورها تحضير الدكتوراه في كلية الفلسفة واختيار مهنة جامعية واعدة، اما ميخائيل فكان في الرابعة والعشرين من عمره، وعضواً في الحزب الشيوعي ومسؤولاً في اتحاد الشبيبة الشيوعية، وانهى دراسته للحقوق بتفوق وامتياز. وبمقدوره هو أيضاً ان يأمل بوظيفة حقوقية عرضت عليه في احدى الوزارات في موسكو، والمحادثات التمهيدية التي أجراها مع رئيسه المقبل كشفت عن ان الوزارة لا تمتلك بيوتاً للسكن تضع غرفة منها بتصرفه. وبات صعباً بالتالي، لا بل مستحيلاً البقاء في موسكو. مع ان اسباباً وجيهة كثيرة تدفعه للسعي للبقاء في العاصمة، حيث

تتوافر المسارح والحفلات الموسيقية، فضلاً عن حلقة الأصدقاء في سني الجامعة والآمال المعقودة للحصول على عمل فيها.

غير ان غورباتشيف وزوجته انتقلا للاقامة في ستافروبول. بعض اصدقائهما لم يفهم سبب ذلك حتى انه ارتاب فيه وعزاه لدوافع سياسية. لكن لا شيء يتيح تأكيد ذلك، والملامة الوحيدة التي تلقاها تعود لسنتين خلتا وتتعلق بمسألة تافهة. ولم يفهم الأصدقاء كيف رضي بمنصب ثانوي في اتحاد الشبيبة الشيوعية في ستافروبول. أما هو فكان يردّ ذلك الى الواجب الذي يدعوه للعمل في مسقط رأسه بعدما انهى دروسه في العاصمة. خلال العطلة الجامعية، التقى بلجنة الشبيبة الشيوعية في ستافروبول وسأل عن امكانية العمل فيها. لم يرَ صعوبة في مزاولة العمل باعتبار ان العمل المقبل محدد سلفاً للطلاب، في ختام دراستهم. وكان ميخائيل يردد : هناك، في كل حال، العديد من رجال القانون الشباب الذين يكلفون بوظائف في أجهزة اتحاد الشبيبة الشيوعية والحزب.

بالعودة الى الوراء، بعض الأصدقاء من الذين وجدوا في حينه ان اختياره لتلك المهنة كان خطأً، يعتبرون اليوم انه كان على صواب وانه، في النتيجة، يستجيب لطبعه. كان في مقدوره، في موسكو، ان يزاول مهنة شريفة، لكنه كان سيبقى مغموراً وبالتالي لعلّ تفكيره قد دفعه، فضلاً عن تحسسه بالواجب الذي يشهد الجميع له به، ومعرفته بالناس واطلاعه على مشاكلهم، للتوجه نحو تحقيق انجازات مهمة تتيح له ارتقاء درجات السلم بسرعة، بلوغاً للمناصب التي يجد من خلالها اموراً ينبغي تحريكها ودفعها الى الأمام...

ستافروبول

بعد ممارسة مهنة القانون لفترة قصيرة، فـي خريـف ١٩٥٥، باشـر غورباتشيف عمله في لجنة الشبيبة الشيوعية في منطقة ستافروبول مبتدئاً في أسفل السلم الهرمي للشبيبة الشيوعية والحزب، واصبح موجهاً في قسم الدعاية. تقول ليليا ميخايلوفنا التي عملت حينذاك في اللجنة الاقليمية للشبيبة الشيوعية « كنا نخشى بعض الشيء هذا الشخص القادم حديثاً من جامعة موسكو حاملاً وساماً على صدره وله سمعة حسنة وكنا نظن انه ينظر الينا من فوق. ولكن، بعد انقضاء شهر واحد، اصبحنا نلتف جميعاً حوله، لأنه أخذ يعمل بجد ونشاط وكان لطيف المعشر، مزحاً ومتواضعاً. على الرغم من انه تلقى تحصيلاً علمياً ارفع مما تلقيناه، كان يتحدث الينا من الند الى الند، ولم تمضِ فترة قصيرة حتى راح يعلّمنا الرقصات الحديثة التي تعلّمها في موسكو ».

لم يكن لغورباتشيف، بوصفه موجهاً للدعاية، حق الاقامة في الشقق المخصصة للموظفين؛ فاضطر للسكن، مع رايسا، في غرفة صغيرة تقع في شارع منحدر، ببدل يشكّل ثلث راتبه الضئيل.

كان عدد سكان ستافروبول، يبلغ حينذاك، ١٤٠٠٠٠ نسمة. وهي عاصمة ستافروبولسكي كراي (اي مقاطعة ستافروبول)، ومساحتها تساوي ضعفي مساحة روسيا اذ تبلغ ٨٠٠٠٠ كيلومتراً مربعاً. وتقع ستافروبول جنوبي روسيا وتعرضت للاحتلال في القرن الثامن عشر بعد أن أقام فيها القوزاقيون في القرن الخامس عشر، اولى مستوطناتهم الحصينة قرب الأنهر. اما ستافروبول نفسها، فلم تكن بادئ ذي بدء سوى مواقع محصنة أقامها الأمير غريغوري بوتانكين. ويعني اسم ستافروبول المأخوذ عن اليونانية، « مدينة الصليب » — وكان اليونانيون في العصور القديمة يتعاطون فيها التجارة — وعام ١٨٢٢ أصبحت المركز الإداري للمناطق الواقعة على طول جبال القوقاز، ثم، فيما بعد، عاصمة حكومية. ليس في تاريخها ما يدعو لاهتمام المؤرخين، فالموسوعة الصغيرة المسماة « بروكهوس/افون »، الصادرة عام ١٩٠٢ لا تكرس للمنطقة سوى بضعة اسطر : مساحة واسعة من السهوب، وفي الجهة الجنوبية الغربية قمم ايلبروز المتوسطة الارتفاع [...] ٩٠٪ من سكانها من الروس، و ٢,٨٪ من التركمان، و ١,٧٪ من الكالموك ».

تطالعنا المعلومات نفسها تقريباً في دليل القوقاز الصادر في موسكو عام ١٨٨٥ : هي منطقة يقطنها العديد من الشعوب الرحّل من غير المسيحيين ». اما دليل غريغوري موسكوفيتش لعام ١٩١٤، فهو أكثر ايضاحاً اذ يقول : المدينة كلها مليئة بالبساتين والفسحات الخضراء. وتبدو من بعيد جميلة للغاية، اما من قريب، فتفقد الكثير من رونقها. وحدها الشوارع الرئيسية مبلطة، فيما الشوارع الأخرى موحلة كسائر طرقات القرية ».

عندما عاد غورباتشيف الى ستافروبول، عام ١٩٥٥، كانت هذه المدينة اتخذت منذ أمدٍ بعيد، شكلاً آخر، من جراء المصانع التي غزتها بسرعة فائقة. وتعتبر المنطقة الريفية المحيطة بها من اخصب المناطق لزراعة الحبوب وارفعها مردوداً. في جنوبي منطقة ستافروبول، على قمم جبال القوقاز، تنتشر حمامات معدنية لها اهميتها البالغة على الصعيد السياحي والسياسي، اذ انشأت

فيها وزارة الصحة مصحات يطلق عليها « كريمليفكا »، ويقصدها بصورة منتظمة كبار الموظفين في الحزب وحتى اعضاء المكتب السياسي، للتمتع بوسائل الراحة التي لم يشهد فلاحو بريفولنوي وطلاب موسكو مثيلاً لها. لم تكن المدينة التي جاء غورباتشيف للاقامة فيها، اذن، مغمورة الى هذا الحد. فهي ذات مناخ معتدل الى حارّ، ومشكلات التموين تطرح فيها بدرجة اقل حدة مما هي عليه الحال في الشمال. وتحيط بها مناطق زراعية، مثل مسقط رأس غورباتشيف الذي كان اهله يرسلون اليه منه الأغراض والحاجيات. لم تكن مدينة صناعية بشعة ظهرت من العدم، بل فيها بيوت من عصر كاترين، فضلاً عن دور حكومية بسيطة ولكنها طريفة وتعود الى القرن التاسع عشر، وما تزال وسط المدينة الذي توزعت فيه الحدائق العامة والمنتزهات التي انشأتها حكومات القياصرة لمتعتهم لدى اقامتهم في هذه المنطقة. لكن الفارق كبير بينها وبين موسكو على صعيد الحياة الثقافية، ولا شك ان غورباتشيف ـــ خصوصاً رايسا، قد عانى من هذا الأمر، الشيء الكثير.

استأجر غورباتشيف، اذاً، غرفة في منزل صغير لا تتوفر فيه المياه الجارية، وكان عليه نقلها بالسطل من مضخّة المياه الكائنة في الشارع. وكان الزوجان يحضران الطعام على نار موقد يعمل على الكاز. وكان باستطاعتهما ـــ في الشتاء فقط ـــ تسخين طعامهما على النار المشتعلة في موقد التدفئة. من البديهي ان حياتهما الطالبية في موسكو كانت أكثر رفاهية بالمقارنة مع وضعهما الحالي.

كان عليهما الانتظار حتى عام ١٩٥٧، وقبل ولادة ابنتهما ايرينا كي تتوفر لهما شقة مؤلفة من غرفة واحدة ومطبخ مستقل. لم تكن الحياة سهلة، لكنها لم تكن أيضاً، على حد ما يقول اصدقاؤهما، عذاباً ابدياً بالنسبة لرايسا غورباتشيف التي كانت تعمل قارئة للنصوص الماركسية ـــ اللينينية في المعهد الطبي. فهي ترعرعت في كنف عائلة عرفت ظروفاً



غورباتشيف أمين السر الاول للكومسومول في ستافروبول، بصحبة والدته وابنته، عام ١٩٦٠.

معيشية بقدر مماثل من المتاعب. تروي احدى الصديقات « ان اسرة غورباتشيف كان تشع فرحاً وغبطةً خصوصاً بعد ولادة ايرينا، وكانت رايسا ماهرة في فن الطهي وزوجها يعاونها دائماً في ذلك، الأمر الذي كان غير مألوف من جانب رجل، في ذلك العصر ».

عمل ميخائيل غورباتشيف، اذاً في اللجنة الاقليمية لاتحاد الشبيبة الشيوعية الذي يرتبط مباشرة بالحزب. وتقوم رسالة الاتحاد على نشر الدعاية للخط الذي رسمه الحزب وحث الشباب على التقيد بالنظام ودفعهم الى بذل المزيد من الجهد. وكان يجري استغلال اجتماعات الحزب الصغيرة والكبيرة، وعلى كافة المستويات، والحفلات الموسيقية للرقص الشعبي او لمسرح

الهواة، لهذه الغاية، اضافة الى مقالات الصحف الناطقة باسم اتحاد الشبيبة الشيوعية. كان غورباتشيف مسؤولاً شعبياً، اذ كان الشباب يتوافدون بكل طيبة خاطر لحضور الاجتماعات التي يعقدها والى السهرات المنوعة التي يقيمها لأنه كان يجعلها تنبض بالحياة.

في تلك السنة التي انعقد فيها المؤتمر العشرون للحزب، حيث بدأ خروتشيف بتصفية حساباته مع ستالين، اخذ المناخ السياسي بالتبدل في البلاد، اذ ارتفعت الشكاوى مطالبة بالتغيير، خصوصاً، في « اسلوب عمل » جهاز الحزب والدولة. وعاد حس المبادرة والالتزام الشخصي يحرّك ضمائر المسؤولين في الشبيبة الشيوعية. واذ بدا ان الجو يبشر بتجديد الاشتراكية، نهض الجميع للعمل مجدداً بهمة ونشاط. وبصفته موجهاً في قسم الدعاية، كان غورباتشيف مدعواً لاستنهاض همة الشباب وحماستهم للتغييرات الحاصلة والخط الجديد للدولة والحزب. فحقق نجاحاً واسعاً، كما يخبر عنه نيقولاي دوروخين وهو اليوم عجوز غطى الشيب رأسه، وكان حينذاك رئيساً لغورباتشيف بصفته من كبار موظفي اللجنة الأقليمية لاتحاد الشبيبة الشيوعية، ويضيف ايضاً انه اقرّ باكراً بمواهب غورباتشيف السياسية والذي صار فيما بعد رئيساً لدوروخين في وظائف اخرى. لم يبق غورباتشيف طويلاً في وظيفته كموجه بسيط في قسم الدعاية، اذ اصبح بعد انقضاء سنة واحدة، السكرتير الأول للجنة الشبيبة الشيوعية في مدينة ستافروبول. وهذا الترفيع مهم له اذ بات يشغل منصباً قيادياً مستقلاً وصار في الوقت عينه عضواً في قيادة الحزب في المدينة. شكلت هذه القفزة النوعية مرحلةً مهمة في صعوده نحو القمة. واستطاع بعدئذٍ متابعة حياته المهنية متدرجاً كل سنتين في المراتب الادارية فانتقل من وظيفة السكرتير الثاني للجنة الشبيبة الشيوعية لمنطقة ستافروبول كلها، الى مرتبة السكرتير الأول لهذه اللجنة.

كان غورباتشيف، لاعتبارات عديدة، في حالة انسجام مع جو تلك المرحلة، لأنه كان يؤمن بالاشتراكية وعلى ثقة انه يمكن ويجب تطويرها

نحو الأفضل. في موسكو، كان نيكيتا خروتشيف يعزز التفاؤل بها ويوحي بأن عجلة الاشتراكية قد توقفت مسيرتها بسبب اخطاء ستالين ويكفي تغيير بعض الخطوط الحديدية وشدّ بعض المحازق، لبلوغ الهدف الأسمى، وهو الشيوعية. وكان خروتشيف قد تخلص من خصومه وخلال المؤتمر العشرين للحزب، فاجأ المندوبين بما كشفه عن ستالين ونظامه من ارهاب وفظائع وكسبهم الى جانبه. لم ينشر خطابه انما لم يبق سراً، اذ كان مسؤول الحزب والشبيبة الشيوعية يتلونه، على مسمع الأعضاء في الاجتماعات المغلقة. ولم يجد غورباتشيف أية صعوبة في اتباع الخط الجديد.

تتذكر ليليا كولوديتشوك، التي عملت طيلة خمس سنوات مع رايسا غورباتشيف في كلية الفلسفة التابعة للمعهد الزراعي العالي، بدايات صداقتها مع آل غورباتشيف، وتقول : كانت الأحاديث الطويلة التي كنا نتداولها مع ميخائيل عن ستالين، هي التي تقرب بيننا وتجمعنا. حتى بعد المؤتمر العشرين للحزب وخطاب خروتشيف الشهير، لم يقدم على شجب سياسة ستالين وادانة عهده سوى قلة من الناس من معارفنا في المنطقة. وكنت في عداد هؤلاء لأنني كنت مطلعة بصورة مباشرة على عواقب سياسته. اعتقلت والدتي عام ١٩٥٧، ودهشت في حينه ان يكون غورباتشيف على اطلاع واسع على اسماء العديد من الناس الذي سقطوا، في منطقتنا، ضحية القمع الستاليني في الثلاثينات. وسبق لي ان فوجئت بذلك عام ١٩٥٥، وبعد ١٩٥٦ كنا نتحدث باستمرار عن هذه الأمور. لم يتعاطف ميخائيل مع الستالينية وسوف لن يبدل رأيه فيما بعد، حين ارتفعت بعض الأصوات الداعية للعدول عن تلك الانتقادات بحق ستالين. وحاول بعضهم اعادة اطلاق تسمية ستالينغراد على فولفوغراد مرة أخرى. فكان لغورباتشيف موقف حازم بهذه المسألة، اذ كان ضد ذلك بصورة قاطعة. ولم يغيّر موقفه حتى بعد رحيل خروتشيف ».

كنا نتحدث، في كل حال، ضمن حلقة صغيرة من الأصدقاء الحميمين

عن التجارب التي عانى منها أهلنا إبان سني القمع والاعتقال، والحياة القاسية في الريف والعواقب الوخيمة التي اصابت الزراعة نتيجة اعتماد الاقتصاد الموجه. كان نيقولاي دوروخين يشغل منصب السكرتير الأول لخلية غورباتشيف، وحكم على والده بالسجن لمدة خمس سنوات خلال عمليات التطهير. كان ينبغي، بالنسبة للعديد من الناس الذي عملوا مع غورباتشيف، الابقاء على هذا الماضي ماثلاً في الاذهان تماماً. من المؤكد ان صداقاته الحميمة قد اقتصرت على حلقة صغيرة، اذ لم يعد يلتقي الا بعدد ضئيل من الناس، في بيته، ونادراً ما كان يستضيف مع زوجته رايسا، احداً. لكن الاتصال، ضمن هذه الحلقة الضيقة بقي قائماً، على مر السنين، الى اليوم. يستعيد هؤلاء الأصدقاء بكثير من الحنان والحرارة ذكريات تلك الحقبة التي عملوا خلالها مع ميخائيل في ستافروبول. ويصفونه بأنه حازم وحذر، نبيل ومرح، كريم حين يرتكب احدهم خطأ، لكنه صارم فيما يفرضه من واجب، وعنيد في تحقيق ما يقتنع به. أما لجهة التسلية واللهو، فكان يميل الى البساطة فيها، كالنزهات في الغابة مثلاً مع الرفاق حيث ينصرفون الى الغناء. « كان ميخائيل اول من يبدأ بالغناء، ويعرف كل كلمات الأغنيات »، كما يروي فلاديمير كولوديتشوك، زوج ليليا. وهذا النمط من الحياة الشيوعية، لم يدم طويلاً في موسكو.

شغل فلاديمير كولوديتشوك، طيلة عشرين سنة، منصب مدير قسم الثقافة لمنطقة ستافروبول، وكانت له بهذه الصفة اتصالات رسمية بغورباتشيف، ويشير الى ان غورباتشيف نجح بصفته امين سر الحزب، في تشييد قصر للثقافة، فيه قاعات عدة مخصصة للحفلات الموسيقية والمحاضرات والمسرحيات والمعارض، على الرغم من معارضة السلطات الرسمية في موسكو. لكنه يروي ايضاً ان غورباتشيف وزوجته كانا من رواد المكتبة البلدية، وباستطاعتهما حفظ القصائد غيباً، وكانا يخالطان الكتّاب والصحافيين والفنانين في ستافروبول. وقد ساهم فلاديمير كولوديتشوك في قيام الاتصالات

الأولية بين الطرفين، وهو لا يبالغ اليوم في تقدير الوساطة التي اجراها. يقول أيضاً : « كان غورباتشيف يهوى الفن ». كان يحلو له زيارة الفنانين في محترفاتهم، ويحضر باستمرار، اذا سنحت له الفرصة، العروض الأولى للمسرح المحلي، وانشأ مهرجاناً في ستافروبول يحمل اسم : « الخريف الموسيقي »، شارك فيه بانتظام المؤلف الموسيقي الجيورجي فانو موراديللي، الذي أدين في أواخر عهد ستالين لتمسكه بالشكليات (وكذلك ديمتري خوستاكوفيتش) في الأوبرا التي وضعها بعنوان « الصداقة الكبرى »، وفقد حظوته لدى السلطات بعد ذلك، مباشرة.

« كان شعرره الفني مرهفاً حقاً وعلاقته بالفن في غاية الاحساس والانسانية »، يقول فلاديمير كولوديتشوك. وتضيف زوجته ليليا بأن هذا الاهتمام الذي يبديه نحو الفن ليس من فعل رايسا، بل لأن غورباتشيف كان ذا نزعة استقلالية خلاقة. ثم تعلّق قائلة بكثيرٍ من الاعجاب. وكذلك رايسا ماكسيموفنا. لكل منهما شخصيته المستقلة. وقد عملا معاً طيلة حياتهما ». يخامرنا الشعور بأنها ترد على ما يثيره بعض النقاد من ان رايسا كان لها تأثيرها البالغ في تفكير زوجها وحتى في السياسة التي اتبعها. لكن شهادة ليليا كولوديتشوك حول شخصية الزوجين تبدو صادقة ونزيهة.

« المرأة هي القدر الثاني لزوجها »، يقول المثل الروسي. وهذا ما ينطبق تماماً على ميخائيل غورباتشيف. ويصعب تصوّر شخصين ينسجمان من حيث النشأة والطبع افضل منهما. كانت رايسا غورباتشيف جدية في عملها ومتعطشة للمعرفة وذكية. وقد اشتهرت اثناء تدريسها في الجامعة بكونها صارمة مع الطلاب. لكنها انيسة المعشر، وتشارك في الحديث بطيبة خاطر، وان كانت تبدي بعض الرزانة. هي امرأة تعرف كيف تحافظ على الطابع الحميم لحياتها العائلية ضد كل اشكال التدخل الخارجي، بحيث اقتصرت هذه الحياة على حلقة صغيرة من الأصدقاء. يعتقد احد هؤلاء الأصدقاء ان تأثيرها الحاسم ظهر جلياً في حماية غورباتشيف من الادمان على الشراب،

حين كان يتعرض للإغراء في الأوساط التي ينبغي عليه الاختلاط بها وحيث تناول الكحول رائج للغاية. لكن ما كان حاسماً للغاية أيضاً، هو نقل عدوى شغفها بالأدب والثقافة اليه.

اظهرت رايسا منذ نعومة اظفارها ميولاً شديدة نحو الثقافة والأدب وسرعان ما تجاوزت مطالعاتها اطار الثقافة الرسمية. وهكذا كانت تستمتع على وجه الخصوص بقصائد نيقولاي غوميلاف، زوج الشاعرة أنّا اخماتوفا، الذي اعدم بعد الثورة بفترة قصيرة بتهمة معاداة الثورة وبقي اسمه محذوفاً من تاريخ الآداب السوفياتية حتى الثمانينات. لا يمكننا معرفة كل ما وفّرته لزوجها في هذا المجال، غير انها ساهمت بالتأكيد في توسيع دائرة معارفه الثقافية وفي تعميقها.

دخلت الجامعة حاملة ميدالية ذهبية، فيما غورباتشيف لم ينل سوى ميدالية فضية. ويبدو ايضاً انها نجحت في دراستها الجامعية بشكل أفضل منه. وفي نهاية سنيها الخمسة من الدراسة، حصلت على منحة على جانب كبير من الأهمية لتحضير الدكتوراه، فيما لم يتوفر هذا الاهتمام لزوجها. لكنها رضيت اللحاق به الى ستافرويول وقبلت بمنصب تعليمي متواضع بالمقارنة مع امكاناتها الشخصية. في المعهد الطبي، شغلت منصب استاذ معاون، حيث تولّت تدريس تلامذة الطب مبادئ الفلسفة الماركسية واصولها. وفي هذا الحقل ايضاً احرزت السبق اذ حصلت على الترقية بسرعة أكبر مما لقيها زوجها في اتحاد الشبيبة الشيوعية...

عينت فيما بعد في كلية الفلسفة التابعة لمعهد الزراعة العالي في ستافروبول، الذي كان يتميز بشهرة واسعة في جنوبي روسيا. ولم يكن لعلاقات زوجها العامة شأن يذكر في هذا التعيين، لأنه كان ما يزال في مطلع حياته المهنية، فيما كان الاساتذة الجامعيون يشغلون في حينه ارفع الوظائف في الحزب. يروي عميد الكلية، ميخائيل بانكراتوفيتش تشوغويف الذي شغل في وقت

سابق منصب امين سر الحزب في كراسنوفارديسك ـــ وهي المقاطعة التي رأى فيها غورباتشيف النور ـــ ما يلي : « عينت رايسا في هذا المنصب الجامعي، بسبب ارتفاع عدد الطلاب. كانت ادارة الكلية منوطة بمسؤولَين من الحزب بلغا سن التقاعد. وقد علما ان المعهد الطبي يضم، منذ بعض الوقت سيدة موهوبة تتولى التدريس الجامعي فيه، وقد نالت شهاداتها من جامعة موسكو. فقررا الاتصال بها؛ ولما كانا يقبضان معاشهما التقاعدي، فترك لها كل منهما نصف راتبه، الأمر الذي وفّر لها معاشاً كاملاً باعتبار انها خريجة جامعة موسكو بدرجة مشرّفة. اعتقد انها تأثرت في حينه، بكل هذه الرعاية التي احيطت بها. كان عليها، في كل حال، ان تفرض نفسها على سائر المرشحين الآخرين، غير ان الأمر لم يصعب عليها كثيراً. ومن ثم انصرفت الى العمل بجد ونجاح. ولم تنقض السنة حتى حازت على لقب استاذ محاضر. بعد انقضاء بضع سنوات، اصبحت الأستاذ المحاضر المسؤول عن منبر المادة التي تدرّسها. كانت قد تابعت دراستها في كلية الفلسفة في موسكو وخصوصاً في قسم علم الاجتماع. في كل حال، لم تكن تدرّس مادة الفلسفة فحسب، بل تقوم أيضاً بالأبحاث العلمية في علم الاجتماع. كانت تنتعل حذاء عالي الساقين من المطاط لزيارة الكولخوزات واراضي الدولة الواقعة في مختلف المقاطعات. ونشرت نتيجة ابحاثها في كتاب حول : « حياة الفلاحين اليومية في المزارع الجماعية » وسوف تجعل من هذا الموضوع مادة الأطروحة التي ناقشتها بنجاح في معهد لينين العالي للتربية، في موسكو ».

كانت دراسات علم الاجتماع نادرة في الاتحاد السوفياتي في ذلك الحين. بدءاً من الثلاثينات، بات علم الاجتماع يثير الشبهات حوله، لأن الأبحاث التجريبية الميدانية قد تسفر عن نتائج تناقض شعارات الحزب ومقتضياته. ازاء الفائدة التي يجنيها القادة المحليون والاقليميون من الاطلاع الدقيق على ما يجري في حياة المواطنين السوفيات وما يدور في رؤوسهم، كان



غورباتشيف بصحبة أعضاء من اللجنة الاقليمية للكومسومول في ستافروبول، عام ١٩٦٢.

غورباتشيف، لاول مرة في الكرملين، في أيار (مايو) ١٩٦٠، للاشتراك في إجتماع المنشطين الشيوعيين في كافة أنحاء الاتحاد السوفياتي.





رايسا مع بعض التلامذة في ستافروبول.



رايسا مع ذوي التلامذة في صف ابنتها، والمعلمة.



رايسا مع زملاء من الهيئة التعليمية في كلية الفلسفة لمعهد الزراعة في ستافروبول.



تفاصيل الصورة السابقة.

يسود الخوف من ان يؤدي الاطلاع على بعض الأمور الى اثارة غضب ستالين وحاشيته. ويقتضي انتظار نهاية الستينات كي يتم انشاء مؤسسة للأبحاث في علم الاجتماع التطبيقي، في اطار أكاديمية العلوم في موسكو. وسوف يتولى مسؤولية ادارتها ج.ف. اوسيبوف، وهو الموجّه لرايسا غورباتشيف في اعداد اطروحة الدكتوراه.

عندما عزمت رايسا على الاطلاع على حياة الفلاحين الكولخوزيين، من خلال استمارات الاسئلة والتحقيقات الاستطلاعية، لم يكن علم الاجتماع مادة تعليمية مستقلة في موسكو، اذ كان يشكل حقلاً غير محدد المعالم قبل ان يحل ضيفاً على كلية الفلسفة، وكان الأساتذة والباحثون الذين يهتمون بعلم الاجتماع ويسعون لاستخدام مناهجه، من ذوي النزعات الفكرية الحرة. وقد تبين للطالبة الشابة رايسا ان الاختلاط بهم مفيد، اذ اطلعت منهم على الكثير من الأمور اضافة الى طرق استخدام الاحصائيات ووضع التقارير الرسمية او استخدام مناهج « الأبحاث الاجتماعية العملية ». ولا علاقة لكل ذلك بالدروس العادية المألوفة، اذ ينبغي اعداده وبلورته بالتعاون مع الباحثين العلميين انفسهم. ما تعلّمته رايسا غورباتشيف في موسكو، وضعته حيز التطبيق في منطقة ستافروبول لدراسة خمس كولخوزات، عن طريق ملء الاستمارات واجراء المقابلات.

اكتشفت رايسا ان مساكن الفلاحين تفتقر عملياً الى التدفئة والماء ومجاري المياه القذرة. كما اكتشفت ايضاً ان ثلثي العائلات الفلاحية تمتلك ايقونات لديها، اي ما يوازي اربعة أضعاف ما يمتلكه الموظفون والمدرسون والتقنيون الزراعيون. وتبين لها ان وضع النساء قد ازداد سوءاً وان الرجال يكلفونهم القيام بالأشغال التي تتطلب بذل جهود كبيرة.

كانت هذه المعلومات التي جمعتها رايسا غورباتشيف لانجاز الكتيب الذي وضعته والأطروحة التي ناقشتها، ذات فائدة بالغة الأهمية لزوجها،

اذ تؤكد بطريقة علمية الكثير من الأمور التي يعرفها بالخبرة وتوفّر له ارقاماً ومعطيات اكيدة تتصل بصورة مباشرة او غير مباشرة بعمله في حقل الزراعة والحياة في الكولخوزات. وبذلك كان من الموظفين القلائل ــ ان لم يكن الوحيد ــ في الاتحاد السوفياتي، الذي توفرت له دراسة مماثلة عن فلاحي الكولخوزات في منطقته. وهذه الدراسة هي قبل كل شيء عبارة عن مجموعة وقائع وليست تحليلاً للسياسة الزراعية السوفياتية، اذ لا يمكن التطرق في تلك الحقبة الى أية مسائل اخرى. اما النتائج التي استخلصتها رايسا فبقيت مشوبة بالحذر : الوضع المادي لفلاحي الكولخوزات في ستافروبول في تحسن. غير ان الدراسة تظهر ان هذا التحسن لم يكن سريعاً. ويعود لميخائيل غورباتشيف ان يستخلص منها النتائج التي يراها مناسبة على الصعيدين السياسي والاداري واستقاء الحلول التي تتيح له تحسين الوضع المادي والثقافي للقرية. وضعت زوجته بتصرفه دراسة اجتماعية قيمة، وقد ادهش طابعها العملي بعض معارفها الذين كانوا يظنونها اكثر ميلاً للأدب والفلسفة منها الى علم الاجتماع.

ابان زيارتنا لمعهد الزراعة العالي في ستافروبول، تناول عميد كلية الفلسفة بعض الكتب الموضوعة في قاعة الأساتذة وهي تتضمن الأبحاث المنهجية في التربية لرايسا غورباتشيف. وما يزال معلقاً على حائط قاعة الأساتذة رسم بياني وضعته رايسا غورباتشيف حول المذاهب الفلسفية المختلفة. من أبحاثها المحفوظة أيضاً في الكلية، كتاب بعنوان : « مؤتمر حزبنا حول تطور الثقافة الاشتراكية ». وقد ساهمت ايضاً في بحث مشترك بتوقيعها مقالاً بعنوان : « الكولخوز مدرسة الشيوعية ».

« كانت تعمل كثيراً مع طلاب الفلسفة. أما على الصعيد العلمي، فكانت تهتم بصورة خاصة بعلم اجتماع الفلاحين، يقول ميخائيل غورباتشيف. ولهذا طلب اليها المشاركة ايضاً في وضع تصميم لتطوير العمل الجماعي في الريف. كما طلبت اليها الكولخوزات ومزارع الدولة ان تعدّ مثل هذه التصاميم

لها، الأمر الذي كان جديداً في ذلك الحين. فدرست الأوضاع القائمة ثم قررت اعداد تلك التصاميم ». كان لا بدّ من الاشارة الى ذلك لأن هذا النوع من المشاريع كان يدخل ايضاً في برامج العمل التي ينبغي على ميخائيل غورباتشيف ان يوعز باعدادها وتنفيذها بصفته مسؤولاً في اتحاد الشبيبة الشيوعية وفي الحزب.

فيما خص علاقاتها المهنية، تبدو ذكريات زملائها مشوشة للغاية؛ لعلهم لا يرغبون في الحديث عن الحياة الخاصة لزوجة رئيس الحزب. غير ان ما يمكن تأكيده ان عدد اصدقاء رايسا غورباتشيف كان قليلاً. « كانت رايسا تحب رؤية اعضاء اللجان الوزارية وهيئات الحزب يحضرون دروسها التي لم يكن يحضرها، في كل حال جميع الأساتذة. وكان هؤلاء الأعضاء يأتون من أجل توجيه الانتقاد، ونادراً ما كانوا يجدون ما يستحق الملاحظة والنقد، حتى من الوجهة الشكلية، وقبل ان يصبح ميخائيل سيرغيفتش اميناً عاماً للحزب كانت رايسا استاذة في غاية الجدية والدقة في عملها »، يقول الأستاذ تشوغوييف.

يبدو انها لم تحتجّ سوى مرة واحدة، حين اجريت الرقابة سراً على الدرس الذي كانت تلقيه. يقول عميد الكلية : « كانت تشارك بصورة عفوية في الأعياد التي يحتفل بها الزملاء من غير ان تبدي حماساً شديداً لها، في حين اننا لم نكن نحتسي المشروبات في هذه الأعياد، ويقتصر الأمر على تناول الشاي والكعك. ذات مرة، قدّمنا لها في عيد ميلادها، علبة ملبّس باللوز، فبادرت الى توزيع بعضها على الجميع. كنا نتوسلها احياناً ان تؤخذ لها صورة معنا. ولما كانت المحاضرات التي تلقيها من أفضل المحاضرات في المعهد العالي، كان المصوّر يحضر احياناً لأخذ الصور. لكنها كانت ترفض ذلك في كل مرة؛ لم تكن تهوى ذلك وتجد ان وجهها غير ملائم للتصوير. وفي الوقت الذي كان معظم الآخرين يقبلون

بطيبة خاصر على اخذ صور لهم، كانت رايسا توافق على ذلك حين يتعلق الأمر بصورة رسمية لا بد منها ».

تقول احدى زميلاتها التي اصبحت صديقة لها اعتباراً من عام ١٩٥٩ : « عندما قدمت الينا، كانت شابة جميلة، في غاية الأناقة وعصرية. وغالباً ما كنا نظنها طالبة. احياناً، يتولى الطلاب مهمة البوّاب، على مدخل المعهد ويرفضون السماح لها بالدخول الى قاعة الأساتذة. وتبادر الى الشكوى من ذلك قائلة : « لقد حسبوني مرة جديدة طالبة. ينبغي عمل شيء بهذا الخصوص ». كانت علامات الضيق تبدو على وجهها مع بعض المباهاة ايضاً. كنا نبتسم جميعاً. كانت رايسا تبدو على الدوام لطيفة ورقيقة الشعور، وتشارك دائماً في اعمال يوم السبت المجانية، وتتناول الفوطة وترفع الغبار. كنت ما أزال طالبة واصغر سناً منها. كانت تقول لي : « تعالي، سوف نتعلم معاً. تعالي للاستماع الى محاضراتي ». تابعت دراستها في الدكتوراه. كانت ترغب دائماً ان تشق صديقاتها طريقهن الى النجاح. كانت احياناً تعمل معنا حتى ساعة متأخرة. وعندئذٍ يأتي غورباتشيف لمناداتها واصطحابها. لم يكن هذا الأمر يحدث غالباً، لكنه كان يحدث ».

زارها الأستاذ تشوغوييف في منزلها ثلاث مرات، ومن بينها زيارته لها في منزلها في موسكو. كان الأستاذ تشوغوييف يقيم في الشارع ذاته حيث تقيم. ويعرف مسقط رأس غورباتشيف ووالده ومرآب الآليات والجرارات حيث كان يعمل حين كان امين سر الحزب في كراسفوغارديسك. في الماضي، عندما نقل الى ستافروبول، اقام بعض الوقت في البناء المخصص لمسؤولي الحزب، في شقة تقع تحت المسكن الذي أقام فيه آل غورباتشيف في ذلك الحين. يقول : دعتني مرتين لزيارتها. كان الوقت مساء، بعد انتهاء العمل، واقترحت ان تصطحبني معها، ثم الحّت عليّ بالدخول الى منزلها والاطلاع على نمط عيشها فيه ».

ما زال زملاء رايسا القدامى يكنّون لها الصداقة. وكانت رايسا ترسل لهم، بمناسبة عيد الثورة، بطاقات التهنئة. لا تنسى زملاءها كما لا تتنكر ايضاً لمعارفها السابقين في الأعياد. بمناسبة زيارتها لستافروبول توجهت للقاء الأساتذة. يقول زملاؤها القدامى انها لم تتغير « كانت تحدثنا بهدوء ونعومة كما لو انها ما تزال في الصف، وقد لفتنا نظرها الى ذلك ». وتروي زميلة لها في جو من المرح والضحك انها لم تنزعج من هذه الدعابة. بوصفها زوجة الشخصية الأولى في الاتحاد السوفياتي، بقيت متلبسة دور الاستاذ، ومتوترة بعض الشيء، مع حرصها على التصرف البالغ اللياقة مع الملكات وزوجات الرؤساء ورجال السياسة والصحافيين. وهذا ما يعبر عنه بالانكليزية بكلمة Prim أي التعالي بشيء من الرقة والتودد، لأنها تعرف كيف تضفي الى صرامتها الابتسامة والمرح. ولها نوع من السحر يضفي على ظهورها رونقاً هادئاً مشوباً ببعض القساوة والصرامة.

في ستافروبول، يبدو ان اسرة غورباتشيف عاشت حياة فيها الكثير من الرزانة. ويقال ان الأمر كان كذلك ايضاً في موسكو. فاذا صحت هذه الأقوال، فهذا يعني ان ميخائيل وزوجته يفتقران الى البشاشة والتودد مع اصدقائهما. حين يعود الى المنزل مساءً، تعمد زوجته الى ارسال الخادمة الى بيتها، ويتناولان العشاء معاً. كذلك اليوم، في الخارج، لا يشارك غورباتشيف سوى في الولائم الرسمية، وهذا ما يؤكد على علاقة في منتهى الوثوق بين كائنين يكرسان ساعات المساء لمراجعة أحداث النهار والتفكير بها.

مهما يكن، فإن من يدخل إلى شقة غورباتشيف، لا يفتح له الباب موظف أو زميل بل من اولئك الذين يشاركون آل غورباتشيف همهم الثقافي. كان كولوديتشوك واحداً من افراد هذه الحلقة من الأصدقاء الحميمين. أما ليليا التي تنتمي الى اسرة مثقفة في احدى المدن الصغيرة، فقد رزقت بابنة في السنة ذاتها مثل رايسا. وكانت الرئيسة المباشرة لميخائيل في لجنة

الشبيبة الشيوعية فيما تولى زوجها ادارة الشؤون الثقافية في المدينة. وطوال سنوات عديدة، من فترة الانفراج، غالباً ما كانا يلتقيان غورباتشيف وزوجته. وكان الأربعة يقرأون معاً المجلة الأدبية « نوفي مير » التي أخذت، تحت ادارة رئيس تحريرها الكسندر تاردوفسكي، تلقي نظرة كاشفة على الواقع السوفياتي. في هذه المجلة صدرت رواية سولجنستين « يوم في حياة ايفان دينيسوفيتش »، كما نشرت له لاحقاً فيها : « بيت ماتريونا ». كذلك قرأ غورباتشيف قصة حول معسكرات الاعتقال، برفقة بعض الأصدقاء من الذين كان اقرباؤهم ضحايا القمع فيها.

تروي رواية « بيت ماتريونا » حياة قرية كان غورباتشيف يعرفها. واكتشف ايضاً ان سولجنستين يتحدر مثله من المقاطعة ذاتها، لأنه رأى النور في كيسلوفوسك، على هضاب القوقاز، وان افراد عائلته يقيمون بالقرب من بريغولنوي، في محلة سوفياتسكي. قرأ الأصدقاء الأربعة كذلك الكتاب الشهير « صفحات من تاروسا » الذي نشرته مجموعة من الكتّاب الشباب الأحرار في مدينة صغيرة بالقرب من موسكو. بعد سنوات من الواقعية الاشتراكية ــ كان ستالين يعمل على تحويل الشعراء » الى « مهندسي النفوس » ــ عادت ترتفع مجدداً اصوات كبار الروائيين الروس السابقين، وهي اصوات عذبة وانسانية وتخنقها بعض الكآبة. كانت رايسا، كما تروي صديقاتها، تهوى الشعر بوجه خاص : انّا اخماتوفا، بوريس باسترناك، نيقولاي غوميلييف. كان ميخائيل يحفظ عن ظهر قلب صفحات وفصولاً كاملة للكتاب الروس الكلاسيكيين، وبامكانه ايضاً استظهار ديوان « فارس ايرينا وبولتافا ». لم يكتفِ بحفظ قصائد ليرمونتوف غيباً، بل راح يبحث عن جذور شاعر بياتيفورسك، في جنوبي منطقة ستافروبول، حيث لقي ليرمونتوف مصرعه في المبارزة. يصف هذا الشاعر، في مؤلفاته امكنة واحداثاً عاشها في هذه المنطقة، الأمر الذي جعل غورباتشيف ينجذب اليه بوجه الخصوص.

اعتاد غورباتشيف منذ عهده في المدرسة ان يتعلم. ولم يكن بحاجة

الى بذل الجهد لهذا الغرض، على حد ما يقول احد اصدقائه. لكنه كان يطبق أيضاً الشعار القائل : « لا سلطة من دون اطلاع ومعرفة ». كان اصدقاؤه يعجبون لقوة ذاكرته، اما معاونوه فكانوا يدهشون للأسماء والوجوه التي يتذكرها والتي لم يلتقِ بها سوى مرة واحدة. وهذه الموهبة في غاية الأهمية في السياسة.

عام ١٩٦٠، تبوأ غورباتشيف منصب امين السر الأول لاتحاد الشبيبة الشيوعية لمنطقة ستافروبول. وفي ذلك العام أيضاً، قيّض له الانتقال لأول مرة الى الكرملين للمشاركة في الاجتماع العام للمناضلين الشيوعيين. لم تكن ستافروبول ببعيدة عن العاصمة، اذ كانت اخبار التغييرات والتفسيرات التي تعطى لها في عهد خروتشيف تصل ايضاً الى المسؤولين المحليين وكان لا بد لها من اثارة اهتمامهم. حاول نيكيتا خروتشيف اعتباراً من عام ١٩٥٧، اصلاح الادارة والاقتصاد من خلال الحدّ من المركزية وتشجيع المبادرة الفردية بغية تنشيط الحركة الانمائية. فاصطدم بمقاومة المكتب السياسي، لكنه عمد الى خطة بارعة تقوم على دعوة مندوبي اللجنة المركزية والى مساندة الماريشال جوكوف والعسكريين، فنجح في تقويض نفوذ من كان يطلق عليهم « المجموعة المناهضة للحزب » وهم مولوتوف ومالينكوف وكاغانوفيتش.

كان عهد الادارة الجماعية يوشك على نهايته، وتسلّم خروتشيف ــ الذي تقاسم السلطة لبعض الوقت مع بولفانين ــ رئاسة الحكومة، وفي الوقت عينه رئاسة الحزب. وسبق لستالين وحده ان تولّى حتى الآن هذين المنصبين معاً. كان خروتشيف يتمتع بسلطات واسعة، حتى ولو كان يرفض، بتواضع كاذب، ان تطلق عليه تسمية الأمين العام، بل فقط الأمين العام الأول للحزب. اصبح باستطاعته منذ الآن اصلاح الأوضاع الزراعية. وهو يدرك ان هذه العملية الاصلاحية باتت ملحة لأن عقم النظام الكولخوزي وعواقبه، اضافة الى بؤس الريف، شكلت كلها احد الأعباء الثقيلة للسياسة السوفياتية.

أثر وفاة ستالين، أخذت حياة الفلاحين بالتحسن شيئاً فشيئاً، لم تكن لديهم بطاقة هوية ولا يستطيعون كالاقنان مغادرة أرضهم. فجرى تخفيض الحصص التي يتوجب على الفلاحين والعمال الزراعيين تسليمها سنوياً الى الدولة، وبوشر بتطوير المكننة الزراعية ومنحوا مزيداً من حرية التقرير، فلم تعد السلطات المركزية في موسكو هي التي تقرر ما ينبغي زراعته في الأراضي الكولخوز، بل سلطات المناطق المعنية. في نهاية الخمسينات، الغيت محطات الآليات والجرارات وبيعت الآليات الى الكولخوزات، وقد شكل ثمن شرائها المرتفع عبئاً جديداً على كواهلها. وتم تحسين نظام تدوين المحاصيل الزراعية. واعلن عن توفر محاصيل جيدة في اراضي كازاخستان، التي جرى استغلالها بناء لتعليمات خروتشيف، الأمر الذي خفّف عن كاهل الزراعة في المناطق الأخرى.

غير ان هذا التقدم لم يكن في كل حال واضحاً وسهل المنال؛ فقد حث خروتشيف، في وقت ما، فلاحي الكولخوزات على العمل كاجراء في مزارع الدولة. واذا كانت الكولخوزات ليست تعاونيات بالمعنى الصحيح للكلمة، واعضاؤها ظلوا في كل حال فلاحين اصيلين لا أجراء، فان عدد هذه الكولخوزات قد تضاءل الى النصف في عهد خروتشيف، فيما تضاعف عدد مزارع الدولة وبعضها بلغ احجاماً ضخمة. كذلك اعطى تعليمات بوجوب اللحاق، خلال ثلاث او أربع سنوات، بمعدلات الانتاج الأميركي للحوم والزبدة والحليب ومضاعفة الإنتاج الزراعي السوفياتي ثلاث مرات، وهذا بالطبع متعذر وقد أدّى مرة أخرى الى تزييف النتائج المسجلة في المناطق الزراعية. من جهة أخرى، اوعز خروتشيف، بعد زيارته للولايات المتحدة الأميركية، الى الفلاحين بزراعة الذرة، معلناً ان « الذرة توازي المقانق ». غير ان الفشل كان ذريعاً في المناطق التي لا يتلاءم مناخها مع هذه الزراعة، فيما تبين في مناطق أخرى ان زراعة الذرة ارفع كلفة من سائر الأعلاف الأخرى.

ازدادت النقمة في صفوف الادارة والحزب من جراء السياسة التي ينتهجها خروتشيف والقائمة على اطلاق الحملات الجديدة باستمرار، ولعدم توفير الضمانات للموظفين لجهة بقائهم في وظائفهم، فيما يجدون انفسهم في خضم تجارب غير مضمونة النتائج من الوجهة الاقتصادية. فضلاً عن ذلك كان يطلب اليهم تولي مهمة القيام بتوجيهات ايديولوجية جديدة. اذ شرع خروتشيف بالحديث عن «دولة الشعب بأجمعه». وهو يرى ان الاتحاد السوفياتي قد دخل، عام ١٩٥٩ مرحلة «بناء الشيوعية». وهي المرحلة الأخيرة قبل تحقيق الشيوعية بشكلها النهائي. اذا كان هذا الطرح العقائدي يرمي الى نزع فتيل الصراع بين الشعب والدولة، فقد استخدم لرسم سياسة اصلاحية في حقلي الحقوق والعدالة، كما توافق مع جهود خروتشيف للتخفيف من حدة الفروقات الاجتماعية بصورة خاصة، في حقل التعليم، ولتحسين الظروف المعيشية للعمال والفلاحين بصورة عامة.

على هامش هذه التوجيهات الجديدة التي تتوافق في العمق مع قناعات خروتشيف، هبّت فورات عنيفة مثلاً ضد الفنانين والمثقفين الذين افادوا في مطلع عهد خروتشيف من مزيد من حرية التعبير والعمل. اذا كانت هذه العودة الى التشدد والتصلب تستجيب لارادة عدد وفير من كبار مسؤولي الحزب، فان هؤلاء كانوا يتخوفون في الوقت عينه، من قرارات خروتشيف الشخصية الفظة، التي قضت أحياناً بخلع بعض الموظفين الذين اعتبرهم غير كفوءين او اتهمهم بكبح مسيرة التقدم، وباستبدالهم بسواهم. كذلك قادته خيبة الأمل من عدم نجاح خططه الاصلاحية في الحقل الزراعي الى استبدال وزير الزراعة مرات عدة والى السعي الى تجزئة الحزب الى جهازين من خلال انشاء ما يمكن تسميته الحزب الشيوعي الزراعي والحزب الشيوعي الصناعي.

كان ميخائيل غورباتشيف، يعي، بتجربته الشخصية، المشاكل الزراعية التي نشأت ابان حكم خروتشيف. ألم يكن من المسؤولين القلائل الذين

عملوا في قطاع تبين انّه يرتكز على الآلـة الحاصـدة ــ الدارسـة. مـن الجائز ان يكون غورباتشيف قد اطلع من خلال ما يشاع، على الوضع السائد وتبرّم الكتاب والمفكرين، ولم يسمع سوى اصداء الصراعات الدائرة غير انه كان بالتأكيد شاهداً على ما اتهم به الحزب في المؤتمر العشرين بأنه على علم بكل ما يجري وبادر اعضاؤه الى انتقاد الادارة وحاولوا عن طريق الانتخاب استبدال المسؤولين خصوصاً في اتحاد الشبيبة الشيوعية. لا شك بأن اصداء الأزمة في المعسكر الشرقي ــ كما برزت في بولنده ــ قد بلغته، وخصوصاً الأخبار المتعلقة بثورة الشعب والحزب في المجرّ. بعد عامين او ثلاثة، كان معظم الشعب السوفياتي قد نسي التمرد المجري. غير اننا نميل الى الاعتقاد بأن تلك الأحداث قد تركت أثرها في التفكير السياسي لغورباتشيف. كان يستطيع، بالطبع، رسم صورة تقريبية عن الواقع السائد من خلال الخطابات ومواقف اجهزة الحزب الرسمية، والتي كان عليه تمحيصها والابلاغ عن مضمونها، وكان موقفه هذا يشمل ايضاً النصوص التي تعالج اصلاح العقيدة والاقتصاد والمجتمع. اذ تشكل هذه المعلومات اداة اساسية بيد المسؤول. فضلاً عن ذلك، اذا كان يفترض بصورة بديهية بالموظف ان يؤيد علانية الخط الرسمي وينتقد خصوم خروتشيف، فهذا لا يعني ان هذا الموظف يفتقر الى الرأي الشخصي.

كان لغورباتشيف افكاره وتجاربه الشخصية. احياناً كان يردد، في حلقة ضيقة من الأصدقاء، هذه العبارة لبليغانوف : « ان الدقيق الذي يمكن ان نعدّ منه الحلوى الاشتراكية لم يطحن بعد ». هذا لا يعني تشكيكه بالفكرة الاشتراكية، بل يجد ان تحقيقها غير كافٍ ورضى المسؤولين عن ذلك يمثل بنظره نوعاً من خداع الذات. في مطلع الستينات، رأى غورباتشيف في خطابات خروتشيف وخططه الكثير من الأمور التي كان لها ان تعطيه الانطباع بانطلاقة جديدة نحو واقع أفضل. لكن هذا الرأي لم يمنعه، كرجل واقعي، من الانتقاد. واعتبر ان أكبر انجاز حققه خروتشيف في تلك الحقبة

وكذلك فيما بعد، يتمثل في تحطيم اسطورة ستالين، ولم يبدل رأيه حول هذه النقطة، حتى بعد سقوط خروتشيف عام ١٩٦٤. غير ان الكثير من جوانب سياسة خروتشيف بدا له طوباوياً وغير واقعي.

في تشرين الأول (اوكتوبر) عام ١٩٦١، زار غورباتشيف للمرة الثانية الكرملين، كمندوب الى المؤتمر الثاني والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي. لم يكتفِ هذا المؤتمر بادانة جرائم ستالين، بل كشف بأن الأعضاء المعزولين من المكتب السياسي امثال مولوتوف ومالينكوف او فورشيلوف، يتحملون قسطاً من المسؤولية عن تلك الجرائم. وأبرزت الصحف احكام الاعدام التي وقعوها بحق اعداء الشعب المزعومين وعائلاتهم. وأخرجت ليلاً رفات ستالين من الضريح الكائن في الساحة الحمراء ودفن على مقربة من حائط الكرملين. واعيدت الى مدينة ستالينغراد التي كانت مسرحاً مهماً للحرب العالمية الثانية تسميتها « فولوغراد ».

فاجأ هذا التطور عدداً من المندوبين في المؤتمر. فالأقدمون الذين خاضوا الحرب في عهد ستالين، وحصلوا ايضاً على مناصب رفيعة في فترة الارهاب من خلال الافادة من المراكز التي شغرت اثناء عمليات التطهير، ساورهم القلق واحياناً الاضطراب الشديد. ذلك ان ادانة جرائم ستالين، مهما كانت فظيعة ومأساوية، كانت تقتصر على الطاغية ومعاونيه. كما ان تسمية نظام ستالين « بعهد عبادة الشخص » كانت تخفف هي ايضاً من حدّة ذلك الواقع الأليم. ولم تكن تعرض فظاعة الجرائم ولا اسبابها التي قد تؤدي الى افساد الاشتراكية. ويقتصر الأمر على اقصاء ومعاقبة مجموعة من كبار الضباط والمسؤولين في الشرطة السرية التي جعل منها بيريا (وزير الداخلية) السلاح السياسي الأشد فتكاً في عهد ستالين. ولم تعد الشرطة السرية الجهاز الأقوى، اذ وضعها خروتشيف تحت سلطة الحزب، معتقداً انه يمكنه بذلك وضعها في خدمته.

اذا كان النقد الذي تناول نشأة الستالينية ونتائجها قد وجد نفسه محصوراً ضمن حدود لا يستطيع تجاوزها، فان نقد ستالين لم يتوقف. وكان المسؤولون في اجهزة الحزب يجهلون الحد الذي ستبلغه حملة خروتشيف. وهل تستهدف القادة المعزولين في الحزب فحسب ام تطال رجال الحزب الذين استشعروا خطرها المحدق. وهذا ما أدى الى توقيت اطلاق الحملة ضد خروتشيف في ذلك الحين بغية السخرية منه عبر تشويه بعض خططه الأكثر جرأة. فاتهم بالمغامرة والتهور والسذاجة خصوصاً حين راح يؤكد ان « الانسان الجديد القادر وحده على تشييد صرح الشيوعية، اصبح على وشك الولادة في الاتحاد السوفياتي ». ولم يعد جائزاً للمواطنين السوفيات ان ينشطوا بدافع الطموح والطمع والغيرة حتى عام ١٩٨٠. مع ذلك باءت محاولة توفير الخبز مجاناً بالفشل — على أساس ان احداً لن يأخذ منه اكثر مما يستطيع استهلاكه — فقد عمد الفلاحون على تربية مزيد من الدجاج التي يطعمونها من الخبز الذي يتسلمونه مجاناً. كان خروتشيف غير عملي في العديد من المواضيع التي سعى لتنفيذها او دعا لها. فاغتنم خصومه الفرصة للسخرية من احلامه...

عندما يأخذ المواطنون السوفيات بالسخرية من قائدهم، فهذا يعني دائماً ان الحكم مهدّد بالسقوط. لم يكن خروتشيف يصغي الى ما كان يقال علناً ضدّه، او لم يكن يريد أخذه بعين الاعتبار. عند ذلك، بدأت المعارضة لسياسته الاصلاحية بتنظيم نفسها. وحصل التقارب بين كبار الموظفين لضمان خطر نقلهم او خلعهم. وبدأت المؤامرة التي سوف تطيح بخروتشيف بالتجذر شيئاً فشيئاً، في شكل شبكة سرية امتدت الى كافة اجهزة الحزب والدولة والجيش.

لم يتأثر المندوبون الشباب الذي لم ينخرطوا في الخدمة في عهد ستالين باسطورته بالدرجة ذاتها التي تأثر بها من هم أكبر سناً. ولم يصبهم الذهول من جراء المنحى الذي اتخذه المؤتمر الثاني والعشرون كما لم يجدوا

فيه ما يهدد مكانتهم او وظيفتهم. يروي بعض اصدقاء غورباتشيف ردة فعله كمندوب على النحو التالي : في ذلك الوقت، كما فيما بعد، كان يكنّ كل الاحترام لخروتشيف، ولم يتبنَ الانتقادات التي وجهها بعض المسؤولين الآخرين الى حكمه، في عهد بريجنيف. لكنه وجّه نقداً لاذعاً للعديد من النقاط الواردة في البرنامج المقدم للمؤتمر. كان نيقولاي دورخين الرئيس المباشر لغورباتشيف في اتحاد الشبيبة الشيوعية في ستافروبول، ويشغل حالياً منصباً في اللجنة الاقليمية للحزب، وقد شارك غورباتشيف غرفته في الفندق وجلس بجانبه في المؤتمر. يقول : « عندما قال خروتشيف ان الأمور ستجري من الآن وصاعداً بوتيرة متسارعة وانه سيتسنى لنا في حياتنا رؤية تحقيق الشيوعية؛ نظرنا بعضنا بعضاً. لم نهزّ الرأس علامة الامتعاض بل كنا كذلك في قرارة نفسنا. بدا لنا هذا الأمر طوباوياً تماماً، لأننا كنا ندرك، بالفعل، الوضع الحقيقي الذي تتخبط فيه الزراعة. كنا نتحادث بذلك صراحة، حين كنا نلتقي في الغرفة ».

كان غورباتشيف، في سن الثلاثين، ما يزال شاباً وبعيداً عن مركز السلطة كي يعمل خصوم خروتشيف على تجنيده في صفوفهم، مع العلم انه ليس مغموراً في منطقته. اشتهر غافريل بوبوف بأنه يشغل منصب مستشار غورباتشيف في السياسة الاصلاحية، وفي الوقت عينه احد نقّاد هذه السياسة. وقد ذكر انه سمع بهذا المسؤول الشاب منذ عام ١٩٦١؛ في الفترة التي كان يعمل فيها في احدى القطاعات السياسية المهمة. تابع بوبوف دروسه في موسكو في عهد الانفراج، وظل مقيماً في العاصمة. واشتغل، بوصفه خبيراً شاباً، في فريق عمل الكسي كوسيغين على وضع اسس الاصلاح الاقتصادي.

كان يستهوي هذا العالم الشاب ان يختبر، مع مشاهير العلماء الاقتصاديين والمسؤولين الحكوميين، مدى قابلية اقتراحات الاستاذ افساي ليبرمان للتطبيق. وكان ليبرمان عالماً اقتصادياً من كركوف وينوي إدخال بعض عناصر

الاقتصاد الحر الى الاتحاد السوفياتي (مثل العرض والطلب) وترك المزيد من الاستقلال للمؤسسات. كانت هذه الأبحاث تتيح لبوبوف ايضاً لقاء الأشخاص الذي يعدون عناصر القرار في جهاز الدولة. ولم يكن هؤلاء الأشخاص من الوزراء او من المكتب السياسي بل مساعديهم.

كان اثنان من هؤلاء المساعدين (قد اصبحا فيما بعد اعضاء في المكتب السياسي) يعملان مع اختصاصيين في الزراعة، هما كولاكوف ومازوروف، وجاءا من ستافروبول الى موسكو، وتحدثا مع غافريل بوبوف عن شاب من مسقط رأسهما، عاد الى ستافروبول بعد انهاء دروسه في جامعة موسكو، وعرف تقدماً سريعاً في الشبيبة الشيوعية. ويذكر بوبوف انه سمعهما يرويان في ذلك الحين او لاحقاً ان غورباتشيف كان شاباً ذكياً ولكنه كتوم، ويعمل بجدية ونشاط وليس له طموح شخصي زائد. ويقول بوبوف اليوم، ان هذه الأمور تشكل صفات حميدة تعزز التقدم في الحزب. وسوف يحترم القادة الأكبر سناً هذه الصفات في غورباتشيف فيما بعد.

التقى فيودور كولاكوف بعد حين ميخائيل غورباتشيف. وكان خروتشيف قد اختلف مرة أخرى مع وزير الزراعة وعينه أمين السر الأول للحزب في منطقة ستافروبول. وفي آذار (مارس) عام ١٩٦٢، صار ميخائيل غورباتشيف عضواً في لجنة الحزب. كان خروتشيف يعمل على اعادة تنظيم الاقتصاد والزراعة. واتخذ سلسلة من التدابير الادارية التي تعيد ربط الاقتصاد بصورة وثيقة بالدولة. وكان على الكولخوزات ان تتحول الى مزارع دولة. ووجد الحزب نفسه مسؤولاً عن مهام جديدة في ادارة الاقتصاد. فتولى غورباتشيف دور المنظم في الحزب لاحدى اكبر الوحدات الزراعية المنوي انشاؤها. كان لاطلاعه على احوال القرى والفلاحين في جوار ستافروبول، اهمية بالغة في هذا المجال، اضافة الى معارفه القانونية وخبرته كمنظم ومروج دعائي طيلة سنوات عمله في الشبيبة الشيوعية. وقد شكلت الأبحاث العلمية

لرايسا غورباتشيف حول وضع الفلاحين ورقة اضافية رابحة. لقد كان في هذا العمل التنظيمي ضمن حقل اختصاصه.

كان غورباتشيف مهيأ لهذا العمل بصورة رائعة. لا نعلم ما كان يعتقده بشأن مشروع خروتشيف الذي يتضمن تحويل الفلاحين شيئاً فشيئاً الى اجراء في المدن الزراعية. فلو كانت له تحفظات معينة ــ وهذا محتمل ــ لكان كولاكوف تفهمها بكل تأكيد. في كل حال، طوى سقوط خروتشيف، بعد سنتين، صفحة ذلك الاصلاح الزراعي. وبعد سنة، عرض خلفه بريجنيف المصاعب التي اصطدمت بها محاولة انشاء وحدات زراعية ضخمة. وسوف تتطور الكولخوزات ومزارع الدولة في المستقبل منفصلة عن بعضها بعضاً، كما سيتوجب مساعدة التعاونيات الزراعية الهشة.

العالمون ببواطن الأمور من اوساط النخبة في موسكو يطلقون على عمليات اسقاط خروتشيف تسمية «مؤامرة الداتشا» لأن خصومه كانوا يلتقون في المنازل الريفية لكبار الموظفين. كما ان فيودور كولاكوف الذي أبعده خروتشيف الى ستافروبول نظم رحلة لبعض المسؤولين في موسكو، الى بحيرة مانيتش الواقعة في منطقة ستافروبول، وكلا الإبعاد والرحلة لعبا دوراً ما في تخطيط المؤامرة... اثارت سياسة خروتشيف الانتقامية السخط والقلق وادت الى سقوطه، اذ ضمت المؤامرة اناساً تختلف القطاعات التي ينتمون اليها وتتباين مصالحهم واهتماماتهم من تلك المؤامرة.

يرى ميخائيل سوسلوف، عضو المكتب السياسي ان القضاء على الستالينية وايديولوجيتها بلغ شأواً بعيداً. فالاقتصاديون داخل الحزب والحكومة كانوا ضد خروتشيف بسبب اجراءاته الاصلاحية المتعرجة وانتفاء النتائج. اما العسكريون فقد نجحوا في الحصول من خروتشيف على زيادة موازنة التجهيز، غير انهم لم ينسوا محاولته تخفيض موازنة الدفاع، ويرون ان الوضع السوفياتي في دول اوروبا الشرقية التابعة للاتحاد السوفياتي قد ضعف من جراء تردد

القادة. ألم يقم صهر خروتشيف بزيارة بون لدواعٍ غامضة. كما كان امناء السر الاقليميون ــ وهم ولاة محليون على جانب واسع من النفوذ ــ وقادة اللجنة المركزية والمكتب السياسي يشعرون بالخطر من جراء القرارات الفجة التي يتخذها خروتشيف. وحدهم المثقفون كانوا موضع ثقة خروتشيف، غير انهم لم يكونوا واثقين من سياسته وخمدت همتهم. لقد غالى خروتشيف في تقدير قوّته وامكاناته لتغيير البلاد وحده ومن فوق.

امضى خروتشيف أيام الخريف الأخيرة في ممارسة مهامه في الداتشا الحكومية في « بيتسوندا » على البحر الأسود. فدعاه رئيس اللجنة المركزية بصورة غير منتظرة الى موسكو. وتولى سوسلوف امين سر اللجنة المركزية امامه وأمام المكتب السياسي، عرض لائحة طويلة من قراراته الخاطئة. فلم يتخذ أحد من الحضور جانب الدفاع عنه ولم يبقَ له سوى الموافقة على الاستقالة، « لأسباب صحية ». واجتمعت اللجنة المركزية في ١٤ تشرين الأول (اوكتوبر) عام ١٩٦٤ وقررت بالاجماع إقالته من منصبه في رئاسة الحزب والحكومة واقصائه عن اللجنة المركزية ولم يتدخل احد لصالحه وتخلى هو عن المقاومة.

يرى الكاتب اناتولي ستريلياني الذي تحدث الى بعض معاوني خروتشيف؛ في تلك الحقبة، ان الأمين العام ورئيس الحكومة فقد رغبته في الدفاع عن خططه الاصلاحية لأنه لم يكن يرى فيها الحل المطلوب. واختنق خياله السياسي من جراء انشغاله بالتفكير العقائدي طيلة سنوات عدة، فلم يتح له الاقرار بوجوب تغيير النظام بشكل أكثر جذرية مما كان قادراً على تصوره. من هنا كانت مأساة خروتشيف.

حاك ميخائيل سوسلوف المؤامرة، لكنه اكتفى بلعب الدور الذي اتقنه حتى وفاته، وهو دور الموجّه الخفي والمنظّر العقائدي للحزب، من دون أية وظيفة تنفيذية. وبذلك أصبح ليونيد بريجنيف المنتصر رئيس الحكومة الجديد الكسي كوسيغين ورئيس الجمهورية الجديد نيقولاي بودغورني.

وجد خروتشيف نفسه منفياً في منزله الصيفي بالقرب من موسكو. وتحاشاه زملاؤه القدامى وعاش في عزلة شبه تامة. أثر وفاته فقط، تذكّره المثقفون، باعتباره رجلاً قضى على الستالينية وانقذ البلاد من الشلل والتحجر ووفّر لها فرص التنفس والحياة طيلة بضع سنوات، لقي لاحقاً من جانب الذين املوا في التغيير وعملوا في سبيل الاصلاح، الكثير من الاحترام، في ظل بريجنيف. اذ اضطر معظمهم الى دفن آماله. وعلى كل مسؤول في الحزب ينوي مستقبلاً السير في طريق التغيير، ان يتخذ من محاولة خروتشيف وفشله امثولة وعبرة.

لم يعد غورباتشيف مسؤول الحزب في أية ادارة مولجة بالانتاج. عاد مجدداً للعمل في ستافروبول كرئيس للقسم في اللجنة الاقليمية للحزب. وعاد فيودور كولاكوف، من جهته، إلى موسكو، حيث عيّن أمين سر اللجنة المركزية لشؤون الزراعة. لم يكن الصراع على السلطة داخل الحزب، خافياً على كولاكوف، اذ كان احد وزراء الزراعة في عهد خروتشيف، قبل ان ينتقل من موسكو الى ستافروبول، ولعب دوراً في المؤامرة التي اطاحت بخروتشيف، وقد ادخله خلفاء خروتشيف في اللجنة المركزية للأشراف على السياسة الزراعية، قبل ترقيته الى المكتب السياسي. كان واحداً من الذين يتقنون اصول اللعبة وضروب الاحتيال التي يقوم بها الجهاز الحاكم. كان شخصاً ذا قيمة بالنسبة لغورباتشيف، اذ وجد فيه شخصاً مطّلعاً في العمق على اعمال اجهزة الحكم المركزية، فضلاً عن ان غورباتشيف يعرف مؤهلاته لكونه تعاون معه بشكل وثيق.

نال غورباتشيف، في ستافروبول أيضاً، المزيد من النفوذ والتقدير. فكان زملاؤه يجدونه منكباً على العمل، بدلاً من التواجد في اندية التسلية والشرب، حيث كان يتلاقى عدد من المسؤولين في عهد بريجنيف. أمست حياته اليومية أكثر هدوءاً واشراقاً. وكان انتقل مع زوجته، قبل ولادة ابنتهما، من الغرفة التي اقاما فيها الى شقة مؤلفة من غرفة واحدة. وعندما عيّن

امين سر اللجنة المحلية لاتحاد الشبيبة الشيوعية، منح حق الاقامة في شقة من غرفتين. ويقيم حالياً مع زوجته وابنته في شقة من ثلاث غرف، وشرفة، في مسكن مخصص لكبار الموظفين.

جاء تعيينه في منصب امين سر الحزب في المدينة ليدفعه خطوة الى الأمام، فتوسع حقل نشاطاته. على الرغم من ان عمله الجديد اخذ يستغرق كل وقته شيئاً فشيئاً، فانه بقي يتابع دراسة العلوم الاقتصادية بالمراسلة في معهد الزراعة العالي، اذ ان استكمال معارفه الحقوقية بالجانب الاقتصادي، يدر عليه فائدة لا بد منها. فعاد الطالب العامل الذي كان، كما يخبر عنه الأستاذ تشوغيبف الذي كان يشغل منصب استاذ محاضر في معهد الزراعة العالي: « كان ميخائيل الطالب الوحيد تقريباً الذي يتمّم جميع فروضه. كان يتممها بنفسه ولم يرغب بنيل الشهادة بالنظر للمكانة التي يحتلها. كان يشارك في كافة الحلقات الدراسية، لأنه لا يحتمل، بصفته امين السر الأول، ان تكون نتيجة دراسته ادنى من الآخرين. أتاحت له هذه الدروس بالمراسلة في العلوم الاقتصادية اكتساب معارف واسعة جداً في العلوم الاقتصادية : فهي احدى العلوم التي حققنا فيها أفضل المستويات — ٨٠٪ من الطلاب ينالون علامات ممتازة ». في الواقع، عرف معهد الزراعة العالي في ستافروبول بجودة أبحاثه الزراعية، كما اكتسب شهرة واسعة ايضاً في حقل التعليم. في أيام غورباتشيف كان عدد طلاب هذا المعهد يناهز السبعة آلاف الى جانب عشرين استاذاً، واربعماية استاذ مساعد ومحاضر. فضلاً عن مكتبة تضم نصف مليون كتاب تتيح للطلاب تعميق معارفهم.

افاد غورباتشيف من المكتبة على نطاق واسع، كما تبين من البحث الذي قدمه لنيل الشهادة امام اللجنة الفاحصة. كان الاستاذ الكسندر نيكونوف يرئس في حينه تلك اللجنة في ستافروبول، وهو يتولى حالياً رئاسة اكاديمية الزراعة السوفياتية. فوجد، مع زملائه، أن بحث غورباتشيف عمل مميز، ليس فقط لجهة المضمون بل لجهة عرضه وتقديم النتائج النهائية ومناقشتها. لقد

حمل مجموعة من الرسوم البيانية وامسك بقضيب طويل، وتكلم ببساطة وثقة بالنفس. فقارن الاساتذة باعتزاز طريقة تقديمه وعرضه للبحث بالطريقة التي كان ينال بها عادة كبار مسؤولي الحزب شهاداتهم اذ يقدمون بحثاً عادياً للغاية لم يضعوه بانفسهم في غالب الاحيان. ادرك الاساتذة ان غورباتشيف قد درس بجد ونشاط وافترضوا ان زوجته التي يعرفون مدى مؤهلاتها الجامعية قد ساعدته.

يخبر الاستاذ نيكونوف ان الاساتذة علموا في وقت لاحق، ان رايسا غورباتشيف رفضت لاسباب مبدئية مراجعة الامتحان لزوجها. اعجبت اللجنة الفاحصة ببحث غورباتشيف لدرجة ان الاساتذة تساءلوا فيما اذا كان يجدر تقييمه كاطروحة دكتوراه. لكن غورباتشيف رفض الاقتراح، كما رفض بشدة، فيما بعد ، اقتراح المعهد العالي تعيين رايسا استاذة فيه بعد نيلها شهادة الدكتوراه. كان يعلم ان زوجته تتمتع بكافة المؤهلات المطلوبة لمنصب الاستاذية، لكنه ما دام في منصب امين السر الاول للحزب في هذه المنطقة، فان مثل هذا التعيين غير وارد. ويبدو ان هذا القرار اتخذ بالاتفاق التام مع رايسا التي حاذرت القيام بكل ما من شأنه اثارة اقل شبهة من المحاباة والمحسوبية.

يتمتع امين السر الاول للجنة الحزب، في مدينة مثل ستافروبول، بصلاحيات واسعة. فهو اعلى من رئيس اللجنة التنفيذية للمدينة، الذي يتولى مسؤوليات ادارية بحتة. وامين السر الاول مسؤول عن كل شأن : عن المسرح والمدارس، والصحف (غالباً ما ناقش غورباتشيف المسؤولين عن تحرير الصحف في العناوين الرئيسية والمقالات التي ستنشر في الايام التالية)، والمستشفيات الحكومية والخاصة، ووسائل النقل، وبناء المساكن، والمؤسسات الصناعية، وقرارات المحاكم على صعيد المدينة. كان غورباتشيف رئيساً لمركز صناعي وتجاري واداري مهم، في منطقة يهتم بمحاصيلها الزراعية كل الاتحاد السوفياتي. كان هذا المنصب يعطيه في الوقت عينه سلطة عملية، اذا كان باستطاعة امين سر الحزب منح الترقيات على سبيل المكافأة، وانزال العقوبات المسلكية لاسباب تأديبية، كما

يستطيع مساعدة صديق في ايجاد مسكن او مكانٍ في بيت للراحة.

يقال اليوم في ستافروبول ان من الاسباب التي دعت غورباتشيف لاختيار حياة بعيدة عن الناس يكمن في ان الالفة المفرطة مع اصحاب المطالب، على هذا المستوى من المسؤوليات الجسام، تصبح خطرة ومزعجة. كان من المؤلم له رد المطالب المحقة من الوجهة الانسانية، اذ كان على رئيس الحزب في مدينة سوفياتية ان يتوقع سيلاً من الطلبات من معارفه؛ فهذا يطلب تأمين عمل افضل له وذاك ادخال ولد الى مستشفى. يروي زملاء رايسا غورباتشيف انها ابلغت بصورة واضحة أصدقاءها بانها لن تنقل الى زوجها اي طلب يتقدمون به للمساعدة، باستثناء الحالات المرضية الطارئة.

لا شك ان موسكو سمعت ما يروى عن هذا الشاب المسؤول عن الشبيبة الشيوعية؛ وعن الحزب، عن لسان فيودور كولاكوف، احد رؤسائه في ستافروبول، والذي اصبح الآن امين سر اللجنة المركزية. حين جرى البحث، عام ١٩٦٦، عن امين سر اول لاتحاد الشبيبة الشيوعية، كان اسم غورباتشيف على سلم الترقية. فطلب ليونيد بريجبنيف « صورة » هذا الرجل الشاب وتأمل الرسم وقال : انه يفتقر الى الشعر في رأسه لتولي قيادة الشبيبة الشيوعية. وبذلك رفض ترشيحه لهذا المنصب.

امين سر الحزب

كان غورباتشيف منشغلاً، في ستافروبول بمختلف انواع المهمات العملية. غير ان نشاط رئيس الحزب لا يقتصر على وظيفة تمثيلية بحتة. ففي كل مدينة صناعية سوفياتية، كانت التساؤلات، خلال هذه السنوات، كثيرة. في موسكو، سعى الكسي كوسيغين رئيس المجلس، الى اصلاح الاقتصاد السوفياتي. وسبق لنيكيتا خروتشيف، قبل سقوطه بفترة قصيرة، ان اوعز باجراء اختبارين يسيران في الخط الذي وضعه افزست ليبرمان : ففي معملين للنسيج، كان يجري اختبار قيام ادارة اقتصادية هدفها الربح مع منحها سلطات اوسع لادارة المؤسسة.

بعد يومين من استقالة خروتشيف، وسّع الكسي كوسيغين العمل بالنظام الجديد ليشمل مؤسسات اخرى، واعلن عن برنامج اصلاحي يطال كافة الصناعة السوفياتية. بدأ الاصلاح يعطي ثماره، في مرحلة اولى، لكنه اخذ يراوح مكانه، بعدئذ، بفعل النمو الاقتصادي. وقد شدد كوسيغين باستمرار على ان الأمر يتعلق باعتماد الاقتصاد الحر، فيما حصل الجهاز الاداري على التأكيد بعدم المسّ بصلاحياته المركزية. بالطبع، لم يكن « الانتاج الكمي » هو المقياس في العمل او كما سمّي « بايديولوجية الاطنان »، من دون النظر الى النوعية، بل كان يصار الى ادخال مزيد من المعايير والضوابط، الامر الذي ادّى الى ترسيخ النهج البيروقراطي ــ الاداري في ادارة المؤسسة، بدلاً من تخفيفه

والغائه. وساد الشعور في اوساط الاقتصاديين الذين عملوا على بلورة البرنامج الاصلاحي، بان مسيرة الاصلاح توشك ان تسقط مجدداً في الوحل. وتنصّب مناقشاتهم الحالية على الشروع في « الاقتصاد الحر الاشتراكي »، وفقاً لما اقترحه « اوتاسيك » في تشيكوسلوفاكيا.

لا نستطيع الجزم بان هذه المداولات قد بلغت مسامع امين سر الحزب في مدينة ستافروبول، غير ان المشاكل العملية التي طرحها برنامج كوسيغين للاصلاح الاقتصادي لا يمكنها ان تدعه لامبالياً، وهو الذي انكب على دراسة العلوم الاقتصادية ولا بّد انه واجه ذات المسائل المبدئية خلال تلك الدراسة.

لم تكن مشاغل ميخائيل غورباتشيف واهتماماته في ستافروبول غريبة عن المداولات الفكرية والممارسات القائمة في تشيكوسلوفاكيا، في الوقت الذي كان ربيع براغ يعلن قدومه والصراع حول الاشتراكية الدمقراطية على اشده. عام ١٩٦٧، قدم الى ستافروبول، آتياً من براغ صديقه زدينيك ملينار؛ في تلك المرحلة، كان الكسندر دوبتشيك والقادة الشيوعيون التشيكيون الشباب يسعون لعرض وجهة نظرهم في الاتحاد السوفياتي وسائر الدول الاشتراكية، والقائلة بان الاصلاح لن يضعف الاشتراكية بل سيتيح الخروج من المأزق.

اظهر زدينيك ملينار على الدوام وبما لا يقبل الشك حذراً شديداً بشأن علاقاته بغورباتشيف. والاعلان عنها قد يلقي بثقله على علاقاته به. لم يعلن ملينار عن مضمون محادثاته مع صديقه عام ١٩٦٧، كما لم يكشف عما كانت عليه ردة فعل غورباتشيف حيال احداث تشيكوسلوفاكيا. لعلهما استعادا بالمناسبة تلك الاحاديث التي كانا يتداولانها ابان فترة الانفراج عندما كانا طالبين يقيمان في شارع سترومينكا.

عندما توقف ملينار في موسكو، في طريق عودته من ستافروبول، كان له حديث عاصف مع صديقهما المشترك، فلاديمير ليبرمان. فالاستاذ ليبرمان الذي وقع في خلاف مع جهاز الحزب لان تفكيره السياسي لم يكن متوافقاً

مع العقيدة الرسمية، بقي على قناعته بان الوقت ما يزال مبكراً لتصور نظام اشتراكي ذي « وجه انساني ». فوبخ ملينار صديقه؛ وبحسب رواية ليبرمان، قال له : « كنت اعتقد ان تنشئتك وجذورك ونزعتك الليبرالية وتفكيرك غير العقائدي قد يساعدك على تفهم وجهة نظري، غير انني اخطأت. ميخائيل غورباتشيف كان اكثر تفهماً منك مع انه ينطلق من تجربة يومية مختلفة تماماً ».

في تلك السنة، كان ربيع براغ الحدث الاهم. في تشيكوسلوفاكيا، كانت المناقشات ما تزال تدور في جوهرها داخل جدران الحزب، وبين المسؤولين، وكان من السهل الاقرار بالطابع الديمقراطي للافكار الاصلاحية المطروحة. غير ان مسيرة التغيير لم تكن بعد قد اكتسبت تلك الحيوية التي تقود الشيوعيين الى تجاوز الاهداف الاصلاحية التي حدّدوها من قبل. كان من شأن الافكار المتداولة، عام ١٩٦٧، ان تجعل النظام السياسي اكثر انسانية واكثر مردوداً، ولم تتعرض، على الفور، الى البنيات الاساسية للحزب او لدوره القيادي. وكان لا بدّ لهذه الافكار من ان تحظى بتأييد كل مسؤول شاب، يعي ضرورة التغيير، مثل غورباتشيف. غير انه لا يستطيع المجاهرة بتأييده افكاراً تدعو لتغيير النظام. وكان على غورباتشيف ان يضفي على احاديثه مع صديقه ملينار وخططه الاصلاحية، طابع السرية.

صيف ١٩٦٨، اتفق الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية المجاورة على وضع حدٍ للتجربة التشيكوسلوفاكية، قبل ان تتحوّل الى كرة من الثلج. فجمع رئيس الحزب البولوني، غومولكا في تموز (يوليو)، بمناسبة احد المؤتمرات، شمل جميع رؤساء الاحزاب الاشتراكية وعرض لهم بان الوضع في تشيكوسلوفاكيا هو بمثابة ثورة مضادة على درجة كبيرة من الخطورة لكونها لا تستخدم القوة. وان الغاء الرقابة على الصحف يشير، بحسب رأيه، الى ان قيادة الحزب قد تخلت عن دورها في التأثير في مجرى الاحداث.

في موسكو، بدا الغاء الرقابة على الصحف نذيراً بالخطر. فبعد سنوات من احتكار الحزب لوسائل الاعلام، بدت فكرة وجوب التخلي عن مراقبة

المعلومات والافكار محفوفة بالاخطار، كما ان تخفيف الرقابة ينذر بانتصار الثورة المضادة. وفجأة، اعلنت صحيفة « رودي برافو » الناطقة باسم الحزب الشيوعي التشيكي، ان الحزب لا يمكنه ادعاء حقّ التحدث باسم كل الشعب، مشيرة بذلك الى اخطاء الحزب في مسيرته الاشتراكية والتي ينبغي اصلاحها عن طريق الديمقراطية. لقد انجرف الشيوعيون التشيكيون في تيار التحركات الجماهيرية العفوية.

اعدّ عدد من العلماء والمثقفين المعروفين « اعلان الالفي كلمة »، ـــ وهو بمثابة تصفية حسابات حقيقية مع الحكم الشيوعي ـــ وجاء فيه ان اجهزة الدولة لم تعد خاضعة لرقابة الشعب وان الحزب الشيوعي تحوّل من حزب سياسي الى هيئة حاكمة وبؤرة للصراع على النفوذ بين طغمة من الانانيين والطامحين الى المناصب العالية.

وقعّ الاعلان عشراتُ الالوف من التشيكيين، فساور السوفيات الخوف من خطر هذا التأييد العارم، ولم يطمئنوا الى ما جاء فيه على وجه الخصوص، من انه من غير الوارد « فرض » التغيير على الشيوعيين. وبالفعل، تعهدّوا لدوبتشيك والقادة الشيوعيين في تشيكوسلوفاكيا بمساندتهم بالسلاح في حال دخول جيوش أجنبية الى البلاد.

بات التدخل السوفياتي، منذ ذلك الحين، مسألة وقت ليس إلا. وقد نشرت « البرافدا » فيما بعد، التسويغ التالي له : « لا يستطيع الشيوعيون في الدول الشقيقة القبول بالمنطق الداعي الى عدم مساندة دولة تتهاوى تحت وطأة تشويه الاشتراكية، بحجة وجوب احترام مبدأ السيادة [...]. ان نعت تدخل الدول الاشتراكية المتحالفة في تشيكوسلوفاكيا، باللاشرعي، غير قائم. ففي المجتمع الطبقي، لا وجود لحق بغضّ النظر عن الطبقات. وتخضع القوانين والنظم التشريعية لنواميس الصراع الطبقي وتطور المجتمع ». كانت « عقيدة بريجنيف » تستند على هذه المبادئ لتسويغ اللجوء الى القوة لاعادة الدول الاشتراكية الى الصواب، حين يرى الاتحاد السوفياتي ضرورة لذلك. يضيف

مقال « البرافدا »: « كل حزب شيوعي مسؤول ليس امام شعبه فحسب، بل امام كل الشعوب الاشتراكية الاخرى والحركة الشيوعية الدولية ايضاً. فكل دولة اشتراكية تنتظم في وحدة اشتراكية مع دول اخرى، لا يسعها تجاهل مصالح المجموعة التي تنتمي اليها ». في الواقع، ليس القرار بيد « المجموعة » بل في يد موسكو.

ليل ٢١ آب (اغسطس) ١٩٦٨، دخلت الجيوش السوفياتية والمجرية والبلغارية والالمانية الشرقية الى تشيكوسلوفاكيا. اعتقل دوبتشيك والاعضاء الرئيسيون في المجلس الاعلى واقتيدوا في دبابة الى المطار حيث نقلوا الى الاتحاد السوفياتي. وهناك وضع القادة التشيكيون في السجن الواقع في غابة على جبال كاربات في اوكرانيا؛ بعد بضعة ايام، نقلوا الى موسكو للاجتماع مع بعض القادة التشيكيين تمهيداً للقاء « شركائهم » السوفيات. جرى توقيفهم بهدف تنظيم مفاوضات مموّهة لتغطية احتلال تشيكوسلوفاكيا. اما زدينيك ملينار، زميل غورباتشيف في الدراسة، فكان في عداد الموقوفين.

لم يوقظ التدخل العسكري شعوراً بالقلق او تأييداً عارماً في صفوف الشعب السوفياتي. فقد تم الاجتياح بسرعة ومن دون ضحايا تقريباً. بعد عشرين سنة من الترويج الدعائي، اضحت الاكثرية الكبرى من الشعب تسلّم بالفرضية القائلة بان الجيش السوفياتي قد انقذ تشيكوسلوفاكيا من اغتصاب الغرب لها. والاحتجاجات النادرة التي قامت دفاعاً عن قضية خاسرة، بقيت معزولة، مثل تلك المظاهرة التي ضمت سبعة اشخاص ساروا في الساحة الحمراء لبضع دقائق، حاملين رايات صغيرة كتب عليها : « لا تتعرضوا لتشيكوسلوفاكيا ! »، وسرعان ما تدخلت الشرطة وفرّقتها، واعتقلت المتظاهرين قبل ان يتسنى للناس في الساحة التعبير عن رأيهم، وانزلت بالمتظاهرين عقوبات قاسية. غير أن ما يناهز المئة مفكّر سوفياتي وقعوا كتاباً موجهاً الى الرئيس السوفياتي لنصرة المعتقلين.

يتحدث اندره ساخاروف عن تلك المرحلة كأنها منعطف حاسم في حياته.

كان يقوم، منذ عدة سنوات، بنصرة اناس يتعرضون للتعذيب بسبب آرائهم السياسية، او ايمانهم او قوميتهم. وفي عام ١٩٦٨، نشر خلسة مقاله الشهير بعنوان : « آراء حول التقدم والتعايش السلمي والحرية الفكرية »، وسرعان ما انتشر في العالم قاطبة. وفي تلك السنة، أعلن نفسه منشقّاً بصورة رسمية. فهذا العالم الفيزيائي الذي كان احد آباء القنبلة الهيدروجنية السوفياتية، لم يعد له حق المشاركة، بعد الآن، في الابحاث السرية، وفقد امتيازاته، مع الابقاء على صفته العلمية كمساعد له وزنه في معهد الفيزياء. وفيما كان ينشط بصورة طبيعية في الظاهر، تبين انه يسير في طريق ادّت به الى المنفى في غوركي، عام ١٩٨٠، حيث عاش منعزلاً وتحت الرقابة السياسية الدائمة، الى ان اتصل به غورباتشيف بالهاتف داعياً اياه الى موسكو : انها احدى اللحظات النادرة والفريدة في السياسة السوفياتية، والتي سوف تكون حاسمة في حياة الرجلين.

تركت أحداث تشيكوسلوفاكيا ومصير صديقه ملينار ذيولاً، في نفس غورباتشيف. علم جهاز ك . ج . ب، بلقائه مع ملينار، في السنة الفائتة. واستجوب رجاله رفاق غورباتشيف القدامى، طويلاً، حول ما يعرفونه عن كل منهما. لم ترفع ملفات الاستجوابات الى السلطات العليا. هل لهذا السبب، اسرّ غورباتشيف فيما بعد الى احد اصدقائه بان يوري اندروبوف والمدعي العام المساعد نايدينوف قد انقذاه، ذات يوم ؟ كان اندروبوف يشغل منذ عام ١٩٦٧ منصب رئيس لجنة امن الدولة (ك ج ب). وعمل ايضاً سفيراً لبلاده في المجر اثناء الثورة فيها، وكان يتمتع بذكاء حاد ساعده على توقّع الاحداث في اوروبا الشرقية.

يفسر اصدقاء غورباتشيف في موسكو ملاحظته بقولهم : اذا كانت الشكوك والاتهامات الموجهة ضد غورباتشيف منذ ذلك التاريخ وحتى مطلع الثمانينات، قد بقيت في الادراج، فلأن اندروبوف ونايدينوف شاءا حماية غورباتشيف. علماً بان نايدينوف كان من أوائل الذين قاوموا الفساد في الحزب. روى

غورباتشيف الى اصدقائه فيما بعد، ان اندروبوف، بصفته رئيس اجهزة المخابرات وعضو المكتب السياسي، قد انقذه من مشكلات عدة، عندما كان خصومه يشهّرون بالنتائج الاقتصادية السيئة ويسعون لتحطيم مستقبله السياسي.

في نهاية الستينات، استمر غورباتشيف في ارتقاء درجات السلم : اصبح الآن عضواً في اللجنة الاقليمية للحزب، وفي نيسان (ابريل) سنة ١٩٧٠، اصبح امين سرها الاول. فهو الآن، في سن التاسعة والثلاثين، المسؤول الرئيسي عن منطقة تقوم بنيتها التحتية على الزراعة بالدرجة الاولى، في الوقت الذي كانت السياسة الزراعية تشكل للحكم احدى المسؤوليات الجسام التي يكاد يرزح تحتها. غير ان غورباتشيف كان بصفته امين السر الاقليمي للحزب، واحداً من سبعين شخصاً لا يتمتعون بالسلطة والصلاحية في منطقتهم وحسب، بل كانوا يمارسون نفوذهم ايضاً في موسكو، اذ ارتفعت مكانتهم في عهد بريجنيف وازداد نفوذهم. وكان لآرائهم ان ترجّح كفة الميزان في القرارات السياسية اكثر مما يفعله الاعضاء العاديون في اللجنة المركزية، وتأتي منزلتهم مباشرة بعد امناء السر في المكتب السياسي واعضاء المكتب السياسي.

عام ١٩٧١ انتخب غورباتشيف عضواً في اللجنة المركزية، وهي تعقد اجتماعاتها بحضور جميع الاعضاء بصورة دورية، الامر الذي يوجب عليهم الانتقال الى مركز اللجنة المركزية للحزب في موسكو، ويتيح لهم تنمية علاقاتهم بسائر المسؤولين الكبار. كان غورباتشيف يتمتع بمزّية خاصة عن سائر زملائه بفضل الموقع الجغرافي لمنطقة ستافروبول. هناك، بالفعل، في جنوبي هذه المنطقة، على هضاب القوقاز، تقع المدن التي اطلقت عليها تسمية « مينغوغروبا » اي « تجمع المياه المعدنية ». كان الارستقراطيون والتجار الروس يأتون اليها، منذ القرن التاسع عشر للاستجمام والنقاهة في حدائقها المعدة لهذه الغاية، على غرار « بادن — بادن » او « سبا ». مذّاك، اعتاد اقطاب الحزب والدولة السوفياتية على ارتياد هذه المنطقة بحثاً عن الصحة والراحة في تلك المرتفعات الجبلية. بعضهم، مثل ميخائيل سوسلوف، كان له منزله في قلب محمية

« تيباردا ». لو كان غورباتشيف امينا للسر في منطقة الشمال، او في سيبيريا، لكان واجه المزيد من الصعاب لاقامة علاقات مع النافذين من رجال الحزب والاجتماع بهم، وغورباتشيف نفسه يقّر بذلك.

حصل غورباتشيف مجدداً على بيت جديد بفضل تعيينه في منصب اعلى. فهو يقيم الآن مع اسرته في بيت مؤلف من طابق واحد بالقرب من حديقة عامة، تحيط به جنينة صغيرة مسورة بحائط عالٍ غرس فيها بعض اشجار التفاح. تتولى تدبير شؤون البيت امرأة مسنة ثلاث مرات في الاسبوع، كانت تدعى « العمة كزانيا » — لأن رايسا غورباتشيف تواصل عملها في معهد الزراعة العالي. لكن رايسا بقيت مدبرّة منزل من الطراز الاول. حتى عندما كانت تقيم الاعياد في بيتها، كانت تفضل مساعدة زوجها وابنتها بدلاً من اللجوء الى خادم او الى مدبرة منزل. وكانت تبقي ابنتهما ايرينا، حتى المساء احياناً في المدرسة، حيث يمكن للاولاد اتمام فروضهم او الانصراف الى اللعب.

ذات مساء، وجد الكسندر نيكونوف مدير المعهد الزراعي العالي في حينه، ايرينا بالقرب من الفرن، تعد طعام العشاء لوالدها، وهي لما تبلغ بعد الحادية عشرة من عمرها. فقال غورباتشيف : « ما العمل ؟ رايسا غائبة في رحلة عمل. » يحتفظ معلم المدرسة السابق حيث تابعت ايرينا دروسها، ببطاقة كتب عليها غورباتشيف بان والدة ايرينا مريضة وان على ابنتها البقاء في البيت للاهتمام بها ...

ولدت ايرينا عام ١٩٥٧، وهي لا تحمل اية سمة من سمات « اميرات الحزب ». فهي تلقت تربية بسيطة، والتحقت بصورة عادية بالحضانة والمدرسة الابتدائية. وامضت عطلة الصيف عند جدتها في بريفولنوي. حيث كانت تعمل في الجنينة كسائر التلميذات من رفاقها. كانت كوالديها في المدرسة، ذات نشاط واجتهاد بارزين. تقول معلمتها فالنتينا ميروشتيكوفا ان الفتاة الصغيرة كانت دائماً تتقيد بالنظام بصورة تثير الاعجاب. وتهتم بالادب والفنون ونالت ارفع العلامات في كافة المواد بما في ذلك العلوم. وتخرجت من المدرسة حاملة

ميدالية ذهبية. كانت فتاة رزينة ولم تحاول يوماً الافادة من مكانة والدها، وجهدت بوضوح لتحاشي اية اشارة الى والدها ومنصبه ».

كانت والدة ايرينا تحضر بانتظام اجتماعات اهل التلامذة. بينما لم يحضر والدها سوى مرتين الى المدرسة: الاولى، لاصطحاب ابنته في اليوم الأول من السنة الاولى، والأخرى لحضور حفلة التخرج حين نالت ايرينا ميداليتها. فدعي للجلوس مع المعلمين الى طاولة الادارة، غير انه رفض الدعوة مبتسماً موضحاً انه هنا بصفته والد ايرينا وليس اكثر.

اعتقد مدرسّو ايرينا انها سوف تختار الادب او الفلسفة. وقد دهشوا حين علموا ان ابنة غورباتشيف قد تسجلت في معهد الطب في ستافروبول. يعتقد بعضهم ان شاباً والدته طبيبة، قد اثار اهتمامها للطب، لانه كان يحلم بمهنة مماثلة لمهنة والدته. مهما يكن من امر، فان أناتولي فيرغانسكي تزوج من ايرينا في سنتهما الدراسية الثالثة. تقول اليوم، ربيكا بولياك، مديرة قسم الجراحة : « حتى تلك السنة الثالثة، لم اكن اعلم ان ايرينا هي ابنة امين السر الاول. كنت اعرف توليا فيرغانسكي، وعلى الاصح اعرف والدته. غير ان ما ادهشني هو ان توليا وايرينا كانا طالبين بارزين. ومن جهة اخرى، فانهما يشكلان باجماع الآراء، زوجين رائعين ».

كان عرس ابنة امين السر الاول للحزب في ستافروبول مماثلاً لحفلة زفاف رايسا وميخائيل في الخمسينات. لم يتباخلا في تقديم المأكولات والشراب غير ان الاحتفال لم يرتدِ طابع « العرس الكبير » او تلك الاعراس الباهظة التكاليف التي اعتادت على اقامتها في تلك السنوات عائلات المسؤولين في الحزب، بل بالاحرى من الاعراس التي يقيمها الناس العاديون. بعد الانتهاء من عقد الزواج في مكتب الاحوال الشخصية، توقفت سيارتان امام مطعم « غوركا »، وضمت الاولى العروسين مع الاشبينين، والاخرى نقلت اهلهما. اقيمت الوليمة في صالة صغيرة ولم يدعَ اليها، اضافة الى اهل العروسين، سوى رفاق الدراسة وأصدقائهما. غادر الاهل المكان دون ابطاء. قالت رايسا لبعض

الاصدقاء من الذين دهشوا لمغادرتها المطعم باكراً مع زوجها : « وددت ان يكون زواجهما شبيهاً بزواجي وميشا. لم يعودا بحاجة الينا الآن ». بالطبع، تحدثت المدينة عن هذا الزواج حتى ان بعضهم اتهم آل غورباتشيف بالبخل.

لاحظت نساء ستافروبول ان زوجة أمين سر الحزب لا ترتدي الالماس الا لماماً، كما جرت العادة وان ابنتها ايرينا لا ترتدي معطفاً من جلد الخروف، اشارة الى مستوى اجتماعي رفيع في ذلك الحين. وعندما لفت احد الزملاء نظر رايسا الى ذلك، اوضحت قائلة : « معاطف جلد الخروف غير معروضة للبيع الحر. ولا ارغب بالتالي رؤية ابنتي تفاخر بعرض واحد منها ». خلال السنوات التي قضتها في ستافروبول لم تظهر رايسا غورباتشيف مرة واحدة، مرتدية معطفاً من الفرو، على الاطلاق. لكنها حسنة الهندام وانيقة، الامر الذي اثار احياناً تعليقات لاذعة اطلقتها نساء ستافروبول بحقها. في الصور القديمة لستافروبول، يلاحظ ان رايسا كانت ذات شأن وترتدي معطفاً عادياً ومنديلاً على الرقبة، ومظهراً مميزاً عن زميلاتها او عن امهات رفاق ايرينا في المدرسة. كانت ترتدي باناقة ثياباً عادية، مضيفة اليها بعضاً من طابعها الشخصي.

منذ ذلك الحين، اعتاد غورباتشيف على اصطحاب رايسا معه في رحلات العمل او المؤتمرات. وفيما يكون منشغلاً بالمحادثات الرسمية، تطوف رايسا على الاسواق والمحلات التجارية، تراقب وتسأل. يقول الاستاذ نيكونوف : « هكذا تتوافر لغورباتشيف باستمرار معلومات مباشرة واكيدة وذات قيمة. وفي ختام الزيارة، كان احياناً على اطلاع على المشاكل العملية للمحلة التي يزورها اكثر مما يتوافر له من المسؤولين المحليين الذين التقاهم على طاولة المؤتمر ». يعتقد نيكونوف ان غورباتشيف كان بحاجة بكل بساطة لرفقة زوجته، فهو رجل عاطفي يعرف كيف يتمالك نفسه. لا شك ان هذه السيطرة الدائمة على الذات تفسر لماذا لم يكن يرغب بالابتعاد عن زوجته، حتى ولو لبعض الوقت. كان بحاجة الى رايسا فهي الشخص الوحيد المقرّب اليه على الصعيد

العاطفي والفكري. خلال عطلة الاسبوع، كان يقود السيارة بنفسه، متجهاً بصحبتها الى الجبل. وسرعان ما يغادران السيارة للقيام بنزهات تستمر لعدة ساعات وتبلغ حتى العشرين كيلومتراً سيراً على الاقدام. انه وقت الراحة والاسترخاء وكذلك مناسبة للتملص من اجهزة التنصت والاستماع الهاتفية التي لا بد لامين سر الحزب من ان يضعها ضمن اعتباراته على الدوام ...

كان غورباتشيف، بصفته امين سر اقليمي للحزب يعيش حياة هادئة، بسيطة. كان اثاث البيت بسيطاً على حد ما يخبر الاصدقاء، وخالياً من التحف القديمة او العاديات التي يهوى اقتناءها الموسرون والاثرياء. بالمقابل، كان يضيف الى مكتبته كتاباً بعد كتاب، حتى ضمت العديد من المؤلفات والكتب. لاحظ معاونو غورباتشيف انه لا ينتقل الى مكتبه صباحاً، في السيارة الرسمية السوداء، كما كان يفعل اسلافه. وحين كان يجتاز على قدميه ساحة لينين، لم يكن الناس يتوانون عن الاقتراب منه والتحدث اليه عن مشاكلهم. ان تعلم قيادة السيارة والجلوس وراء مقودها من الامور العادية التي لا تثير الدهشة والتعليق في الغرب. اما في الاتحاد السوفياتي، في السبعينات، فكانت تعني نقضاً للبرتوكول وقواعد السلوك الاجتماعي، وتشكل اهانة لزملائه. وهي قائمة الى يومنا هذا.

لم يكتفِ غورباتشيف باتباع التعليمات الموجهة اليه من القيادة، بل بادر الى اجراء تعديلات من تلقاء نفسه، الامر الذي يدل على مدى شجاعته واقدامه. فالذي يتمسك بالتعليمات والمسلمات الصادرة اليه من السلطة، يبقى نسبياً في مأمن في حال الفشل، اما الذي يبادر من تلقاء نفسه الى القيام بعمل ما متحملاً تبعة ذلك بصورة شخصية، فعليه ان يتحمل المتاعب ويلفت اليه الانظار، حتى في حال النجاح. يرى بعض الذين عملوا معه في اللجنة الاقليمية في حينه ان في خططه ومؤهلاته ما يستشّف منه انه كان بداية « البيريسترويكا »

يتذكر نيقولاي دوروخين، امين السر الاول لخلية غورباتشيف في

ستافروبول، تلك الحقبة بفخر، ويقول : « استطيع التأكيد، ومن دون ان اخشى الوقوع في الغلط، بان شخصية ميخائيل، كرجل سياسي عظيم بدأت تتأكد هنا في ستافروبول. بعد تعيينه اميناً عاماً تحدث عن موضوع في غاية الاهمية : البيريسترويكا. لكنها لم تولد، كفكرة، وأمنية عند الشيوعيين، في تلك الجلسة حيث استعملت هذه الكلمة لاول مرة. فتلك الجلسة كانت فقط المناسبة التي شهدت التغيير. غير ان الافكار والافعال التي ادخلت البيريسترويكا في حيّز حياتنا الاجتماعية وفي كافة قطاعات الحياة هي سابقة لكل ذلك. مثاله، هنا في منطقة ستافروبول وضعنا مع غورباتشيف برنامجاً لمكننة الزراعة ومدّ شبكة الكهرباء، فانتشرت الشبكة، في كل مكان من الكوخ الصغير حتى آخر مزرعة.

« لم يكن ميخائيل سيرغيفيتش يجلس وراء مكتبه، بل ينطلق بنفسه لمعاينة ما يجري، على الارض. وكان يردد دائماً انه ينبغي التنقل اكثر فاكثر بين الناس ودراسة المشاكل حيث تطرح. ثم كانت مشاريع الري التي تكتسب اهمية بالغة في مناطقنا البعلية. وبعدها بناء القناة الكبرى في ستافروبول، على اربعة مراحل. ان ابوة كل هذه الانجازات تعود الى غورباتشيف وهي ثمرة عمله. كان ينبغي في البدء اخذ موافقة الحكومة واللجنة المركزية على هذه البرامج. والامر ليس سهلاً، غير ان ميشا لا يتراجع قبل ان ينال مبتغاه. انها طباعه، فحين يكون مقتنعاً بامر ما، يأخذ المسألة على عاتقه حتى انجازها. لم يتغير. صارع في حينه، في اللجنة المركزية والوزارة، من اجل الموافقة على خططنا. فيما خصنا، في هذه المنطقة، كان المهم تحسين ظروف المعيشة فالصناعة والانتاج الزراعي يرتكزان، في الواقع، على جهد الفلاحين والعمال. كان علينا حلّ عدد من المشاكل بطريقة تخالف تعليمات موسكو والخط الرسمي. كنا نعلم ذلك، لكننا لم نكن نتبعّ سوى الخط الذي رسمناه لنا. اهتم شخصياً في اللجنة التنفيذية بالمسائل المتصلة بالاصلاحات الاجتماعية التي لقيت منه الدعم المستمر. انشأنا بالاعتماد على قوانا الذاتية، مدارس وحدائق اطفال، ومستشفيات واندية، باعداد بلغت المئات، وفي اطار خطة لخمس

سنوات. كل ذلك دفع بالناس للبقاء في أرضهم. ساعدنا ذلك ليس فقط على تحاشي النزوح الى المدينة، بل على اجتذاب الناس من خلال توفير ظروف معيشية اكثر انسانية. وهذا ما يفسر سر نجاحنا.

يتبين، اذن، ان دوروخين وسائر معاونيه، كانوا في تلك الحقبة، على اقتناع راسخ بان غورباتشيف كان قد بدأ، فيما يعود الى منطقته، وبصفته اميناً اقليمياً للحزب، على ادخال عناصر اقتصادية من شأنها ان تطبع سياسة البيريسترويكا بطابعها: استقلالية مالية في المؤسسات. السعي وراء الربح والمردود، حوافز مادية وبنيات تنتج للسوق. واذا كانوا يحللون السنوات السبعين على هذا النحو، فليس بالضرورة لان سياسة غورباتشيف الحالية، تشدد على هذه التجربة، اذ ان العناصر المذكورة آنفاً ليست بجديدة تماماً، وكلها ادخلت في وقت من الاوقات في السياسة الاقتصادية السياسية، وجرى اختبارها واعادة درسها وتدقيقها او رفضها. ويقول العديد ممن شغلوا مناصب اقتصادية مهمة في ستافروبول وعلى صعيد المنطقة، ان الوضع في ستافروبول، في عهد غورباتشيف كان مختلفاً عن الاوضاع القائمة في المناطق المجاورة.

يتذكر هذا الوضع، بوجه الخصوص ايضاً، رجل انتقل من بريفولنوي الى عاصمة المنطقة، وهو اليوم عضو في مجلس نواب الشعب وسياسي نشيط له افكار خلاقة وموهبة تنظيمية عملية، ونهج في العمل شبيه بالنهج الاميركي لجهة اعتماد النجاح معياراً في كل الأمور، وفيكتور ايفانوفيتش بوسنيكوف، هذا، يشغل اليوم منصب مدير عام لاكبر واحدث مؤسسة لتربية الدواجن في الاتحاد السوفياتي. يقول: « حوالى عام ١٩٧٤، قرأت في مجلة « اميركا » الصادرة بالروسية، مقالاً مهماً حول تربية الدجاج. فتأثرت به لدرجة انني قررت على الفور محاولة اختباره عندنا، في ستافروبول. لكن، من دون غورباتشيف، كان الامر مستحيلاً. اعتباراً من اليوم الاول، ارتبطت المؤسسة باسمه. فشارك في كافة المشاريع، وكافة الاعمال، حين كانت تواجهنا المصاعب. وهكذا ساعد على تكييف عمل المؤسسة وفق مبادئ الادارة الاقتصادية.

وهذا الامر كان في حينه شأناً جديداً، لا يمكن اجراؤه من دون مساعدته. ساعدنا على التغلّب في ستافروبول على الجهاز البيروقراطي الذي لم نتوقف عن انتقاده الى اليوم في الاتحاد السوفياتي، واثبت ان حرية العمل هي اساس نجاح المؤسسة. استفدنا من استقلالية مطردة، خصوصاً بعد عام ١٩٨٣. لا احد يتدخل بعد الآن في الانتاج والتوضيب والتسويق. عندما كان اميناً للزراعة في اللجنة المركزية، غالباً ما زرته في مكتبه وساعدنا على تخطي الحواجز البيروقراطية. كنا دوماً من انصار التمويل الذاتي، لا نريد مالاً من الدولة غير انه كان علينا الوصول الى اقناع موظفي وزارة المال. لولا غورباتشيف ما كان لنا ان نعيد تنظيم بنية مؤسستنا على هذه الاسس. مع ذلك هناك تغييرات تفرض نفسها، في هذه المؤسسة كما في سواها. وهذا الوضع قائم عندنا منذ عام ١٩٨٣. غادر غورباتشيف ستافروبول عام ١٩٧٨، غير ان نتائج حضوره بيننا ما تزال قائمة الى يومنا هذا، ونحصد ثمرة ما زرعته يداه ».

شهدت « مؤسسة انتاج لحوم الفروج » التي انشأها بوسنيكوف، نجاحاً غير عادي في الاتحاد السوفياتي. وكان غورباتشيف، عام ١٩٧٦، قد عمل على منحها نظام المؤسسة الاختبارية، فانتجت سبعة آلاف طن من لحوم الفروج والحبش. حالياً تنتج تقريباً كل ما يمكن صنعه انطلاقاً من الدواجن ــ بدءاً من عجين كبد البط الى الكونياك « على الطريقة الفرنسية » وصولاً الى « فيليه » البط. اما مخزنه التجاري الكبير (سوبرماركت) القائم في ستافروبول. فيحتوي على تجهيزات حديثة ويلفت النظر بنظافته النادرة في كل الاتحاد السوفياتي. وقد افتتحت هذه المؤسسة فروعاً لها في موسكو وتعتبر من اكثر المحلات اجتذاباً للزبائن في المدينة ــ حين تسمح الكميات المخزونة فيه بذلك ــ كذلك تؤمن هذه المؤسسة للبلاد دخلاً من النقد النادر بفضل صادراتها الى الخارج.

نائب آخر عن منطقة ستافروبول يبدي رأياً مماثلاً في سياسة غورباتشيف. فهو يعرف ميخائيل سيرغيفيتش منذ عام ١٩٥٦، وكان على صلة به حين

كان كلاهما يعملان، بعد ١٩٦٢ في اعادة تنظيم الزراعة، في وظائف مماثلة. كانا يتابعان بالمراسلة الدروس ذاتها. ويشير هذا النائب الى النشاط في العمل والضمير المهني الذي يتحلى بهما غورباتشيف خلال قيامه بمهامه. غير انه يؤكد ايضاً بان اوْلى ملامح البيريسترويكا كانت ظاهرة لدى زميله في ذلك الحين.

بدأت حركتنا في البيريسترويكا في ٢٠ نيسان (ابريل) سنة ١٩٧٠ عندما اصبح غورباتشيف امين السر الاول. غير انه وجب عليه خوض معارك قاسية لاقرار معظم التغييرات التي دعا اليها. مثاله ان ميخائيل سولوميتسيف الذي كان يشغل منصب رئيس مجلس الجمهورية الاشتراكية الاتحادية السوفياتية في روسيا جاء الى ستافروبول فيما كنا نبني محطة توليد الكهرباء. وكان علينا ان نعرف في حينه اذا كان علينا تطوير تربية الغنم. في موسكو كان الجميع ضدنا. غير ان غورباتشيف تولى الدفاع عنا وعناده كان خير عون لنا. سمعت جداله. مع سولومينسيف والحجج التي قدمها. وتوجّه بكل شجاعة الى المكتب السياسي حتى وصل الى بريجنيف. اخيراً حلّت المسألة لصالحنا. مذاك تضاعف انتاج الصوف. في قضية اخرى جرت اواخر وجوده عندنا كان رأي المكتب السياسي مؤيداً لاستصلاح اراضٍ جديدة اي استصلاح السهول بدلاً من استثمار مكثف للاراضي الزراعية الحالية. لم يكن غورباتشيف من هذا الرأي ودبج رسائل كثيرة تعارض هذا المشروع، حتى انه خشي طرده من منصبه. غير ان الامور سارت نحو الافضل، وبعد عدة شهور، اصبح امين سر اللجنة المركزية للشؤون الزراعية ».

من غير السهل ايجاد جامع مشترك لكل ما وصلنا من اخبار حول سياسة غورباتشيف في تلك السنوات. مثاله، حين كان مسؤولاً عن الزراعة في منطقة ستافروبول، تمّ اعتماد نظام المكافآت على المحاصيل، وجرى تخفيف او الغاء نظام الرقابة والمقاييس التفصيلية. فيما بعد، في مطلع الثمانينات، جرى تشكيل فرق عمل مؤلفة من فلاحين او اسر فلاحية. كانت هذه الفرق

تعقد اتفاقيات مع الكولخوزات، وكانت تتقاضى اجورها من المحاصيل الزراعية، لكنها كانت توفر بعض النفقات على المؤسسة.

في منتصف السبعينات، كان لمثل فرق العمل هذه، ان تحسّن انتاج الحبوب بنسبة ٣٠ الى ٥٠ ٪، ويبدو أنه سعى الى نشر هذا النظام الجديد في كافة منطقة ستافروبول. غير ان غورباتشيف اعتمد، في الوقت عينه نظاماً روّجه صديقه فيودوركولاكوف، ومن شأنه تسهيل عملية تخزين المحاصيل بشكل سريع بفضل الاستعمال المكثف للآلات الزراعية، ويقضي بارسال مجموعة من خمس الى ست حاصدات ـــ دارسات من كولخوز الى اخرى، ترافقها شاحنات مختصة بنقل الحبوب، الامر الذي يخفف من الضرر الكبير الذي تتسبب به شاحنات الكولخوز. وكان يرافق هذه المجموعة الميكانيكيون وسائقو الجرارات والفنيون، وكافة الاشخاص الذين تحتاج اليهم: الجهاز الطبي، المطابخ السيارة، وحتى احياناً، مجموعات تقدم اعمالاً ترفيهية خلال ساعات الفراغ. عرف، هذا النظام الجديد باسم « طريقة باتوفو »، على اسم قطاع منطقة ستافروبول حيث وضع موضع التنفيذ لاول مرة.

عرف هذا التجديد، بادئ ذي بدء، نتائج باهرة. فالمحاصيل التي كانت افضل في منطقة ستافروبول من سواها في الاتحاد السوفياتي ارتفعت ايضاً، خلال عام ١٩٧٧. غير ان ذلك لم يشكل سوى وجه من وجوه المشكلة. لان هذه الطريقة الجديدة التي تعتمد على تدخل مفارز فنية، ترتكز على مبادئ تناقض تماماً تلك التي ادّت الى تشكيل فرق عمل لها استقلاليتها وتتقاضى اجورها من المحاصيل. كانت هذه الفرق ذات فائدة لانها تقوم باخصاب الارض للموسم المقبل ولا تكتفي باستغلالها وحسب. لكن الآليات المستقدمة راحت تجوب الكولخوزات بضجيجها الهادر ضاربة بعرض الحائط ما كان الفلاحون يأملون الافادة منه. لو اسندت اليهم مسؤولية الاهتمام بارضهم عن طريق فرق العمل. ولم تكن « طريقة ايباتوفو » سوى نمط تنظيمي يقوم على استخدام الآلات الزراعية الحديثة لحصاد الحبوب. غير ان هذا التجديد

التقني البحت لم يدخل على اساليب العمل سوى تحسينات محدودة قصيرة الاجل، ولم يلامس جوهر المشاكل الزراعية الحقيقية.

حققت « طريقة ايباتوفو » نجاحاً مؤقتاً نال غورباتشيف على اثره وساماً، وحضر منظّر الحزب ميخائيل سوسلوف خصيصاً الى ستافروبول، في ايار (مايو) سنة ١٩٧٨ لتعليق وشاح ثورة تشرين على صدره. وقد اتاح له هذا الوشاح، وهو الثاني يمنح له، ان تظهر صورته في كافة صحف الاتحاد السوفياتي، وهذا يعني بالنسبة لموسكو ان غورباتشيف اضحى من عداد المجموعة الحاكمة.

تبين، بعد فترة ان « طريقة ايباتوفو » لا تؤمّن النتائج المرجوة على المدى الطويل. وقد وضعها غورباتشيف فيما بعد، جانباً ـــ وكان اصبح في حينه امين سر اللجنة المركزية لشؤون الزراعة ـــ ليعود مجدداً الى تعزيز تشكيل فرق العمل التي تتمتع باستقلاليتها وتتقاضى اجورها من المحصول. غير ان غورباتشف اضطر مجدداً الى تغيير توجهاته، بحثاً عن طرائق ناجعة على الصعيد الاقتصادي. وما ان امتلك لذاته صلاحية تقرير السياسة الزراعية الواجب اتباعها، وعدم خروج مقرراته عن دائرة السياسة الاقليمية، حتى سلك نهجاً مغايراً لما تنتهجه موسكو. فراح يدعو بانتظام الى حلقات دراسية تضم الاختصاصيين الزراعيين في منطقة ستافروبول للتباحث في اعتماد أساليب جديدة واختبارات محلية والتنسيق فيما بينها قدر المستطاع. وتوجّه الى الخبراء الجامعيين في معهد الزراعة العالي لمساعدته في تحليل الوضع وحلّ المشكلات المطروحة. وكان يعاين ميدانياً لساعات عدة ما يقوم به الباحثون حين يعتبرون انهم وجدوا في مركز ابحاثهم حلاً لتلك المشاكل المحددة التي تطرحها تربية الغنم او زراعة الحبوب.

في منتصف السبعينات، سجلت منطقة ستافروبول، لعدة سنوات متعاقبة، محاصيل رديئة من جراء شح الامطار ـــ مئة وعشرين ميلليمتراً في المتر المربع فقط ـــ فانضمّ غورباتشيف الى الباحثين في معهد الزارعة، وراح، بمشاركة

مدير المعهد العالي للزراعة، ينقب في الوثائق والتقارير السنوية التي كان يرسلها الولاة الى القيصر لبيان تطور الوضع الاقتصادي ــ وهي تقارير من خمس عشرة الى عشرين صفحة، وتتضمن معطيات احصائية في غاية الدقة حول محاصيل الحبوب في القطاعات المختلفة.

تبين لهم، انه، قرابة العام ١٩٠٠، وعلى الرغم من فترات الجفاف، كانت المحاصيل جيدة في القطاعات التي تترك ارضها بوراً لسنة او سنتين، بدلاً من زراعتها كل سنة. في موسكو حيث الرهان قائم على مكننة الزراعة، كانت نظرية الارض البور بدعة. دعا غورباتشيف الى انعقاد مؤتمر للحزب في ستافروبول وعرض نتائج تنقيبه في الاحصاءات القديمة، وقبل ان يطلع المسؤولون على الوضع الراهن، قرروا الطلب الى السلطة المركزية في موسكو الترخيص لهم باعتماد طريقة الارض البور في منطقة ستافروبول.

رفضت موسكو المشروع الذي كان يقضي بادخال نظام المناوبة الزراعية على ما يقارب نصف مليون هكتار من الاراضي. ويروي ج. ستارشيكوف الذي كان في حينه المسؤول عن الزراعة بصفته نائب رئيس الادارة الاقليمية: « قيل لنا بكل فظاظة، ان تبوير الارض يوازي في الزراعة، انتشار الوباء في الماشية ». غير ان ذلك لم يوهن من عزيمة ميخائيل سيرغيفيتش. وتبين لنا ان الادارة المركزية لشؤون الزراعة لا تملك اية معطيات حول تبوير الارض. فتوجه غورباتشيف الى موسكو ونجح في عقد اجتماع لكافة امناء سرّ اللجنة المركزية حيث قدم لهم البراهين التي بحوزتنا. ونجح ايضاً في اقناعهم وتغلّب على كل التحفظات. حتى انه اضطر لمحادثة بريجنيف شخصياً بالامر. فاصدرت اللجنة المركزية ووزارة المال المرسوم المتعلق باستغلال الاراضي القاحلة في منطقة ستافروبول. اعطى هذا القرار نتائج ايجابية، اذ تمكنّا، على الرغم من فترات الجفاف والعواصف الرملية، الافادة من مواسم جيدة ».

يرى الاستاذ نيكونوف ان مبادرة غورباتشيف تدل، على انه كان يبحث بشجاعة واستقلال فكري عن الاساليب الزراعية التي تؤمّن محصولاً افضل



غورباتشيف، امين سر الاقليمي للحزب، بصحبة سوسلوف
عضو المكتب السياسي، في ستافروبول، ايار (مايو) سنة ١٩٧٨



ليونيد بريجنيف يعلق على صدر غورباتشيف وسام ثورة تشرين
(اوكتوبر) في ٢٧ كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٧٨، في الكرملين.



غورباتشيف، الى يمين اندوربوف. (الى يسار اندروبوف، غريغوري
رومانوف عضو المكتب السياسي وأحد المرشحين لقيادة الحزب).

من تلك الوسائل التي توصي بها السلطة المركزية. غالباً ما كان يحاول الانطلاق من الظروف المحلية والبيئوية لرسم السياسة الزراعية الواجب اتباعها، ويدافع عن خبرات الفلاحين والباحثين حين تتعارض مع السياسة الزراعية العقائدية والبعيدة عن الواقع التي يدعو الموظفون البيروقراطيون الى اتباعها. لم يكن غورباتشيف عقائدياً على الاطلاق، يقول نيكونوف، وعرف دوماً كيف يتقبل الافكار الجديدة. لكنه لم يكن بهلوانيا، فهو رجل متبصر يمعن في التفكير قبل اتخاذ القرار السياسي، ويعنى بتقدير ثقل العوامل المؤثرة والعارضة في نزاعاته مع الادارة والحزب.

يتعذر رسم مناهج موحدة ومتوازية وتطبيقها في منطقة مثل ستافروبول، حيث نجد تنوعاً واسعاً في المناظر الطبيعية والمناخ، بدءاً من ارتفاع يبلغ الاربعة آلاف متراً في جبل « دومباي »، في القوقاز، الى اسفل المستنقعات على ضفاف « مانيتش ». شكلت هذه المنطقة بسكانها البالغ عددهم ثلاثة ملايين نسمة، ولغاتهم وتقاليدهم المتنوعة، حقل اختبار دقيق لكل مسؤول في الحزب. صحيح ان الارض المعدة لزراعة الحبوب تعطي محاصيل ارفع من المعدل، أيا كانت الطريقة المتبعة، شرط توافر الأمطار، لكن الجبال والسهول لا تتيح سوى تربية الغنم. هناك ما يزيد عن ١٥٠ كولخوزاً و ٢٥٠ مزرعة حكومية كانت تموّن الدولة في منتصف السبعينات بما يقارب ٣,٥ مليون طن من الحبوب. يضاف اليها دوار الشمس والخضار اللازمة لتموين المدن. بلغ عدد المواشي ١,٤ مليون من الابقار ومليون واحد من الخنازير و٦٠٠٠٠٠ من الأغنام. كان لهذه المحاصيل الزراعية في تلك المنطقة نتائج مهمة لكافة انحاء الاتحاد السوفياتي.

كان غورباتشيف مسؤولاً ايضاً عن الانتاج الصناعي وتطوره وعن استخراج الغاز الطبيعي والنفط، فضلاً عن الصناعة الغذائية التي تحتل المكانة الاولى في هذه المنطقة. تميزت السنوات التي قضاها في ستافروبول بتطور صناعة الآلات والكيمياء وبانشاء محطات توليد الكهرباء، وبصفته أمين سر الحزب،

كان مسؤولاً ايضاً عن انشاء مجمعات للصناعة الثقيلة وتعليب اللحوم والفاكهة والخضار. فضلاً عن ذلك، كان يشرف على اعمال سبعة معاهد عالية تضم ثلاثين الف طالب، وعلى النظام التعليمي في المنطقة والتجهيزات الثقافية والمسارح ودور السينما وبيوت الشباب. كانت المنطقة تضم نيفاً وثلاثين مدينة، حيث كان غورباتشيف بصفته رئيس الحزب، مقرراً اعلى لشؤونها. وقد شهدت ستافروبول، قلب تلك المنطقة، زيادة في سكانها بلغت الضعفين، في مدى عشرين سنة تقريباً...

كان على غورباتشيف ان يسهر شخصياً ايضاً على شؤون التطور الصناعي والتمويني بحيث تتبع ايقاع النمو السكاني. وكان يتوجب على امناء سر المناطق التدخل مباشرة، في حال بروز اية عقبات، وكان غورباتشيف لا يوفر اي جهد. يروي الكسندر الكسيانكو، الذي شغل في حينه منصب امين سر لجنة المقاطعة، حول هذا الموضوع، ما يلي: « انشأنا عام ١٩٧٦ مجمعاً لصناعة الخبز والحلويات، كنا بحاجة ماسة اليه. كانت الاشغال تجري بطيئة واحياناً متقطعة على الرغم من اهميتها. استدعاني ميخائيل سيرغيفيتش وقال: هل تعلم ما عليك عمله، يا شورا؟ عليك نقل الذين يعملون في البناء الى أعمال أخرى في الحزب، حتى نهاية الاشغال في المجّمع الصناعي. وبذلك نعرف الى من نتوجه ومن نحاسب. وتتقدم اعمال البناء بسرعة اكبر. وحين انتقل العمل الى ورشة تجمع تعليب اللحوم، استدعاني ميخائيل ليقول لي: شورا، قيل لي انك تحسن استعمال مسطرة حسابية. هل يمكنك المجيء واعادة النظر في الحسابات كلها؟ فالسياسة والاقتصاد لهما نقاط مشتركة. اليس كذلك؟ ذهبت اذاً اليه. كان ميخائيل يزرع القاعة ذهاباً واياباً مملياً على امينة سره ملاحظاته حول التعديلات المطلوبة. دهشت. لم اشاهد قط من قبل شخصاً مثله. غير انه تبين لي بوضوح انها الطريقة السليمة لحلّ معضلة معينة واحداث ما يمكن تسميته « عاصفة في الدماغ ». طلب اليّ تدقيق بعض الحسابات وقراءة النص، الامر الذي استغرق ساعتين او ثلاثة. وتداولنا

خلالها بصورة عملية كل الأمور. ثم أوضح المقترحات الموجهة الى لجنة الحزب في المدينة، مشيراً الى كيفية توسيع دائرة انتاج مجمّع معلبات اللحوم، ليضع بتصرف الناس المعجنات المحشوة باللحوم اضافة الى لحم الفروج. شكّل ذلك، بالنسبة لي درساً تطبيقياً في كيفية بلورة فكرة معينة بصورة جماعية».

يتذكر الكسيانكو كم كان غورباتشيف يتمتع بذاكرة قوية للوجوه والاسماء. «كان ينادي الناس دائماً باسمائهم الصغيرة واسماء والديهم، ونادراً ما يستخدم اسم العائلة. وعندما كان يعرف احداً، كان يكلمه كما يكلم الشيوعي رفيقه: شورا، احتاج الى هذه المعلومات بصورة عاجلة. هل يمكنك ايجادها؟ لم اسمعه على الاطلاق يتحدث مع احد من فوق. كان يتحدث على الدوام بلهجة هادئة وودّية. وعندما يثق بك احد الى هذا الحد، فما عليك انت ايضاً الا ان تلبي طوعاً ما يطلبه منك».

تؤكد الانطباعات السائدة لدى رفاق المدرسة والحزب عنه ان طباعه لم تتبدل حين اصبح امين السر الاول. كان يعمل بكد وجهد، لكنه لا يعطي انطباعاً بأن حافزه الى ذلك طموح شخصي او رغبة في الوصول الى السلطة. كان منفتحاً على الافكار الجديدة ويحسن التشبث برأيه لتمرير التغييرات اللازمة من دون ان يظهر قاسياً وفظّاً ازاء معاونيه، ويعرض دوماً مشاريعه وخططه على رؤسائه والسلطات المختصة قبل وضعها موضع التنفيذ. هذه الطريقة الواقعية في العمل التي تراعي الانظمة، توفّر قدراً عالياً من النجاح اذ لا يمكن عمل اي شيء يخالف ارادة الحزب. هناك بعض التجارب السلبية التي كان لها تأثيرها في نفس غورباتشيف، من غير ان تثبط عزيمته، لا بل رسخت قناعته بإنه يقتضي على الدولة والحزب ان يعتمدا نهجاً قيادياً اكثر عقلانية. وما دامت الحال كذلك، فيجب التقيد بالقواعد المرعية.

تتحدد المرحلة الاهم في مسيرة غورباتشيف الصاعدة، بتلك السنوات التي عمل فيها في ظل حكم الامين العام ليونيد بريجنيف. بعد سقوط خروتشيف، تنفس الحزب الصعداء قليلاً، لان عهداً من الهدوء والسكينة برزت بشائره.

فالوظائف العليا في الحزب والدولة التي جمع خروتشيف فيما بينها، عادت لتنفصل مجدداً واستعادت الوزارات صلاحياتها السابقة. اما الموظفون الذين كانوا يشغلون مناصب قيادية، فوجدوا انفسهم، في ظل سلطة بريجنيف، اكثر اماناً على مراكزهم. وصارت الحاجات الاقتصادية والاجتماعية الواردة في الخطط الجديدة اكثر واقعية من الخطة الطوباوية الاخيرة التي اعدّها خروتشيف لمدة عشرين سنة.

لكن سرعان ما تبين ان النمو الاقتصادي ظل يؤلف مشكلة في مثل هذا الجو من البيروقراطية والمركزية الخانقة. واية خطة اصلاحية من الخطط الاقتصادية والادارية التي اعدّها عهد بريجنيف لم تكن بدرجة كافية من العمق لقلب الاوضاع. فالخطة الاصلاحية التي وضعها « رئيس الحكومة، كوسيغين، وعدت المؤسسات الوطنية بمزيد من الاستقلالية، الى جانب سجنها مجدداً في الوقت عينه في دائرة التصميم المركزي من خلال الوزارات واللجنة الوطنية للتصميم. وجاءت عملية التدخل في تشيكوسلوفاكيا لتضع حداً نهائياً للتحول نحو الاقتصاد الاشتراكي الموجه نحو السوق » وللمناقشات الدائرة بين علماء الاقتصاد حول الدور الذي يمكن لبعض عناصر اقتصاد السوق ان تلعبه في الاقتصاد الوطني، مثل واقع الاسعار واستقلالية المؤسسات. لم يكن بريجنيف يعتقد بجدوى الاصلاح الاقتصادي المبني على دراسة الوقائع وبدا معتمداً قبل شيء على انتفاضة خلقية ووطنية للشعب السوفياتي. ولذلك فشلت خطة كوسيغين الاقتصادية الاصلاحية، وبعد عشر سنوات، اي في اواخر حياته، كشف لمعاونيه انه كان عليه تقديم استقالته فور تحققه من ان نفوذه سوف ينحسر تماماً في ظل حكم بريجنيف.

في اطار نظام يتعذر فيه معرفة المنعطف الاقتصادي الذي سيسلكه كان على غورباتشيف ان ينشط ويتحرك بحكمة وسرعة اذا شاء الحصول على نتائج ايجابية، كان غورباتشيف يساند مدراء المؤسسات الكبرى في مقاطعته بقوة وذكاء. كان يتقصى التدابير التي من شأنها تسهيل حياة السكان، مع

الاخذ بعين الاعتبار اوضاعهم المالية. فكان يتعهد للمؤسسات التي كان انتاجها كافياً بزيادة الاجور الزهيدة للعمال والعاملات فيها، الامر الذي يشكل مخالفة للانظمة المرعية الاجراء. علّمته سنوات عمله في اتحاد الشبيبة الشيوعية وجوب ايلاء الثقافة والتربية اهميتها. فالاهتمام الذي كان يوليه شخصياً للفن والادب جعلته يعزز المشاريع التي اكسبت ستافروبول وسيدها صيتاً حسناً في الاوساط الفنية والادبية في موسكو. بعد « الخريف الموسيقي » انشأ مهرجان ليرمينتوف على اسم الشاعر الرومانسي الذي لقي مصرعه في بياتيفورسك، وهو مركز للمياه المعدنية يقع جنوبي مقاطعة ستافروبول. اجتذب هذا المهرجان الصحافيين والكتّاب من موسكو، فجاؤوا ليس فقط تكريماً لليرمينتوف، بل ربما ايضاً لان عذوبة المناخ اغوتهم، وكذلك حسن الضيافة وامكانية التزود بالفاكهة من الاسواق الريفية، ولا بدّ ان بعضهم قد جذبته شخصية غورباتشيف الذي كان يهوى لقاء الكتّاب والتحدث اليهم، وكذلك المناخ الذي كانت تعرف زوجته رايسا ان تخلقه، بالتعاون مع مساعديه.

كان لقاء الممثلين والكتّاب القادمين الى ستافروبول يتيح لغورباتشيف فرصة الاطلاع الواسع على الاحداث الادبية والفنية في العاصمة. ولم يكن له حق الاطلاع، بصفته امين السر الاول الاقليمي للحزب، سوى على الصيغ الرسمية للأحداث الخطيرة، مثل نفي سولجنيستين، الذي كان لمؤلفاته أثرها العميق في نفسه. كذلك اتاحت له المهرجانات التي احياها في ستافروبول الاطلاع ايضاً على ما يقال عنه في موسكو ...

لم يكن غورباتشيف، بحسب اقوال ضيوفه القلائل في تلك الاثناء، زاهداً ومتنسكاً. كان شخصاً لطيف المعشر، ومنفتح الفكر، يغني وينشد القصائد ــ خصوصاً من شعر ليرمينتوف وبوشكين ــ امام اصدقائه ولم يكن كذلك متطرفاً ضد شرب الكحول، حتى لو كان قد وضع حداً للتجاوزات السائدة في اوساط الحزب والادارة. يرى فلاديمير كوديتشوك في هذا المجال « ان شخصيات بارزة عدة فصلت من الحزب، لانه لم يكن يحتمل السكارى

الذين لا ضمير لهم ويفرطون في الشرب ». كان يصدف ان يحتسي قدحاً صغيراً من الكونياك، ولكن ليس اكثر على الاطلاق، حين يلتقي مع مثقفين قدموا من موسكو واعتادوا شرب الخمرة. يروى في ستافروبول انه منع استصلاح جبل « ستريشامان » الواقع في محمية طبيعية جنوبي ستافروبول، حيث تنمو نباتات عطرية، وتستخدم لاستخراج شراب مساعد على الهضم ويلقى اقبالاً عليه في كافة انحاء المنطقة. وقد ذهل السكان لقرار البيروقراطيين في موسكو. وهم اليوم يقدرّون بامتنان غورباتشيف لانقاذه جبلهم « ستريشامان ».

لم يسعَ غورباتشيف الذي كلفته حملته ضد الكحول، لقب « الامين العام المعدني »، الى حمل اصدقائه ومعارفه على الاقلاع نهائياً عن شرب الكحول. حتى انه، فيما بعد، في عزّ الحملة ضد استهلاك الكحول، قدّم الكونياك الى صديق له جاء صباحاً الى زيارته في مكتبه في اللجنة المركزية. فوجئ الصديق وقال له ان تناول الكحول عند الصباح لا يلائمه، فتنفس غورباتشيف الصعداء وطلب له فنجاناً من الشاي. اثناء جولاته في المقاطعات، لم يظهر غورباتشيف عدائية مطلقة ضد الكحول. في كييف، سأله العمال، خلال الحملة ضد الكحول، كيف يمكن تكريم الضيوف من دون تقديم قدح من « غوريلكا » اليهم. اجابهم غورباتشيف متفهماً ان الامر متعذر، ويمكن تناول شيء من الكحول، شرط عدم الافراط. منعت الرقابة في تلك الاثناء نشر هذه الحادثة وادراجها في النشرة الرسمية التي كانت ترسم عن غورباتشيف صورة المتقشف الزاهد والمقاوم لشرب الكحول كالخمر والفودكا. فشلت هذه الحملة على الصعيد الاجتماعي والسياسي والمالي. وكان اشرف على اطلاقها ايغور ليغاتشيف المعروف بتقشفه وامتناعه الشديد عن تناول الكحول. في كل حال، لم يلحظ العديد من الاشخاص الذين التقوا غورباتشيف في ستافروبول، اية دلائل لديه تشير الى تقشفه وتطرفه وابتعاده عن الناس.

لغورباتشيف طريقة خاصة للاحتفال بالاعياد، لكنها لا تشبه باي وجه

الاحتفالات التي كان يشارك فيها زملاءه من القياديين، حين كانوا يغادورن موسكو متوجهين الى بيوت الراحة الكائنة في مراكز المياه المعدنية في القوقاز. كان يتوافد الى هناك اعضاء المكتب السياسي وامناء سر اللجنة المركزية ووزراء وكبار المسؤولين من كل الفئات. في تلك البيوت والفيلات بينابيعها المعدنية وحماماتها الواقعة في المحميات الكبرى المغلقة على الجمهور والانظار، كانت تلك الشخصيات تنصرف الى العلاج والاسترخاء. من البديهي ان المياه المعدنية لم تكن مشروبها الرئيسي المفضل، اذ انها جاءت للتمتع بمباهج الحياة فيما بينها، بعيداً عن عيون المرؤوسين والناس وللاسراف في الاكل الفاخر والفودكا والشمبانيا، فضلاً عن الراقصات الغجريات والوصيفات. وكانت تنشد باصوات رجولية اغانٍ شعبية عاطفية حتى تغرورق عيونها بالدمع، ثم يأخذن في تبادل الربت على الكتف علامة التودد والاطراء والصداقة.

كان غورباتشيف، بوصفه امين السر الاول للحزب في منطقة ستافروبول، مسؤولاً بصورة رسمية عن تلك الامكنة. وعليه ان يسهر على راحة زملائه في قمة الهرم، خلال عطلاتهم. لكن لا شأن له في مسألة تنظيم سبل الترفيه عنهم، لان معظمهم يقيمون في بيوت للراحة او في فيلات تخص الوزارة او المؤسسة التابعين لها. فاعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية وجهاز ك.ج.ب. والجيش والوزارات الكبرى يمتلكون منشآت للراحة خاصة بهم، ومعظم المسؤولين كانوا يؤثرون التلاقي مع زملائهم في الادارة الواحدة. كان غورباتشيف يجد نفسه مضطراً لاستقبال اصحاب الرتب العالية في موسكو على المطار واصطحابهم الى « الداتشا » او بيوت الراحة التي تخصهم. فيما خصّ اعضاء المكتب السياسي، كان يحرص على استقبالهم وتكريمهم بما يتوافق مع مكانتهم، اذ يدرك كل مسؤول حريص على مستقبله في الحزب، اهمية تنمية علاقاته مع الاقوياء، كي يجد الحظوة لديهم في الوقت المناسب.

عانى غورباتشيف من مشكلة عدم شرب الكحول، الامر الذي كان يثير الشبهات والظنون حوله لدى بعض زائريه. فيتساءلون : أليس هو من طينة

من يدوّن كل ما يقال حتى ساعة متأخرة من الليل وآخر قنينة من الفودكا ؟ كان عدد كبار المسؤولين القادمين الى المنطقة مرتفعاً لدرجة ان غورباتشيف طلب الى اللجنة المركزية اعفاءه بصورة استثنائية من استقبالهم جميعاً، خصوصاً في منتصف السبعينات، حين عم الجفاف وصارت الزراعة شغله الشاغل. من جهة اخرى، كان يتيح له ذلك الانصراف الى مسؤولياته الكبرى في موسكو. وحين كان يرى جدوى من مقابلتهم، كان ينتقل اليهم في بيوت الراحة، ويعرف كيف يخلق الانطباع الجيد عنه في نفوسهم.

كان احد الوزراء النافذين يهوى لعبة البليارد ويعتبر نفسه متفوقاً فيها، فوجد شريكاً ملائماً في شخص احد المساعدين المقربين لغورباتشيف. فاوصى هذا الاخير مساعده بالحاح ان يخسر امام الوزير كيلا يعكر عليه صفو مزاجه لانه كان يأمل الحصول من وزارته على اعتماد مالي اضافي يصرفه في سبيل مقاطعة ستافروبول.

لم تكن الحياة التي تعيشها بطانة بريجنيف موضع اطراء كافة مسؤولي الحزب في موسكو. كانوا غير راضين ـــ وكذلك غورباتشيف ـــ عن تلك الحفلات الليلية الصاخبة، ويستهجنون تلك النفسية المافياوية التي تنذر بالانجراف نحو الفساد. في كل حال، هناك عضوان في المكتب السياسي يتمايزان علانية في هذا الخصوص، عن جماعة بريجنيف : ميخائيل سوسلوف، منظّر الحزب، يوري اندروبوف رئيس ال ك.ج.ب. كان يقضي كل منهما عطلته في بيت الراحة التابع للمكتب السياسي. من البديهي أنه كان على بيار روج وغورباتشيف احاطتهما بالرعاية والسهر على راحتهما.

اشتهر سوسلوف واندروبوف، في اوساط جماعة بريجنيف، بزهدهما وتقشفهما. كانا اكثر ثقافة من أصحاب المراتب العليا المحيطة ببريجنيف، ويعتبرانِ نفسيهما من أهل الفكر. حتى ان اندروبوف كان ينظم الشعر، بالاسلوب الكلاسيكي ـــ وهذا الامر لم يكشف عنه الا بعد وفاته ـــ بينما كان سوسلوف يحفظ غيباً مقاطع طويلة من شعر بوشكين، على غرار غورباتشيف. وكان

لا بدّ لهذا الاخير من ان يدّس خلال تبادل الحديث معهما، معلومات وآراء تتصل بشؤون الاقتصاد والسياسة والتاريخ والقانون، ولا بدّ لهما من ان يعجبا بوضوح تلك الآراء وموضوعيتها. قد يكون سوسلوف قال عن غورباتشيف تعليقاً على زيارة هذا الاخير له : « انه بالفعل شاب ذكي ». والقول في روسيا عن شخص انه ذكي لا يعني فقط انه نبيه وعاقل وفطن، بل ايضاً انه ينتسب الى الطبقة المثقفة الراقية — الانتليجنسيا — وسرعان ما ابدت زوجة اندروبوف اعجابها ايضاً برايسا لجدّيتها وثقافتها وبساطتها.

في الوقت الذي كانت فيه زوجات المسؤولين يرتدين الذهب والألماس، كانت رايسا غورباتشيف تشذ عنهن، خصوصاً من وجهة نظر زوجة اندروبوف التي لا يستهويها البذخ الصارخ. ولعل اندروبوف نفسه تأثر بما عرفه عن رايسا بانها مثله، ابنة عامل في سكك الحديد، وانها عرفت طفولة مماثلة، هي بجوار جبال « اتلاي »، وهو بالقرب من محطة للقطار على الخط المؤدي من ستافروبول الى القوقاز.

لا تتفق آراء الصحافيين والمثقفين في موسكو، حول هوية الشخص الذي شق لغورباتشيف طريق قمتي الدولة والحزب. هل هو سوسلوف ام اندروبوف ام الخبير في الشؤون الزراعية لدى المكتب السياسي فيودور كولاكوف ؟ من الصعب ان تعرف بدقة كيف تجري الامور في قمة الهرم السوفياتي. فالعلاقات الشخصية والولاء لعبا دوراً مهماً في عهد بريجنيف، غير ان احداً لا يستطيع الادعاء الى اليوم، تحديد اهميتها، كما يستحيل ايضاً تقدير اهمية الالتزام الايديولوجي، والنتائج التي يقترن بها العمل التنظيمي، بالمقارنة مع العلاقات الشخصية والولاء. سعى بعض علماء الاجتماع الغربيين، طوال سنوات، وراء القرائن التي تتيح لهم وضع غورباتشيف في هذه المجموعة او تلك من اصحاب المراتب القيادية العالية في الاتحاد السوفياتي. غير ان هؤلاء العلماء لم يقدموا دلائل واضحة من شأنها تفسير ارتقائه سلم الحزب في ستافوربول. فيودور كولاكوف ظنّ به خيراً وسانده من دون لبس وغموض منذ مطلع

الستينات. غير انه يصعب التصور ان غورباتشيف وهو الحصيف وصاحب الفكر الموضوعي، كان موالياً وصديقاً لكولاكوف، ذي الطباع النارية والعاطفة الجياشة، والذي يميل، في عمله، الى عرض قوته.

لعل غورباتشيف قد نال، من دون شك، ومنذ منتصف السبعينات تأييد يوري اندروبوف الحاسم. غير ان هذا التأييد يختلف بوضوح عن اشكال التبعية المتبادلة التي كانت تتيح لفريق بريجنيف الارتقاء من منصب الى آخر. عمل غورباتشيف نيفاً وعشرين سنة في اتحاد الشبيبة الشيوعية وفي ادارة الحزب في ستافروبول قبل تعيينه في موسكو، واستحق التقدير والاعتبار الذين نالهما في حينه بفضل عمله وجهده وليس بفضل علاقاته ومعارفه الشخصية. لكن من البديهي ايضاً ان الدخول الى حرم الفريق الحاكم، يتطلب الحصول على الدعم من فوق. والطريقة التي كان يعتمدها غورباتشيف في اداء وظيفته قد اثرت ايجاباً في نفس اندروبوف الذي كان في حينه يحارب حياة الفساد والبذخ التي يعيشها سائر الموظفين. فمقاطعة كراسنودار المجاورة لستافروبول تقع تحت ادارة امين السر الاول سيرغي ميدونوف، وهو من بطانة بريجنيف ومن انصار الفساد والمحاباة دون هوادة. ولعل ما عرفه غورباتشيف عن المقاطعة المجاورة، قد ساعد اندروبوف فيما بعد على تحطيم ركن هام من اركان مجموعة بريجنيف.

اما سوسلوف الذي شغل في مطلع الاربعينات منصب امين سر الحزب في ستافروبول، فلا بدّ انه يكنّ لغورباتشيف التقدير للحياة المتقشفة التي يعيشها، وللقصائد التي يتلوها ولاتقانه الحديث عن المشاكل العملية التي يعاني منها الاتحاد السوفياتي، من دون التطاول على الخط الايديولوجي المرسوم. غير ان آراء الاشخاص المذكورين من معارف شخصية او سياسية الذين يفترض بهم تفسير مسيرة غورباتشيف الصاعدة، ليست مقنعة وقاطعة بشكل كاف يمكن معه وضع غورباتشيف في هذه المجموعة او تلك من المجموعات التي كانت تقرر في نهاية السبعينات المصائر السياسية لاهل الحكم. لعل

غورباتشيف كان ظاهرة استثنائية في نهاية مرحلة كان فيها التماسك الايديولوجي من دون ثغرات في الظاهر، اما في الداخل فكانت تنخره علاقات التبعية الشخصية والارتباطات المشبوهة.

يعتقد الاقتصادي غافريل بوبوف الذي عمل سابقاً كمساعد لغورباتشيف واصبح اليوم احد ألّد النقاد لسياسته الاقتصادية، ان غورباتشيف قد تسلّل الى ساحة الصراع على السلطة، بطريقة بارعة وبفضل ما يتحلّى به من صفات على الصعيد الخلقي. « فهو لا يشرب الكحول ولا يشارك في حفلات الداتشا ». وكان يعمل بكدٍ ونشاط في المراكز التي يشغلها ولم يكن بحاجة للدخول في متاهات المؤامرات المتشعبة والسائدة في موسكو. ولم يكن مرتبطاً باية فئة كما لم يكن من جماعة الكرملين، والغريب ان احداً لم يحقد عليه. وكانت الفئة التي لم ينضم اليها ترى فيه قروياً شاباً لا تجدي العلاقة معه نفعاً كبيراً. وتجده كتوماً للغاية وليس لها اية مآخذ على عمله. كان يعمل كخبير زراعي في وقت كانت فيه اوساط اللجنة المركزية في الساحة القديمة تعتبر الزراعة بمثابة حقل الغام. كان ينهك نفسه في العمل. وفي ستافروبول، لم يحاول قطعاً القيام باي عمل جذري، بل ترك الامور تغوص في وحول الاجراءات الصادرة عن الادارة المركزية التي كان يعتبرها في غير محلها، وكان محقاً بذلك. واذا كان لا بدّ لأحدٍ ان يخفق في مهمته كأمين سرّ جديد لشؤون الزراعة في اللجنة المركزية، فلمَ لا يكون غورباتشيف ؟.

لدى بحثه عن حلول للمشكلات الزراعية في مقاطعة ستافروبول كان يلجأ الى الاختصاصيين في المعهد العالي للزراعة وفي المزارع الاختبارية طلباً للمعلومات والمشورة. من الاشخاص الذين كانوا موضع ثقته، في هذا الخصوص، الاستاذ الكسندر نيكونوف الذي يشغل اليوم منصب عميد اكاديمية الزراعة السوفياتية في موسكو. في تلك الاثناء، كان نيكونوف يتحدث اليه عن التغييرات الواجب ادخالها على الزراعة السوفياتية، وينبغي، برأيه ان يكون الفلاح سيد ارضه وان يستطيع بيع محاصيله بنفسه في السوق سواء كان مالكاً لارضه

او مستأجراً لها او عضواً في التعاونية. كما يجب تأمين تأهيله من الناحية المهنية وتوفير الآليات الزراعية له بصورة افضل. وكان يرى ايضاً ان القرى بحاجة الى بنية تحتية كافية، والى طرق مواصلات جيدة والى مساكن ملائمة. غير ان النظام الاقتصادي المتسلط على شؤونهم، كان يضرب بمعارفهم وخبراتهم عرض الحائط، وينبغي ان يزول شيئاً فشيئاً لصالح تدبير شؤونهم بانفسهم وبحرّية، ولصالح نظام اقتصاد السوق.

لم يكن الاستاذ نيكونوف يعلن، لعشرين سنة خلت، عن برنامجه بهذا الشكل من الوضوح والتفصيل، في احاديثه مع غورباتشيف. غير أن المبادئ التي كان يعرضها على امين سر الحزب، كانت ترتكز على مثل هذه الافكار. وكان لا بدّ لغورباتشيف الذي عليه الاخذ بعين الاعتبار التوجيهات الصارمة ومعايير الانتاج التي تفرضها موسكو، من ان يكتفي ببعض المحاولات الاصلاحية الخجولة، والوقت الذي يستطيع فيه عرض برنامجه الزراعي الخاص به، لم يكن قد حان بعد. غير انه كان يأخذ هذه الملاحظات والافكار بعين الاعتبار، في عمله، وكان الشخص المؤهل لوضعها بحكمة ونجاح موضع التنفيذ.

انتقل الكسندر نيكونوف من ستافروبول الى موسكو قبل شهرين من انتقال غورباتشيف اليها. ولا يعتقد ان سوسلوف او اندروبوف قد لعبا شخصياً دوراً ما في تعيين غورباتشيف في منصب امين سر اللجنة المركزية لشؤون الزراعة. « انها من اللحظات النادرة في تاريخ الاتحاد السوفياتي التي تغلبت فيها مزاياه الشخصية على كل ما عداها، فيما خص ترفيعه الى هذا المنصب. كان غورباتشيف. في ريعان شبابه وعزّ نشاطه وحيويته. وانتزع لنفسه شهرة واسعة في اللجنة المركزية من خلال خطاباته حول الزراعة، لكنه لم يكن ينتمي الى اية فئة او يخشاه ويحسده احد ».

في اجتماع الهيئة العامة للجنة المركزية. في حزيران (يونيو) ١٩٧٨، عهد فيودور كولاكوف، المسؤول عن الزراعة في اللجنة المركزية، الى غورباتشيف مهمة القاء كلمة اللجنة حول السياسة الزراعية، فاغتنم غورباتشيف فرصة

شهر ونصف الشهر لتحضير خطابه، كي يتحدث الى مدراء الوحدات الزراعية، في مقاطعته والى خبراء معهد الزراعة العالي في ستافروبول حول الموضوع. في تلك الاثناء، كان معظم كبار موظفي الحزب يستكتبون مقرري الجلسات او في احسن حال ــ موظفي الادارة المركزية ــ الخطابات التي يلقونها.

يقول الكسندر نيكونوف : « اشتغل غورباتشيف على اعداد خطابه اسابيع عدة. كان يتنزه حاملاً بيده آلة مسجلة يملي عليها افكاره، وحتى في السيارة كان يدون الملاحظات والانطباعات. كنت اعلم مدى قدرته على العمل الدؤوب، غير انني دهشت كيف كان يتحمل هذا القدر من العمل الشاق ». هل كان يدرك غورباتشيف ان هذا الخطاب في السياسة الزراعية سيكون حاسماً في حياته ومستقبله السياسي ؟ يعتقد نيكونوف ان غورباتشيف لم ينظر الى الموضوع من هذه الزاوية. كان يدرك مدى الشرف الذي انيط به لالقاء خطاب اساسي امام اللجنة المركزية للحزب، وكان يهمه اطلاع اعلى هيئة عامة في الحزب على ما يعرفه من احوال الزراعة. لكنه لم يعدّ خطابه على امل تعيينه في احد المناصب الرفيعة في الحزب، في موسكو.

كان الخطاب الذي القاه غورباتشيف امام الهيئة العامة المنعقدة في تموز (يوليو) سنة ١٩٧٨ في غاية التوثيق وغنياً بالمعلومات التي لم تعرض يوماً بهذا القدر من العمق، والموضوعية أمام اعضاء المكتب السياسي وموظفي اللجنة المركزية. غير ان غورباتشيف الذي يتقن ايضاً اصول اللعبة القائمة في تلك الاثناء، لم يتقدم باي اقتراح يدعو الى احداث تغيير جذري في توجه السياسة الزراعية، وقد شكّل خطابه تسوية بين ما يعتبره ضرورياً وما يراه ممكناً، على حد رأي بعض اصدقائه ومستشاريه في تلك الاثناء. « لكنه كان يريد التأكد بشكل قاطع من صحة كل حدث وكل رقم قدّمه، يقول الكسندر نيكونوف. وقد تثبت من صحة كل رقم وكل معطى احصائي ».

ترك خطاب غورباتشيف في نفوس اعضاء اللجنة المركزية اثره البالغ، وعلقوا بالقول : ها اننا امام شخص عمل بجدية، ويعرف عن خبرة عمّا

يتحدث ولا يكتفي بصيغ ايديولوجية رنانة واحصاءات مخادعة. اصيب معظم مستمعيه الذين كانوا يجهلون اسمه، بالدهشة. اما الاعضاء الاكبر سنا في اللجنة المركزية والمكتب السياسي، فقد ذهلوا باداء هذا الشاب وعلق بعضهم، اثر الجلسة، مستحسناً : لا داعي لليأس، اذاً، من الجيل الجديد.

قرابة نهاية السبعينات، كان من الواضح ان كارثة زراعية كانت وشيكة الحدوث ــ وهي كارثة تنبأ بها في كل حال خبراء معهد الابحاث الزراعية ــ وكانت عمليات شراء الحبوب من الولايات المتحدة الاميركية وكندا والارجنتين واوروبا الغربية قد ادّت الى تمويه الوضع الفعلي وتأخير استحقاق الازمة. وحدها عمليات التخزين والتوزيع كانت تتسبب في اتلاف كمية من الحبوب توازي ثلاث مرات ما يستورده الاتحاد السوفياتي من الغرب. وكانت ادارة الحزب تدرك انه بات عليها اتباع سياسة جديدة لانعاش الزراعة. وبهذا الخطاب، سوف يتمكن غورباتشيف من الارتقاء الى قلب الادارة المركزية.

في تموز (يوليو) سنة ١٩٧٨، توفي فيودور كولاكوف، عن ستين، عاماً، وكان ما يزال بنظر القيادات العليا في ريعان شبابه ومرشحاً محتملاً لارفع المناصب. وجاء في نبأ وفاته الرسمي ان قلبه قد توقف. ويبدو ثابتاً اليوم انه انتحر من دون ان تعرف موسكو السبب. غير ان الشائعات راجت في موسكو اثر موته. وعلى الرغم من انه شغل منصب امين سر اللجنة المركزية لمدة اثنتي عشرة سنة، وعضوية المكتب السياسي طيلة ست سنوات، فلم يشارك في مأتمه، لا الامين العام بريجنيف ولا رئيس الحكومة كوسيغين، وكذلك اعضاء المكتب السياسي امثال سوسلوف او تشيرمينكو.

كان غورباتشيف من بين الذين القوا كلمة تأبينية في مأتمه. وكان اسمه لا يوحي بشيء في الاوساط السياسية في موسكو. غير ان إقدامه على القاء تلك الكلمة التأبينية قد يعني ان كولاكوف كان فقد الحظوة في اوساط الحزب في آخر حياته، ولم يعد من جماعة بريجنيف كما يستدل منه ايضاً

ـــ من مراجعة الامور لاحقاً ـــ ان غورباتشيف لم يكن ينتمي الى اية فئة من فئات الحكم القائم.

بيورشيليست هو واحد من آخر الناجين في الصراعات التي اشتدت في الاوساط العليا في الحزب. وقد نشر مذكراته عام ١٩٩٠ حول ارتقاء غورباتشيف الى السلطة. كان هو نفسه قد تنقل في كل المناصب في جهاز الحزب والحكومة تقريباً (مدير اعمال في صناعة التسلح، امين سر الحزب في اوكرانيا، عضو المكتب السياسي، نائب رئيس المجلس) قبل ان يتولى ادارة مجمّع لانتاج الاسلحة. التقى بغورباتشيف آخر مرة عام ١٩٧٣، ويتذكره شاباً عاقلاً ومتعطشاً للمعرفة ويطرح الكثير من الاسئلة ويبدي اهتماماً بكل شيء. ويفسر مسيرة غورباتشيف الى موسكو كما يلي : « بعد وفاة فيودور كولاكوف الغامضة، ترّقى غورباتشيف في الادارة المركزية للجنة المركزية. وكان كولاكوف المدافع الدائم عن غورباتشيف منذ تعاونهما في ستافروبول، حيث كان كولاكوف امين السر الاول للجنة الحزب، وغورباتشيف امين سر الشبيبة الشيوعية. بعد موت سوسلوف، الذي كان يحكم سيطرته على جهاز الحزب، انكفأ غورباتشيف الى جانب اندروبوف. وكان هذا الاخير يستقطب الانصار للاستيلاء على تركة بريجنيف. وهكذا فرض غورباتشيف نفسه في قلب القيادة في الكرملين، وبعد وفاة اندروبوف اصبح، في عهد خليفته تشيرمينكو، الرجل الثاني في اللجنة المركزية ».

لم يكن أحد يتصور اثناء مأتم كولاكوف، ان الاختيار سيقع على غورباتشيف لخلافته. اذ كان التعتيم التام يلف طريقة تعيين المسؤولين، حتى لدى اصحاب المناصب العليا. اما في اسفل الهرم ووسطه، فلم تكن قواعد اللعبة مرسومة بالتحديد الا في الظاهر، اذ كانت العلاقات الشخصية هي التي تحدد في الغالب مسار هذه الامور. رسمياً، تملأ جميع المراكز المهمة في الحزب والدولة والاقتصاد والسياسة وفقاً للاجراءات المعروفة باسم « نومانكلاتورا ». ويشرح احد كتب الحزب هذا المصطلح بانه « بيان بالمراكز المهمة. وينبغي على المرشحين

لهذه المراكز الحصول قبل تعيينهم على تزكية لجان الحزب المختصة في القضاء والمدينة والمقاطعة الخ ... وموافقتها على الترشيح. ولا يمكن اقالة اعضاء النومانكلاتورا من مناصبهم الا بموافقة لجنة الحزب المختصة »

كان التعيين في احد المناصب كرئيس تحرير صحيفة او مدير معهد ابحاث، او وزير في حكومة احدى الجمهوريات، او رئيس احدى لجان الحزب وسوى ذلك من المناصب الاخرى، يستوجب حتماً ورود المنصب في بيان « النومانكلاتورا ». لكن جميع اعضاء الحزب لا يظهر اسمهم في هذا البيان، ومن كان « ينتمي » الى « النومانكلاتورا »، كان يعدّ من المقربين الحزب وبطانته، وهذا يعني انه، حتى في حالة خرق القوانين بشكل فاضح، لن يتعرض للملاحقة اذا لم يصرّح المسؤولون في الحزب من اصحاب الصلاحية للسلطة القضائية المختصة بملاحقته. يبقى ان المناصب القيادية العليا في المكتب السياسي وامانة سر اللجنة المركزية غير ملحوظة في كتاب الحزب المشار اليه آنفاً.

احد اعضاء المكتب السياسي في ذلك الحين، يستعيد هنا، كيف جرى تعيين الامين العام ليونيد بريجنيف، عام ١٩٧٧، رئيساً لمجلس السوفيات الاعلى، اي رئيساً للدولة. وكان يشغل هذا المنصب نيقولا بودغورني الذي تسلّمه في الوقت الذي وصل فيه بريجنيف وكوسيغين الى السلطة، بعد سقوط خروتشيف، وقد تمّ اقصاؤه شيئاً فشيئاً عن القرارات السياسية. خلال احدى الجلسات العمومية للجنة المركزية، كان بودغورني جالساً بجانب بريجنيف، فذهل لسماعه احد الخطباء يقترح دمج منصبي الامين العام ورئيس الدولة، وهذا يعني اقالة بودغورني من منصبه. ويروي شاهد عيان ان بودغورني التفت صوب بريجنيف وقال له : « ماذا يعني ذلك، يا لونيا ؟ » فتطلع بريجنيف اليه من دون ان يرفّ له جفن قائلاً : انا ذهلت مثلك. لكن اذا كانت هذه مشيئة الشعب ... »

الشخص الذي شهد هذه الواقعة في اللجنة المركزية، تعرض هو ايضاً

للاقالة من منصبه في عهد بريجنيف. ولدى سؤاله : لماذا كان اعضاء المكتب السياسي والحكومة يخضعون لمثل هذه القرارات من دون اعتراض ؟ لم يعرف بما يجيب. في كل حال، كان يستحيل لاي شخص كان الوقوف في وجه القرارات التي يتخذها الامين العام والحزب.

بات من المستحيل، اذاً، ان نعيد تركيب الطريقة التي كانت تتخذ فيها القرارات، في اواخر عهد بريجنيف. لكن يمكن العودة الى هذه المرحلة او تلك من العمل السياسي وتأريخها. فبعد انقضاء شهرين على مأتم كولاكوف، اصبحت محطة القطار في المنتجع المعدني في « مينارالتي فودي » الواقع في اسفل جبال القوقاز، مسرحاً لاحدى اهم اللقاءات في حياة ميخائيل غورباتشيف. والقطار الخاص الذي ينقل بريجنيف من البحر الاسود الى موسكو، توقف في « مينارالتي فودي ». كان يرافق بريجنيف (واحد وسبعون عاماً) مساعده الخاص كونستاتين تشيرنينكو، (سبعة وستون عاماً) ويشغل منصب امين سر اللجنة المركزية. كان ينتظره في المحطة يوري اندروبوف (اربعة وستون عاماً) عضو المكتب السياسي ورئيس جهاز ال ك . ج . ب الذي يتلقى علاجاً من جراء اصابته بالتهاب كلوي، في مصح « بيار روج ». كان اندروبوف يصطحب معه غورباتشيف (سبعة واربعون عاماً). وكانت الموجبات البرتوكولية تملي على غورباتشيف حضوره، بصفته امين السر الاول لمقاطعة ستافروبول. لكن تواجده هنا يعود الى رغبة اندروبوف في تعزيز مكانته.

في موسكو، شغر منصب امين سر اللجنة المركزية لشؤون الزراعة. كان اندروبوف ينوي اغتنام هذه الفرصة لايصال غورباتشيف الى موسكو. وجد هذا الاخير نفسه في حضرة ثلاثة رجال يتقدمونه سناً وهم الامين العام شخصياً وخليفتيه. وفي هذا اللقاء الرباعي في محطة « مينارالتي فودي »، تقرر ارتقاء غورباتشيف الى عضوية اللجنة المركزية. بالطبع كان غورباتشيف يحسّ انه اصبح على باب قوسين او ادنى من مركز السلطة في المكتب السياسي. ولا احد يستطيع التكهن فيما اذا كان يحلم في حينه في الوصول الى رئاسة

الحزب. ولم يجد فيه بريجنيف وتشيرنينكو واندروبوف منافساً لهم. ففي قيادة الحزب السوفياتي، وبعد عشر سنين على تمرس بريجنيف في السلطة، نسي الجميع ان البلاد لم يحكمها المسنون على الدوام، وان بريجنيف كان له من العمر سبعة واربعين عاماً ــ اي من عمر غورباتشيف ــ عندما عيّن اميناً عاماً للجنة المركزية، وحده اندروبوف المريض بين الثلاثة كان يعرف شخصية غورباتشيف ومطلعاً على افكاره السياسية ويتوقع منه ان يسانده في اللجنة المركزية، لانه كان يطمح بنفسه الى منصب الامين العام، ولعلّه وجد في شخص غورباتشيف آنذاك خليفة محتملة.

لم يكن غورباتشيف امين سر عادياً لمقاطعة ستافروبول ــ فاعتباراً من سنة ١٩٧٠، انتقل مراراً الى موسكو. وبصفته نائباً في مجلس السوفيات الاعلى، لم يكن له بالطبع اي دور سياسي يلعبه : لم يكن لهذا المجلس صلاحيات تذكر ويكتفي، بالمصادقة، مرتين في السنة على اقتراحات الحكومة. غير ان غورباتشيف اصبح، اعتباراً من سنة ١٩٧٤ رئيس اللجنة المكلفة بشؤون الشبيبة في الاتحاد السوفياتي، وهي اللجنة الاولى في السوفيات الاعلى. وكان يضطلع من خلال هذا المركز الجديد، على النشاط التشريعي ويتعاون مع المسؤولين الحكوميين. عام ١٩٧٩، عيّن غورباتشيف بصفته رجل قانون، رئيساً للجنة القانون، وهي هيئة ارتباط مهمة بين الحزب والحكومة والمشترع. وعندما انتخب اندوربوف، عام ١٩٨٢، اميناً عاماً، رقي غورباتشيف الى رئاسة لجنة الشؤون الخارجية، ففتح له هذا التعيين حقلاً جديداً ومهماً لاكتساب الخبرات الواسعة، من غروميكو، وزير الشؤون الخارجية، الذي شاخ في هذا المنصب. كانت تلك محطات مهمة على الطريق المؤدية الى الامانة العامة للحزب، وهي المحطات التي توّجت خبرته المكتسبة وشبكة العلاقات التي نسجها داخل الحزب : فالذين شاؤوا ترفيع غورباتشيف كانوا يدركون مدى الكفاءة المزدوجة التي يتمتع بها.

موسكو

تنافس ثلاثة مرشحين لمنصب امين سر اللجنة المركزية لشؤون الزراعة : سيرغي ميدونوف، امين السر الاول لمقاطعة كراسنودار وهو ينتمي لجماعة بريجنيف؛ وفيودور مورغون امين السر الاول لمنطقة بولتافا، في اوكرانيا، وميخائيل غورباتشيف. بدا ميدونوف كأنه يلقى دعم موسكو. وكان بريجنيف قد منحه لمرتين وسام بطل العمل الاشتراكي، وقدم خدمات كثيرة للعديد من الناس. لكن كانت هناك مجموعة من الحجج تشهد لصالح غورباتشيف : فخطابه امام اللجنة المركزية الذي اكسبه مكانة مرموقة كخبير في الشؤون الزراعية، ولعب، من دون شك دوراً كبيراً، كما لفت اليه انظار سوسلوف واندروبوف وكلاهما عضوان نافذان في المكتب السياسي ويجدان فيه امل الجيل الطالع : كان غورباتشيف روسياً ــ هذا الامر له اهميته عند سوسلوف ــ وفطناً ونشيطاً في عمله. واسلوبه في الحياة بسيط ــ وهو امر يهم اندروبوف.

كان الوضع الاجتماعي والاقتصادي يشغل بال غورباتشيف بشكل علني واضح، الامر الذي اكسبه تعاطف تشيرنينكو عضو المكتب السياسي والسند الاساسي لبريجنيف، لان تشيرنينكو كان يرى في السياسة الاجتماعية الركيزة الاساسية لتدعيم النظام. فضلاً عن ذلك، لم يكن غورباتشيف لفت الانتباه اليه من جراء طموحه الشخصي او تعطشه الى السلطة، او من جراء توجيه النقد العميق الى خط الحزب. وكان باستطاعة قدامى المكتب السياسي القبول

به في قلب ادارة اللجنة المركزية من دون النظر اليه كمنافس محتمل. لعلّ تلاقي كل هذه العناصر هو الذي حتّم قرار تعيينه.

في موسكو، تطلق حالياً على سنوات حكم الامين العام بريجنيف، تسمية « زمن الركود ». ويذكر الروس ان الاوضاع كانت جامدة ولا شيء يتحرك، حتى الايمان بامكانية التقدم بات على شفير الانهيار. ولا ينسحب هذا الحكم على كامل ولايته التي امتدت طيلة عشرين سنة، اعتباراً من عام ١٩٦٤، حيث كان ليونيد بريجنيف على رأس الحزب والدولة. وتميز عهده، بادئ ذي بدء بوعد الموظفين تأمين الهدوء والاستقرار لهم؛ فالاجراءات التي اتخذت بحقهم في عهد خروتشيف، من خطط اصلاحية تتوالى بوتيرة عالية، الى التسرع في التأنيب، واقالة المسؤولين وبعضهم في منصبه منذ سنوات عدة، كل ذلك ازعج الحزب. بالمقابل، وجد بريجنيف سنداً له في القيادة الجماعية حوله وقدّم نفسه بمثابة « أب للبلاد » يضمن لها الاستقرار. وبصفته رئيس الحزب، شجع في سنوات عهده الاولى، وبمشاركة رئيس حكومته الكسي كوسيغين، اصلاح النظام الاقتصادي. وحوالي عام ١٩٧٠، وفيما الشعب السوفياتي يعاني منذ سنوات طويلة من اجواء الخوف المصطنع الذي وضع فيها لجهة احتمال وقوع حرب عالمية جديدة ــ اعطاه بريجنيف بارقة امل جديدة باحلال الامن مجدداً في اوروبا وامكانية تحسين الوضع الاقتصادي وظروف المعيشة.

اتاحت الاتفاقيات المعقودة مع المانيا الاتحادية استخراج ثروات المناجم في سيبيريا، وتطوير الصناعة في الجزء الغربي من الاتحاد السوفياتي.

غير ان الآمال بالتحسن الاقتصادي تبخرت، لان الاتحاد السوفياتي لم يكن مؤهلاً ولا قادراً على التعاون الفعّال مع الاطراف الغربيين، وبالتالي تحديث صناعته التي باتت جامدة وبالية.

في اواخر السبعينات، وفيما كان عهد بريجنيف يقترب من نهايته عانى

الشعب السوفياتي من الشعور بالخيبة. كان الوضع قد تفاقم في نواح كثيرة، في ظل حكم بريجنيف، واصيب بالجمود في كافة الميادين. وتذّمر الناس : في الخمسينات، في ظل حكم ستالين، ثم بعده خروتشيف، كانت السلع الغذائية متوافرة في المحلات التجارية، فيما تخصص اليوم لبعض المحظوظين. وتراجع التموين بقوة. وبات على ابناء موسكو الوقوف في صفوف طويلة اذا شاؤوا شراء كمية من البطاطا المستوردة من كوبا. وصار عليهم بالتالي التوجه نحو الاسواق الكولخوزية حيث كانت الخضار صعبة المنال لاناس يكسبون متوسط أجر شهري يبلغ ١٧٠ روبلاً.

واليوم، يجري سكان موسكو المقارنة بين الوضع الاقتصادي الحالي، وبين الوضع الذي ساد في فترات اكثر رخاء، فيلاحظون انه كان يمكنهم عام ١٩٨٠، الحصول على كميات محدودة من الزبدة واللحوم، وان المقانق الجيدة قد اختفت من المحلات التجارية. وبدأ المواطن المتوسط الدخل يعاني من وطأة الاجراءات الاقتصادية القاسية : فتدنت الاعانات الاجتماعية. وازدادت معدلات الوفيات في صفوف الاطفال، وصار من الواجب انتظار اسابيع عدة للحصول على سرير في المستشفى. وراحت حدائق الاطفال الرسمية ترفض قبول الاولاد الذين لا يستطيع ذووهم المساهمة في نفقات الصيانة. وصار ينبغي تسديد بدل الخدمات الطبية نقداً او عيناً، ودفع اجر الممرضة كي تقوم بتغيير الشراشف في المستشفى.

انتشرت عبر فئات المجتمع شبكة من الفساد و « الخدمات المتبادلة »، وبات كل ما يأمله المواطن من دولته متوافراً في السوق السوداء. مع ان الامر يتعلق بمعونات اجتماعية تعهد الحزب بتأمينها مجاناً، اذ أنها من حق كل العاملين بصورة عادية وقد دفعوا بدلها مسبقاً. من الطرائف الشائعة التي تشهد على الحالة النفسية لدى المواطنين السوفيات، ما يلي : « يدعي المسؤولون اننا نعيش في ظروف افضل. ونحن نقول لهم إننا نعمل اكثر ».

لعل المسؤولين غير مطّلعين على المصاعب التي تصيب قطاع التموين. فالعشرة

أو العشرين ألفاً من المسؤولين في موسكو وانسباؤهم واصدقاؤهم، يعيشون في حلقة مغلقة من نظام تمويني ركيزته السوق السوداء، ولا يمت بصلة الى حياة المواطن العادي. كان باستطاعة المحظوظين في موسكو الحصول بصورة اسهل من قبل، على السيارة والشقة السكنية وسواها من السلع التي تشهد على مستوى معيشة مرتفع. وكانت عمليات الاستيراد تخفي وراءها فشل السياسة المتبعة في الزراعة السوفياتية. وكان الخبز الروسي والفودكا يصنعان من القمح الاميركي. ونجحت القروض وعمليات الاستيراد من الغرب في حجب الازمة بصورة مؤقتة، مع ذلك، تنامت النقمة حتى في الاوساط التي تساند النظام القائم. وازدادت الشكوى من تفاقم الفساد ولم يعد بالامكان خنق فورات الغضب التي يثيرها ظلم النظام. اكثر من ذلك، عانت الفئة المثقفة في صفوف المسؤولين من شعور الخيبة على الصعيد السياسي : فقد بات واضحاً للمطلعين على الوضع الفعلي السائد، ان النظام الاقتصادي السوفياتي بلغ حدّه من التطور وصار يؤلف، في شكله الحالي المتحجر سداً منيعاً في وجه كل تقدم واصلاح.

اما الفئة الشابة في معاهد الابحاث العلمية والوزارات وحتى في الحزب نفسه، فكانت تدرك هذا الوضع وتقاسي من عدم قدرتها على المجاهرة به وعدم نشر اي شيء حول الموضوع. وكان ليونيد بريجنيف وفريقه الحاكم قد اعلنوا عالياً قيام « عصر الاشتراكية الواقعية ». وكانت هذه العبارة قد استخدمت درعاً واقياً ضد الشيوعيين الاصلاحيين في اوروبا الشرقية والشيوعيين الغربيين الذين كانوا ينتقدون النظام السوفياتي. ثم ادرك الجميع ان « الاشتراكية الواقعية » تعني ان الحياة في الاتحاد السوفياتي هي على ما هي عليه وانه لا يجب توقّع الكثير من التحسن. وفقد السوفيات كل امل بالمستقبل.

كان نظام بريجنيف يخنق في المهد كل محاولة للنقد والمعارضة. غير انه لم يكن نظاماً يسود فيه الخوف والارهاب. وحدهم اولئك الذين ينتقدون

علانية المبادئ التي يرتكز عليها النظام والقيادة يتعرضون للاعتقال والنفي على حين غفلة ومن دون توضيح الاسباب. من جهة اخرى، كان النظام يتيح للناس فسحات من الحرية حين كان بامكانهم التمتع بما يحلو لهم، او ــ اذ شاؤوا جلب المتاعب لهم ــ توجيه الانتقاد الى التقصير الذي عاينوه. واذا كان هذا الامر يحدث احياناً في هذا المعهد للابحاث او ذاك، لأن الاختصاصيين يرون وجوب التعبير عن مخاوفهم واعداد برنامج اصلاحي، فانهم يتعرضون للوم او تنزيل الرتبة، ونادراً اكثر من ذلك. كان بعض مدراء المعاهد يحرص على تصحيح ابحاث معاونيهم ويستبعد المعطيات الاحصائية التي تلقي الضوء على مواضع الفشل، بحيث لا يعلن منها الا ما تسمح به التعليمات النافذة.

رسمياً، كان الحزب يلقي مسؤولية صعوبات التزود بالمواد الغذائية على عاتق الاميركيين وحلف الاطلسي الذين فرضوا على الاتحاد السوفياتي سياسة مدمّرة في سباق التسلح. لكن الذين حاولوا بموضوعية وصف الوضع الراهن، لم يأخذوا بهذه الذريعة. واذا كانت تحاليلهم لم تكشف عن الاسباب الحقيقية للكارثة، فانها على الاقل القت الضوء على ان فشل النظام الاقتصادي له اسبابه الداخلية والتدابير الاصلاحية كفيلة وحدها بقلب الاوضاع. من المؤكد ان الوضع كان يبدو مختلفاً بنظر بريجنيف والمحيطين به، اذ ان عملهم الوظيفي يقوم على المناورات التكتيكية، وعلى العلاقات الشخصية، وكان يحلو لهم ترديد الشعارات الكبيرة حول « نجاح وتقدم النظام الاشتراكي والاتحاد السوفياتي ». وكانت جماعة بريجنيف تتصلب بشدة ضد اجراء اي بحث معّمق للوضع وعلله. ولم يكن اسلوبها في القيادة قائماً على التحليل الايديولوجي او على الاعتبارات الاقتصادية في السياسة الاقتصادية. كان الانسجام بين اعضاء الفريق الحاكم يرتكز بالدرجة الاولى على علاقات من الثقة فيما بينهم وعلى الخدمات المتبادلة.

حين كان المسؤولون ينتقدون الاخطاء المرتكبة، كان هذا النقد يستهدف

بالاحرى الاشخاص لا المؤسسات. كان بريجنيف نفسه يلقي بصوته الراعد في فترات شبه منتظمة، اثناء انعقاد جلسات اللجنة المركزية، خطابات يندد فيها بعجز الصناعة السوفياتية وتقصير القيمّين على شؤونها. وكانت هذه الانتقادات تستهدف احياناً كبار موظفي الدولة. غير ان من كان يتهمهم بريجنيف لم يكونوا دائماً هم الاسوأ.

بعد ذلك، فوجئ فريق من العاملين في احدى الوزارات من خلال الصحف بخبر عقوبة اللوم التي انزلها بريجنيف بحق رئيسهم، وتضمنت نعته بالفشل وعدم الاهلية والكفاءة. شق الامر على الوزير غير انه غالباً ما ظل اللوم من دون عواقب تذكر. وهكذا ما إن استأنف وزير الكيمياء نشاطه، بعد عقوبة التأنيب العلنية بحقه، حتى رقّي بصورة غير متوقعة الى منصب نائب رئيس الحكومة. كان من شأن مثل هذه التناقضات ان تؤدي الى التشكيك في مصداقية نظام الحكم، واضعاف سلطة بريجنيف الذي بدأ يشيخ. لم يعد النظام جديراً بالثقة. واخذت التقارير التقريظية لحالات النجاح تترك مكانها للبيانات الانتقادية اللاذعة حول الفشل وتردي الاوضاع التي لم يعد احد يعتبرها في النهاية بمثابة حالات معزولة او غير متوقعة.

عبثاً بشّر بريجنيف المواطنين للمرة الالف بان الهيئة العسكرية ـــ الصناعية سوف تضع تقنيتها المتطورة في خدمتهم لسد حاجاتهم، لان المواطنين السوفيات اعتادوا سد حاجاتهم بالثمن المرتفع، في السوق السوداء. وكان المسؤولون الصناعيون يدركون منذ فترة طويلة، ان التقيد بالمعايير التي تفرضها وزرة التصميم، يستوجب ليس فقط التلاعب بالمعطيات الاحصائية، بل ايضاً تأمين شبكة خاصة من المتلاعبين الذين يؤمنون لهم المواد الاولية مقابل حصولهم على الهدايا والبخشيش. وكان شعار هؤلاء المسؤولين : « الاستمرارية من دون اجهاد الفكر » او في كل حال من دون الحديث عن النتائج المحتملة لتفكيرهم.

كان البيروقراطيون في الحزب والدولة، ابان حكم بريجنيف، يشعرون بالامان نسبياً، انما كان القلق يساورهم من جراء المناقشات التي لم تهدأ حول تحرير

النظام السوفياتي، وقد بلغت اوجها بعد تصريحات خروتشيف المثيرة حول ستالين. وفي عام ١٩٦٥، شاءت الحكومة الجديدة الظهور بمظهر المتشدّد في اتخاذ الاجراءات القاسية ضد المثقفين الذين استمروا في التهرب من الالتزام بايديولوجية الحزب، وحكم على الكاتبين سينيافسكي ويولي دانيال بالسجن في المعسكر لمدة سبع سنوات للاول وخمس سنوات للثاني، لنشر كتبهما في الخارج تحت اسم مستعار. فكانت هي المرة الاولى منذ موت ستالين، التي يتعرض فيها الكتّاب للسجن في المعسكرات. غير ان الرجلين رفضا، خلافاً للمتهمين في المحاكمات الستالينية، الاعتراف بالجرم المنسوب اليهما والاعتذار جهراً. حتى ان العديد من المثقفين السوفيات تجرأوا على توقيع بيانات احتجاج وعرائض لصالح المحكومين. كذلك تظاهر ما يناهز المئة شخص، في « ذكرى اعلان الدستور السوفياتي »، في الخامس من كانون الاول (ديسمبر)، في ساحة بوشكين، مطالبين باحترام الحقوق الدستورية، وكان بعضهم يشارك لاول مرة في حياته في مظاهرة. كانت هذه التظاهرة هي الاولى غير المرخص بها والتي يشارك فيها اندره ساخاروف.

بدأت حينذاك، في المدن الاخرى، عمليات اضطهاد « اولئك الذين يفكرون بشكل مختلف »، اي المنشقين الذين اعتبروا انفسهم بمثابة ممثلين للمعارضة الشريفة. وكانوا ينتمون جميعاً الى اوساط النخبة السوفياتية ــ الانتليجنسيا ــ، وكان الفاصل متحركاً بين اولئك الذين يتظاهرون رسمياً في سبيل حقوق الانسان ودولة القانون، واولئك الذين يستمرون في العمل، ظاهرياً وكأن شيئاً لم يكن، في مراكزهم في الحياة الثقافية والعلمية. عام ١٩٦٦، احتكم اكثر من عشرين عالماً وفناناً الى المؤتمر الثالث والعشرين، محذرينه من الاقدام على اعادة الاعتبار لستالين. ومن بين هؤلاء الكتاب والفنانين، اهرينبورج وتشوكوفسكي وراقصة الباليه مايا بليسكايا، وعازف الكمان روسترو بوفيتش وعلماء الذرة كابيتسا وتامّ وساخاروف. وكانت شهرتهم الواسعة تكفل عدم التعرض لهم لأن الحزب لا ينوي ان يصنع منهم شهداء.

في ايار (مايو) سنة ١٩٦٧، وجّه الكسندر سولجنستين الى اتحاد الكتّاب رسالة الى كافة المندوبين يحتج فيها على الرقابة. وجاء فيها : « الرقابة غير ملحوظة في الدستور وبالتالي غير شرعية. وهي لا تظهر رسمياً كذلك، اذ تنهال على ادبنا تحت تسمية تثير الضحك والسخرية وهي « غلافليت » (اي الادارة المركزية لشؤون الآداب). فيقترف باسمها جهّال متأدبون أفعالاً تعسفية جائرة بحق الكتّاب ». لم يجرؤ احد من المندوبين الثلاث مئة على قراءة الرسالة علانية امام الجمهور، غير ان ثلث الحضور طالب بمناقشة مسألة الرقابة في اجتماع يعقده مؤتمر الكتّاب.

بيد أن اضطهاد المفكرين المنشّقين ازداد عنفاً. اذ راح جهاز ال ك . ج . ب يستخدم مستشفيات الامراض العقلية اكثر فاكثر، بغية تخويفهم او معاقبتهم او القضاء عليهم. فتضاءل عدد الذين يتجرأون على وضع توقيعهم في اسفل رسالة احتجاج ضد الرقابة او للمطالبة باحترام حقوق الانسان فيما خص الزملاء السجناء. عام ١٩٧٠، بدأت حقبة استمرت خمس عشرة سنة، لم تتجرّأ خلالها سوى حفنة قليلة من الرجال والنساء على تحمّل تبعات الانشقاق والتعّرض للاضطهاد مع علمهم المسبق به. هذه الحفنة القليلة هي التي ساهمت في نشر عدد من تلك الافكار التي كانت موضع نقاش رسمي بعد موت ستالين، وكان لا بدّ لها من انتظار مرحلة « الغلاسنوست » في عهد غورباتشيف كي تطرح على النقاش مجدداً وعلانية.

شكّل المنشقون الذين سعوا لبثّ هذه الافكار في المجتمع، فريقاً يتحلى بدرجة فائقة من الشجاعة، سيما وان عددهم كان زهيداً بالمقارنة مع عدد الشعب السوفياتي. لم يأملوا كثيراً في الحصول في يوم من الايام على الترخيص لهم بحرية التعبير العلني. وفقدوا عملهم وامكانية الدخول الى العيادات الخاصة والمستشفيات التابعة للنقابات المهنية التي ينتمون اليها، وغالباً ما حرم المسنون من بينهم من معاش التقاعد. كاد معظمهم ان يموت جوعاً لولا ان بعض الزملاء المرموقين من الذين كانوا يتفادون المواجهة مع الحزب والشرطة، لم

يبادر الى مساعدتهم ومدّهم ببعض المال او تكليفهم ببعض المهام السرية. فالمنشقون لم يكونوا في عزلة بالقدر الذي يبدون فيه ظاهراً، الامر الذي كان يزيد من ارباك قيادة الحزب التي سعت بالقوة مجدداً الى حصر الحياة الفكرية في اطار التوجيهات الايديولوجية المتشددة. في الستينات، شهد معهد الفلسفة انفتاحاً فكرياً جديداً غير عقائدي، فعيّن له على رأس ادارته مهندس تلقّى ثقافة فلسفية، وكلّف بالعمل على تجريد اعضاء المعهد من اي طموح فكري ذاتي، واخضعت المجلات الادبية والعلمية مجدداً للرقابة المشددة، وتعرضت هيئات التحرير في ليلة واحدة للاقالة والاستبدال بسواها.

كان باستطاعة رجل منشق علانية مثل اندره ساخاروف ان يتدخل لصالح من يتعرضون للاضطهاد، بصفته عضواً في أكاديمية العلوم. غير ان وضعه تفاقم ايضا. وحين سعى الموظفون الى اقصائه من الاكاديمية، تساءل العالم الفيزيائي النووي السابق بيوتر كابيتسا عن السوابق التي يرتكز عليها مشروع الاقصاء، وقال : « وردت الى ذهني سابقة وحيدة وهي اقصاء اينشتاين عن اكاديمية العلوم في برلين ». وتوقف البحث في وضع موضوع اقصاء ساخاروف على جدول الاعمال، وبقي عضواً في معهد العلوم السوفياتية الاكثر شهرة، حتى بعد نفيه الى غوركي ومنعه من اجراء اي اتصال مهما كان نوعه مع الخارج.

غير ان احداً من اعضاء الاكاديمية لم يتجرأ على التدخل رسمياً لصالح ساخاروف، وجاء قرار نفيه، في كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٨٠ عملاً في غاية التعسف والظلم، ومن دون اي أساس شرعي أو مسوغ قانوني. اجبر ساخاروف على العيش في مدينة كانت مغلقة في تلك الاثناء على الاجانب واصدقائه الروس. وعندما شرع في اضرابه عن الطعام، تمّ اطعامه بالقوة. وعندما اجريت له الفحوصات الطبية بعد ذلك، قام جهاز ال ك . ج . ب بتصويره خلسة، كي يبيع الافلام في الخارج كدليل على تمتعه بصحة جيدة. غير ان ال ك.ج.ب. لم يتجرأ قطعاً على الادعاء عليه قضائياً.

اوعز اندروبوف وسوسلوف وبريجنيف بملاحقة المنشّقين لكنهم لم يتوصلوا الى منع افكارهم من الانتشار. وكان هؤلاء المنشقون على استعداد لتحمل اقسى التضحيات الشخصية. ويكمن سر قوتهم المعنوية في ان الذين يعتنقون افكارهم كانوا في ازدياد مطرد في الاتحاد السوفياتي، حتى ولو لم يتجرأوا على التعبير عنها.

كان عام ١٩٧٨ حاسماً لغورباتشيف لاكثر من سبب. فقد كان اندروبوف يؤيد بقوة وبقدر اكبر من سواه من الاعضاء المسنين في المكتب السياسي مسألة ترفيع غورباتشيف الى موسكو. وكان يستعد، بلا شك، في ذلك العام، على خلافة بريجنيف الذي كان يؤيد بدوره كونستانتين تشيرنينكو. وكان هذا الاخير يشغل منصب امين سر اللجنة المركزية ورئيس ادارة اللجنة المركزية، وتعتبره اوساط موسكو «اميناً عاماً» للامين العام.

كان غورباتشيف مقرباً من اندروبوف، وتجمع بينهما الكراهية للفساد والمحاباة ويكتفيان بالامتيازات الرسمية الممنوحة لهما. من جهة اخرى، لم يكن غورباتشيف ينوي مخاصمة تشيرنينكو، اليد اليمنى لبريجنيف، لانه كان يعرف انه لن يستطيع تمرير برنامجه الزراعي من دون دعمه.

نادراً ما تخاصم غورباتشيف مع سائر اعضاء المكتب السياسي. بعضهم مثل غريشين رئيس الحزب في موسكو، او رومانوف رئيس الحزب في لينينغراد، كان يطمح علناً لتولي منصب امين عام الحزب. غير ان وضعه بدا متيناً لدرجة انه لم يحمل ترشيح غورباتشيف لهذا المنصب، على محمل الجدّ، وقد عمل منذ سنوات عدة لتدعيم علاقاته داخل الجهاز الحاكم ولم يكن يرى بعد في هذا القروي الذي ينتمي الى جيل آخر منافساً محتملاً في الصراع القائم على الخلافة. واذا كان اندروبوف يولي ترشيح غورباتشيف اهتماماً كبيراً، فلم يكن هذا الاخير مقبولاً بعد للمشاركة في السباق الى السلطة ــ هذا السباق ينهمك به اناس اكبر سناً منه.

احد معارف غورباتشيف ممن اصبح اليوم من اعنف النقاد لسياسته والذي عرفه عن كثب يؤكد ان غورباتشيف لم يكن يتحرّك عام ١٩٧٨، في موسكو، بدافع الطموح او الوصول الى الحكم. ويضيف قائلاً : هناك فارق بين ما يعتقده الناس بغورباتشيف وما يعتقد غورباتشيف نفسه. ويمكننا هنا الوقوع في الخطأ بسهولة : فوراء هذا الخبير في الشؤون الزراعية، وصاحب المظهر المتواضع، يختبئ، بحسب اعتقادي رجل سياسي متعطش للسلطة.

معظم الناس الذين كانوا على علاقة بغورباتشيف في مركزه في اللجنة المركزية لا يذكرون انهم لاحظوا لديه ما يشير الى طموحه السياسي البعيد. فالاقتصادي غافريل بوبوف الذي ينتمي اليوم الى فريق يلتسين يرى ان غورباتشيف اتخذ جانب الحياد ازاء الدسائس التي كان سواه من المسؤولين يحوكونها للوصول الى رأس السلطة. لم يكن كذلك متزلفاً، وهذا امر له اهميته عندنا. كانت روسيا، قبل الثورة بزمن بعيد، بلداً يعاني من وجود بيروقراطية شديدة التسلط، والعديد من المناصب تحققت لاصحابها عبر الممالقة والتزلف، خصوصاً في السنوات الاخيرة من عهد بريجنيف. عمل غورباتشيف بجهد ومثابرة، وكان هذا الاسلوب، بنظر الموظفين الاكثر دهاء ومكراً دليل سذاجة وقصر نظر. فهم يعلمون ان الوصول الى المناصب، يتطلب التمسك باذيال الاقوياء في اعلى الهرم ونيل حظوتهم وكسب رضاهم ».

اما غورباتشيف الذي لا يشارك طوعاً في مباهج « الداتشا » ورحلات الصيد، فقد كان يدرك ان هذا النمط المتقشف من الحياة تسبّب له بغير الاصدقاء. وكان يسرّ احياناً الى مقرّبيه انه لا يقلق بشأن مستقبله فهو رجل قانون، ويستطيع التدريس في الجامعة ايضاً، وفي اسوأ الاحوال قيادة الحاصدة ـــ الدارسة ... وكان المتحلقون حوله يتبسمون تأدباً. فليس بهذه الطريقة يتحدث اولئك الذين يودّون، في موسكو، بلوغ القمة. وفي السنوات الاخيرة من حكم بريجنيف، كان يبدو مثل هذا الحديث بالياً. واذا كان ذلك يشكل عائقاً لدى غورباتشيف، فانه يعرف كيف يتجاوزه : في اللجنة المركزية يعترف

الجميع بانه رئيس يحسن القيادة وزميل يدأب في عمله، ومستعد لتحمل تبعات جديدة. كان يوم العمل الذي يمتد من عشر الى اثني عشرة ساعة امراً مألوفاً لديه. من جهة اخرى، كان معظم اعضاء المكتب السياسي يتأففون من كثرة اعمالهم ويغتبطون لفكرة تخفيف الاعباء الملقاة على عاتقهم. كذلك لم يكن غورباتشيف يثير الانطباع بانه من طينة اولئك المتآمرين السياسيين الذين يتجسسون على ولي نعمتهم او رئيسهم بهدف ازاحته من الطريق.

كان معظم الناس يجدونه لطيف المعشر. لم يكن يجدّف او يضرب على الطاولة كما يفعل بعض اعضاء المكتب السياسي، وبريجنيف نفسه. يقول بعض العاملين في محيطه من الذين عرفوه في تلك الاثناء، انه يصعب التقرب اليه. غير ان كياسته واتزانه كانا يعوّضان ذلك النقص لديه. ما يقوله هؤلاء عن غورباتشيف يشبه تماماً ما يقوله سكان بريفولنوي عن والده سيرغي غورباتشيف، وقد اتاح له سلوكه واهتمامه بقطاعات النشاط المتنوعة الاستعانة بالناس من شتى المشارب والاهواء والافادة من معلوماتهم. « لم يكن يمالق احداً، غير انه لم يكن كذلك متعجرفاً، كما يقول احد معاونيه السابقين. ولا يجرح شعور احد، حتى اولئك الذين يخالفونه الرأي. كان يسعى دائماً لايجاد تسوية ما وللوصول الى اتفاق. كان ماهراً في اعطاء الانطباع بان القرار من صنع الجميع ومشاركتهم، حتى ولو كان بالفعل من صنعه وحده ».

بعد سنة واحدة من تعيينه امين سر اللجنة المركزية، رقي غورباتشيف الى منصب عضو رديف في المكتب السياسي. وبعد احد عشر شهراً، اصبح عضواً اصيلاً فيه، وشخصية مرموقة بين الشخصيات الاربع عشرة الاكثر نفوذاً في الاتحاد السوفياتي. من البديهي ان هذا المسار الخاطف الذي اتيح له في عمله السياسي ينطوي ليس فقط على التشجيع والرعاية بل على الخصومة والعداوة ايضاً.

عندما وصل غورباتشيف الى موسكو، اثار نمط الحياة البسيطة التي يعيشها

واسرته الاعجاب، الى جانب امور اخرى. مثاله : بعد انتقال غورباتشيف وزوجته الى موسكو، شاءا التعرف مجددا على العاصمة، اذ كانت دروسهما فيها تعود الى ما يناهز الخمس والعشرين سنة. وبعد زيارات قصيرة، انتقلا لحضور المسرحيات والحفلات الموسيقية وزيارة المتاحف. ثم خطر لهما التعرف على كل انحاء المدينة، فقاما بعدة رحلات في الباص المخصص للسواح السوفيات، وهذا امر غير مألوف بالنسبة لامين سر في اللجنة المركزية، يمكنه التصرف بسيارات الحزب لقضاء حاجاته بطريقة مريحة. اذ بدا ركوب غورباتشيف وزوجته للباص مثيراً للسخرية لبعض زملائه ومساعديه. غير انهم كانوا يغضّون النظر عن تصرف هذا الخبير الزراعي القادم لتوّه من الضيعة ...

كان غورباتشيف يعيش حياة بسيطة، لكنه كان يتحاشى الاصطدام بالجهاز الاداري المحيط به من خلال رفضه بشكل ملفت للامتيازات المتصلة بوظيفته. فكان يقبل ما يعود اليه بصفته امين سر اللجنة المركزية، دون طلب المزيد منها. فقد انتقل مع زوجته وابنته وصهره الى المسكن الكائن في الرقم ١٢ من شارع الكسي تولستوي، في الابنية المخصصة لكبار مسؤولي الحزب. وهو عبارة عن شقة سكنية مؤلفة من ثلاث غرف تولّت تأثيثها الادارة التابعة للجنة المركزية. كان اصدقاؤه في ستافروبول يعجبون لرؤية امين سر اللجنة المركزية يقيم في منزل اقل مستوى من شقيقه الكسندر وهو ضابط في الجيش ويقيم في شقة بالقرب من موسكو، وقد زينها بمفروشات ذات نوعية افضل. لم تحتوِ شقة غورباتشيف سوى على التجهيزات الاساسية لكبار المسؤولين: خزانة « ريغا » ومطبخ من صنع « فبركة موسكو » وسجاد حيك على الآلة. خلافاً لسواه من كبار الموظفين، لم يكن لديه البراد والتلفزيون المستورد. كانت الشقة صغيرة : غرفة للنوم وقاعة للجلوس وغرفة للاولاد. ولم يكن لغورباتشيف مكتب يجلس اليه سوى في اللجنة المركزية. حتى بوريس يلتسين الذي يتهم حالياً الامين العام بانه يعدّ لنفسه « داتشايات » فخمة، يقّر بأن غورباتشيف قد عاش حياة في غاية البساطة والتواضع خلال السنوات الاولى التي قضاها في موسكو.

تجدر الملاحظة ان كل امين سر للجنة المركزية لم يتسنَ له الاثراء من وظيفته كرئيس مقاطعة لن يعرف حياة الترف في موسكو. كان غورباتشيف يتقاضى في عامه الاول في موسكو، مبلغ سبعماية روبل بدل عمله كامين سر اللجنة المركزية وثمانماية روبل بصفته عضواً رديفاً في المكتب السياسي. وهو مبلغ لا بأس به بالمقارنة مع متوسط دخل العامل في تلك الاثناء والذي يبلغ ما يقارب مئتين الى مئتين وعشرين روبلاً. غير ان هذا الراتب لا يتيح له العيش ببحبوحة. في ستافروبول، كان من السهل العيش براتب اقل، على حد ما قاله غورباتشيف لاحد زملاء الدراسة، لأنه كان باستطاعة ذويه ان يرسلوا له بعض اللحوم والخضار من القرية. وكان يردد ان لموسكو حسنة واحدة وهي انها تتيح امكانية الحصول على الكتب من كافة مكتبات البلاد. وكان الجديد منها يصله مباشرة الى مكتبه وكان مخوّلاً ضمّ هذه الكتب الى مكتبته الخاصة. غير انه كان يفتقر الى المال لتجهيز بيته على نحو افضل وتوفير مسكن مستقل لابنته وصهره.

كان غورباتشيف يطلع صديقه غولفانوف على همومه ومشاكله. وكان يشق على هذا الاخير فهمه : « لماذا لا تؤمن للاولاد شقة بواسطة اللجنة المركزية ؟ فالآخرون يحظون بشقة رسمية حتى لاحفادهم، والعديد منهم يقضي وقته في الانتقال من شقة الى أخرى ارفع مستوى ». غير ان غورباتشيف كان ما يزال حديث العهد في موسكو ولا يرغب في اثارة اللغط حوله. كان ذوو صهره، اناتولي فيرغانسكي على استعداد للمساهمة بمبلغ خمسة آلاف روبل لشراء شقة تعاونية. وكان غورباتشيف على وشك جمع مبلغ مماثل. اخيراً استدان خمسة آلاف روبل من رفيق له في الدراسة، رأى فيه شخصاً كثير التحفظ والرزانة في منصبه كامين سر اللجنة المركزية. كان لديه انطباع بان غورباتشيف يخالجه شعور الغربة في موسكو وانه قد اسرّ اليه يوماً برغبته في العودة الى ستافروبول.

في موسكو، كان الارتقاء في مراتب الوظيفة يتيح لغورباتشيف في كل

مرة الحصول على ظروف سكنية افضل. وعندما عين اميناً عاماً، انتقل غورباتشيف للاقامة، في شارع ستوسيف، على بعد مسافة قصيرة من شقته السابقة. وها هو اليوم يقيم في شقة جميلة من اربع غرف، ومدخل واسع وفخم، ومجهزة بتلفزيون ياباني الصنع وحمام مستورد من اسكنديناقيا. بعض الاصدقاء الذين زاروه في حينه، لاحظ انه لم يجد لديه، الاثريات الفخمة ومزهريات الكريستال، التي كانت تستهوي اصحاب المكانة الرفيعة في موسكو، في ذلك الحين. ويتذكر هؤلاء الاصدقاء تلك الاغطية المطرزة على الطريقة الروسية التقليدية، التي كانت تضعها رايسا على الطاولات، وصور الاصدقاء وباقات الزهر. ويقولون : انها الكماليات بحدّها الادنى. ما يزال هذا المنزل الواقع في شارع ستوسيف، تجاه نادي المهندسين المعماريين، يأوي كبار اصحاب المكانة من السوفيات. وتقيم فيه غالينا ابنة بريجنيف، الى اليوم. اما غورباتشيف فقد انتقل الى مسكن اكثر رحابة واناقة، يقع في شارع كوسيغين ويشرف على وسط موسكو. في الطابق السفلي تقع قاعات الاستقبال والغرف المخصصة للحرس وللمحول الهاتفي والخدم. في الطابق الاول، هناك ست غرف مخصصة لغورباتشيف واسرته. وفي الطابق العلوي، غرف الضيوف الخصوصيين. يقال ان رايسا تهوى قطع البورسلين الجميلة من صنع ميسنير والفضيات ما قبل الثورة. المنزل مجهز بحمام للسونا وتحيط به حديقة جميلة، ويقال ان غورباتشيف لا يفيد منه كثيراً ويفضل الانتقال الى الداتشا الواقعة في راسدوري، على بعد اربعين كيلومتراً شمالي غربي موسكو، حالما يتوفر له القليل من وقت فراغه.

اعتباراً من عام ١٩٧٨، اصبحت رايسا غورباتشيف من عداد زوجات كبار المسؤولين في موسكو. وكانت زوجات اعضاء المكتب السياسي وامناء سر اللجنة المركزية يعشن في دائرة شبه مقفلة ولا يخرجن عنها الا فيما ندر. غير ان حياتهن لم تكن شديدة الانتظام كحياة ازواجهن. وكانت رايسا غورباتشيف تتردد على الاندية الثقافية في موسكو اكثر من معظم النساء الاخريات. وبذلك كانت قادرة على اطلاع زوجها على العروض المسرحية

الاكثر متعة في موسكو. وقد ظهر جلياً ان ترددهما على مسرحي « تانجانكا » و « سوفريمنيك » قد اتاح لهما اقامة علاقات وثيقة مع الاوساط الفكرية. ولما كانت رايسا مجهولة في تلك الاوساط، وقد انتقلت حديثاً من الريف، فقد كان بوسعها التحرك بحرية اكبر في اوساط العاصمة الثقافية، مما تفعله الزوجات المسنات لسائر اعضاء القيادة. غير ان الوقت لم يطل حتى تعرّف اليها القيمّون على المسارح واصحابها واهتموا بتوثيق علاقاتهم بها كونها زوجة امين سر اللجنة المركزية والعضو الرديف في المكتب السياسي، باعتبار ان مثل هذه العلاقات كانت تبدو مجدية لمواجهة الضغوط التي يمارسها النقاد الرسميون ووزارة الثقافة على المسارح ...

غير ان رايسا اقامت علاقات وثيقة ايضاً مع اساتذة الفلسفة وعلماء الاجتماع في جامعة موسكو. وقد ساعدها هذا الامر على تكوين فكرة عن العلماء الشباب والاطلاع على مؤلفاتهم ولفت نظر غورباتشيف الى الناس الذين يبحثون عن خيارات اخرى في السياسة الداخلية والخارجية الراهنة. اتصل غورباتشيف بالعديد منهم، بصورة رسمية وعبر مكتبه في اللجنة المركزية،



ـــ غورباتشيف، الى يسار الامين العام تشيرنينكو، بمناسبة منح النجمة المذهبة من رتبة المنجل والمطرقة الى فيكتور غريشين، احد المرشحين لمنصب الامين العام.

وتوصل بذلك الى الحصول على معلومات يمكنه عرضها في خطبه ومناقشاته. وشاع الخبر بان امانة السر في اللجنة المركزية والمكتب السياسي تضم شاباً يولي اهتماماً جدياً بالمشاكل الاقتصادية والاجتماعية. فازداد عدد العاملين في الجامعة ومعاهد الابحاث الذين اخذوا يرسلون التحاليل والمشاريع الاصلاحية الى هذا الشخص الجديد في .مكتبه في اللجنة المركزية او مباشرة الى بيته. اذ كان العديد من العلماء لا ينتظرون سوى ذلك، مرددين : اخيراً، جاء الى قيادة الحزب من يولي اهتماماً عميقاً بمشاكل البلاد ! وتكدست في خزائن غورباتشيف وصناديقه مكتبة شاملة من الابحاث العلمية التي تتضمن مشاريع اصلاحية ترتكز على تحاليل معمقة.

تعرفت رايسا غورباتشيف ايضاً على خياطي موسكو والتقت في تلك الاثناء مصممي الازياء الذين ما يزالون الى اليوم يصممون لها ثيابها. وعلمت في هذا المجال، ان زوجات المسؤولين يتمتعون ببعض الامتيازات. فقبل الزيارات الرسمية وفي المناسبات الكبيرة، يتم وضع تصاميم مجموعة كاملة من الثياب لهن. وعندما تذهب زوجة رئيس الحكومة او وزير الخارجية، الى « دار الازياء » لخياطة ثوب لها، كانت تحظى بمعاملة مميّزة. عام ١٩٧٨، تسلمت رايسا لاول مرة ثوبين من خياطة دار الازياء. وعندما سألت عما يتوجب عليها دفعه، شعرت المديرة بالحرج، اذ لا احد يعرف ما كانت عليه كلفة الثوبين، اذ ان ذلك من صلاحية ادارة اخرى، وترسل الفاتورة، وفقاً للعادة، الى مساعد غورباتشيف، في اللجنة المركزية. ولا احد يعرف اذا كانت هذه الفواتير ستدفع ومن سيتولى ذلك. فقالت رايسا غورباتشيف انها بغير حاجة ليعرف سواها بما تنفقه على ثيابها واصرّت على دفع الفاتورة. بعد ساعة من اللغط، توصلت الى دفعها. وعلى الرغم من حداثة عهدها في مثل هذه الامور، وهي الريفية القادمة من البعيد، فقد حرصت على حمل بعض المال في حقيبتها ... كانت على الدوام تدفع بدل الثياب التي توصي بخياطتها وتستعلم عن اسعارها قبل طلبها، على حد ما يروى اليوم في « دار الازياء »

كل ذلك لم يضعها في منأى عن « مطابخ الشائعات » في موسكو، وعن تلك التشنيعات التي تخفي وراءها حملة منسقة للنيل من ميخائيل غورباتشيف نفسه. منها تلك المقالات الساخرة المنسوخة على الآلة وفيها ان رايسا هي ابنة شقيق اندره غروميكو وان غورباتشيف مدين الى معارفه في الوصول الى المناصب الرفيعة التي تبوأها. كانت النصوص المغفلة تستشهد بمقالات مزعومة نشرت في المجلتين الالمانيتين « دار شبيغل » و « شتيرن »، وهي مقالات من نسج الخيال تماماً. تعاونت رايسا مع « مؤسسة دعم الثقافة في الاتحاد السوفياتي »، وهي عبارة عن مؤسسة تشجع الفن المعاصر والثقافة بقطع النظر عن الوزارات والاتحادات. وقد فسر عملها بانه تعبير عن تعطشها الى التباهي الاجتماعي. وظهرت في الاسواق ملصقات كتب عليها : « أحبّ غورباتشيف » وظهرت اخرى ايضاً تحمل شعار « لا أحبّ رايسا ». ويقال ايضاً انها شديدة التأثير على غورباتشيف، وانها تقدمت عليه حين حضرت حفلاً موسيقياً الى جانب ملكة اسبانيا. وينسب اليها العديد من ابناء موسكو حبها للعظمة والبذخ والنفوذ، وتلهفها للملابس المستوردة والحلى والبيوت الريفية. تذكّر هذه الحملة احياناً بالشائعات التي شوهت سمعة بريجنيف، وفريقه في السنوات الاخيرة من حكمه، وقضت على رومانوف، منافس غورباتشيف.

من الواضح ان مشتريات الاثواب العائدة لرايسا كانت ترد في تقارير ال ك . ج . ب بالطريقة نفسها التي يسجل فيها هذا الجهاز كل تحركات الطبقة الحاكمة. وكانت ستافروبول تعج ايضاً بالاقاويل وكان آل غورباتشيف قد تحاشوا الحديث عنهم من خلال عيشهم الحياة المتقشفة البسيطة. ففي السنوات الاخيرة من ولاية بريجنيف لم تعد مظاهر البذخ والترف وعرض الحلى والمجوهرات لدى زوجات المسؤولين، يثير التعليقات والثرثرة في اوساط موسكو. لكن المخابرات السرية كانت تشدد رقابتها في العاصمة اكثر مما تفعله في ستافروبول. ففي حين كانت العمة كزانيا في ستافروبول، تساعد آل غورباتشيف في ترتيب المنزل، كانت الشقق السكنية في موسكو والمنازل الريفية

تعج بالسائقين والطباخين والخدم الذين يعملون لحساب الفرقة التاسعة في جهاز الـ ك.ج.ب.. ويعود تاريخ تأسيس هذه الفرقة من الشرطة السرية الى عهد ستالين. بهذه الطريقة، كانت الـ ك.ج.ب. تؤمن لعائلات الموظفين حاجتهم الى المستخدمين وتراقب في الوقت عينه نشاطاتهم. وكانت لهذه الطريقة منافع متعددة لمن يفيدون منها، اذا لم يكونوا، في الواقع، بحاجة للاهتمام بشؤون التموّن بالمواد الاستهلاكية والمواد الغذائية النادرة الوجود، ويمتلكون السيارات مع السائق الذي ينتظرهم على الباب، او .... في المرآب السيّار لجهاز ك.ج.ب. اعتاد كبار الموظفين على هذا النمط من التعامل. وغالباً ما لم يعرف ابناؤهم وبناتهم واحفادهم نمطاً مغايراً، اذ أصبح تقديم الخدمات والمراقبة متلازمين ومن الامور البديهية.

في ستافروبول، كان آل غورباتشيف يعلمون ايضاً ان باستطاعة ال ك.ج.ب التنصت على أحاديثهم الخاصة. غير ان الرقابة لم تبدُ لهم شاملة كما ظهرت في موسكو. اسرّ يوماً غورباتشيف حين صار اميناً عاماً، الى احد اصدقائه، ومن دون الاشارة مباشرة الى تجربته الشخصية: « من غير اللائق والمعقول مراقبة الكبار كأنهم اولاد في مدرسة داخلية ».

لم تكن الامور في اللجنة المركزية سهلة لغورباتشيف. ففي منطقة ستافروبول كان الشخصية الاولى ونجح في ادارتها. وها هو وجهاً لوجه مع جهاز اداري لا يتحكم بعد بقواعده، ولا يستطيع في الوقت عينه السماح لنفسه بارتكاب الخطأ. لم يتمكن حتى من اختيار مساعديه المقربين، اذ عيّن له مساعد من دون طلب رأيه. وكان هذا الاخير قد عمل مع اندره كيرلينكو، الذي شغل منصب عضو رديف في المكتب السياسي في نهاية الخمسينات، وامين سر اللجنة المركزية منذ عام ١٩٦٦. فافهمه هذا المساعد بصورة لا لبس فيها انه يعلوه مرتبة، هو القادم حديثاً من الريف. وشعر غورباتشيف حينئذ انه العوبة بيد الجهاز الاداري القائم.

كان يشغل مكتباً في الطابق الرابع من بناية اللجنة المركزية القائمة في الساحة القديمة، اي بطابق واحد تحت مكاتب اعضاء المكتب السياسي. وكان من الصعب عليه الجلوس وراء مكتبه. وكانت جميع إتصالاته مع العالم الخارجي تمرّ عبر المساعدين و « المتنفذين ». وكانوا هم الذين يقررون تمرير اتصالات اصدقائه او معارفه له، باستثناء لائحة الاتصالات التي يوعز غورباتشيف صراحة بتمريرها اليه، وعلى هذه اللائحة بعض اصدقاء الدراسة القدامى والزملاء. لكنه، على العموم، كان يكاد يختنق في مكتبه ويشعر بالعزلة التامة.

كان بالطبع، بصفته امين سر اللجنة المركزية وعضواً رديفاً في المكتب السياسي، شخصاً نافذاً. غير ان الجهاز الاداري كان يحرص ايضاً على ان يظهر له حدود سلطته. ذات يوم، طلب اليه صديقه ديمتري غولوفانوف الذي يعمل في الاذاعة السوفياتية، تأدية خدمة له. كانت علاقاته متوترة برئيس لجنة ادارة شؤون التلفزيون والراديو، س . ج . لابين، وكان يتمنى بالتالي ارساله للعمل كمراسل في الخارج وطلب الى غورباتشيف ان يشرح هذا الامر الى س . ج . لابين. لم يكن غورباتشيف يحب هذا النوع من المداخلات ولم تكن تربطه علاقات خصوصية بهذا الرجل الذي يكبره سناً ويشغل منذ سنوات عدة منصب عضو في اللجنة المركزية برتبة وزير، وهذه التوصية الشخصية كانت تخالف القواعد التي التزم بها. غير انه كان يوّد في كل حال مساعدة صديقه، وخلال لقائه به في المطار، اطلع لابين على رغبة كولوفانوف. فجرّت مداخلته الوبال على هذا الاخير، اذ حمل رئيس التلفزيون والراديو ملف الصحافي المذكور واتهمه بالعمل الوثيق مع زملاء يوغوسلافيين حين كان يشغل منصباً سابقاً في يوغوسلافيا فوضع ال ك . ج . ب هذا الصحافي على لائحة الاشخاص الذين يمنعون قطعاً من السفر الى الخارج.

اطلع لابين غورباتشيف على هذا القرار وعلامات الرضى بادية عليه، فقد كانت علاقاته الوثيقة مع سواه من اعضاء المكتب السياسي على قدر كبير

من الاهمية بنظره، ولم يكن يراهن على مستقبل غورباتشيف. ويبدو ان هذا الاخير لم ينسَ ابداً هذه الاساءة. وعندما عين اميناً عاماً، فقد لابين منصبه كرئيس لادارة التلفزيون والراديو. غير اننا كنا دخلنا عصر « الغلاسنوست »، ولم تعد مبادئ لابين الذي لم يكن يرى في التلفزيون سوى اداة دعائية، تتناسب مع المناخ السائد.

فيما يلي روايتان لصديقين لغورباتشيف تظهران الى اي درجة كان كبار الموظفين في الاتحاد السوفياتي يخضعون للرقابة المشددة : فبعد تعيين غورباتشيف عضواً في المكتب السياسي، بوقت قصير، وانتقاله الى مسكنه الكائن في شارع ستوسيف، كان ينزل من سيارته السوداء عندما لمح صديقاً قديماً له، فاتجه نحوه، وربت على كتفه وسأله عن احواله. « على خير ما يرام، قال الصديق ــ حسناً، ردّ غورباتشيف، علي ان اعود الى البيت، فأنا منهوك القوى ». تصافحا بالايدي وعاد غورباتشيف الى بيته، فيما تابع الصديق طريقه. غير انه ما إن سار بضع خطوات حتى انقضّ عليه رجلان امسكا بيده، وقال له احدهما : « من انت، وكيف تأذن لنفسك الاقتراب من الرفيق غورباتشيف ومخاطبته ؟ » حاول الرجل شرح بادرته، غير ان الاسئلة راحت تنطوي على مزيد من التخويف والتهديد. ولم يترك وشأنه الا بعد التثبت من هويته التي تبين منها انه مدعي عام احدى المقاطعات، وبعد توجيه الانذار اليه بعدم تكرار مثل هذا الامر. صديق آخر لغورباتشيف شاء ان يودّعه قبل السفر الى الخارج، اخضع لتحقيق اجراه معه بعض العاملين في اللجنة المركزية، كان هذا الصديق يتحدث كثيراً الى غورباتشيف وعليه التوقف عن ذلك. وظن الصديق ان باستطاعته القول ان المسألة تخص غورباتشيف وحده، لكن الموظفين زجروه بشدة وقال له احدهم : « هذا ما يخيل اليك ».

في السنوات الاخيرة من عهد بريجنيف، اي حوالي عام ١٩٨٠، كان هذا الاخير قد بلغ الخامسة والسبعين ولم يعد يسيطر على أي شيء. كان يستمع بنشوة الى المدائح التي تعظمه واصفة اياه بأب الوطن. وتزداد الاوسمة

على صدره وترتفع الاصوات في تمجيد بطولاته خصوصاً في الحرب العالمية الثانية. واشتهر دوره في الحرب على انه كان « حاسماً » بعد نشر « مذكراته في الحرب » (التي دبّجها له كتّاب معروفون). في تلك الحقبة ايضاً، راحت الجوقة العسكرية تلقي نشيداً تعظّم فيه نضاله في سبيل « البلد الصغير »، رأس الجسر الالماني « لكوبان » بين القوقاز والبحر الاسود. في احدى خطبه المتلفزة، اختلطت الاوراق بين يديه وارتبك، فقطع خطابه بايماءة من يده كدليل بليغ على عجزه ...

لكنه استمر اميناً عاماً ورئيساً للدولة. ومن شاء الترقي في الحزب كان عليه تجنب مواجهته علناً. خلال الصراع على خلافته، كان قادراً على ترجيح الكفة من خلال اسمه واهمية الجهاز الحاكم. كان المقربون اليه في حاشيته يتملّقونه بلا حياء، ويستغلون مواقعه للحصول على منافع هامة. في موسكو، سرت الشائعات حول جشع اصدقائه وافراد عائلته. ويروى ان ابنته غالينا حصلت بواسطة مدير مدينة الملاهي التابعة للدولة في موسكو على سلع باهظة الثمن، كان الفنانون يجلبونها معهم من الخارج. اما صديقها الذي يطلق عليه زملاؤه في مسرح بولشوي، لقب « بوريس الغجري »، فقد وجدت لديه المجوهرات واحجار الالماس التي يمتلكانها معاً. كما تعاطى زوجها نائب وزير الداخلية، يوري تشوربانوف، التهريب وقبض الرشاوى. في موسكو، في تلك الاثناء، حيث تخضع كل المعلومات لرقابة مشددة، كانت الشائعات تنتشر بغية تشويه سمعة بريجنيف واضعاف مواقعه في الصراع على خلافته. كان من الواضح في البلاد انه ينبغي قريباً اختيار امين عام جديد. اعتباراً من سنة ١٩٨٠، راح جميع القادة وكذلك آلة الحزب يستعدون للمعركة.

كان من المؤكد ان الخيار سيقع على يوري اندروبوف رئيس جهاز الـ ك.ج.ب. حتى عام ١٩٨٤ او على كونستانتين تشيرنينكو، المساعد الاول لبريجنيف. كانت الشائعات التي تسري حول الحياة الخاصة لجماعة بريجنيف وتعطشها الذي لا يروى للوحات الزيتية واحجار الالماس وسيارات

المرسيدس، تصبّ في مصلحة يوري اندروبوف. من المؤكد ان غورباتشيف قد علم بهذه الشائعات التي وصلت ايضاً الى اعضاء اللجنة المركزية. لكنهم لم يتداولوا بها لان الكشف عن مثل هذه الفضائح محفوف بالخطر حتى لكبار الموظفين، وقد يضطرهم لاتخاذ موقف علني مبكر الى هذا الجانب او ذاك. اما غورباتشيف فقد كان بارعاً في عدم التعبير عن آرائه. وبقيت علاقاته مع تشيرنينكو في اطار المجاملة. ولم يكن لاندروبوف، من جهته، ما يستدعي توريط غورباتشيف في هذا الصراع الوشيك، لانه، فيما عدا منصبه في المكتب السياسي، لم يكن يتمتع باية قوة حاسمة، والبرنامج الذي اقترحه بصفته امين سر اللجنة المركزية للشؤون الزراعية لم يحقق نتائج مذهلة.

اثر وفاة سوسلوف، سنة ١٩٨٢، خلفه غورباتشيف في منصب امين سر اللجنة المركزية للشؤون الايديولوجية. غير انه كان ما يزال شاباً لهذا المنصب كي يمارس كسلفه دور « الامين العام الثاني » أو دور « الدماغ المفكر ». كان مسؤولاً عن اعداد وصياغة الخط الايديولوجي للحزب وعن جهاز الدعاية الذي يشرف على وسائل الاعلام والثقافة والعلوم، كذلك عن العلاقات مع الاحزاب الشيوعية والاشتراكية الاجنبية. لكن هناك، شخصيات في ادارة اللجنة المركزية والمكتب السياسي لها خبرتها في هذه الميادين، وتجد نفسها كفؤة مثله لتولي هذا المنصب، وتتمسك بما تعتبره حقاً مكتسباً بالاقدمية. وكان على غورباتشيف ان يراعي جانبها والتصرف بحذر. كان بوسعه ترسيخ موقعه داخل الحزب دون اثارة قلق الرجال الاقوياء والمتقدمين في السن، امثال اوستينوف وزير الدفاع، او غروميكو وزير الخارجية. فضلاً عن ذلك، كان يستطيع، بفضل نشاطه الرصين والفعال، الظهور بمظهر الافضل في الجيل الصاعد.

كان يشعر، على وجه الخصوص، انه مقرب جداً من أندروبوف، اذ ان رفضهما المشترك لجماعة بريجنيف وصراعهما ضد الفساد المستشري في الحزب، جعلا منهما حليفين.

توفي بريجنيف في العاشر من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٨٢، وكان الجميع في موسكو يعلمون منذ مدة طويلة ان مرضه شديد وانه يشرف على الموت في مستشفى خاص قرب بارفيكا، في ضواحي موسكو. بعد مرور ست وعشرين ساعة على وفاته، قطع التلفزيون السوفياتي برامجه، وتلا المذيع بصوت متهدج نبأ وفاة الامين العام.

كانت الاصول المتبعة في الحزب تمنع الخوض في موضوع الخلافة طالما ان الامين العام ما يزال قيد الحياة. وبالتالي، بقي الصراع، حتى وفاته يدور خلف الكواليس. الى ذلك، ليس هناك من تقليد او اجراء ينظم انتقال السلطة. وحده الموت او الاقالة — كما كانت الحال مع خروتشيف — يضع حداً نهائياً لولاية الامين العام. فضلاً عن ذلك، لم تشأ القيادة الاسراع، بعد موت بريجنيف، في تسمية خلفه. فعمدت الى تأخير اعلان نبأ وفاته رسمياً كي تكسب يوماً اضافياً. وكانت هذه المهلة كافية لاتاحة الفرصة للمكتب السياسي ان يقول كلمته. في اليوم التالي، اي في ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر)، صادقت اللجنة المركزية على اختيار يوري اندروبوف اميناً عاماً للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي.

كان كونستانتين تشيرينينكو الخاسر الاكبر، وهو الذي كان يقيم منذ سنوات عدة علاقات متينة مع جهاز ادارة الحزب والمسؤولين في القمة. واظهر القرار الذي استبعده انه لم يكن لديه ما يكفي من المناصرين في المكتب السياسي. وقد ايّد كل من وزير الدفاع، اوستينوف، ووزير الخارجية غروميكو ترشيح اندروبوف الذي كان يحظى، بالطبع، بدعم جهاز الـ ك.ج.ب. الذي ترأسه طيلة خمس عشرة سنة. وكان اندروبوف يعتمد ايضاً على علاقاته الممتازة في قطاعات الحزب المسؤولة عن شؤون الايديولوجية والدعاية. ولكنه كان، بحسب ما اظهره انتخابه، تحت رحمة اعضاء المكتب السياسي. وكان عليه مجاملة تشيرينينكو وانصاره. وضاق بالتالي حيّز المناورة لديه. حتى انه وجد نفسه مضطراً للتنازل عن المركز الثاني الى تشيرينينكو. وسبق له، بصفته

امين سر اللجنة المركزية، ان وضع يده بقوة على شؤون العقيدة التي كانت معقل غورباتشيف لبعض الوقت. اقدم اندروبوف، اذاً، داخل القيادة الجماعية وهي في اكثريتها محافظة، على التشديد مجدداً على اهمية العقيدة التي اوشك تأثيرها الفعلي على الزوال في السنوات الاخيرة من عهد بريجنيف.

ولد اندروبوف عام ١٩١٤، في جنوبي مقاطعة ستافروبول، من عائلة من عامة الشعب القوقازي في بلدة « اوسيت ». بدأ عمله كعامل في ادارة البرق في القوقاز، ثم كبحار على مراكب بخارية في نهر الغولف وتابع دراسة الملاحة الداخلية في احد المعاهد العالية، قبل ان ينجح بواسطة اتحاد الشبيبة الشيوعية في الدخول الى المعهد العالي للحزب في موسكو. على غرار الكثيرين من كبار الموظفين من جيله، ارتقى اندروبوف درجات السلم بسرعة، وشغل المناصب التي شغرت عقب حملات التطهير التي قام بها ستالين.

خلال الحرب، قاد مجموعات من الانصار، ثم مارس وظائف سياسية في « كاريلي » وهي منطقة استولى عليها الاتحاد السوفياتي ووجب العمل على دمجها في الاتحاد السوفياتي. عمل طيلة ثلاث سنوات في موسكو في الادارة التابعة للجنة المركزية، ثم نقل الى وزارة الخارجية من عام ١٩٥٤ الى ١٩٥٧، وعمل سفيراً لبلاده في المجر. بعد سحق الانتفاضة المجرية، احتلّ اندروبوف مركزاً مرموقاً في بودابست. وبعد سنة، تولى الاشراف مجدداً على قطاع الاحزاب الشيوعية والاشتراكية الاجنبية. عام ١٩٦١، اصبح عضواً في اللجنة المركزية، ثم في العام ١٩٦٢، احد امناء سرّها. اخيراً، تولى، اعتباراً من ١٩٦٧، رئاسة لجنة الامن الداخلي في الاتحاد السوفياتي، طيلة خمس عشرة سنة. ترأس، اذاً جهاز ال ك . ج . ب خلال السنوات التي كان فيها اضطهاد المنشقين على اشده. وعام ١٩٨٢، استقال من هذا المنصب ليتفرغ لوظيفتيه كامين سر اللجنة المركزية وعضو المكتب السياسي، وربما ليهيئ نفسه لاعلى المناصب في الحزب والدولة. وهذه المرحلة الانتقالية تفرض نفسها في

كل حال اذا كان لا بدّ من تجنيب الشعب السوفياتي والعالم صدمة رؤية رئيس ال ك . ج . ب يتسلّم السلطة في الكرملين ...

بقي اندروبوف شخصية غامضة ومتناقضة لم يجرؤ احد في موسكو طيلة خمس عشرة سنة، على إثارة أية مسألة حول رئيس جهاز الـ ك.ج.ب. لا نملك سوى معلومات مجتزأة عن السنتين التي قضاهما في منصبه في المكتب السياسي والأمانة العامة اللذين شغلهما حتى وفاته في ٩ شباط (فبراير) ١٩٨٤. يروى احياناً في موسكو ان الرئيس السابق لجهاز الـ ك.ج.ب. الذي لم يزر يوماً الدول الغربية، يتقن الانكليزية، ويستمتع بالويسكي الاسكتلندي ويهوى مطالعة المؤلفات الاميركية والاستماع الى موسيقى اوركسترا « سوينغ » الاميركية لغلين ميللر. لعلّ هذه الشائعات قد روجت عمداً في سبيل اطلاع الغرب عليها. كان ينظم الشعر (الذي بقي غير منشور) باسلوب ومضمون يذكّران بالشعر الروسي الكلاسيكي. وكان تلافى افتعال المتاعب في وجه مسرح « تاغانكا » في موسكو حين كان يتجاوز هذا الاخير الحد المسموح به في النقد الاجتماعي.

لم يكن مسرح « تاغانكا » هذا مطمئناً لنوايا اندروبوف، وكان يشاع فيه ان مديره يوري ليوبيموف قد ادى له خدمة لا ينساها اذ عرض التمثيل على نجله وابنته.

اما رجال الفكر في موسكو الذين كانوا يخافون اندروبوف وجهاز ال ك . ج . ب الذي ترأس، فقد بدأوا الاطمئنان اليه عندما عيّن في المكتب السياسي. وشعروا ان وصول اندوربوف الى السلطة يعني وصول موظف مثقف وشخص يتحسس مسائل اهل الفكر، وهذا كاف لبعث الامل مجدداً، غداة العهد البريجنيفي.

اثناء اللقاءات السابقة، اجرى اندوربوف وغورباتشيف محادثات طويلة، لم يتسنّ لهما فيما بعد متابعتها في « داتشا » اندروبوف، الا فيما ندر. فالجّو

السائد في مكاتب اللجنة المركزية لا يشجع على الاحاديث الطويلة، ذلك ان اندروبوف وغورباتشيف وتشيرينينكو يشغلون في الطابق الخامس من مبنى « الساحة القديمة » مكاتب متلاصقة تحاذي قاعة انتظار واسعة لاستقبال العديد من الزائرين، وبجوارها قاعة يجلس فيها خلف اجهزة الهاتف الموكلون بحماية اعضاء المكتب السياسي من تطفل غير المرغوب بهم. كان غورباتشيف يشغل المكتب الاصغر بين الثلاثة، ومساحته توازي خمسين متراً مربعاً. وقد جهّز على غرار معظم مكاتب كبار الرسميين، بطاولتين على شكل T (حرف التاء الكبيرة باللغة اللاتينية). امام مقعد غورباتشيف ثلاثة اجهزة هاتفية يستطيع كبار الرسميين الاتصال منها عبر محوّل خاص وبمنأى عن اجهزة التنصت، باية جهة في البلاد.

اجيز لاحد اصدقائه في الجامعة، القيام بزيارته عام ١٩٨٣ في مكتبه. ويروي هذا الصديق ان غورباتشيف طلب منه صورة شمسية تظهره الى جانب زدينيك ملينار. غير ان غورباتشيف بدا شخصاً آخر، « كانت نظراته مختلفة وشعرت في حينه بقيام حاجز بيني وبين عضو المكتب السياسي ». تحدث غورباتشيف ايضاً عن اندروبوف بالقول : هذا الرجل البسيط لا مثيل له في الحزب، وينجز كل شيء بنفسه. فادرك هذا الصديق كم ان غورباتشيف يمتدح اندروبوف، وكل كلماته تشهد عن اعجابه الصادق به. وهو يعلم ان اندروبوف قد استخدم نفوذه، في الماضي حين كان رئيساً لجهاز الـ ك.ج.ب. لصد الهجمات الموجهة اليه. غير انه بدا لهذا الصديق ان كلمات غورباتشيف تعبّر عن شيء آخر غير مجرد الامتنان والتقدير.

كان غورباتشيف يمثل في نظر اندروبوف منذ امد بعيد اكثر من مجرد شخص مؤيد له. حتى انه حين اشتد المرض عليه، تمنى ان يخلفه غورباتشيف. غير ان علاقاتهما لم تقتصر على السياسة وحدها، اذ ينقل بعض اصدقاء غورباتشيف ان اندروبوف، في آخر ايامه، حين كان طريح الفراش، طلب من غورباتشيف، خلال حديث طويل، ان يهتم بابنه ايغور ويوليه رعايته.

يحلو لاصدقاء غورباتشيف التأكيد اليوم انه لم يكن مرتبطاً باندروبوف الى هذه الدرجة، وان الامين العام الحالي مدين لاندروبوف بقدر اقل مما هو سائد في الاوساط العامة. ويخامرنا الاعتقاد احياناً ان هؤلاء الاصدقاء ينوون ابعاده عن الشبهات التي قد تثيرها علاقاته الشخصية الوثيقة باندروبوف منذ ان اعيد الاعتبار لضحايا الـ ك.ج.ب. مثل اندره ساخاروف وعادت لهم سلطاتهم السياسية والمعنوية المعترف بها. ويقولون ايضاً : لم يكن غورباتشيف، في كل حال، الوحيد الذي يدين بتقدمه في المناصب الرفيعة الى اندروبوف. ففي ربيع سنة ١٩٨٣، تدخل اندروبوف لاستقدام ايغور ليغاتشيف، رئيس الحزب في تومسك في سيبيريا، الى موسكو حيث اصبح امين سر اللجنة المركزية وهو اضحى فيما بعد الخصم الرئيسي المحافظ لغورباتشيف في المكتب السياسي. كان ليغاتشيف يمتاز، بنظر اندروبوف، بكونه لم يتقرّب يوماً الى فريق بريجنيف، فضلاً عن محاربته الشديدة لشرب الكحول وسهره على حفظ النظام في العمل وعلى الامن في قطاع سيبيريا الغربية. وقد نجح، خلال ما يناهز العشرين سنة، مثل غورباتشيف، في القيام باعباء الوظيفة الموكولة اليه كرئيس مقاطعة، دون ان يتحيز لهذا الفريق او ذاك ممن كانوا يتنازعون السلطة. كانت تلك مسألة هامة في نظر اندروبوف الذي استقدمه الى موسكو وضمّه الى الفريق الذي كان ينوي الاعتماد عليه بغية زيادة فعالية قيادة الحزب وتنشيط الاقتصاد.

في كل حال، بقي يوري اندروبوف الى اليوم بمنأى عن النقد، حتى ولو، سنة بعد سنة، تضاءل ذكر اسمه في الخطب والصحف. وقد ازيلت ذات ليلة عن جدار البناء الكائن في شارع كوتوزوفسكي بروسبكت، حيث المسكن الشخصي لكل من بريجنيف واندروبوف تلك اللوحة التذكارية الخاصة ببريجنيف، بعد الادانة الرسمية لطريقة حياته وسياسة الركود التي اتبعها، فيما بقيت اللوحة البرونزية التي تحمل رسم اندوربوف وتاريخ ولادته ووفاته، في مكانها، ونادراً ما تزيّن بباقة صغيرة من الزهر ... وما يزال حكم التاريخ

على سياسة اندروبوف معلقاً، كما يبقى تلك الشخصية الاكثر غموضاً بين الشخصيات المرموقة في التاريخ المعاصر.

بالطبع، كان اندروبوف وغورباتشيف متحالفين داخل المكتب السياسي، اذ يجمع بينهما نهج تفكيري واحد وكره شديد لجهاز الدولة الاداري الذي اصيب بالتحجر وانجرف بعضه في الفساد. كانا يطرحان الاسئلة التي لا تستهدف فقط تحقيق الاستقرار والتقدم لأمد قصير، بل ينظران الى تطوير الحزب والمجتمع السوفياتي من منظور اوسع من نظرة زملائهما. برأيهما، لا يمكن لنظام الدولة والمجتمع ان يقتصر على ترتيب واجهته الخارجية. وبالفعل، اعلن اندروبوف فور تعيينه اميناً عاماً انه ينوي اجراء تغييرات اساسية في ذاك النظام. ولم يسمع احد قط مثل هذا الكلام منذ سقوط خروتشيف. كان اندروبوف يسهب في الكلام قائلاً : ان الاتحاد السوفياتي يقف على منعطف في تاريخه وانه بات من غير الممكن تجنب قيام تحولات نوعية وعميقة في القوى المنتجة وعلاقات الانتاج. وقد سعى بنفسه ومع معاونيه المقربين الى ادخال مناهج اكثر فعالية في الاقتصاد على صعيد التنظيم والتخطيط المركزي، وتحدث ايضاً عن اعطاء مزيد من الاستقلالية للمؤسسات الصناعية والزراعية، مؤكداً استعداده عند الاقتضاء سلوك سبيل التجارب الاختبارية في هذا المجال.

كان اندروبوف يولي اهتمامه للاصلاحات التي باشرها جانوس كادار بعد سحق الانتفاضة المجرية. كان سفيراً لبلاده في المجر عندما شرع كادار في اعادة بناء الدولة الشيوعية المهدّمة، وعلّل الاصلاحات المجرية بانها محاولة ضمان هيمنة الحزب ضد اية انتفاضة جديدة. وكان الاتحاد السوفياتي قد اوفد بعثات عدة لدراسة التجارب المجرية. وعادت بعضها بفكرة وجوب اختبارها في جمهوريات البلطيق او جيورجيا او ارمينيا. كان الاقتصاديون السوفيات الذين يعملون ايضاً على وضع الخطط الاصلاحية، يدركون ان تنفيذ الاصلاحات المطلوبة في بلاد شاسعة كالاتحاد السوفياتي، سوف يصطدم بالكثير من المصاعب والعوائق. لكنهم اصيبوا بالخيبة عندما تبين لهم ان تصريحات الامين العام

لم يعقبها اي قرار عملي وان الامر قد اقتصر على بعض الاختبارات المحلية وعلى بعض التحسينات الطفيفة التي ادخلت هنا وهناك على وضع عدة تعاونيات ومؤسسات منفردة ومعزولة.

اصيب الفنانون والمثقفون السوفيات بالاحباط ايضاً. وكانوا قد املوا اجراء بحث صريح ونقدي اكثر عمقاً للاوضاع الاجتماعية، وتبين لهم ان السياسة المتبعة في الشأن الثقافي بقيت اكثر من اي وقت مضى، اسيرة العقيدة، اكثر مما كان عليه الوضع في عهد بريجنيف، حيث كان الحزب والوزارات المختصة يتغاضون عن الكثير من الامور نتيجة سوء تصرفهم او مقاومتهم لكل تجديد. وينسب بعضهم اليوم هذا التصلب ليس الى اندروبوف بل الى الرقم الثاني في الحزب كونستانتين تشيرنينكو الذي كان لا يتوقف عن حث « العمال المثقفين » على ترسيخ « الافكار العادلة » في اذهان السوفيات، من خلال التحريض والدعاية، وكان يعتزم تشديد قبضة الحزب وهيمنته على شؤون الادب والفن والعلوم.

لكن اندروبوف كان يحرص ايضاً على « تجفيف مستنقع العهد البريجنيفي » الذي كان ينغّص الحياة السوفياتية بكافة وجوهها. كانت الشرطة تقوم بمداهمات شبه يومية للمحلات التجارية في العاصمة، بحثاً عن اسماء الذين غادروا اعمالهم قبل نهاية الدوام لشراء حاجياتهم. وكانت تراقب بنوع خاص محلات بيع النبيذ والفودكا، ومن تجدهم فيها خلال ساعات العمل يتعرضون لمشكلة كشف اسمائهم للمؤسسة التي يعملون فيها. وكان بعض الموظفين يقومون بتفقد الابنية المستأجرة، ويدونون اسماء من يقيم ويقضي الليل فيها ويفرضون تزويدهم ببيان شخصي وخطي عن وضع كل مقيم. حتى انه جرى تركيب علب في مكاتب البريد، مخصصة لوضع الرسائل التي يرغب اصحابها الوشاية فيها عن المواطنين الذين يعيشون من « مداخيل لا يكسبونها من عملهم ». وقد غابت هذه العلب عن الانظار منذ سنوات عدة.

تصدّى اندروبوف للفساد المستشري في اجهزة الحزب والدولة، الامر الذي

ادّى لارتياح واسع في صفوف المواطنين السوفيات. لكن حملته لترسيخ النظام والانضباط لم تطل سوى محيطه الخاص وخلقت مناخاً من الحذر والشكوك. في مثل هذه الظروف، لم تعد الوعود التي اغدقها حول منح مزيد من حرية التقرير في الصناعة والزراعة بكافية لانتشال المجتمع السوفياتي من سباته وخموله. مهما كانت عليه نوايا اندروبوف خلال فترة حكمه التي امتدت خمسة عشر شهراً، فلم يوضح بصورة جلية الاهداف التي يعتزم تحقيقها. وبدت سياسته موجّهة نحو رسم سياسة اصلاحية تقنية ضيقة، يتطلب نجاحها مزيداً من الانضباط والنظام.

بالعودة الى الماضي، نلاحظ ان غورباتشيف يرى الامور بشكل مختلف : ففي خطاباته، يستشهد بلينين للتشديد على اهمية الاستقلالية والمبادرة الفردية. غير انه كان حدد لنفسه بعض الاولويات وراح يدافع عنها باحتراس وتعقل ومن غير تحديد خيارات اخرى واضحة، الامر الذي لم يتح له اكتساب صورة واضحة في وقت كان فيه تشيرنينكو يشدد في خطبه على الاصلاحات الاجتماعية الضرورية. كان غورباتشيف، بدوره، يمزج بين مفاهيم كل من اندروبوف وتشيرنينكو. كان واضحاً انه يسعى على وجه الخصوص لتجنب كل نزاع مع الرجل الذي سيكون خليفته المباشر في منصب الامين العام.

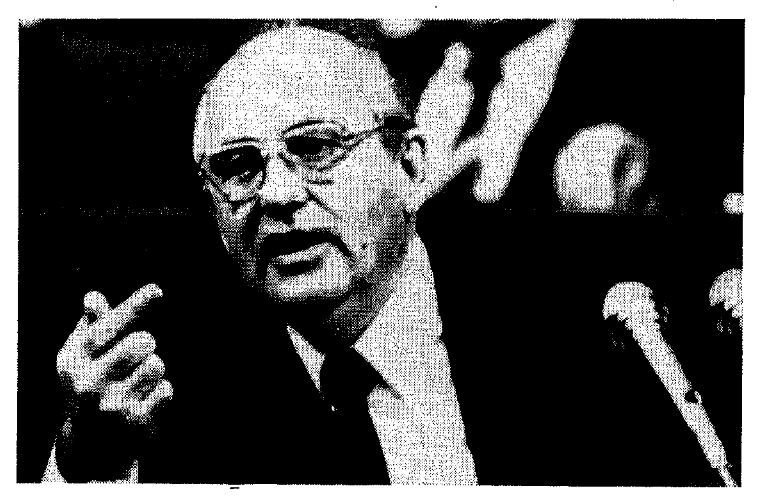
الامين العام

لا شك ان اندروبوف كان يعتزم اتباع سياسة اكثر دفعاً وفعالية من سلفه، غير انه كان عاجزاً عن ذلك بسبب تقدمه في السن ومرضه الشديد. في ايار (مايو) سنة ١٩٨٣، تولى رئاسة مجلس الدفاع في الاتحاد السوفياتي، وفي تموز (يوليو) من السنة نفسها، اصبح بصفته رئيس مجلس السوفيات الاعلى، رئيساً للدولة. غير ان ظهوره العلني امام الشعب اضحى شيئاً فشيئاً نادراً. كان الامين العام، يشكو، بحسب الرواية الرسمية، من انحراف صحي ناتج عن البرد. غير ان القراء السوفيات كانوا يعلمون ان انحراف صحة قادتهم من البرد لم يكن يعلن عنها في السابق ويعتقدون ان الامر ينطوي على مرض اشد خطورة. في تشرين الثاني (نوفمبر)، لم يتمكن حتى من المشاركة في احتفالات ذكرى الثورة، وهذا امر لم يسبق حصوله البتة. وبات واضحاً ان نهايته أمست وشيكة، وبدأت الاستعدادات في المكتب السياسي، مرة اخرى، لاقتسام السلطة من جديد.

قبل شهرين من وفاته، سعى اندروبوف لحل ازمة خلافته لصالح ميخائيل غورباتشيف. كان طريح الفراش في المستشفى منذ تشرين الاول (اوكتوبر) ويحاول عبر اتصالاته المنتظمة بالموظفين والخبراء والموفدين مواصلة ادارة شؤون البلاد. وكان يأمل القاء خطاب شامل في كانون الاول (ديسمبر) امام الهيئة العامة للجنة المركزية، يكون بمثابة وصيته السياسية. وأعدّت له خصيصاً



غورباتشيف، عام ١٩٨٦، في زيارة لمنطقة ستافروبول



غورباتشيف يتحاور مع الكرملين مع بعض مندوبي المؤتمر ١٩ للحزب، حزيران (يونيو) ١٩٨٨.



غورباتشيف وزوجته عائدان من قمة رايكجافيك، عام ١٩٨٦.

لهذه الغاية منصة يتكئ عليها. غير انه أدرك بنفسه شيئاً فشيئاً انه لن يقوى على ذلك. ولذا قدّم خطابه الوداعي بشكل رسالة، عنوانها : « في مسؤولية اعضاء اللجنة المركزية امام الشعب ».

يوم السبت الذي سبق انعقاد الهيئة العامة جاء مقرره الخاص اركادي فولسكي، لعيادته في المستشفى، وتسلّم النسخة المنقحة من رسالته، فاعطاه اندروبوف نصاً مكتوباً باليد، اضافة الى الرسالة الموجهة الى الهيئة العامة للجنة المركزية. وقد جاء فيها ما يلي : « حضرات الرفاق اعضاء اللجنة المركزية، لم يعد باستطاعتي المشاركة بصورة نشيطة وفعالة في تحمل مسؤولياتي في المكتب السياسي واللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي، للاسباب التي تعرفونها. وارى من واجبي ان اقول لكم بكل صدق ان هذا الوضع قد يستمر طويلاً. بناء عليه، ارجو الهيئة العامة للجنة المركزية بحث هذه المسألة وتكليف الرفيق غورباتشيف، ميخائيل سيرغيفيتش لتولي قيادة المكتب السياسي وامانة اللجنة المركزية ».

يروي فولسكي انه حمل هذه الوثيقة الى مبنى اللجنة المركزية القائم في « الساحة القديمة »، وتكلم بشأنها مع احد المساعدين المقربين لاندروبوف، الذي ما يزال يعمل الى الآن في اللجنة المركزية. فقررا الاحتفاظ بنسخة عن الوثيقة وايداع النص الاصلي، بطريقة التسلسل الهرمي، الى رئيس الادارة العامة (الذي اقيل من الحزب فيما بعد، حسبما اوضح فولسكي). غير انه، بعد انقضاء يومين، حضر فولسكي الى الهيئة العامة وتبين له ان نص رسالة اندروبوف الذي وزّع على اعضاء اللجنة المركزية، قد اجتزئ منه المقطع الاخير. وانه لا يتضمن اية اشارة حول اقتراح اندروبوف اختيار ميخائيل غورباتشيف خلفاً له. يخبر اركادي فولسكي انه حاول الاستفسار عن الموضوع في حينه، غير انه افهم صراحة وجوب عدم التدخل في امور لا تعنيه. وفولسكي الذي سوف يوكل اليه غورباتشيف، عام ١٩٨٨، رئاسة اللجنة الخاصة لشؤون ناغورنو ــ كاراباخ، على ثقة اكيدة بان نيخونوف الوزير

الاول، وتشيرنينكو امين السر الثاني للحزب واوستينوف وزير الدفاع، قرروا معاً شطب اقتراح اندروبوف حول خلافته، من دون علمه. ويرى فولسكي ان احداً من الثلاثة ما كان ليتجرأ القيام بذلك بمفرده لان اندروبوف لم يكن ليغفر مثل هذا الفعل.

غير ان سائر الاعضاء الآخرين في المكتب السياسي كانوا يعلمون ايضاً ان اندروبوف لن يشفى من مرضه. لذلك ارتضوا تجاهل اقتراحه وعدم اطلاع اللجنة المركزية عليه. وفي ٩ شباط (فبراير) سنة ١٩٨٤، اصيب اندروبوف بالتهاب كلوي حاد، وبارتفاع السكري الذي كان يعاني منه منذ سنوات طويلة.

في ١٣ شباط (فبراير)، دعا رئيس الحكومة تيخونوف اللجنة المركزية لتعيين كونستانتين تشيرنينكو اميناً عاماً، بوصفه « رفيق النضال المخلص » لبريجنيف واندروبوف. وكان يمتدح فيه الرجل الذي يعامل بالعدل كافة القوى الحية في المجتمع السوفياتي. واردف بالقول : لقد بقي تشيرنينكو على اتصال دائم بالشعب، وبرهن عن سهره وحرصه على موظفي الحزب، ولعب بصفته منظّراً ايديولوجياً دوراً مهماً. وشارك بصورة فعالة في توجيه السياسة الخارجية السوفياتية، وهو على اطلاع واسع على المشاكل العديدة المتصلة بالطاقة الدفاعية ووسائل التسلح الحديثة.

كانت موازين القوى داخل المكتب السياسي قد جعلت من كونستانتين تشيرنينكو المرشح الاوفر حظاً. ووعد « بمواصلة البناء على الاسس التي تحققت واستكمالها ». وقد كسب هذا الرجل البالغ من العمر الخامسة والستين عاماً، ثقة اوستينوف وغروميكو. اما الاعضاء الاصغر سناً فلم يخشوا ان يؤدي تعيينه في اعلى المناصب الى سد الطريق في وجههم لسنوات طويلة. غير ان فيكتور غريشين، رئيس الحزب في موسكو، الذي يصغره بثلاث سنوات، كان يدّعي الخلافة ايضاً، اسوة بغريغوري رومانوف (٦٠ عاماً) الذي

دخل المكتب السياسي كامين سر الحزب في لينينغراد. اخيراً كان غورباتشيف ايضاً وهو الاصغر سناً بين الجميع، من عداد المرشحين لهذا المنصب الرفيع. غير انه تحاشى ترشيح نفسه كيلا يجد نفسه وجهاً لوجه مع تشيرنينكو. وبصفته آخر المتكلمين، فقد لخّص مختلف الآراء والحجج التي تدعم ترشيح تشيرنينكو. وفي نيسان (ابريل)، تقدّم باقتراح تعيينه رئيس مجلس السوفيات الاعلى، اي رئيس الدولة.

يبدو ان علاقاته مع تشيرنينكو لم تكن يوماً سيئة. ففي مطلع عام ١٩٨٢ وافق تشيرنينكو على مرافقته لحضور العرض الاول لمسرح الفنانين في موسكو حيث يجري تمثيل مسرحية سياسية من نبرة غير مألوفة، ويمكن اعتبارها مؤشراً لما عرف فيما بعد بحركة البيريسترويكا. تحت عنوان « هكذا ننتصر » عرض الكاتب المسرحي ميخائيل شاتروف على الخشبة السنوات الاخيرة من حياة لينين، عندما كان يحاول هذا الاخير اعادة الامل الى الجماهير من خلال محاربة البيروقراطية. وقد وجد شاتروف في مؤلفات الزعيم الثوري، تحاليل تبشر « بالسياسة الاقتصادية الجديدة » اي بتخفيف وطأة المركزية الاقتصادية وتشجيع المبادرة الفردية. وكانت المسرحية، واجهت، قبل العرض الاول، معارضة وانتقاد مسؤولي الرقابة في وزارة الثقافة. وقد اصطحب غورباتشيف زميله تشيرنينكو، المسؤول عن شؤون العقيدة، على امل افهامه جزءاً من هذه الرسالة على الاقل. ثم حث تشيرنينكو كلاً من بريجنيف وعدداً من اعضاء المكتب السياسي على حضور المسرحية. فأدى حضورهم الى تأمين استمرار العرض المسرحي وجنبّه الالغاء. اذا كان اندروبوف هو الذي جاء بغورباتشيف الى موسكو، لكن هذا الاخير لم يكتفِ بشخص واحد لرعايته والدفاع عنه.

حظي الاتحاد السوفياتي، بعد بريجنيف واندروبوف، بامين عام ثالث له من العمر والحالة الصحية ما يخوّل قيام كافة المراهنات. من المؤكد ان تشيرنينكو لم يكن يوماً بالخطيب البليغ، لكن كان على المواطنين السوفيات، ان يتحملوا

الآن وجود كهل سقيم، واهن العزيمة، لا يستطيعون تصور امكانية ادارته لشؤون البلاد طيلة سنوات مديدة. كان من غير الوارد ان يجري تغييرات مهمة. كان الناطق باسم مجموعة من المسنين البالغة اعمارهم السبعين سنة، امثال اوستينوف وغروميكو وتيخونوف، الذين لا يملكون بالتأكيد الطاقة المطلوبة لتحقيق السياسة الاصلاحية. عندما اضطر تشيرنينكو للراحة فترات طويلة لدواع صحية، غالباً ما كان غورباتشيف يحلّ محله. ثم تولى رئاسة دورات المكتب السياسي، وما زال بعض العاملين في اللجنة المركزية ممن ينتقدون سياسته، حالياً، يعترفون بشيء من الاعجاب بان غورباتشيف اظهر براعة فائقة في ذلك. فكان يحرص على ان تنجح الدورات في الوصول الى نتائج سريعة، من خلال تجنيب اعضاء المكتب السياسي الشعور بفرض ارادته عليهم. كان الاصغر سناً بينهم، ومعاشرة الاكبر سناً تتطلب بذل المزيد من التهذيب واللياقة. فضلاً عن ان غورباتشيف الذي قد يحتاج يوماً الى اصواتهم، لم يكن ينوي ايضاً ترك الدورات تغوص في وحول مناقشات لا تنتهي. وازداد مركزه قوة ومناعة. وابرز نجاح زيارته الباهر لبريطانيا العظمى، في كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٨٤ انه يستطيع تمثيل الاتحاد السوفياتي في العالم ايضاً. وعندما توفي كونستانتين تشيرنينكو في ١٠ آذار (مارس) سنة ١٩٨٥، بعد ثلاث عشرة شهراً من الحكم، بدا غورباتشيف مؤهلاً تماماً لخلافته.

غير ان غورباتشيف كان له بالطبع منافسون وخصوصا داخل المكتب السياسي واللجنة المركزية. مثاله ان غريغوري رومانوف (اثنين وستين عاماً) عمل لحسابه الخاص، على غرار غورباتشيف، غير انه اختار في النهاية اقتراح ترشيح رئيس الحزب في موسكو، فيكتور غريشين (سبعين عاماً). وكان يأمل بذلك، ان يتوفر له الوقت، في ظل امين عام جديد متقدم في السن، تعزيز موقعه حين يحل موعد الخلافة المقبلة. نال غريشين وغورباتشيف، في المكتب السياسي عدداً مساوياً من الاصوات. كانت تلك الدورة الصاخبة

للمكتب السياسي مسرحاً لصراع عنيف، وفيها تدخل وزير الخارجية اندره غروميكو، في النقاش والغصة تخنق صوته داعياً المكتب السياسي لعدم اختيار واحد من صف الكهول الذين يعتبر غروميكو نفسه من عدادهم. يحتاج الاتحاد السوفياتي لامين عام يدفع به لاجتياز عتبة القرن الواحد والعشرين. حتى رئيس جهاز ال ك . ج . ب فيكتور تشيبريكوف، تدخل ايضاً لصالح غورباتشيف وكشف الفضائح التي استشرت في بطانة بريجنيف وتورّط فيها منافسه فيكتور غريشين. كل الوسائل كانت مشروعة في هذا الصراع على السلطة وكان على غورباتشيف ان يصارع كي يصبح اميناً عاماً.

مناصرو غريشين الكهل، امثال غريغوري رومانوف كانوا يمثلون الخط المحافظ. اي قيادة البلاد بقبضة من حديد وتجنب قطع العلاقة مع الستالينية المحتقرة. اما اولئك الذين يؤيدون غورباتشيف، فلم يكونوا يتوقعون تحولاً عميقاً باتجاه الدمقراطية، بل يجدون فيه شخصاً يتبع سياسة اكثر عصرنة، ويبحث عن طرائق ناجحة لتخطي الأزمة القائمة في الاتحاد السوفياتي. امتدح غروميكو عمل غورباتشيف داخل الحزب، وذكاءه الحاد وثقافته الواسعة وقدرته على مناقشة العلماء. لم يكن غورباتشيف يرى الامور بمنظار ابيض او اسود فقط، بل كان حساساً الى الفروق بين الاشياء من دون الغوص في التفاصيل. كان يدرك ان السياسة هي فن تحديد الاولويات. في النهاية وقع اختيار المكتب السياسي على ذاك الرجل البالغ من العمر الواحد والخمسين سنة.

كان على اللجنة المركزية ان توافق على هذا الاختيار، فيما قسم منها يرفض هذا الرجل الجديد. اذ كان كبار الموظفين في الحزب قلقين من التغييرات التي قد يجريها شاب يتدفق حيوية ونشاطاً، على مستوى الفرد والمؤسسات والمبادئ التنظيمية، ويكون من شأنها الحاق الضرر بنفوذ وامتيازات من يكبره سناً. دافع اندره غروميكو مرة اخرى عن غورباتشيف. وعندما نشر خطابه، بعد عدة ايام، دهش القراء للنبرة الجديدة التي صيغ بها خلافاً لخطاباته المعتادة التي تدور رتيبة كخرير المحرك : كان يعلم، كوزير للخارجية، ان غورباتشيف

يقيّم بسرعة وذكاء الاوضاع الدولية ويعرف دائماً كيف يستخلص النتائج الملائمة للحزب. خلافاً للعادة المتبعة، سعى قسم من اعضاء اللجنة المركزية للوقوف في وجه قرار المكتب السياسي. ويشير المحضر الرسمي للاقتراع ان غورباتشيف قد انتخب « باتفاق الجميع ». فيما جرى الحديث عن « الاجماع » فيما خص اندروبوف وتشيرنينكو وسوى ذلك من قرارات اللجنة المركزية الاخرى.

استخدم غروميكو في خطابه التأييدي لغورباتشيف، تعبيراً سوف يتذكره بلا شك الامين العام الجديد لمدة طويلة : « ايها الرفاق، ان لهذا الرجل ابتسامة ساحرة، غير ان له ايضاً انياباً من حديد ». تختصر هذه الملاحظة ما يمكن لمعاوني غورباتشيف ان يقولوه عن طبعه وطريقة التعريف به. ولكنها تدل ايضاً على ان غورباتشيف لم يشتهر كرجل حازم بهذا القدر في اوساط الحزب. كان غروميكو يحاول بصورة جلية ازالة التردد لدى المسؤولين الذين كانوا يعتقدون ان غورباتشيف كان في غاية الاستعداد لقبول التسويات ولن يستطيع فرض نفسه على الآخرين.

لعل عدد الذين كانوا يخشونه داخل اللجنة المركزية كان اكبر بكثير، لكونه كان من فريق اندوربوف : فالحملة التي شنها اندروبوف ضد الموظفين الفاسدين والفاشلين، قد ارعبت اكثر من واحد خوفاً على منصبه وامتيازاته. ففي عهد اندروبوف، اقيل ما يقارب الاربعة والعشرين رئيساً لمقاطعة، وعدداً مماثلاً من نوابهم العاملين في اجهزة اللجنة المركزية، كما صرف ربع عدد امناء السر الاقليميين في الحزب من الوظيفة. ونقل تسعة عشر وزيراً واكثر من ثمانين رئيس لجنة من مراكزهم. وحده موت اندروبوف أعاد الهدوء والسكينة الى الحزب والحكومة. اما تشيرنينكو فقد اكتفى بالتخلص مما يقارب الاثني عشر شخصاً من كبار الموظفين. وما عتمت الحملة التي شنّت لفرض النظام والانضباط ومحاربة الفساد ان هدأت. وتلاشت الضغوط المستمرة التي طالما

اقلقت الموظفين في عهد تشيرنينكو وهو الذي اختير خصيصاً لعطفه على موظفي الحزب ورعايته لهم.

كان هذا التغيير في القيادة هو الثالث في غضون سنتين ونصف السنة. ومع غورباتشيف، يتسلم مقاليد السلطة في الحزب جيل عيل صبره ووعى قوته. وكان، حتى منتصف الصيف، قد عزّز مواقعه واقصى انصار تشيرنينكو وبريجنيف الى مراكز ثانوية تمهيداً للاستغناء عنهم. اول الساقطين كان غريغوري رومانوف الذي اقترح اسم المرشح المنافس غريشين. كان يعتبر رجلاً قوياً عرف كيف يرسي دعائم سلطته عندما كان امين سر الحزب في لينينغراد. وهي سلطة قام بتوسيع نطاقها فيما بعد، من خلال تنمية علاقات وثيقة مع الجيش وصناعة التسلح. كان اسمه مدرجاً هو الآخر على لائحة اندروبوف السوداء: فمنذ عدة سنوات، اتهم سراً في اوساط موسكو بانه يعيش حياة الفسق والمجون وانه ارتكب فضائح متنوعة. وقيل ايضاً انه اثناء حفل زواج ابنته، تناول الضيوف الطعام في الاواني الفضية العائدة لكاترين الثانية، وحطموا، تحت وطأة الشراب قطعاً فريدة منها (يشكو رومانوف الذي ما يزال يعيش في شقته القديمة في موسكو ويتقاضى معاشاً خاصاً مرتفعاً، انه تعرض لوشاية كاذبة ومختلقة بغية الاساءة اليه). غير انه في آذار (مارس) سنة ١٩٨٥، اثناء مؤتمر الحزب الشيوعي المجري، اثار بسُكْره فضيحة بلغت اصداؤها موسكو. وفقد على اثرها منصبه كامين سر اللجنة المركزية لصالح ايغور ليغاتشيف، الذي يكن الولاء لاندروبوف وقد تولى تطهير جهاز الحزب وطرد العناصر المنحرفة منه.

ظن رومانوف انه بمنأى عن الخطر لعلاقاته وصداقاته. وأن يخسر رجل قوي من طراز رومانوف بهذه السرعة منصبه كامين سر اللجنة المركزية ثم مركزه كعضو المكتب السياسي، يدل على ان غورباتشيف يعرف ما يريد وما لا يريد. لم يكن يرغب، مثل تشيرنينكو، ترؤس قيادة جماعية حيث يبطل انصار النظام القديم مفاعيل عمل انصار التوجه الجديد في الحكم والعكس

بالعكس. وفي هذا الاطار، يصبح من الصعب تمرير الاصلاحات المطلوبة، والغوص في الازمات محتماً، فاقدم غورباتشيف على خلق اكثرية جديدة في المكتب السياسي. وكان ايغور ليغاتشيف ونيقولاي ريجكوف ورئيس جهاز ال ك . ج . ب فيكتور تشيبريكوف يعتبرون، مثله، ان تجديد الحزب وجهازه المهترئ يفرض نفسه بصورة مستعجلة وملحة. انهم حلفاؤه وعليهم يستطيع الاتكال في هذه المرحلة من عمله السياسي.

كان ليغاتشيف وريجكوف وتشيبريكوف يشاطرون ايضاً غورباتشيف قناعته بوجوب اعطاء زخم جديد للتطور الاقتصادي والتحديث التكنولوجي. في الخطب التي القاها غورباتشيف في نيسان (ابريل) امام بعض الباحثين وموظفي الابحاث، ثم في الهيئة العامة للجنة المركزية، اعلن ان تنشيط العمل هو العنصر الاهم في سياسته. لم يكن قد استخدم بعد كلمتي « بيريسترويكا » و «غلاسنوست » لوصف التوجه الجديد. وكانت الكلمات الاساسية هي : « التنشيط » و «التحول ».

اوضح غورباتشيف لاعضاء اللجنة المركزية نظرته الى الامور بالقول : « ان ايقاع تطورنا في الخطة الخمسية الحالية غير كافٍ. علينا تنشيطه وتسريعه على الفور. وهي مهمة لا نستطيع ارجاءها لوقت آخر. لا وقت لدينا لنهدره. فتطور البلاد على الصعيد الاقتصادي ــ الاجتماعي وتقوية قدراتها الدفاعية وتحسين مستوى معيشة المواطنين السوفيات هي على المحك ». ودعا الى افادة المواطنين على وجه السرعة من الاكتشافات العلمية. وكان علماء الاقتصاد والاجتماع قد اطلعوه على مدى السرعة التي حولّت بها الثورة التكنولوجية لعصر الناظمة الآلية، البنيات الصناعية الغربية وضاعفت من قدراتها الانتاجية. واذا كان الاتحاد السوفياتي لا ينوي التقهقر اكثر فاكثر، فيجب عليه تغيير نمط تطوره وخططه الاقتصادية بحيث تفيد الصناعة من اكتشافات العلوم ونتائج الابحاث.

لم تبقَ للاتحاد السوفياتي القدرة على المنافسة سوى في مجالي الفضاء والتسلّح.

غير انه بات من غير الوارد ان يستمر هذا التخصص في بذل جهوده وعرض اعماله على حساب النواحي الاقتصادية الاخرى. لم تكن متيسرة، خلال عشرات السنين، الافادة من ابحاث مئات الالوف من العلماء لتحديث النظام الاقتصادي اذا اخذنا بالوسائل التي تؤدي بنا اليه، يقول غورباتشيف، فان وتيرة النمو تتسارع. من اجل بلوغ ذلك، ينبغي على التقدم العلمي والتقني ان يكون في قلب الجهود المبذولة لتعزيز الاقتصاد وتنشيطه. وقد اعلن غورباتشيف عن برنامج للتغييرات التقنية الثورية. ولا بدّ لتطبيقه، في النهاية، من تغيير طريقة العمل والتحرك، والاقلاع عن التخطيط وعن الادارة المركزية في الاقتصاد. وهذا يعني، في الوقت الحاضر، وجوب تمتع المؤسسات بمزيد من الاستقلالية في الادارة والعمال بالانضباط في العمل وتوفير افضل الحوافز المادية لهم.

اجتذب هذا البرنامج الواضح الاهداف معظم الموظفين السوفيات واعاد الامل الى النخبة التقنية ـــ العلمية في البلاد، فهذا الرجل لم يعد يتحدث كأسلافه عن تطوير النظام الذي بات قديماً وبالياً، بصورة ظاهرة لا لبس فيها. انه يبغي المزيد.

لقد كان غورباتشيف على الدوام خطيباً بليغاً. ودهش الحضور لحجم المعارف والمعلومات التي يتضمنها خطابه وكذلك الاسلوب الشخصي الذي يقارب الانفعال والذي يلتزم به لتحقيق التغييرات العميقة التي يدعو لها.

هل كان غورباتشيف يذهب بعيداً في طروحاته ؟ ادرك الجميع، في موسكو كما في الغرب، من خلال خطبه، ان الامين العام الجديد كان في صدد البحث عن تصور شامل ـــ وهذا الامر بحد ذاته لم يكن مألوفاً ـــ ولكن، اذا كان لا يعتزم الاكتفاء باتباع سياسة اقتصادية اكثر تشدداً، فان التدابير المقترحة لم تخرج عن اطار السياسة الاقتصادية والاجتماعية التقليدية المعتمدة في الاتحاد السوفياتي. ولا شيء يشير بعد الى الانتقال الى اقتصاد السوق وحرية التبادل

الاقتصادي. ذلك ان غورباتشيف يدرك في كل حال انه لا يستطيع الذهاب بعيداً ودفعة واحدة، فيما يطلبه من الحزب. كان بحاجة الى دعم الآلة الحزبية والموظفين الذين ينتقدهم وفي الوقت عينه الى تشديد عزائمهم وتحريك الشعور بالكرامة فيهم.

يستحيل التأكيد، في تلك الاثناء، فيما اذا كان غورباتشيف قد ادرك في حينه ان اتباع سياسة اقتصادية جديدة غير كاف لبلوغ النتائج المتوخاة. لكن، من المؤكد انه كان بدأ ينكّب قبل تلك المرحلة، على المعلومات التي بحوزته حول اوضاع الاتحاد السوفياتي وتطور دول اوروبا الشرقية — وهي معلومات تدعو الى التفكير بصورة تتخطّى البحث التقني لاصلاح النظام. كان الى جانبه، بشخص ايغور ليغاتشيف، رجل قد تأثر بالمفاهيم التقليدية لدور الحزب ونمط الحياة في المجتمع الاشتراكي. واعتباراً من صيف ١٩٨٥، عهد برئاسة المجلس الى نيقولاي ريجكوف، وهو تقنوقراطي لامع، عمل في ادارة المؤسسات الكبرى للصناعات الثقيلة، ونائباً لوزير الصناعة الثقيلة ووسائل النقل. وقد جاء هذا التعيين يصب في الاتجاه الصحيح، لجهة ادخال العناصر الشابة الى القيادة السوفياتية.

غير ان ما اثار الدهشة هو ما حصل من تغيير في حقل السياسة الخارجية. ذلك ان اندره غروميكو، الذي تدخل بحزم لصالح غورباتشيف لدى انتخابه كامين عام، لم ينل سوى منصب فخري لا يتمتع بنفوذ فعلي واسع، وهو منصب رئيس الدولة. لقد رسم غروميكو بصفته وزيراً للخارجية، السياسة الدولية للاتحاد السوفياتي طيلة ثمانية وعشرين عاماً، وفي السنوات الاخيرة من حياته، تزايد نفوذه في السياسة الداخلية بفضل ما تمتع به من شهرة واسعة. وها هي حقيبة وزارة الخارجية تنتقل الى ادوار شيفارنادزه الذي لا يتمتع باية كفاءة تشهد له او بخبرة دبلوماسية يمكنه ادعاؤها.

لعل غروميكو البالغ من العمر خمسة وسبعين عاماً قد جرح في الصميم

لاستبداله بابن جيورجيا الذي يصغره بعشرين سنة تقريباً. ساد الانطباع لدى بعض المراقبين ان غورباتشيف ينوي توجيه السياسة الخارجية بنفسه، من خلال تكليف شيفارنادزه بتحمل مسؤولياتها. واذا كان شيفارنادزه عضواً في المكتب السياسي منذ سبع سنوات، فهو لا يملك اية خبرة في السياسة الخارجية. وازدادت التساؤلات في اوساط موسكو حول الاشخاص الذين يحيط غورباتشيف نفسه بهم. وكان يجري تقويم الاشخاص الجدد بمعايير قديمة، اي من خلال وزنهم السياسي في جهاز الحزب وعدد المؤيدين الذين يستطيعون حشدهم في الصراعات الدائرة داخله. ولم يأخذوا بعين الاعتبار ان غورباتشيف يحيط نفسه برجال يرتبط بهم بعلاقة اوثق من الحسابات السياسية البحتة. من هؤلاء الاشخاص من كان له تأثيره في فكره السياسي ومفهومه للسياسة. وتبرز سيرة حياة هؤلاء الأشخاص وأعمالهم مدى عمق التصدع السياسي الذي شاء غورباتشيف احداثه. لذا يبدو مفيداً التعرف اليهم عن كثب.

الوجوه الجديدة

تشكلت في صفوف النخبة في الحزب، في عهد بريجنيف، تكتلات اطلق عليها المراقبون الاجانب تسمية « الزمرة » لان اعضاءها كانوا يدفعون ببعضهم بعضاً نحو القمة، على غرار متسلقي الجبال. كان بريجنيف، على وجه الخصوص، قد احاط نفسه بفريق من الاصدقاء القدامى والشركاء الذين سبق له ان تعاون معهم باخلاص ويستطيع الاتكال عليهم للبقاء في السلطة. لم يتوفر لدينا اي دليل ثابت يشير الى انضمام، غورباتشيف الى هذه « الزمرة » او تلك. خلال السنين العشرة الاولى من عمله في ستافروبول، لم يعمل الا مع شخص واحد يمكنه توفير الدعم له للتقدم والترقي، وهو الخبير في شؤون الزراعة في المكتب السياسي فيودور كولاكوف. في وظيفته كامين سر الحزب في منطقة ستافروبول، لا شك انه صادق مسؤولين كبيرين آخرين، لكنه لم يكن من عداد مؤيديهما. اذا كان لم ينجح في تشكيل زمرته الخاصة في ستافروبول، فقد لفت نظره اناس عديدون اعجب بطباعهم وصفاتهم وشاطروه اهدافه السياسية. وفي قراءة سيرة حياة من يشغلون اليوم مناصب رئيسية في العاصمة والاطلاع على مؤهلاتهم العلمية وسماتهم البارزة، ما يعرّفنا على الجوانب الكثيرة من شخصية غورباتشيف نفسه.

كان يعرف اناتولي لوكيانوف من ايام الدراسة. فقد كان الرئيس التسلسلي لغورباتشيف في لجنة الشبيبة الشيوعية في كلية الحقوق، وحقق نجاحاً باهراً

في الامتحانات النهائية في جامعة موسكو التي تخرج منها قبل سنتين من غورباتشيف. خلافاً لهذا الاخير، بقي لوكيانوف في العاصمة وباشر لتوه العمل في الادارة المركزية للحزب والدولة. ظلّ يعمل في مهنة المحاماة والقانون، وتابع الابحاث العلمية ثم ناقش اطروحة الدكتوراه في الحقوق عام ١٩٨٠، بعد سبع عشرة سنة من العمل المهني. كان يولي اهتمامه، منذ سني دراسته الجامعية، شطر المسائل القانونية المتصلة بادارة الدولة والحكومة. حتى عام ١٩٦١، بقي المستشار الاول للجنة الشؤون القانونية لدى مجلس الوزراء، ثم اصبح المدير المساعد في ادارة مجلس السوفيات الاعلى، التي تسهر على مسألة توافق القرارات التشريعية التي تتخذها السلطات العليا في الجمهوريات مع القواعد القانونية في الاتحاد. عمل، طيلة سنوات عدة، داخل ادارة اللجنة المركزية للحزب. ومن عام ١٩٧٧ حتى وفاة بريجنيف، تولى امانة سر رئاسة مجلس السوفيات الاعلى، في قمة هرم الدولة السوفياتية.

كان لوكيانوف رجل قانون كفوء ومثقف، وله مكتبة تعد ما يقارب ستة آلاف مجلّد. وهو بالتالي شخص رفيع القدر عند غورباتشيف. عيّنه هذا الاخير، عام ١٩٨٥، في منصب رفيع داخل الادارة المركزية للحزب، وهو منصب لا يوليه الامين العام سوى للشخص الذي يعرفه جيداً ويمحضه كامل ثقته. وبالفعل تولى لوكيانوف رئاسة مكتب اللجنة المركزية والأمانة الدائمة للمكتب السياسي حيث يجري إعداد القرارات المهمة، وتدوّن مطالب اعضاء المكتب السياسي واقتراحاتهم، وحيث يتمّ التنسيق بين الخطط التي تقدمها الهيئات العليا للحزب واعضائه. كان هذا المنصب من الاهمية بمكان بحيث كان الامين العام بحاجة لشخص يتمتع بالخبرة داخل ادارة الحزب والدولة ويستطيع الاتكال عليه.

عندما انتخب غورباتشيف، في مؤتمر نواب الشعب عام ١٩٨٩، رئيساً لمجلس السوفيات الاعلى، كانت واجبات وصلاحيات « الرئيس » غير محددة تماماً، باعتباره رئيساً لادارة جماعية، كان بالطبع ايضاً رئيس مجلس النواب،

غير ان مؤتمر الشعب ومجلس السوفيات الاعلى الذي يرئسه، لا يرعاهما نظام داخلي معين فضلاً عن ان علاقات الرئيس بالحكومة لم تكن محددة. خلافاً لوضع الرئيس الاميركي، لا يستطيع الشخص الذي يشغل هذا المنصب المنشأ حديثاً في الاتحاد السوفياتي، ان يحيط نفسه بمكتب يختار له موظفيه بنفسه. كان رئيس الدولة ورئيس هيئتي مجلس النواب، غير ان عليه العراك من اجل تعيين مرشحيه للمناصب المهمة، في وجه نواب يغرقون في المناقشات الطويلة دفاعاً عن استقلالية حصلوا عليها حديثاً، ويبدأون دوماً بمناقشة اقتراحات الحكومة قبل موافقتهم (في معظم الاحيان) على التعيينات المقترحة. كان غورباتشيف في الوقت ذاته الامين العام لحزب يسعى لاصلاحه والامساك به معاً. واذا كان يرغب علاوة على ذلك ترؤس مجلس السوفيات الاعلى بصورة فعلية، فعليه اختيار مساعد ذي خبرة يتكل عليه في هذا الشأن.

رفض النواب الذين انتخبوا غورباتشيف، تأييد اقتراحه، ورفضوا في جلسة صاخبة تعيين لوكيانوف. ولما كان لوكيانوف قد تولى في عهد بريجنيف، امانة سر رئاسة مجلس السوفيات الاعلى، فقد صنفه الكثيرون من فئة موظفي الادارة السابقة ومن اتباع جماعة بريجنيف. والاهمية المستجدة التي يتخذها هذا المنصب في مجلس السوفيات الاعلى تتجلى في نظرهم بوجوب اختيار مساعد ذي مكانة سياسية واخلاقية مرموقة. تحدث بعض النواب عن اندره ساخاروف او بوريس يلتسين، فيما لم يطلع الكثيرون من بينهم على الموجبات الملقاة على عاتق مساعد غورباتشيف في مجلس السوفيات الاعلى. بالنظر لحذرهم ازاء الموظفين المتزلفين في العهد السابق، فقد دعموا ترشيح اولئك الذين يطالبون بالتغيير والاصلاح. اما غورباتشيف فقد كان من جهته يرغب في اختيار رجل يحسن التعامل مع الآلة الادارية البطيئة في الدولة. تعذر عليه تمرير مرشحه لوكيانوف لكنه تمسك باختياره الذي لم يلقَ التأييد المطلوب. كان يستشف العقبات والمتاعب التي يمكن توقعها في تلك الحقبة من التحولات المتسارعة. واذا كان توزّع السلطات في الاتحاد والجمهوريات السوفياتية في

اطار اللامركزية قد بلغ اوجه، فانه يتعذر التنبؤ بمدى اتساعه وانعكاساته على الاوضاع العامة. لذا فان غورباتشيف الذي تبوأ مختلف المراكز الادارية في الحزب، بات مقتنعاً بحاجته الى رجل من طينة لوكيانوف بدلاً من مرشح ذي مكانة اخلاقية ... او منافس نشيط له. وفقد من جراء هذا الاختيار قسماً من رصيده في صفوف مؤيديه. وقد اثبت موقفه تلك المخاوف التي اعترتهم لرؤية نفسه اسير حزب يقف حاجزاً في وجه سياسته ويؤخر مسيرته.

شخصان من ستافروبول برزا في عهد غورباتشيف، في موسكو. كان الاول، مارات غراموف، شخصية هامشية وكان يشغل منصب رئيس تحرير لصحيفة محلية في ستافروبول. وكان غورباتشيف على اتصال مستمر بالصحافيين، وعلى معرفة شخصية به منذ مطلع الستينات. في موسكو، اصبح غراموف رئيس لجنة الشؤون الرياضية. وكان الصحافيون والمسؤولون عن الشؤون الرياضية يرون فيه قروياً يفتقر الى الرقة والدماثة، وسلبياً ومنغلقاً على محاولات تحديث الرياضة. وعندما اصبح رئيساً للجنة الاولمبية في الاتحاد السوفياتي، اكتفى ابناء موسكو، لدى سماعهم الخبر، بهزّ اكتافهم، اذ لم يجدوا في هذا التعيين سوى ظاهرة وفاء من غورباتشيف نحو صديقه القديم.

الشخص الثاني من ستافروبول، يدعى فسيفولود موراكوفسكي، كان لبعض الوقت رئيساً تسلسلياً لغورباتشيف في اتحاد الشبيبة الشيوعية، تم مرؤوسه في جهاز الحزب. وكان مثل غورباتشيف على صلة وثيقة بفيودور كولاكوف. وبصفته رئيس الحزب في بياتيغورسك، كان مسؤولاً عن المنتجعات المعدنية الشهيرة في سفح جبل القوقاز. وقد وثق علاقاته، هو الآخر، مع كبار المسؤولين في موسكو، عندما كانوا يأتون اليها للاستجمام والمعالجة. غير ان وظيفته هذه لم تؤدِ به يوماً الى العاصمة. وعندما عيّن غورباتشيف عام ١٩٧٨، في موسكو، خلفه موراكوفسكي في منصب امين السر الاول لمنطقة ستافروبول. وفي عام ١٩٨٥، استقدمه غورباتشيف الى موسكو وعهد اليه بمسؤولية ذات اهمية حيوية في تطور الاتحاد السوفياتي. وهكذا اصبح فسيفولود موراكوفسكي

رئيس الحكومة المساعد وتولى رئاسة لجنة شؤون التصنيع الغذائي ـــ الزراعي.

كان على هذه الوزارة المنشأة حديثاً ان تعمل على تحقيق اصلاح جذري في الصناعة الغذائية ـــ الزراعية. حتى ذلك الحين، كان هذا القطاع موزعاً على ست وزارات تتهافت على السيطرة عليه. وكان يتوقع ان يؤدي الغاء الوزارات الست والقضاء على بنياتها البيروقراطية إلى تنشيط سريع للزراعة والى تقدم محسوس في قطاع التموين. ومن شأن نجاح هذا المشروع ان يحلّ مشاكل جسيمة على المستويات التنظيمية والمؤسسية والفردية والسياسية. وظهرت مقاومة الادارة المركزية لهذا المشروع على مستوى مسؤولي الشؤون الزراعية الذين كانوا يخشون ان تطيح الاصلاحات الجديدة بسلطتهم ونفوذهم، فيما كان موظفو الادارة المركزية يرتعدون خوفاً على مناصبهم. حتى في المكتب السياسي نفسه حيث كان ايغور ليغاتشيف يتولى مسؤولية السياسة الزراعية، كان الحذر قائماً من جراء الاصلاحات التي قد تنتقص من دور المزارع الحكومية النموذجية (السوفخوز) والتعاونيات الزراعية (الكولخوز) وبالتالي اضعاف الادارة المركزية. وكان ليغاتشيف قد خسر من نفوذه داخل الحزب حين لم يعد امين سر شؤون العقيدة. وبصفته امين سر اللجنة المركزية لشؤون الزراعة كان كمن يسير على الجمر ازاء الصعوبات التي تكاد لا تقهر. لكنه كان يتمتع بخبرة كافية تتيح له الاعتماد على سلطة الحزب، حتى في هذا القطاع الحساس. لم يكن ليعارض ادخال الاصلاحات المطلوبة على الزراعة لكنه كان يستطيع كبحها واعاقتها.

تميزت شخصية مورادوفسكي بحسن التنظيم والصلابة. ولم تكن هذه الميزات بكافية لوحدها للتغلب على الجمود القائم، ولم يشعر المواطنون بوجود اي تحسّن في الاوضاع. وقد اشتكى انصار الاصلاح من ان اللجنة التي يرأسها موراداوفسكي (التي حلّت محل ست وزارات) تلقي بثقلها على الزراعة ست اضعاف أكثر من ذي قبل. لم يكن موراداوفسكي الذي درس التاريخ، يتمتع باية مؤهلات مختصة بالزراعة، كان يتحلى بالنزاهة والاستقامة، انما يفتقر

الى النبوغ والعبقرية. لم يخلّ يوماً بوفائه لغورباتشيف. غير ان هذا الرجل القادم من ستافروبول لم ينجح في اخراج الجهاز الاداري في موسكو من الاوضاع الصعبة التي يتخبط فيها.

غالباً ما ناقش غورباتشيف مشاكل الزراعة بصورة مطوّلة مع شخص آخر من ستافروبول، يختلف كثيراً في تفكيره عن الشخصين السابقين ويتناقض في عقليته عن سائر الموظفين. ويتولى حالياً في موسكو ادارة اكاديمية الزراعة. لا شك ان غورباتشيف قد ساهم في ترفيعه من مرتبة استاذ جامعي الى مرتبة مدير اكاديمية، غير ان الكسندر نيكونوف لم يعمل يوماً في كنف غورباتشيف ولم يستدعه هذا الاخير الى موسكو، فقد سبقه بشهرين الى العاصمة ولذا يردد غورباتشيف احياناً، مازحاً ان نيكونوف قد اجتذبه خلفه الى موسكو. ويعتبر نيكونوف من ابرز الاختصاصيين المرموقين في الشؤون الزراعية في الاتحاد السوفياتي، اضافة لكونه مفكراً اصيلاً يتقن عرض افكاره بتوّقد وحماسة. وعندما يتناول في حديثه اوضاع الفلاحين المحزنة او الاخطاء التي اقترفها الموظفون، فانه يصل الى حدود الغضب والهيجان.

ولد نيكونوف عام ١٩١٨ في مقاطعة « بسكوف »، شمالي ـــ غربي روسيا. جدوده فلاحون، اما والده فقد جاء الى سان بيترسبورغ حيث اشتغل فيها كعامل في صناعة استخراج المعادن. كان متعطشاً للمعرفة، وصديقاً لبعض الاشخاص البارزين امثال نيقولاي بوخارين، الذي اطلق عليه لينين لقب « الولد المدلل للحزب ». ثم عاد الى مسقط رأسه قبل اندلاع الثورة، وهناك ولد الكسندر نيكونوف في منطقة تقع بين روسيا وليتونيا، وقد ضمت هذه المنطقة الى جمهورية ليتونيا حين نالت هذه الاخيرة استقلالها. ادخله والده الى احدى المدارس الليتونية وحرص على متابعته الدراسة الجامعية في ريغا. قضى، اذاً، مرحلة الشباب من حياته بين الحربين في ليتونيا المستقلة، وهي منطقة بورجوازية يتعايش بسلام فيها الليتونيون والايستونيون والروس واليهود. عاش كروسي في تلك المقاطعة وقد تألم لفظاعة اعمال النفي التي ارتكبها

ستالين بحق الوف الليتونيين، الى سيبيريا، بعد اتفاقه مع هتلر.

برز الكسندر نيكونوف كضابط في الجيش، ثم جرح بعد الحرب، عاد الى ليتونيا مكلفاً بمهمة تنظيم التعاونيات الزراعية، وخلال سنتين قضاهما هناك، سنحت له الفرصة، كما يقول اليوم، لتحسين الوضع في الريف. ثم جاءت مرحلة التأميم القسري حيث اضطر ٩٥٪ من الفلاحين الليتونيين للعمل في الكولخوزات، واعقبتها موجة النفي الى سبيريا.

في تلك المرحلة، عزم خروتشيف على تحسين معيشة الفلاحين، واصبح نيكونوف وزيراً للزراعة في الجمهورية الليتونية. كان حر التفكير بحيث لم يكن يتورع عن التعبير عن رأيه وانتقاد الطرائق الادارية المتبعة التي سرعان ما تعود الى سابق عهدها. واضطر لمغادرة جمهورية ليتونيا بسبب الخلافات الخطيرة التي قامت بينه وبين امين سر الحزب فيها ارفير بيلش. وارتضى اول منصب توفر له في حينه وهو ادارة مؤسسة ابحاث زراعية نشأت حديثاً بالقرب من ستافروبول. الكسندر نيكونوف يحدد نفسه بانه رجل من الشمال لا يلائمه مناخ الجنوب في ستافروبول. لكنه، كان يأمل الوصول الى شيء ما في مؤسسة ما تزال في بدء انطلاقتها، سيما وان هذه المؤسسة كانت تتبع معهد الزراعة العالي في ستافروبول الواسع الشهرة. تقع هذه المؤسسة على بعد عشرين كيلومتراً من المدينة. وكان على نيكونوف ان ينتقل الى ستافروبول لتسوّق حاجياته. يروي نيكونوف انه دخل الى احد المحلات التجارية لاول مرة، فاقترب منه رجل شاب وبادره : « طاب يومك، سمعتُ الكثير عنك. اسمي غورباتشيف ».

بعد عشرين سنة، ما يزال نيكونوف يتذكر ذلك اللقاء الاول الذي شكل مفاجأة لطيفة له : كان هذا الموظف الشاب في غاية الدماثة والكياسة ! منذ ذلك اللقاء، بقيت العلاقات وديّة بين الرجلين. كان نيكونوف من طينة الرجال الذين يستطيع موظف الحزب التحدث اليهم بصراحة عن مشاكل الزراعة والسياسة الزراعية، وطلب المشورة والحصول على مقترحات مفيدة.

في فترة لقائهما الاول، كان الحزب كلف غورباتشيف تنفيذ آخر خطة زراعية لخروتشيف. فعارض دمج الكولخوزات الصغيرة في وحدات اكبر وتجميع المزارعين في مدن زراعية. يقول نيكونوف ان هذه الاجراءات كانت تسيء الى كرامة الفلاحين واستعدادهم للعمل. كيف يمكن لغورباتشيف ان يوفق بين السياسة الزراعية الرسمية والوضع القائم على الارض ؟ هنا افاد غورباتشيف من خبرة نيكونوف وفكره الحر الشيء الكثير. وعندما اصبح مدير معهد الزراعة العالي، استأنف غورباتشيف دراسته لديه وحصل على الدبلوم، كما اشرنا الى ذلك آنفاً.

في السبعينات، دعي نيكونوف مرتين للعمل في المؤسسة الزراعية التابعة لاكاديمية العلوم في موسكو، لكنه رفض الدعوة. وقد سانده غورباتشيف في كل مرة ولفت نظر موسكو الى حاجة ستافروبول اليه. عام ١٩٧٨، دعي مرة جديدة الى موسكو، فقام بزيارة غورباتشيف الذي كان يقضي عطلته في بيانيغورسك، بالقرب من القوقاز وسأله اذا كان عليه تحمل مسؤولية قسم الاقتصاد السياسي في الاكاديمية الزراعية. « توسلت غورباتشيف ان يقول لي ما يجب علي فعله. ففكر لبرهة وقال : إقبل هذا القسم. اعتقد ان هناك تغييرات ستحصل ». وهكذا وصل نيكونوف الى موسكو في آب (اغسطس) سنة ١٩٧٨، قبل شهرين من مغادرة غورباتشيف لستافروبول ليصبح امين سر اللجنة المركزية لشؤون الزراعة. كانت مفاجأة كبيرة له، يقول نيكونوف، ولا شك انها كانت كذلك لغورباتشيف.

بصفته مديراً للاكاديمية، تدخل نيكونوف، في السنوات الاخيرة في سبيل اجراء اصلاحات في السياسة الزراعية. كما ناضل من اجل رد الاعتبار لبعض المهندسين الزراعيين وعلماء الإحياء الذين اضطهدوا في عهد ستالين لانتقادهم طرائق التأميم المتبعة، وتصوّرهم لطرائق اخرى محتملة، او لأن ابحاثهم في علم الوراثة والإحياء تشهد عن عدائية مزعومة ضد الحزب. وفي صراعه لرد الاعتبار لرجال مرموقين اعدمتهم شرطة ستالين او ماتوا جوعاً في السجون،

طلب نيكونوف مساندة صديقه في الكرملين. اضطر غورباتيشف للتدخل شخصياً مع جهاز ال ك . ج . ب من اجل ذكر اسم الكسندر تشيانوف، مجدداً عام ١٩٨٧، في عدادِ كبار المهندسين الزراعيين والفلاسفة السوفيات. في مجلس السوفيات الاعلى، كان نيكونوف في طليعة الذين عملوا على اصدار تشريع جديد يتعلق بحق ملكية الفلاحين لارضهم. لم يكن يناضل، كما يزعم خصومه، من اجل الغاء الكولخوزات، بل من اجل انشاء تعاونيات حقيقية يديرها المزارعون من دون تدخل الدولة والحزب في شؤونها، وفيها يكون الفلاحون اسياد الارض. ويأسف نيكونوف اليوم لكون القانون الجديد حول الملكية ليس سوى تسوية مؤقتة، ولكنها في كل حال، خطوة صغيرة الى الامام، اذ اصبح باستطاعة الفلاحين بعد الآن زراعة ارضهم وتوريثها حتى ولو لم يتملكوا حق التصرف بها لجهة امكانية بيعها.

ها قد بلغ نيكونوف الرابعة والسبعين، ولم يفقد الامل، على الرغم من الخيبات العديدة. « لاول مرة، منذ لينين، تحظى البلاد من جديد بقائد عظيم. غير ان التطرف العقائدي والتزمت والخوف من المسؤولية والعمل، يضغط بثقله على النظام بحيث اصبحت مهمة غورباتشيف عملاً جباراً ».

يرى نيكونوف ان النهضة المعنوية والأخلاقية والمناخ الجديد للحرية في اوساط الفلاحين اهم من كل التشريعات والتقدم التقني. ليس كل ما يقوله الكسندر نيكونوف يعّبر بالضرورة عن مشاعر الامين العام الجديد. لكن المعارف التقنية والقناعات الفلسفية والاخلاقية لنيكونوف قد اثرت في فكر غورباتشيف. ومن الملفت للنظر ان هذا الاخير قد تعلق، ولما يزل موظفاً صغيراً في الحزب في ستافروبول، بمثل هذا الرجل.

لا شك ان ابرز شخصيتين سياسيتين استقدمهما غورباتشيف الى موسكو هما ادوار شيفارنادزه والكسندر ياكوفليف. حقق الاول سياسة الاتحاد السوفياتي الخارجية التي غيّرت وجه العالم في بضع سنوات، فيما الآخر قد ساهم

اكثر من سواه في محيط غورباتشيف، وربما اكثر من غورباتشيف نفسه، في الانفتاح الفكري والسياسي للمجتمع السوفياتي.

عرف غورباتشيف منذ فترة بعيدة شيفارنادزه الذي يكن له الودّ منذ أمد بعيد. كان كلاهما مسؤولين عن مناطق حدودية، غورباتشيف عن الجهة الشمالية من القوقاز، وشيفارنادزه عن جيورجيا جنوبي السلسلة الجبلية. ويبدو ان كلاهما اعجب بالآخر، باعتبار ان آل غورباتشيف نزلوا ضيوفاً مرات عدة في السبعينات، على آل شيفارنادزه، في جيورجيا.

ولد ادوار شيفارنادزه عام ١٩٢٨ في قرية صغيرة غربي جيورجيا. وهو يكبر غورباتشيف بثلاث سنوات فقط. غير انهما عندما التقيا لاول مرة، كان شيفارنادزه قد قطع شوطاً بعيداً في حياته المهنية. ففي التاسعة عشرة، بدأ مدرّساً في اللجنة المحلية للشبيبة الشيوعية في تبليسي، اي موظفاً صغيراً في ادنى درجات السلم. ويروي اصدقاؤه في موسكو اليوم حادثة تشهد على استقلاله الفكري الملفت للنظر في تلك المرحلة.

تعرّف شيفارنادزه، في منظمّة للاولاد تعرف باسم « الرواد » على « رائدة » شابة ترأس حماماً معدنياً في « بورجومي ». وبعد فترة، عرض عليها الزواج لكنها رفضت. ذلك ان ذوي نانوليا وقعوا ضحية حملة التطهير السياسية في نهاية الثلاثينات، وقد خشيت الفتاة ان يحطم هذا الزواج حياة ادوار السياسية التي ما تزال طرية العود. ولم يكن التفكير في هذا الموضوع غريباً البتة، ذلك ان ابناء اولئك الذين سقطوا ضحية ستالين لم يكن لهم ان يأملوا الحصول على منصب يعلو المناصب الدنيا في جهاز الادارة ما دام الدكتاتور على قيد الحياة. ولدى تبدل الوضع الاجتماعي او السكني، كان ينبغي في كل مرة املاء استمارات معدة لهذه الغاية، تذكر فيها الاعتقالات والاحكام التي صدرت بحق افراد العائلة. كان القمع السياسي يؤدي الى تحطيم العديد من العلاقات الشخصية والعائلية، وبات العزوف عن مصادقة الاشخاص المتورطين في هذه المسائل، امراً شبه طبيعي. لدى اعتقال الرجل،

كانت زوجته تعمد الى طلب الطلاق بحجة انها لا تحتمل الزواج من عدو للشعب. كان على نانوليا، صديقة شيفارنادزه، ان تتحمل نتائج المأساة التي عاشتها عائلتها، وقد اعتادت، كسواها من ملايين الاشخاص، على فكرة كونها ستحمل هذه الوصمة مدى الحياة.

كانت تعرف ان اديك ـــ هكذا كان الاصدقاء ينادون ادوار شيفارنادزه. قد اختير للدخول الى المدرسة العالية للشبيبة الشيوعية في موسكو، وان ذلك يشكل مدخلاً للحياة السياسية. واعتقدت ان علاقتهما سوف تنفصم ما ان تطلعه على العار المزعوم الذي يلقي بثقله على عائلتها. غير انه بعد بضعة ايام، اتصل بنانوليا بالهاتف وقال لها : جرى ترتيب كل الامور. فلم تفهم الفتاة، على الفور، ما كان يعنيه بهذا القول. فشرح لها ان باستطاعته ايجاد وظيفة مدرّس اذا رغبت في الزواج منه.

لم يلتحق ادوار شيفارنادزه بالمدرسة العالية للشبيبة الشيوعية في موسكو، غير ان زواجه لم يعرقل في النهاية عمله السياسي في اتحاد الشبيبة الشيوعية. بعد قبوله في الحزب، في سن العشرين، سلكت حياته السياسية في البدء مسلكاً مماثلاً لحياة غورباتشيف الذي يصغره ببضع سنوات. بين ١٩٥٤، و ١٩٥٦، عمل شيفارنادزه في جهاز امن الدولة لجمهورية جيورجيا. ويشير اصدقاؤه الحاليون في موسكو ان ذلك حصل في عهد خروتشيف في تلك السنوات التي بدأت فيها عملية رد الاعتبار لضحايا ستالين. وكان هذا الاخير قد عاقب بقساوة ووحشية موظفي الحزب في مسقط رأسه جيورجيا. بعد سنتين على الاكثر، استأنف شيفارنادزه عمله في الشبيبة الشيوعية وفيها اخذ يرتقي درجات السلم في جهاز الحزب في جيورجيا.

درس شيفارنادزه التاريخ في احدى المدارس العالية في جيورجيا وكانت هذه المادة تعتبر في تلك السنوات، مع الحقوق والفلسفة، قاعدة انطلاق جيدة لمن ينوي الانخراط في العمل السياسي. غير ان عام ١٩٦٤ كان منعطفاً

هاماً في حياته المهنية، اذ اصبح وزير الداخلية المساعد في جيورجيا ثم عين بعد سنة، وزير اصيلاً للداخلية.

لا شك ان المعلومات التي كانت ترد، في تلك الحقبة، الى مكتب وزير الداخلية في جيورجيا، كانت تبعث على الامل، والتفاؤل. كانت جيورجيا مضرب مثل في المحسوبية والمحاباة وتبادل الخدمات بين المعارف والاصدقاء، وفيها استشرى الفساد وتعددت ضروب الاحتيال في الحزب والحكومة والادارة. خلال السنوات السبع التي مارس فيها وظيفته، لم يتورط يوماً في تلك القصص. وعندما غرق امين سر الحزب في جيورجيا، فاسيلي فجافانادزه في الفساد واقيل من منصبه عام ١٩٧٢ عينت موسكو ادوار شيفارنادزه في منصب رئيس الحزب في تلك الجمهورية القوقازية. كل شيء يوحي بالاعتقاد ان يوري اندروبوف رئيس جهاز الـ ك.ج.ب. قد ساهم من العاصمة في ترفيع وزير الداخلية الى هذا المنصب، بوصفه عدواً لدوداً للفساد والنظام العشائري السائد ...

تولى اذاً كل من غورباتشيف، وشيفارنادزه، في وقت واحد منصب امين سر الحزب في منطقتيهما المجاورتين. وتحتل كل من ستافروبول وجيورجيا ذات المرتبة والاهمية لدى الحزب، اضافة الى المساحة المتقاربة بينهما. على الرغم من الاختلاف في التقاليد كانت المشاكل التي تطرحها مقاطعة ستافروبول مماثلة لتلك التي تعاني منها جمهورية جيورجيا. باشر شيفارنادزه، على غرار غورباتشيف، في تحقيق اصلاحات زراعية تمنح الكولخوزات مزيداً من الاستقلالية في الادارة الى جانب الحوافز المادية لزيادة الانتاج. في المدن، سعى الى اناطة مسؤولية الصناعة والتموين بهيئات منشأة حديثاً، ومنحها مزيداً من الاستقلالية في حقلي التخطيط والتقرير. كان مثل غورباتشيف خطيباً بليغاً ويتقن التعبير عن افكاره بوضوح، ويحسن اختيار النبرة الملائمة لمخاطبة الجيورجيين، عبر إعطاء طابع شخصي للهجة شعبه التقليدية التي تميل إلى المغالاة والتفخيم.

على سبيل المثال، كان في حربه على الفساد، يلقي القصائد الحماسية التي تمتدح الماضي على مسمع الجيو رجيين. لكنه يستدرك بالقول ان ابناء جيورجيا لم يعودوا اليوم شعباً من الفلاحين والابطال والشعراء، فقد اصبحوا شعباً من المضاربين والمهربين والسارقين. ولذا قيّد من حرية التنقل لدى المهربين الجيروجيين الذين كانوا يبيعون العنب والبطيخ الاصفر والدراق باسعار خيالية، في اسواق موسكو والمدن الكبرى الاخرى. ذات يوم، ضايق موظفي الحزب ــ في حين كان هؤلاء يبادرون بحسب العادة المتبعة الى رفع الايدي بالاجماع عند التصويت دون ابداء اي معارضة ــ عندما بادرهم بالقول انه من الافضل تعداد الساعات الثمينة المستوردة والموضوعة في معاصمهم بدلاً من تعداد الايدي المرتفعة ... وشاع الخبر حتى وصل موسكو ان شيفارنادزه نجح شخصياً وبصورة شجاعة في تجنب قيام شغب بين الجيورجيين والارمن، ففي احدى مباريات كرة القدم بين فريقي جيورجيا وارمينيا في تبليسي، اتخذ الحكم قراراً ادى الى هياج واثارة المشاهدين الجيورجيين. نزل شيفارنادزه شخصياً الى الملعب ونجح في تهدئة المتقاتلين والفصل بينهم. في الغد، اقدم بعض الانصار المتحمسين الى اقفال المطار وشل حركة الطيران بغية منع الحَكَم من الهرب.

دلّت حركة الشغب في ملعب كرة القدم على التوتر القائم منذ امد بعيد بين الجيورجيين والارمن. وقد شهدت جيورجيا اضطرابات عديدة تسببت بها خلافات قوّمية حادة. لا يشكل الجيورجيون سوى ثلثي سكان الجمهورية تقريباً. ويتميز شطرها الغربي، بمعالمه السياحية على ساحل البحر الاسود وبنظام الحكم الذاتي الذي تتمتع به جمهورية ادجاريا. في الجبال، تعيش جماعات « الاوسات » و «التشينشين » و «السفان » اضافة الى مجموعات عرقية مختلفة لا يزيد عددها عن بضعة آلاف من السكان الذين ما زالوا يحافظون على لغتهم الخاصة، ويدافعون بشراسة عن استقلالهم الذاتي. يضاف الى هؤلاء، الارمن والآذربيجانيون، كما تقيم في بعض النواحي الكبرى جماعات من الروس

والاوكرانيين. وتقع بين هذه المجموعات العرقية المختلفة اضطرابات عديدة، كما تندلع قلاقل اخرى بين المجموعات العرقية الكبرى وحكومة الاتحاد السوفياتي التي يهيمن عليها العنصر الروسي وجمهورية روسيا.

لم يعد ابناء اوجاريا يمثلون اكثر من ١٥ ٪ من مجموع السكان في جمهوريتهم التي تتمتع بالحكم الذاتي، من جراء تدفق الجيورجيين والارمن اليها، وراحوا في تلك الاثناء، يحتجون بشدة. وقامت التظاهرات الحاشدة والاضرابات احتجاجاً على « غزو الاجانب ». في تبليسي، تظاهر عشرات الالوف من الطلاب الجيورجيين، عام ١٩٧٨، احتجاجاً على دستور الجمهورية الجديد الذي فرض الروسية لغة رسمية الى جانب الجيورجية. نجح شيفارنادزه في تهدئة الطلاب المتظاهرين امام لجنة الحزب، وفي تجنب اعمال العنف عند المتظاهرين امام الشرطة. ثم عالج الموضوع مع اللجنة المركزية في موسكو ونجح في الغاء الفقرة التي تجعل من الروسية لغة وطنية رسمية في جيورجيا.

كان غورباتشيف على اطلاع جزئي مباشر، من خلال الزيارات والمعارف عمّا تقول موسكو عن رئيس الحزب في جيورجيا. لكنه لا بدّ انه علم ايضاً بما كان عليه رأي ادوار ونانولي شيفارنادزه في عهد الارهاب الستاليني. في نهاية عهد بريجنيف، حين توقف الفن والادب عن كشف مظالم تلك الحقبة السوداء، ولم يكن الخوض مجدداً بهذا الموضوع مسموحاً به بعد، رعى شيفارنادزه عمل المخرج السينمائي تشينغيز ابولادزه الذي كان يصوّر فيلمه « الندم »، وقد شاء هذا المخرج الانطلاق من قضية خاصة يعالجها بكل ما اوتي من مهارة فنية رائعة، ليصل الى حد تصفية حساباته بشكل مؤثر مع ديكتاتورية بيريا وستالين.

كانت موسكو، وقتئذ، تحتفل بامجاد ستالين العسكرية. كان على شيفارنادزه، بالتالي، ان يتحلى بقدر كبير من الشجاعة والصلابة كي يرخص للمخرج بتصوير فيلم في جيورجيا لا يعرف احد متى يمكن عرضه على الجمهور !

لكنه بالرغم من كل ذلك، تجشّم مخاطر اللوم والعقوبة السياسية، في سبيل قناعته. ولـن تقـدّر جرأتـه حـق قدرهـا الا بعـد بضـع سنـوات، إبـان مرحلـة « الغلاسنوست » حين حصل المخرج اخيراً على الترخيص بعرض الفيلم في دور السينما.

اتيح لشيفارنادزه التدخل علانية في سبيل بعث الثقافة في جيورجيا التي كانت تشعر بقلق ــ لا علاقة له باية نزعة اقليمية ــ من جراء ارتباطها بالفكر الفلسفي والفني السائد في روسيا المعاصرة والغرب. لم تكن المسألة سهلة. يروي المخرجون السينمائيون الجيورجيون، اليوم، كيف ان شيفارنادزه لم يكتفِ فقط بالترخيص بتصوير افلام اشتهرت في العالم كله، بل لاحق هذا العمل خطوة خطوة واتخذ جانب الدفاع عن المؤلفين السينمائيين الذين تعرضوا لمشاكسة اجهزة الرقابة وسلطات الحزب.

شاطر آل غورباتشيف شيفارنادزه وزوجته اهتمامهما بالآداب والفنون، ولعلّ هذا الاهتمام المشترك قد قرّب بينهما فيما بعد. غير ان شيفارنادزه كان يبدي الاهتمام ايضاً بالبحث العلمي الذي تقوم به رايسا غورباتشيف ومناهج علم الاجتماع الحديث التي اتاحت لها رسم الخطوط العريضة لواقع الحياة في الريف في منطقة ستافروبول. عام ١٩٧١، انشأ لدى اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في جيورجيا مؤسسة لسبرغور الرأي العام، بعد ثلاث سنوات على انشائها في موسكو من قبل الاستاذ الجامعي اوسيبوف الذي اشرف على اطروحة الدكتوراه لرايسا، في معهد البحوث الاجتماعية العملية التابع لاكاديمية العلوم. ولا بدّ لهذا القدر من الاهتمامات والمشاكل المشتركة، يضاف اليها موقع مماثل في الانطلاقة السياسية الاساسية، من ان يقرّب بين الرجلين.

بقي شيفارنادزه بالطبع، على الرغم من تحرره الفكري، رجل عصره والحزب. كان، بصفته وزيراً للداخلية، رئيس جهاز سياسي اشتهر في موسكو والمدن السوفياتية الاخرى بالاساليب التعسفية التي يعتمدها في التحقيق والاستقصاء.

كان عليه تملّق القادة في موسكو، اسوة بسائر الموظفين الآخرين. كان يمتدح الامينين العامين بريجنيف وتشيرنينكو واصفاً اياهما « بالسلطات الرفيعة العزّ والمكانة ». وكان يطري التزمت الوطني لروسيا الكبرى بقوله، « ان الشمس، بالنسبة لابناء جيورجيا، لا تشرق من الشرق، بل من الشمال ». وكان، بالمناسبة، يزايد على اناشيد المدح بتزويقها بعبارات منمقة على الطريقة الجيورجية، فاتهمه بعض مواطنيه بالتبعية والخضوع لموسكو.

عندما وصل غورباتشيف الى موسكو كأمين سر اللجنة المركزية، اصبح ادوار شيفارنادزه عضواً رديفاً في المكتب السياسي. كان على باب قوسين او ادنى من دخول نادي القادة الاثني عشر الذين يشرفون على شؤون البلاد. غير ان مكان عمله بقي في دائرة الحزب في جيورجيا حيث كان يشرف عليه بصفته امين سر اللجنة المركزية فيه. شغل منصب عضو رئاسة مجلس السوفيات الاعلى في جيورجيا وعضو المجلس العسكري لمنطقة القوقاز العسكرية، كما شغل، بصفته عميد الشرطة، عضوية المجلس العسكري للقطاع الحدودي فيما وراء القوقاز في جهاز الـ ك.ج.ب.، وهي مناصب لها اهميتها على مستوى السلطة الاقليمية.

كان القليل من الاشخاص، سواء في تبليسي او في موسكو، يعرفون من كان شيفارنادزه، فعلياً، حتى قدّمه غورباتشيف في ٢ تموز (يوليو) سنة ١٩٨٥ الى مجلس السوفيات الاعلى، والعالم كله، كوزير للخارجية، خلفاً للوزير العريق اندره غروميكو الذي ضرب الرقم القياسي العالمي في المدة التي قضاها في هذا المنصب.

هناك وجه آخر، على صلة وثيقة « بالفكر الجديد » والسياسة الاصلاحية التي انتهجها غورباتشيف، وقد ظهر فجأة في محيط غورباتشيف من دون ان يلفت النظر اليه في البدء. انه الكسندر ياكوفليف. تعرّف اليه غورباتشيف، عام ١٩٨٣، اثناء زيارته لكندا. وكان ياكوفليف قد نقل، قبل عشر سنوات،

الى اوتاوا كسفير فيها، بعد ان كان مسؤولاً عن قسم الدعاية في اللجنة المركزية، ثم اقصي عن هذه الوظيفة بسبب خلاف عقائدي.

كان غورباتشيف يعلم بالطبع ان تعيينه في اوتاوا يشكّل نفياً سياسياً. وسبق له ان اطلع عن كثب على الخلاف الذي حطم المستقبل السياسي لهذا الرجل. عام ١٩٧٣، اشارت المعلومات التي حصل عليها حول السفير الذي يتولى تحضير زيارته لكندا، الى ان الكسندر ياكوفليف هاجم وقتئذ مجموعة من الكتّاب والصحافيين السوفيات الذين كانوا يشيدون بالتزمت الوطني الروسي ويرسمون لوحة رومانسية عن عالم الريف الروسي. كان غورباتشيف يعلم بالطبع ان تلك المعلومات التي جمعها الجهاز الحزبي قد استقيت من طرف واحد. لكنه قرأ ايضاً المقالات والكتب التي انتقد ياكوفليف بشدة فيها السياسة والمجتمع الاميركيين، بصورة تتطابق تماماً مع الخط الايدلوجي الرسمي. لو اكتفى غورباتشيف بالمعلومات الرسمية لكان كوّن فكرة مبهمة عن هذا الشخص، وبقي على تحفظه الحذر منه حتى خلال الاحاديث التي يمكنه ان يكون على شبه يقين بان جهاز ال ك . ج . ب لم يتنصّت عليها.

في هذا المجتمع حيث تتسع الهوة بين التفكير الشخصي والتفكير الرسمي لدى الجميع، لا يتعرف القادة الى بعضهم بعضاً بقدر كافٍ، بغية تقدير كل منهم حق قدره والاطمئنان اليه. قبل توجهه الى كندا بفترة قصيرة، التقى غورباتشيف صديقاً قديماً له تعرّف الى الكسندر ياكوفليف حين كان مسؤولاً في اللجنة المركزية، عن قسم الدعاية في الاذاعة والتلفزيون. كان هذا الصديق صحافياً وعلى علاقة ودية بميخائيل غورباتشيف منذ ان كان عضواً في المكتب السياسي، الى جانب اعجابه بالكسندر ياكوفليف. ووصفه « بالفلاح الفطن والطيب القلب ». واخبر الصحافي غورباتشيف ان السفير « المنفي » الى اوتاوا، شخصية مرموقة لها افكارها الشخصية حول ما يجري في الاتحاد السوفياتي والعالم. يرى الصحافي انه كان لا بدّ لغورباتشيف وياكوفليف من ان يتفاهما. وبالفعل، كانت محادثاتهما في اوتاوا جدية وصريحة.

ولد الكسندر ياكوفليف في عام ١٩٢٣ بالقرب من مدينة باروسلاف الروسية، في اسرة فلاحية كان الثامن بين ابنائها. منح وساماً خلال الحرب واصيب بجروح ادت الى بتر ساقه. بعد عام ١٩٤٤، دخل الحزب الشيوعي ودرس التاريخ في معهد عالٍ للتربية. بدأ حياته المهنية بطريقة براقة وخاطفة. في الثلاثين من عمره، عين مديراً مساعداً لمكتب شؤون العلم والثقافة في اللجنة المركزية. كان ذلك اثر وفاة ستالين، حيث اتاحت المناقلات في مطلع العهد الجديد، للمبتدئين البارزين ان يشقوا طريقهم في قلب ادارة الحزب. بعد ثلاث سنوات، استأنف دراسة التاريخ في اكاديمية الحزب للعلوم الاجتماعية. فكان من بين الطلاب السوفيات القلائل الذين قيض لهم التعرف على العالم الخارجي عام ١٩٥٩، في اطار برنامج التبادل، حين ارسل الى جامعة كولومبيا، في نيويورك، حيث تعرّف خصوصاً على هنري كيسنجر، وسوف يقول عنه، بعد انقضاء خمس وعشرين سنة، ان كيسنجر ترك انطباعاً حسناً لديه فضلاً عن اعجابه به لرزانته وانفتاحه.

من المؤكد ان تلك الحقبة كانت مثيرة حتى ولو كان ما نشره عن الولايات المتحدة، لدى عودته الى الاتحاد السوفياتي، يدعو الى الاعتقاد بان لا شيء قد اعجبه فيها. له عدة كتب احدها بعنوان: « البؤس الفكري لدى المدافعين عن الحرب الباردة ». نادراً ما تضمنت كتاباته في مؤلفات جماعية، مثل: « الولايات المتحدة الاميركية، من البلد العظيم الى البلد المريض »، او « نحو الحرب والخيانة » او « وثائق البنتاغون السرية »، احكاماً ايجابية حول المجتمع والنظام السياسي في الولايات المتحدة. عام ١٩٨٤، نشر ايضاً كتاباً له بعنوان: « سرطان الطموحات التوسعية في عصر الذرة ». ويصف في كتابه بعنوان « من ترومان الى ريغان » الولايات المتحدة بانها بلد يسود فيه الاحتيال والغوغائية وتتغلب فيه القوة على القانون و « الكذب ملح الرجال ». وتتميز وسائل الاعلام والثقافة المزيفة التي تبعثها في النفوس باثارة الغزيرة التوحشية وتسويغ العنف والتحريض الجنسي في الفن. تضمنت مؤلفاته التي

صدرت حتى الثمانينات بعضاً من هذه الاحكام التي تأثرت بشكل ظاهر بالحرب الباردة.

غير ان هذه الاحكام تتلّون في بعض الاماكن بتجاربه الشخصية. فعندما تناول اميركا بالنقد، في كتابه بعنوان « السلام الاميركي » من خلال استعماله عبارات مثل: « بلد الناس المتوحدين والخوف الجماعي »، فانه لا يبتعد كثيراً عن علماء الاجتماع الاميركيين في مطلع الستينات. ويطغى على اعماله طابع الحكم الآحادي، ومن طرف واحد. لم يتسنّ له نشراي جديد بعد دراسته في اميركا او في « منفاه » في كندا، على حد ما يقوله اليوم بعض الاساتذه الجامعيين السوفيات.

في الستينات، كان ياكوفليف العائد حديثاً من الولايات المتحدة، موظفاً لايختلف عن سواه من زملائه. تابع صعوده في ادارة اللجنة المركزية من دون عقبات تذكر. افاد في قسم الدعاية، وخصوصاً في فرع « الاذاعة والتلفيزيون »، من الخبرات التي اكتسبها في اميركا. اثناء عمله في اللجنة المركزية، ناقش اطروحته لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ، وعام ١٩٦٨ أصبح استاذاً في أكاديمية العلوم الاجتماعية التابعة للجنة المركزية، واختصاصياً في مادة الولايات المتحدة الاميركية. ثم ارتقى في اللجنة المركزية إلى منصب مدير مساعد لمكتب الدعاية. وفي عام ١٩٧١، اصبح مديراً اصيلاً لهذا المكتب. كان رئيسه منظّر العقيدة في الحزب، ميخائيل سوسلوف يعارض بجزم كل تراخٍ او انحراف في التوجيه الاساسي وقد اصبح الدماغ المفكر للقيادة العليا من دون ان يطمح شخصياً لمنصب الرجل رقم واحد في الحزب.

ادّى الخلاف العنيف الذي قام بينه وبين سوسلوف الى وضع حدٍ لحياته المهنية في ادارة اللجنة المركزية. كانت صحيفة الشبيبة الشيوعية « مولودايا غفاردايا »، في تلك الاثناء، يطغى عليها التزمت الوطني الروسي، ويتفق هذا المنحى الايديولوجي تماماً مع الخط المحافظ الذي اتبعته قيادة الحزب في ظل

حكم بريجنيف وسوسلوف، كما يتلاءم ايضاً مع مفاهيمهما الشخصية. فكان يعرّف بالروس على انهم قوام الدولة وحجر الزاوية في الاتحاد السوفياتي. منذ ان اعتبر ستالين نفسه خليفة « ايفان الرهيب »(*)، وبعد الحرب، اشتد هذا الشعور الوطني الروسي وأخذ هذا التقليد الوطني يترسخ بقوة في العقيدة السوفياتية : واصبحت الحرب العالمية الثانية تعرف اليوم « بالحرب الوطنية الكبرى »، والتفسير الرسمي لذلك ان شجاعة الروس وبسالتهم هي التي انقذت الاتحاد السوفياتي وحققت النصر. كان النصر، بالنسبة لبريجنيف يسوغ السياسة السوفياتية. وكان الصحافيون والكتّاب المتعاطفون مع النزعة « الروسية »، يرسمون صورة زاهية عن مجتمع مماثل للمجتمع الغربي « الفاسد » وما يدعيه من تأثيرات متعددة المشارب والاعراق، وكانوا يدعون للعودة الى التقاليد الفلاحية القائمة في القرية الروسية، ويمتدحون العزم والبأس في طباع الشعب الروسي ويفاخرون بقوة ارادته. لم يكن هؤلاء الكتاب جميعاً يعملون في الدعاية لحساب الحزب. بعضهم كان يتمنى صادقاً العودة الى تلك القيم الموروثة لاعادة التماسك الى المجتمع السوفياتي والتي أفرغت من معناها، وكان معظمهم يستخدم صيغاً قديمة لتغطية التصدع الذي برز في الصرح الفكري والعقلي للدولة والمجتمع.

في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٢، نشرت صحيفة اتحاد الكتّاب « ليثيرا تورنايا غازيتا » مقالاً لالكسندر ياكوفليف، بعنوان « ضد النزعة المناهضة للتاريخ ». كان مقالاً عنيف اللهجة ومعادياً بشدةً للرومانسية الرجعية التي انتشرت وقتئذ في الادب والفلسفة. كانت كتابات هؤلاء « الكتاب القرويين » تمتدح عالم الاسرة الريفية الذي يرون فيه عامل توازن مع ثقافة المدينة، لابل مثالاً اعلى. كان ياكوفليف يتهم هؤلاء الكتّاب باسباغ الطابع

* ايفان اول لقب لقيصر روسيا، وايفان الرهيب، قيصر روسيا (١٥٣٠ — ١٥٨٤)، نال لقب « موحّد الأراضي الروسية ». (المترجم).

المثالي على جمودية الحياة اليومية في القرية الروسية وبرفع راية العودة الى الجذور الروسية الموروثة في وجه « النزعة العقلانية الفكرية »، وكان يخشى أن تتحول الدعوة القومية الى شعور وطني روسي متزمت، في الوقت الذي يقتضي فيه العمل قبل كل شيء، على انبعاث مجموعة تاريخية جديدة تتمثل بالشعب السوفياتي المتعدد القوميات. في عداد الناطقين باسم هذا التيار، كان يصنّف الكسندر سولجنستين وجميع اعداء التقدم التقني والصناعي، الذين يناضلون في وجه قيام العالم الحديث. وكان يعيد الى اذهانهم واقع روسيا القياصرة بابعاده الثلاثة : البؤس والتخلف والسياسة الاجتماعية الرجعية. وكان يهاجم ايضاً علماء الاجتماع الغربيين وأنصارهم في الاتحاد السوفياتي الذين يرون في العقل القوة المحركة. ربما كان هذا الجانب من نقده يتوافق مع قناعاته، وقد يكون ايضاً ناجماً عن سعيه لنعت خصومه « بالرجعيين »، في محاولة منه لاتّقاء هجمات « المحافظين ».

اثار مقاله ردات فعل عنيفة في اوساط النخبة في موسكو. فأعد الكتّاب والصحافيون المحافظون ردّهم على الفور. وكلّف ميخائيل خولوكوف الحائز على جائزة نوبل لروايته بعنوان « العطية الهادئة » ـــ التي ترسم صورة ملحمية عن النضال في سبيل الثورة في القرى القوزاقية ـــ لرفع شكواهم الى منظّر العقيدة في الحزب، مخائيل سوسلوف. وكان خولوكوف قد تحوّل في آخر ايامه الى كاتب غارق في الرجعية، يكره كل نفوذ غربي ويحتقر مفكري موسكو. وكان في الوقت عينه، مناهضاً للسامية بشدة ويطالب بإلغاء استخدام الاسم المستعار عند الكتاب، هذه الاسماء المستعارة التي تستخدم لتمويه الاسماء اليهودية ليس إلا ! من المؤكد ان مفهوم سوسلوف للتقليد الروسي في التاريخ والسياسة السوفياتية، كان اقرب الى مفهوم خولوكوف وزملائه منه الى حجج ياكوفليف. وبصفته مسؤولاً عن العقيدة، لم يكن ينظر بارتياح الى هذا المفكر صاحب الاستقلالية الفكرية الذي يشغل منصب مدير الدعاية. وكان في قسم الثقافة التابع للجنة المركزية، يشعرانه اقرب إلى المحافظين منه الى سواهم.

بقي ياكوفليف لمدة ثلاث سنوات « مديراً فعلياً » لمكتب الدعاية في اللجنة المركزية، دون ان يعيّن في هذا المنصب بصورة نهائية. خلال المناقلات التي جرت، عام ١٩٧٢، في المكتب السياسي واللجنة المركزية، وجد نفسه مجدداً في مواجهة الفريق الآخر. كان الصراع من اجل ابراز مكانة التقاليد والروح القومية الروسية ما يزال غير معلن في معركة السباق نحو المناصب. وكانت الجمهوريات غير الروسية تحارب الروح القومية وتناهضها. اما « الروح الروسية » فكانت تعتبر بمثابة الرباط الذي يشد اواصر الامبراطورية ويدعم الروح الوطنية السوفياتية. طرح مقال ياكوفليف بعنوان « ضد النزعة المناهضة للتاريخ »، تلك السياسة على طاولة البحث مجدداً... واتهم بانه ينوي احداث الشقاق في صفوف النخبة الروسية...

ترك اذاً عمله، عام ١٩٧٢، في جهاز الحزب والتحق بوزارة الخارجية وعين سفيراً في كندا. كان منصبه في اوتاوا، بالحقيقة، لا بأس به. كان باستطاعة ياكوفليف، الخبير في الشؤون الاميركية مراقبة الأحداث التي تجري في الولايات المتحدة المجاورة وابلاغ ملاحظاته سراً الى موسكو. غير ان السفير في كندا لا ترهقه المهام البروتوكولية والدبلوماسية الموكولة اليه بالقدر نفسه مثل السفير السوفياتي في واشنطن حيث يتولى السفير اناتولي دوبرينين، منذ عام ١٩٦٢ تمثيل بلاده فيها. كان ياكوفليف يرسل، من مركز مراقبته في كندا، تقاريره التي تتضمن معلومات تساعد موسكو على بلورة السياسة السوفياتية ازاء الولايات المتحدة الاميركية.

لاقى الكسندر ياكوفليف صدى حسناً في الاوساط الكندية. كان على وفاق جيد مع رئيس الوزارة بيار ترودو، وهو اديب ومن خارج نادي السياسيين التقليديين في كندا، وناقد لاذع للولايات المتحدة والمجتمع الاميركي. وبالنظر لذكاء ياكوفليف ودماثته، فقد كسب بعض الشعبية اثناء الحفلات التي تقام بالمناسبات. واصبح في اقل من عشر سنوات عميد السلك الدبلوماسي حين اعلن في ربيع عام ١٩٨٣، عن زيارة لكندا، يقوم بها اصغر الاعضاء

سناً في المكتب السياسي. جاء غورباتشيف الى كندا كرجل سياسي يحمل على كاهله عبء سياسة زراعة شهدت انطلاقة سيئة في بدايتها. اما كندا الذي لا يجد الاتحاد السوفياتي حالياً ما يحول دون شراء القمح منها، فقد شكلت موضوع دراسة مهمة له بوصفها نموذجاً للزراعة الناجحة. غير ان ميخائيل غورباتشيف كان يعير اهتمامه ايضاً لامور اخرى. ووجد في الكسندر ياكوفليف محاوراً للتحدث اليه عن المجتمع الاميركي والسياسة الدولية التي تنتهجها الولايات المتحدة، وعن المشاكل التي تعانيها بلاده. « انه الحب الصاعق »، بهذه الكلمات اوجز صديق مشترك لغورباتشيف وياكوفليف اللقاء الذي جرى بينهما في اوتاوا.

احرزت زيارة غورباتشيف لكندا نجاحاً كبيراً. ولم يتأثر مشاهدو التلفزيون بخطابه الذي اعدّه بدقة والقاه امام البرلمان الكندي بقدر ما اعجبوا بشخصيته المحبّبة واحاديثه العفوية وتقرّبه من الكنديين. قارنت مجلة « نيوزويك » الاميركية شخصيته بشخصية المرشح لرئاسة الولايات المتحدة الذي يتنقل في ولاية « نيو همشير » حيث السياسيون والناخبون يعتمدون بصورة تقليدية علاقات عفوية وودية فيما بينهم. منحه هذا النجاح ثقة بالنفس في علاقاته مع الغربيين، في حين ان سواه من القادة السوفيات كان ساوره القلق والارتباك لوجوده في بلد عدو، وراح يتصرف على هذا الاساس، اثناء زيارته للخارج. اما غورباتشيف فادرك ان باستطاعته كسب الاصدقاء في كندا. وادرك ايضاً ان باستطاعته ممارسة سحره وجاذبيته على الآخرين، وهذا الاكتشاف كان له تأثيره الحاسم على مفهومه للسياسة الدولية. غير ان العمل التحضيري الذي قام به ياكوفليف ساهم كثيراً في هذا النجاح. ولن ينسى غورباتشيف ذلك كما لن ينسى الاحاديث التي تبادلها مع السفير.

في ايار، عاد غورباتشيف الى موسكو. وفي ٢٨ تشرين الاول (اوكتوبر) ١٩٨٣، اعلنت وكالة تاس ان السفير في كندا، الكسندر ياكوفليف عيّن مديراً لمعهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية. وكان غورباتشيف قد تدخل

لاعادة ياكوفليف الى موسكو بعد اقامته عشر سنوات في الخارج.

معهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية مؤسسة من اكبر ثلاث « مختبرات للافكار » في السياسة السوفياتية، الى جانب معهد الولايات المتحدة وكندا والذي يشرف على ادارتها الاستاذ غورغي ارباتوف، ومعهد الاقتصاد للنظام العالمي الاشتراكي بادارة الاستاذ اوليغ بوغومولوف. في هذه المعاهد الثلاث التابعة لأكاديمية العلوم، تدرس المشاكل الاساسية للسياسة السوفياتية الخارجية والداخلية. تم تبلغ النتائج الى كبار المسؤولين في الحزب والحكومة للافادة من المعلومات المدرجة فيها. يبحث فيها الوف الخبراء العلميين في موضوع سياسة التسلح ونزع السلاح، واتجاهات السياسة الداخلية في الدول الاخرى، وتغيّر محاور السياسة العالمية، اضافة الى المشاكل الاقتصادية مثل انعكاس ارتفاع اسعار النفط او تصنيع السلع الرخيصة الثمن في اليابان. كما تجري مراقبة بروز قوى سياسية جديدة هنا او هناك في العالم. وينصرف هؤلاء الخبراء الى التفكير حول الوضع الاقتصادي وآفاقه المستقبلية في البلدان الاشتراكية والرأسمالية، وكذلك حول السياسة العالمية بمجملها. غالباً ما كان بريجنيف يستعين بمشورة غورغي ارباتوف، مدير معهد الولايات المتحدة وكندا. غير انه اعتباراً من نهاية السبعنبات، اخذ معهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية، من جانبه، يقوم اكثر فاكثر بدراسات حول الوضع الاقتصادي في الاتحاد السوفياتي نفسه. اظهرت هذه الدراسات ان الموارد الزراعية والصناعية لا تتيح سباق التسلح مع الولايات المتحدة. وقد بدا الحزب والحكومة منزعجين من تلك التحليلات النقدية التي يصدرها معهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية. ومما يشهد على ذلك بقاء منصب المدير فيه شاغراً لاكثر من سنة، في الفترة الممتدّة بين وفاة سلف ياكوفليف وتعيينه بديلاً عنه، فتضاءلت اهمية المعهد وضعفت مكانته من جراء كل ذلك.

هكذا، اذاً تولّى هذا الرجل، الذي استقدمه غورباتشيف من كندا، الاشراف على احدى اهم المؤسسات للاستشارات السياسية، حيث تبحث وتناقش المشاكل

الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بصراحة لم تتعودها موسكو. من البديهي القول إن البحث يتناول أيضاً، في ظل ادارة ياكوفليف، التوجهات الجديدة في السياسة الخارجية للاتحاد السوفياتي. عين ياكوفليف عضواً في لجنة مجلس السوفيات الاعلى للشؤون الخارجية، الامر الذي يشهد على كفاءته في هذا المضمار. وكان من ثمار المناقشات الداخلية ان اقترح ياكوفليف تخليص السياسة السوفياتية من انجذابها المفرط الى التخاصم مع الولايات المتحدة، وتزويدها بنمط جديد من التفكير يقوم على تصوّر عالم متعدد المحاور ينتظم حول بضع مراكز تعمل في آسيا واوروبا، إضافة إلى مفهوم « البيت الأوروبي الجامع ».

استمر الكسندر ياكوفليف مديراً لمعهد الاقتصاد العالمي والعلاقات الدولية مدة سنتين. في تلك الحقبة وضعت الخطوط الكبرى « للبيرسترويكا » التي كان ياكوفليف يستشف ضرورتها الملحة. عام ١٩٨٤، رافق غورباتشيف في زيارته الرسمية الى لندن، تأثرت مارغريت تاتشر بشخصية غورباتشيف، ورأت فيه شخصاً يمكن بالتأكيد الاختلاف معه، كما يمكن التفاهم ايضاً، كما احتفت به السلطات البريطانية « كمأثرة من مآثر الشرق و « نجم جديد احمر » يسطع في سمائه. دهش العالم الغربي لاكتشافه هذا القائد السوفياتي، صاحب الاسلوب الجديد الذي يحدث حوله اثراً مختلفاً عما كان يحدثه اسلافه الهرمون، والذي يقدم نفسه منذ الآن كأنه الضمانة الاكيدة للتغيير المقبل في الاتحاد السوفياتي. استعد غورباتشيف لهذه الزيارة على نحوٍ رائع، ووجد في مملكة بريطانيا العظمى المحافظة المنبر المثالي الذي يتيح له التدخل في الجدل القائم حول « مشروع الدفاع الاستراتيجي » للرئيس ريغان، المعروف بـ « حرب النجوم »، والذي يبدو انه يمهد الطريق لسباق جديد في التسلح، ويرتكز على تقنيات حديثة متطورة ــ وهو سباق لا يستطيع الاقتصاد السوفياتي تحمّله ــ وبرز الكسندر ياكوفليف في هذه المسألة ايضاً، مستشاراً ممتازاً.

عام ١٩٨٥، اصبح ميخائيل غورباتشيف الامين العام للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي. وفي السنة نفسها، استعاد ياكوفليف مكانته في ادارة

اللجنة المركزية، وتولى منصب مدير مكتب قسم الثقافة والدعاية، حيث اصبح باستطاعته مؤازرة غورباتشيف بصورة مباشرة. كان منصباً اساسياً فيه ترصد الافكار وتتقاطع التوجيهات المرسومة للسياسة الجديدة قبل بثها في الحزب ووسائل الاعلام. كان من الضروري في تلك الحقبة من التحولات، ان يقف الى جانب غورباتشيف شخص يتمتع بثقته ويدرك مقاصده ونواياه، كي يعمل على بث افكاره الجديدة في اوساط الحزب ويؤمّن لها بالتالي مرتكزاً عقائدياً متيناً. وسرعان ما رقيّ ياكوفليف الى منصب امين سر اللجنة المركزية لشؤون الدعاية والثقافة والعقيدة، ثم في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٨٧ الى منصب عضو رديف في المكتب السياسي، وبعد ستة اشهر عضواً اصيلاً في ارفع هيئة في الحزب. وبذلك اصبح المنافس الاول لايغور ليغاتشيف، الذي كان مايزال وقتئذ الرجل الثاني في الحزب، وينوي من خلال اشرافه على شؤون العقيدة، تحديد معالم مستقبله السياسي.

نادراً ما كان الصراع على السلطة يقفز الى الواجهة. غير انه كان على ياكوفليف ان يناضل باستمرار لتمرير الافكار التي يشاطره غورباتشيف الرأي فيها. كان عليه التحرك بتؤدة وبراعة من دون ان يدع في عمله الاداري والتنظيمي اية ثغرة، او يفسح في المجال لبروز اي ضعف من ناحية النشاط العقائدي.

أبرزت الخطب التي القاها ياكوفليف امام رجال العلم وندّد فيها بمذهب الدغماتية (التسلّيم العقلاني دون تمحيص) وعلم الكلام، على ما يتحلّى به من ميزات اخرى ايضاً. كان يرثي للافق الفكري الذي ضاق عند الفلاسفة وعلماء الاجتماع لدرجة انهم لم يعودوا يساهمون في المهمة الصعبة الكامنة في استنباط الحلول للمشاكل الانسانية، مشدداً على اهمية المشاكل المطروحة في العالم المعاصر، وخصوصاً تلك التي تتصل بـ « العالم الداخلي » لكونها الاصعب حلاً. يقول ياكوفليف : « عندما ينصرف المرء الى التفكير في المسائل الاساسية حول معنى الحياة او الاساس الاخلاقي الذي يرتكز عليه عمله

وسلوكه، فانه لن يلتفت صوب الفلاسفة المحترفين او ناحية الاختصاصين في علم الاخلاق ». كانت الماركسية ـــ اللينينية تتراءى له نظاماً عقائدياً آحادي الجانب ومغلقاً. واذا كانت بعض خطبه تزرع الشك في مدى ملاءمة مقترحاته لحاجات الناس الفعلية في عالم متغير، فان ياكوفليف لم يتطلع يوماً لتحقيق مطمع شخصي كما لم يكن ذلك الموسر الذي عاش حياة الثراء والبذخ. عاش في موسكو في شقة سكنية من أربع غرف خصصت له عام ١٩٦٧، ولم يتملك سيارة البتة. ويمكن الاعتقاد انه لم يتورط يوماً في مساومات للوصول الى مراكز القيادة.

يتحدث عن بلاده بصفته رجلاً سياسياً حراً لا من كونه عضواً في المكتب السياسي. « عندما انتقلنا، بحسب تعبير ماركس، من النظرية الى الواقع العملي، تبين اننا لا نستطيع امتلاك الحقيقة. ومازلنا نعيش في عالم الاوهام. » تلك هي احاديث لا يتوقع سماعها على لسان مسؤول سابق لقسم الدعاية. اضف الى ذلك، ان المسار الذي اتبعه في حياته المهنية ـــ من اختصاصي في العلوم الاجتماعية الى العمل الدبلوماسي حتى وصوله الى قمة القيادة في الحزب ـــ كان شاذاً وغير مألوف. وحين اقصى غورباتشيف خصومه المحافظين عن وظائفهم، خلال المؤتمر الثالث والعشرين للحزب، عام ١٩٩٠، اعتبر ياكوفليف ان الوقت قد حان للتخلي عن مسؤوليته في قسم العقيدة في المكتب السياسي.

سعى بعض ممثلي اليسار الدمقراطي ان يجعلوا منه ناطقاً باسمهم، وحتى قصدوا ترشيحه الى منصب الامين العام ضد غورباتشيف. تحدث اليهم خلال المؤتمر، في قاعة « سفيردلوف »، في الكرملين. فاشاع مؤيدوه وخصومه على السواء، في الأيام التالية، روايات مختلفة عما ارتجله من تصريحات ـــ فيما سعى المحافظون الى تصويره كعدو للماركسية ـــ من المؤكد ان ياكوفليف قال في حينه ان هذا المؤتمر سيكون آخر ما يحضره من مؤتمرات للحزب الشيوعي، وانه يرغب في التفرغ لوظيفته في المجلس الرئاسي وانه يشاطر الرأي

القائل بان على العضو في هذا المجلس الا ينتمي الى المكتب السياسي. لكن ينبغي الشذوذ عن هذه القاعدة فيما خص غورباتشيف، الذي يرى ان يستمر اميناً عاماً لبعض الوقت على الأقل.

تحدث أمام وفود المؤتمر المنهمكين في صراعاتهم الحزبية الضيقة، بثقة بالنفس وصفاء فكري وكرجل تخلّى عن العمل السياسي في الحزب. لكنه حذّر اليسار الدمقراطي من محاولة الخروج عن الحزب، الامر الذي يؤدي الى تعزيز قوة الجناح المحافظ الذي يقول عنه ياكوفليف ان زواله محتم، ولا يجوز التقليل من اهميته في المرحلة الحالية. وتساءل امام الوفود : « اذا تركتم الحزب ماذا يحصل ؟ لن تستطيعوا انشاء حزب قادر على منافسة الحزب الحالي. فلهذا الحزب تاريخ عمره مئة سنة، ويحمل في حناياه مشاعر الولاء والحنين، التي هي في الحقيقة، مشاعر نبيلة. فالانشقاق لا يحل المشكلة. على حزبنا ان يتجدد بالحوار وان يتحول الى حزب آخر، على المستوى النفسي والاخلاقي والسياسي. عندما تندفعون برأسكم ضد الحائط، تشعرون بالالم. ولكن لا خيار لنا ايها الرفاق علينا الاستمرار في النضال... »

برأيه، هناك حدود للخلافات الحزبية الضيّقة، لا يجوز تخطّيها. وهو يدرك انه كان ينبغي اقصاء قدامى الموظفين سواء كانوا محافظين او لانحرافهم وفسادهم. غير انه حذّر اعضاء الوفود من فئة الشباب المتبّرمة من اولئك الموظفين، من تصفية الحسابات الشخصية. وهو نفسه بدّل مراراً وتغيّر منذ ان تولّى مهمة اعادة الاعتبار الى القادة الشيوعيين الذين اسقطهم ستالين : « لا اعلم اذا كان باستطاعتكم وعي الازمة النفسية التي عانيتها عندما صرت رئيساً للجنة اعادة الاعتبار. فيما يتعلق بي شخصياً، لم يكن الامر سهلاً؛ كنت اشعر بحنو عميق نحو اولئك الذين سبقونا وتولّوا مناصب قيادية. لقد سقطوا جميعهم ضحايا. ومن السهل علينا اليوم اتهامهم وادانتهم. ربما حان الوقت ايها الرفاق الدمقراطيون، كي ننتهي من هذه الامور ونسير الى الامام. »

يصف ياكوفليف الوضع السياسي السوفياتي على الوجه التالي : لم يتم بناء

الاشتراكية بعد. ما زلنا نواجه سيطرة الاقطاع على بعض القطاعات التنظيمية بكاملها. علينا الانكباب على المشاكل العملية وعدم وصف الناس بنعوت متزمتة. عندما استمع الى مناقشاتنا، اتساءل وانا العريق في المسائل الايديولوجية والعقائدية، كيف استطعنا، بالله عليكم، جعل الناس متخلّفة الى هذا الحد ؟ ماهي الايديولوجية ؟ اني على قناعة تامة بانها حصيلة التجربة الاجتماعية التي يعيشها كل فرد منا وتتيح له حرية الخيار والتقرير. فيما خص النظرية، هناك جوانب كثيرة منها لم نفهمها بعد. خذوا المعارك التي تحتدم اليوم وسترون اننا لم نقم سوى بالخطوات الاولى في هذا المضمار. ما زلت احتفظ في مكتبتي بمخطوطة من مائتين وخمسين صفحة، تتضمن تحليلاً للماركسية وفقاً لما افهمها. اعتقد ان هذا التحليل النقدي هو دفاع عن الماركسية. يقال اليوم ان ماركس وضع نظرية حول الانسان؛ لم يضع ماركس مثل هذه النظرية، واظن انه لم يحاول حتى. لقد صاغ نظرية صراع الطبقات، وهي نظرية على حانب كبير من الاهمية. لكن يبدو من المناسب تمحيصها مجدداً.

عندما سأله احد النواب عن لينين، اجاب ياكوفليف بانه افاد منه الكثير : « لم اجد كتبه جميعها واضحة. باعتقادي، ان ميزته الفريدة كرجل سياسي تكمن في قدرته على تغيير وجهة نظره تبعاً للظروف ».

حذّر الاصلاحيين اليساريين، في قاعة « سفيردلوف »، من مغبة فراغ الصبر والتبرّم قائلاً : « ينبغي في السياسة القيام بكل عمل في حينه. لا يمكن تجاهل الرأي العام، والمشاعر الجماعية. اعتبرت نفسي على الدوام رومانسياً حالماً، غير انني ادرك الآن اننا نعيش في بلد محافظ، حتى ولو كنت غير متأكد من مقدار نزعته المحافظة. لقد اسقطته الستالينية الى الحضيض ... »

كان غورباتشيف يأمل في ان ينضم ياكوفليف الى عضوية المكتب السياسي الجديد، لكنه رفض. وكذلك فعل شيفارنادزه. من المؤكد أنهما فهما الأسباب التي دفعت غورباتشيف لتلافي انقسام الحزب والاحتفاظ بسلطته الرئيسية

على الجهاز الاداري فيه من خلال بقائه في منصب الامين العام، غير انهما كانا يعلمان ايضاً ان المكتب السياسي فقد من اهميته، وانه لن يكون في المستقبل ذلك الصرح الذي يتقرر فيه مصير الاتحاد السوفياتي. شكلّ هذا الرفض خيبة امل لغورباتشيف. ورايسا غورباتشيف تشير الى ذلك بمرارة لكون ياكوفليف تخلّى عن مركزه. لكنه كان فكرّ ملياً في القرار الذي اتخذه. وياكوفليف هو اول مسؤول في الاتحاد السوفياتي تخلّى طوعاً وبمبادرة من تلقاء نفسه عن منصبه في قيادة الحزب.

لا احد بين المقربين الى الامين العام يمكنه الاحاطة بالظروف التي ادّت الى نشوء حركتي الغلاسنوست والبريسترويكا، افضل من الفيلسوف ايفان فرولوف. كان غورباتشيف قد جعل منه رئيس تحرير صحيفة « كومونيست » الناطقة باسم الحزب، ثم، في خريف ١٩٨٩، رئيس تحرير البرافدا، الصحيفة المركزية الناطقة باسم الحزب. فرولوف هو احد المساعدين الاربعة الذين اختارهم غورباتشيف في الامانة العامة للحزب. ثلاثة منهم يجمع بينهم الانتماء الى جماعة « براغ »، لكونهم عاشوا في العاصمة التشيكوسلوفاكية عند احتدام المناقشات حول اصلاح النظام الشيوعي.

في تلك الاثناء، كان فريق من علماء الاجتماع والمؤرخين والفلاسفة السوفيات، يعملون معاً في براغ، في صحيفة « مشاكل السلام والنظام الاشتراكي ». وكانت هذه الصحيفة تنطق باسم « كومينفورم » — وهي هيئة انشأت للحلول محل « الشيوعية الاممية » المنحلّة وقد شكّلت آخر مؤسسة مشتركة للاحزاب الشيوعية في العالم. تصدّى هؤلاء المفكرون السوفيات لمشاكل النظام الاشتراكي من خلال مناقشاتهم مع الشيوعيين الاصلاحيين. وقد ناضل العديد منهم، بصفتهم مدراء معاهد علمية او نواباً في مجلس السوفيات الاعلى، في سبيل تحقيق الاصلاحات المنشودة في الاتحاد السوفياتي. يقول ايفان فرولوف، اليوم : براغ كانت لنا بمثابة الجامعة. هناك تعلّمنا. فيها كانت الاتصالات الدولية متاحة، فيما هي في غاية الصعوبة بالنسبة لنا في موسكو. وهناك

تشكل فريق من المفكرين انصرفوا الى تمحيص المشاكل الجديدة.

ليس من باب الصدفة ان يتبوأ هؤلاء مناصب رفيعة في عهد غورباتشيف، وان يختار هذا الاخير من بينهم ثلاثة مساعدين هم من اكثر المقربين اليه اليوم. وهذا ما يدل كم كان للمحاولات الاصلاحية في تشيكوسلوفاكيا، بقطع النظر عن تدخل الجيش السوفياتي، من تأثير في السياسة السوفياتية وفي تحوير مجراها.

بدأ التطور الفكري لدى هؤلاء العلماء الشباب في براغ، وانطلاقاً من ذلك، يمكننا اليوم استعادة تلك المحطات الفكرية الكبرى في الحركة الاصلاحية.

لعل المحادثات التي اجراها غورباتشيف عام ١٩٦٧ مع صديقه التشيكي زدينيك ملينار، لفتت انتباهه الى « جماعة براغ » في موسكو.

غير ان رواية ايفان فرولوف هي اكثر ايضاحاً في هذا الموضوع. كان فرولوف، في الخمسينات، قد بدأ دراسة الفلسفة وعلم الاحياء في جامعة موسكو. كان عالماً لامعاً، وشارك، في فترة الانفراج، في المناقشات العلمية والسياسية الدائرة حول الابحاث في ميدان علم الوراثة؛ توجهت اطروحته، في منحاها الاساسي، الى دحض نظريات عالم الاحياء الزراعية « ليسنكو » الذي اعتبره ستالين، ثم خروتشيف، حجّة ومرجعاً في هذا الميدان ولمّا كان بحثه يأخذ بعين الاعتبار معطيات من علم الوراثة الغربي الحديث، فلم يسمح له بتقديم الدكتوراه. بقيت ابحاثه مجمدة، طيلة سنة كاملة في المجلس العلمي الكبير المخول اعطاء الترخيص بمناقشة الاطروحة. يروي فرولوف ان عالماً متقدماً في السن، وسليم النية نصحه بعدم المجازفة الى هذا الحد، وبالعمل على كتابة مؤلف يعدّه بدلاً من تقديم اطروحته. وقال له : « لماذا تجر على نفسك متاعب لا جدوى منها ؟ قم بكل بساطة وارمِ الصفحات التي تثير اللغط في سلة المهملات »

لم يكن فرولوف مهيأ لذلك، غير انه مع الوقت، ارتأى ان من الافضل

اتباع نصائحه. يقول اليوم : لم ارفض يوماً القيام بتسويات معقولة، طالما انها لا تمسّ المبادئ الاساسية. فابقيت بالتالي على جزء من النقد الموجه الى ليسنكو وشطبت الباقي. كنا نحسن، في تلك الاثناء، سبل التضليل والخداع، عندما كان لدينا ما نقوله. لم يكن من السهل الاستغناء عن فرولوف بالنظر لما يتمتع به من موهبة علمية فائقة، اذ كان قادراً على كتابة بحث حول « النماذج الرياضية للانظمة الاحيائية المعقدة ». دون المس بالمحرمات السياسية. بعض العلماء المتقدمين في السن ممن يتقنون اكتشاف المواهب، شجعه ودافع عنه. عام ١٩٦٨، اتيحت له الفرصة لاجراء علاج صحي في كارلسباد، فنوى الافادة منها لنفض الغبار عن اطروحته حول ليسنكو، غير ان زوجته نصحته بعدم تعكير صفو حياته ببحث لن يتمكن من نشره في كل حال.

عام ١٩٦٥، تولى منصب مدير اللجنة العلمية في مجلة « مشاكل السلام والنظام الاشتراكي ». وكانت السنوات الثلاث التي تلت غنية بالتجارب بحيث حملته ورفاقه، بعد عشرين سنة الى خوض العمل السياسي في موسكو.

عام ١٩٦٨، غادر فرولوف براغ ليعود الى موسكو حيث اصبح رئيس تحرير مجلة « مسائل فلسفية ». وسرعان ما وجدت هيئة التحرير نفسها في وضع سيء عندما حاولت تحديد مقاربة جديدة لمشاكل البيئة. جمع فرولوف حول المجلة كوكبة من العلماء والفلاسفة والكتّاب البارزين الذين راحوا يبحثون المشاكل البيئية في علاقتها مع السياسة والعقيدة. كان من الصعب والخطر معاً تناول مشاكل البيئة في اطارها الشامل، في الاتحاد السوفياتي حيث لم يسبق التطرق اليها بشكل علمي، اذ كانت « الادارة الاشتراكية » للطاقة النووية، تمثّل تقدّماً لا يجوز التشكيك به، ولم تكن الاسلحة النووية تشكّل تهديداً للانسانية الا في ايدي الدول الاستعمارية. لم تكن البيئة معرضة للتهديد سوى في إطار النظام الرأسمالي. أما العقيدة الماركسية ـــ اللينينية فكانت تكفي نهائياً لتحديد مكانة الانسان في المجتمع. وكل محاولة جديدة لوضع

مقاربة جديدة حول هذه المسائل تعرض صاحبها للشبهات لكونه يسعى لدكّ اسس النظام السوفياتي.

يقول فرولوف : « كنا ننوي الشروع فقط في فتح باب المناقشة حول المشاكل المتصلة بالبيئة والناس والانسانية. ويكفي تصفح فهارس المجلة للتأكد من مدى تشابه المواضيع فيها مع الاشكالية المطروحة اليوم. كان العديد من كتابنا الطليعيين قد مهدّوا السبيل لحركة البيريسترويكا، وما يزال بعضهم يساندها بقوة ».

ما إن فتح باب المناقشات في مجلة « مسائل فلسفية » حتى اقفل. غير ان انتقادات الموظفين بقيت من دون عواقب شخصية على فرولوف. فقد كان للجمود الذي تميّز به العهد البريجنيفي حسناته ايضاً، يعلق فرولوف ساخراً. « كان عهد بريجنيف يشبه جسماً لزجاً، او عصيراً مختراً من الفاكهة الحمراء : تارة يتخذ القرارات، وطوراً لا يتخذها ».

تمكن فرولوف من نشر بعض المقالات العلمية، في تلك الحقبة، غير ان الكتب التي وضعها لم تنشر بالروسية. مع انه لم يكن منشقّاً ولم ينشر شيئاً بصورة غير مشروعة في الغرب. التقى في موسكو، في دار منشورات « التقدم » التي تترجم كتباً سوفياتية برسم التصدير، بعض المسؤولين الذين سعوا لنشر كتبه خصوصاً كتاب « تاريخ الفلسفة الروسية » الذي طبع بلغات اجنبية عدة. ويعتقد فرولوف اليوم « ان هذه الكتب لم تكن تصل الى مكاتب الايديولوجيين المقربين من بريجنيف وسوسلوف، لانها غير متوفرة باللغة الروسية.

بمن تأثر فرولوف من الكتّاب قبل ان يصبح مستشاراً مقرباً من غورباتشيف وما هي العوامل المؤثرة التي طبعت فكره في تلك المرحلة ؟ يجيب فرولوف : كان « اريك فروم »، بنظري، احد الفلاسفة المرموقين الذين اعجبت بهم. كانت لدي باستمرار اشياء مشتركة معه، اكثر مما لدي مع « غلاة الماركسيين » امثال عضو الاكاديمية « ميتين » الذي تجادلت معه كثيراً. وكنت اردد

باستمرار : « ما معنى ان اكون في الحزب مع هذا الرجل الذي لا يحلف الا باسم ماركس ولينين ؟ » لذا كان « اريك فروم » و «جورجين هابيرماس » الاقرب اليّ. وبصفتي ماركسياً قحاً، اجد لديهما اكثر مما اجد لدى المفكر العقائدي. ويمثل ماركس وآثاره الفكرية احدى قمم الثقافة الانسانية، فسقط، في عهد ستالين الى مرتبة التفاهات المنحطة او هكذا صار في الكتب والمناهج المدرسية. وهذا ما يفسّر ايضاً عدم ارتياح الشبيبة الى الماركسية. وكنت بدوري ايضاً اكره هذه الماركسية عندما كنت شاباً، ولذا بدأت الاهتمام بالماركسية الاصيلة، الامر الذي ساعدني فيما بعد على التصدي للمنظّرين العقائديين. كنت مقتنعاً بانني كنت الماركسي الاهم »

عرف فرولوف، في الغرب وفي سائر الدول الاشتراكية الاخرى — من خلال كتبه — ككاتب سوفياتي ممتع. غير انه كان يتعذر على الكتّاب والمفكرين من نسيج فرولوف نشر آثارهم والتعريف بافكارهم، في ذلك المناخ الآسن الذي ساد في اواخر عهد بريجنيف. مع ذلك لم يكونوا يعيشون في عزلة. كان الكثيرون على تعارف فيما بينهم ويتبادلون الأفكار ضمن حلقات صميمة من الاصدقاء. وهكذا بدأ فرولوف يهتم بالعلوم الاقتصادية بعد ان كان فيلسوفاً كرّس ذاته لعلوم الطبيعة. كان الوضع الاقتصادي مأساوياً لدرجة لا يمكن معها منع الاقتصاديين من التفكير به بصوت عالٍ. كان الاقتصادي ليونيد ابالكين الذي يشغل اليوم منصب مساعد رئيس الحكومة، صديقاً لفرولوف وسبق له ان عمل في اعداد خطة اصلاحية جذرية للنظام الاقتصادي السوفياتي. عندما وصل غورباتشيف الى موسكو، اختار مستشاريه ومساعديه من بين هؤلاء الاختصاصيين في علم الاقتصاد والاجتماع والفلسفة الذين يتخالطون فيما بينهم ويتمتعون بتفكير حر خالص. وكانوا بصفتهم خبراء اقتصاديين، يشغلون مناصب حساسة، ويستطيعون الحصول على معلومات لا تتوفر لسائر المواطنين السوفيات، وتعلموا كيفية فهم مدى امكانات النظام وطريقة تكوين رأي خاص بهم. غير انهم تعلموا ايضاً احترام قواعد اللعبة

وعدم افشاء نتائج ابحاثهم. كانوا من المنشقين في فكرهم، لكنهم لا يكشفون عن ذلك. وقد شاء الوجه الجديد القادم الى السلطة ان يفيد من معارفهم وخبرتهم.

حين اصبح ميخائيل غورباتشيف، عام ١٩٨٥، اميناً عاماً، اختار فرولوف مساعداً له. فاخذ فرولوف يدرس المشاكل المتعلقة بحماية البيئة وباستخدام الطاقة النووية. غير ان عمله لم يقتصر بالطبع على درس المسائل التقنية والعملية البحتة. كان المهم، برأيه، يكمن في فهم العلاقات القائمة بين الانسان والطبيعة، ومكانة الانسان في النظام الاجتماعي والفلسفة. كانت هذه المسائل تمسّ العقيدة وبالتالي الاساس الذي يقوم عليه الحزب والدولة. ومن المؤكد ان غورباتشيف لم يكن قد اختاره معاوناً له لو لم يكن مطلعاً على مقاربته الفلسفية لمشاكل العالم.

من الصعب تحديد مدى التأثير الذي مارسه فرولوف على تفكير غورباتشيف. سيما وانه يتكتّم حول مدى تأثيره في نشأة الفكر الجديد لدى غورباتشيف. في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٩٠، ردّ على سؤال مراسل صحيفة « موسكوفسكي كومسو مولتيس » بهذا الخصوص : يدل تاريخ الفلسفة ان هناك عدداً من الناس كان لهم تصورهم حول مشكلة اولوية القيم الانسانية المشتركة على ما عداها. والمجموعة البشرية تشق طريقها نحو العصر الانساني، والفلسفة تبشّر بذلك بشكل واضح تماماً. ما دامت الفلسفة قائمة، سوف يبقى الانسان محور اهتماماتها. وكل جديد كان موضوع دراسة فكرية سابقة. وسبق لاينشتاين ان دعا عام ١٩٤٦ الى « التفكير بشكل مختلف ». ويعيدنا مفهوم « الفكر الجديد » الى جوليو — كوري وراسل واينشتاين. جاء في بيان راسل واينشتاين انه يتوجب علينا جميعاً ان ندرك اننا ننتمي الى الجنس البشري وان ننسى الباقي. ولن نبقى على قيد الحياة اذا لم نعمل في هذا الاتجاه. علينا ان نتذكر اولاً اننا بشر، وكوننا كائنات بشرية علينا ان نتعلم التفكير بشكل جديد. انها لفكرة مبتكرة.

« لا شك ان الاتجاه الذي سلكه مخائيل سيرغيفيتش في غاية الفائدة والمتعة. وهو يروي انه منذ خمس عشرة سنة، كان يطالع منشورات تتناول مشاكل البيئة والبشرية برمتها. فنسب الى لينين اولاً الفكرة القائلة ان مشاكل المجتمع لها الاولوية على مصلحة طبقة العمال، لكنه رفض ذلك. ثم امعن تفكيره متسائلاً فيما اذا كانت هذه الفكرة لا تستجيب لحاجات عصرنا الحديث. ومن ثم راح يفتش بعيدا. في الواقع، لا نجد لدى لينين فكرة اولوية القيم الانسانية المشتركة. ذلك ان غورباتشيف هو الذي اطلق هذا المفهوم. لكنه كرجل نزيه وحي الضمير، وجامعي منصف، نسبه دائماً الى لينين. وهو الذي توصّل الى بلورة هذا المفهوم الذي صار اليوم محور الفكر السياسي الجديد. لم يكن لي اية علاقة في هذا الامر. واقتصر دوري على المشاركة في توضيح المسألة وتوجيهها نحو مثل هذه المشاكل. هذا كل شيء. وهنا يكمن دور الفلاسفة وعملهم. اما العمل الذي يقوم به رجل سياسي من تلك الطينة، قادر على ابداع فكر فلسفي، فهذا شأن مختلف تماماً. »

الفكر الجديد

لا تتضمن الخطب التي القاها غورباتشيف في سنة حكمه الاولى كل الافكار الجديدة التي نفح بها السياسة. لكن المواطنين السوفيات قد استشفوا من دون شك قسماً منها، حين كانوا ينظرون اليه باعجاب عبر الشاشة الصغيرة. لم يتحدث اليهم احد، منذ ربع قرن، بهذه الطريقة المباشرة. كان غورباتشيف يعي تأثير خطبه تماماً، واستغل هذا الجانب بصورة فعالة. انه الرئة التي يتنفس منها التغيير. وقد ادرك الجميع هذا الامر سريعاً، وعلى ابعد تقدير في ايار (مايو) عام ١٩٨٥ اثناء خطابه في معهد « سمولني » في لينينغراد. هناك، حيث تحدث لينين، ظهر غورباتشيف ذلك الخطيب الكبير الذي يعرف كيف يشرك الجمهور في مشاعره ويصارحهم همومه.

بدا غورباتشيف مفعماً بالنشاط والحركة، صارماً ومتشدداً، يرتجل الكلام ارتجالاً ثم اخذ يتلاعب بالوقائع والارقام التي كانت بحوزته، وراح يدعو الى جعل الاتحاد السوفياتي بلداً حديثاً. تحدث عن الجهود الكبيرة التي ينبغي بذلها في سبيل البلاد، وعن حشد كل القوى الخلاقة، وضرورة العمل بشكل جديد ـــ ليس فقط في الحقل الاقتصادي بل في كافة حقول المجتمع.

دفع « قطار الاتحاد السوفياتي » على الخط السريع. كان رجل الشارع ينتظر ذلك منذ عشر سنوات من حكم الشيوخ والمسنين.

بدا غورباتشيف متفهماً للمشاكل الكبرى التي يعاني منها الناس وراح في الوقت عينه يختلط بهم ويصغي بانتباه الى شكواهم. قال يوماً الى عمال احد مصانع السيارات في موسكو وكرر ذلك في مصنع لاستخراج المعادن في « دنيرو بيتروفسك » : « إما ان نتحدث بصراحة، وإما لا معنى لحديثنا على الاطلاق. » اعتاد العمال القول الى كبار الموظفين اثناء زياراتهم البروتوكولية لهم، ان كل شيء يسير على ما يرام. وها هو رئيس الحزب يرّد عليهم بوجوب قول الحقيقة كاملة. لم يكتفِ في احدى مستشفيات موسكو، بالسؤال عن راتب الممرضات، بل راح ايضاً يتساءل اذا كان ذلك يكفي لاعالتهن. ولم يبدِ دهشته او امتعاضه عندما قلن له ان ذلك غير كافٍ. دهش المواطنون السوفيات في بيوتهم لهـذا المشهـد. قبـل غورباتشيف لم يهتم اي مسؤول سياسي في أمور معيشتهم اليومية. قبله، لم يعرف احد من المسؤلين كيف يستخدم التلفزيون...

كان قد اعدّ نفسه جيداً على هذا الصعيد ايضاً. عام ١٩٨٢، لقنّه احد اصدقائه اهمية حسن « الظهور » على التلفزيون. كان غورباتشيف يتحدّر من الريف ويحمل حديثه لهجة جنوبي روسيا. ما تأثير كل ذلك على الناس ؟ لم يكن حتى تلك الحقبة يمتلك آلة لتسجيل صورة التلفزيون، كي يشاهد نفسه ويراقبها. في الداتشا التي خصصت له بصفته عضواً في المكتب السياسي، كان يمتلك آلة عرض سينمائية قديمة من قياس ٣٥ ملم، استخدمها اسلافه مع اصدقائهم وذويهم، لمشاهدة الافلام الاميركية التي لا تعرض في دور السينما السوفياتية. فتوّلى صديقه ديمتري غولوفانوف الذي يعمل في التلفزيون، نقل خطب غورباتشيف، على افلام من قياس ٣٥ ملم. وهكذا تمكن غورباتشيف ورايسا من مشاهدة هذه التسجيلات

واعادة مشاهدتها تكراراً، ومن مناقشة الاخطاء الواجب تلافيها والتحسينات المطلوب ادخالها اليها. الامر الذي ساعد الامين العام على ايصال رسالته الى المواطنين السوفيات وعلى اقناعهم بضرورة السياسة الجديدة التي ينتهجها وجدواها.

ضاعف النجاح الذي حققه من جراء ظهوره العلني امام الجمهور، من نفوذه لدى اعضاء المكتب السياسي الذي كان يعتبر بعضهم نفسه مساوياً في المرتبة له داخل القيادة الجماعية للمكتب السياسي. عمل غورباتشيف معهم على اعداد المؤتمر الثاني والعشرين للحزب، حيث كان عليه اقتراح خطة عمل تلتزم بالتوجهات الجديدة. كان الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي يطبّق في ذلك الحين برنامج عام ١٩٦١ ! ويتضمن نص هذا البرنامج اموراً متخلفة وحتى انها تثير الضحك احياناً. ألم يبشر ذلك البرنامج بأنّ الاتحاد السوفياتي سوف يتخطى في عام ١٩٧٠، الولايات المتحدة في معدلات الانتاج الصناعي والسلع الاستهلاكية ؟ ألم يبشر خروتشيف المواطنين في تلك الفترة بان الاتحاد السوفياتي سيصبح بلداً غنياً عام ١٩٨٠، لدرجة ان الجيل الجديد سوف يشهد حلول النظام الشيوعي محل النظام الاشتراكي الحالي ؟ كان الحزب بحاجة الى خطة عمل جديدة تتيح، من خلال انهيار الآمال التي لم تتحقق، استشفاف آفاق القرن الحادي والعشرين. وقد عبّر المواطنون السوفيات عن ارتياحهم لكون خطوط الخطة الجديدة تقدم وصفاً واقعياً للمصاعب المرتقبة وتقلع عن الكلام الرنان والوعود البراقة.

اذا كان الاهتمام بالخطط الوهمية التي اعدّها خروتشيف قد توقف، فانه تعذر تلاقي انصاف الحلول والتسويات مع المحافظين. كان هؤلاء ما يزالون يرون العالم منقسماً الى معسكرين متخاصمين، وكان الاتحاد السوفياتي، بنظرهم البلد الاكثر تقدمية وايماناً بالاصلاح السياسي والاجتماعي، في العالم. حتى ان عنوان الجزء الاول من الخطة كان يعكس اوهامهم : « الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية والشيوعية ــــ ميزة العصر الرئيسية ».

وحمل الجزء الثاني العنوان التالي : « دور الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي في تحقيق الاشتراكية والانتقال التدريجي الى الشيوعية. » ياله من تراجع وتقهقر بالنسبة الى توجهات غورباتشيف التي لم تعد تستهدف استكمال الاشتراكية بل تنوي اجراء تحولات جذرية وحتى ثورية فيها : انطلق البرنامج الذي توافقت عليه القيادة الجماعية من تصور قديم مفاده ان نواميس التطور « الموضوعية » لا بدّ لها من قيادة المجتمع السوفياتي، بصورة تلقائية اذا صح التعبير، من الاشتراكية الى الشيوعية، ويكفي بالتالي لتحقيق ذلك تسريع عجلة التطور الاجتماعي ــ الاقتصادي.

غير ان غورباتشيف فرض رأيه في الفصل المخصص لبحث خطة الحزب الاقتصادية والتي كانت تظهر بان التقدم العلمي والتكنولوجي واعادة التنظيم البنوي للانتاج الجماعي يتيح وحده زيادة مطردة في الانتاج. فشدّد في خطابه على ان المجتمع السوفياتي يقع عليه واجب السير في اتجاه « الادارة الذاتية للمؤسسات الاشتراكية » وركزّ على تلك الاقسام في خطة عمل الحزب التي تفسح في المجال للتخلي عن الاقتصاد التمركزي واقرار مزيد من الاستقلالية في الانتاج.

اوضح الرجل الثاني في الحزب، ايغور ليغاتشيف، من جهته، ان للتغيير حدوداً. وخلافاً للطريقة التي تصوّر بها غورباتشيف الادارة الذاتية والدمقراطية السوفياتية، اقام خطاً دفاعياً ايديولوجياً يتوافق مع رؤيته للمجتمع السوفياتي. عندئذ اضطر غورباتشيف لتبرير موقفه : « ان الامر يتعلق بالادارة الذاتية الاشتراكية للشعب. ولا علاقة لها بالمتغيرات الفوضوية ــ النقابية، التي تقابل جهاز الدولة الاشتراكية وترتكز على ملكية مجموعات ولا تمثل سوى مصالح تلك المجموعات المذكورة ــ ان الادارة الذاتية الاشتراكية تقوم في الاساس على الملكية الجماعية، وفيها تتوحد مصالح الدولة والجماعة والفرد. » اقفلت هذه القيود التي اضطر غورباتشيف لإدخالها بنفسه على البرنامج، باب المناقشة الواسع للمفاهيم الجديدة (التي تدور حول فكرة

العرض والطلب) التي اقترحها خبراؤه الاقتصاديون. لم يكن يرغب هو أيضاً بالطبع في احلال نظام نقابي ــ فوضوي (تتولى فيه النقابات شؤون تنظيم المجتمع والانتاج). مهما كان الامر، اذا كان يأمل تنشيط القوى العاملة في البلاد وتحريرها، فينبغي عليه مهما كان الثمن، تجنب المواجهة الايديولوجية مع المحافظين. اعطت المناقشات الانطباع بان كل فريق كان يقاتل ظله. لم يتمالك غورباتشيف نفسه من ذكر لينين (مرات عدة اكثر من خصومه)، لدعم طروحاته، اذ كان المهم بالنسبة له ألا تؤدي خطة العمل الى سد الطريق امام التغيير.

هذا يعني وجوب مراعاة فئة المسؤولين السابقين اذ لا ينبغي على النهج الجديد الذي يوشك على الظهور، ان يعطي الانطباع بانقطاع العلاقة مع الماضي. وجرت الاشارة الى اعضاء الماضي من عهد بريجنيف الى تشيرنينكو، دون الوصول الى حد الادانة المباشرة. وعرضت كأنها خطايا غير مميتة لحقبة لم تكن قد تحررت تماماً من « عبادة الشخص ». وحده بوريس يلتسين بدا مستعداً للذهاب الى آخر المطاف. وكان غورباتشيف قد استقدم يلتسين من « سفيرلوفسك » لتوليته مسؤولة قيادة الحزب في موسكو. كان بعضهم يرى فيه الشخص الاقرب الى غورباتشيف، اوما يشبه رأس رمحه، او افضل من ذلك، « العتلة » التي يستعملها اللصوص لكسر الابواب. كان يلتسين الذي شغل، هو ايضاً منصب امين سر الحزب في مقاطعة مهمة، يوجه الاتهام الى امناء سر الحزب الاقلميين الآخرين بترتيب امورهم للتخلص من كل نقد. كان يتهمهم بالانتهازية والتمسك بامتيازاتهم. وعلى كبار المسؤولين عدم اعتبار انفسهم، بعد اليوم غير معرضّين للعقوبة او غير معصومين من الخطأ، وعدم ممارسة الازدواجية في السلوك الاجتماعي. وكان يلتسين يندد بما يسمّيه « الكسل المقوّى » لدى المسؤولين الانتهازيين.

اعتباراً من مطلع عام ١٩٨٦، وجد بوريس يلتسين في موضوع امتيازات كبار الموظفين المادة التي سيبني عليها معارضته لغورباتشيف في السنوات

المقبلة. ففي المؤتمر الثاني والعشرين، ساد الانطباع انه ينادي عالياً بما كان يقوله غورباتشيف همساً. كان يطالب باصلاح بنية الحزب وتغيير اسلوب عمله، منتقداً الوضع الداخلي فيه. على الحزب ان ينصرف للعمل السياسي الذي افتقده واهمله من جراء تدخله المستمر في الشأن الاقتصادي والاداري. لم يتطرق يلتسين، في ذلك الحين، الى « الدور القيادي » للحزب، والذي يجده ضرورياً للامساك بكافة المصالح المتعارضة التي تمثلها المناطق والمجموعات. لم يكن على مسافة بعيدة في هذه النقطة عن ايغور ليغاتشيف الذي كان يتهم موظفي الحزب بارتكاب الاخطاء ويرغب في اخضاعهم للنقد والرقابة الصارمة. غير ان المقارنة الدقيقة لخطابيهما تتيح اظهار الفوارق : كان ليغاتشيف يندد بالمطبوعات التي كانت تنتقد لاول مرة امتيازات كبار الموظفين، فيما كان يلتسين يستند اليها صراحة.

خلال المؤتمر، اعطى غورباتشيف الانطباع بانه اقرب الى الموقف الراديكالي المتشدد ليلتسين منه الى موقف ليغاتشيف المحافظ. لكن الامين العام لم يتخذ موقفاً واضحاً قبل ارفضاضه، في ٢٧ آذار (مارس)، صادق المؤتمر الثاني والعشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي على « التقرير السياسي » لغورباتشيف، وهي الوثيقة الرئيسية على جدول اعماله. وبذلك حقق غورباتشيف النجاح الاهم، لان خطة عمل الحزب وانظمته لم تكن تتضمن اية اصلاحيات جوهرية من شأنها تقريب خط السياسة السوفياتية من اهداف غورباتشيف. اذا كانت الوفود قد وافقت على خطة عمله القاضية بتسريع خطى التطوير الاقتصادي والتقني فان الخطة الجديدة لم تكن سوى عبارة عن اتفاق بالتراضي. وعندما عزم بعض الوفود تسمية البرنامج الجديد باسم « برنامج غورباتشيف »، رفض اقتراحهم ملوِّحاً بشبح « عبادة الشخص ». وما بدا انه عودة خفية الى القيادة الجماعية تبين انه مناورة بارعة، اذ كان غورباتشيف يتحاشى تقييد نفسه ضمن دائرة « برنامج غورباتشيف » الذي لم يكن يبدو له في مستوى المشاكل الفعلية.

يكمن الرهان الاساسي، بنظره، في الذهاب ابعد من ذلك. ولم يأخذ بعين الاعتبار معارضة زملائه في القيادة، ولم يطرح للمناقشة تصوّره الحقيقي للاصلاح، سوى من باب التكتيك وحسب. ففي عز تلك المرحلة من تمرسه بالسلطة، كان ما يزال بعيداً عن الاحاطة بالواقع السياسي في بلاده ولم يكن يملك تصوّراً شاملاً يقترحه... ويدافع عنه من هجمات خصومه المحافظين. مع ذلك، بقدر ما كان غورباتشيف يتساءل حول المناهج الواجب اعتمادها لتحقيق التغيير، بقدر ما كان يتراءى له ان الاصلاحات المحدودة والتقنية للنظام، غير كافية لحل الأزمة الخطيرة التي يتخبط فيها الاقتصاد والمجتمع.

كان الإصلاح الاقتصادي الهدف الأول المعلن لديه. لكنه ادرك ان عقلنة الحزب والدولة والاقتصاد لم تعد كافية. وحاول مقاومة معارضة الجهاز الاداري بالاتكال على قوى الحزب، فتبين له ان عليه تعبئة المجتمع ضد الجهاز الاداري، وخشي ايغور ليغاتشيف هذا المنحى في تطور الاحداث وسعى الى كبحه، لكن غورباتشيف تحاشى التصدي له بصورة علنية.

تعمّد غورباتشيف طرح رأي يعرف مدى تأثيره في الناس من جراء اطلاعه على العديد من التقارير حول الموضوع. في بداية العام ١٩٦٠، شجّع الحوار العلني العام، الذي سوف يصبح، ركيزة الاصلاحات التي ينبغي ان تنتشل المجتمع من الركود والتحجر. تحت تسمية « الغلاسنوست » السحرية لا تفتقر الصحافة السوفياتية الى الصحافيين الذين لا ينتظرون اكثر من اشارة واحدة للتحرك. كان المعلقون المشهورون امثال بوفين او بورالتسكي ينتظرون الضوء الأخضر. كانوا تعرفوا في زمن شبابهم الى فترة الانفراج التي سادت في عهد خروتشيف، ثم الى التسويات التي تحققت في السنين العشرين المتعاقبة. فاستطاعوا مجدداً قول ما كانوا يعتقدونه بصراحة اكبر، فتواجد في كل الصحف وهيئات التحرير صحافيون شبّان ارتضوا مكرهين بدور صانعي الرأي العام، وصار باستطاعتهم الكشف عن الانحرافات والشواذات

التي اضطروا للسكوت عنها حتى الآن. اما اليوم فاللجنة المركزية نفسها هي التي تندد صراحة بعجز المواظفين وفسادهم، فلم يعد من سبب يدعو لعدم تصوير البيروقرطية والجهاز الاداري كما هي في الواقع. بقي هامش المناورة عندهم محدوداً، غير ان تسليط الضوء على الانحرافات المحلية كشف وجه الأزمة في النظام ككل. كان نقد البيروقرطية انطلاقة بسيطة وشعبية تستجيب لاغراض القيادة. وجعلت كلمة السر الجديدة الممثلة بكلمة « شفافية » من الفساد وتبديد التراث الوطني عن طريق الاهمال، اهدافاً سهلة. لكن، حين استدّل بعض مراسلي التلفزيون الشباب على كذب مدير مؤسسة صناعية كبرى لأن نفايات مصنعه ما تزال تلوث البيئة على الرغم من مزاعمه وتأكيداته، فقد بات واضحاً ان الرهان يتخطى الوقاية من الكوارث البيئية. واخذت اسئلة المراسلين المباشرة تدكّ اسس البناء الهرمي للمجتمع حيث كان الترخيص بتوجيه النقد لا يصدر إلا من فوق. ثم بات كشف اخطاء بعض مدراء اعمال المؤسسات والبيروقراطيين، غير كاف، اذ اظهرت الامثلة العديدة التي عرضها الراديو والصحافة والتلفزيون السوفياتي، وجود قلق عميق في صفوف المواطنين.

غير ان الصحافين لم يكونوا مخولّين استخلاص مثل هذه النتائج، اذ كانت مسؤولية الصحافة والراديو والتلفزيون ما تزال بين ايدي المواظفين السابقين المشرفين على وسائل الاعلام؛ كان كل ما يطبع او يشاهد على التلفزيون خاضعاً لرقابة سياسية صارمة. مع ذلك، تمكنّ بعض الكتّاب والمخرجين، في تلك المرحلة الاولى من « الغلاسنوست »، من رسم صورة اكثر تحولاً وانطباقاً على الواقع، للوضع السوفياتي. فقد صوّروا الضمور الذهني لدى الانسان السوفياتي الذي عملت الرقابة وآثار كبار الشعراء الروس، على طرد القيم الانسانية التي كانت تعطي معنى وتماسكاً لحياته. كما عرض المسرح بعض الاعمال التي ابرزت ما اصاب حياة الريف من فقر

مادي وروحي. بعض تلك الاعمال تجرأت الذهاب ابعد من ذلك، كاشفة عن العلاقات القائمة بين المجتمع.

في هذا الاطار، تمّ عرض المسرحية ذات العنوان : « الفرملة في الجو » لعدة أسابيع، في المسرح الانتقادي في موسكو. وتناول موضوعها ما يلي : قام الامين العام غورباتشيف بزيارة لاحدى مدن الريف، وتحدث بالعفوية والحيوية التي اشتهر بها، الى المواطنين والموظفين. تفتح الستارة على المشاهد التي يبثها موظفو التلفزيون من قاعة اللجنة المحلية للحزب عن وداع الامين العام واقلاع طائرته. غير ان امين سر الحزب الاول يجمع معاونيه ويقرر معاقبة كل الاشخاص الذين تجرأوا بالحديث علانية عن مصاعبهم، رداً على اسئلة غورباتشيف.

هدد أمين سر الحزب الموظفين الذين تجرأوا على نقد الأوضاع بحرمانهم من امتيازاتهم المتواضعة. ثم استدعى المدعي العام للجمهورية وأمر بمحاكمته وبرفع الدعوى ضد اولئك الذين عارضوه غير ان امين سر الحزب لم يلاحظ ان كاميرات التصوير التي بثت خطابه الوداعي لغورباتشيف ما تزال في مكانها. وحين علم انه تم تسجيل الطريقة التي تصرف بها، بعد رحيل غورباتشيف، تملّكه الهلع الشديد. وبالفعل كانت التسجيلات قد صارت بين ايدي مراسلي التلفزيون المركزي، المتوجهين الى موسكو. فضغط على رئيس المطار متوعداً بالكشف عن الشواذات الحاصلة في سير عمل المطار اذا لم يعمد هذا الاخير، الى اعادة الطائرة. لم يفهم أفراد طاقم الطائرة لماذا يطلب مسؤولو المطار منهم العودة ادراجهم. فاستعجلوا عند ذاك ارسال زوجة احدهم هناك، والتي تخبر زوجها عبر اللاسلكي، انهم لن يحصلوا على البذلة التي ينتظرونها منذ سنوات اذا لم يرضخوا للاوامر الموجهة اليهم بالعودة. عند ذاك وقعت « الفرملة في الجو »، وعادت الطائرة، وتمكن امين الحزب من كسب الوقت والاتصال بموسكو حيث منع زملاؤه انتشار خبر الحادث فيها.

تميّزت التمثلية ببناء مسرحي متين ومن دون اي ادعاء ادبي. وفهم المشاهدون بالطبع ومن بينهم، في العروض الاولى، عدد من مؤيدي غورباتشيف في اللجنة المركزية ـــ ان المسرحية لا تتناول بالسخرية مجرد حالة منفردة لامين سر عادي للحزب. فرئيس الحزب لا يحمل اسماً في المسرحية. فهو يرمز الى الحزب وحده. وما دام في السلطة، فلا مجال للكشف عن تجاوزاته او القضاء عليها. وستبقى القوى الحية في البلاد مشلولة طالما ان الحزب يستطيع، من خلال امرائه الصغار في المقاطعات وهيئاته المركزية، العمل على اجهاض كل تطور، لاسباب سياسية...

لا يمكن للمبادرة الفردية ان تنمو وتزدهر من دون حماية قانونية. ولا يمكن تنمية الصناعة اذا لم تسترشد بالفكر الاقتصادي، اذ يصبح عليها ان تخضع لمقتضيات السياسة والاهواء الشخصية. حتى الوزارات نفسها لا تستطيع العمل بانتظام وبشكل سليم اذا كانت الهيئة العليا للحزب اي المكتب السياسي، تعتبر ان عليها البت بمسائل تافهة مثل تحسين نوعية شريط الفيديو التلفزيوني او انتاج المظلات الواقية من المطر. حتى منتصف الثمانينات، كان جهاز الحزب يعمل كحكومة فوق الحكومة. وكانت دوائره المختلفة تتدخل في القرارات العملية التي تتناول كافة ميادين الحياة اليومية. ويرى عدد من الموظفين ان هذه السلطة هي التي تضمن للحزب قوته. اما بالنسبة للمسؤولين السياسيين المحافظين، امثال ليغاتشيف، فان الرهان لم يكن فقط على الامتيازات التي يتمسك بها الموظفون، بل على استقرار الدولة والنظام فيها. وكانوا يلاحظون ان النقاش العلني حول المشاكل الاقتصادية والاجتماعية يهدد بطرح المسألة الجوهرية المتصلة بشرعية سلطة الحزب. واذا تم تسليط الضوء على معضلة الواقع السوفياتي بكل أبعاده، فيصبح من غير الممكن تجنب قيام تحولات عميقة في المجتمع السوفياتي.

بعد توجيه النقد الى البيروقراطية والاقتصاد، تناول النقد مسألة ممارسة الوصاية على العقل ووسائل الاعلام. والمسألة تتعلق هذه المرة بطرح دور

الحزب وموظفيه على بساط البحث. « القيادة للحزب والادارة للدولة » يقول لينين. لكن ماذا يبقى للحزب اذا فقد سيطرته على المراكز الاساسيةفي الادارة؟ شرع الاصلاحيون في موسكو يكتبون ان الحزب يمكنه الاكتفاء بمايشبه التوجيه وتحديد الاهداف العامة، والسعي الى تنشيط البلاد من الناحية السياسية. ويعود وفقاً للدستور للهيئات الحكومية، ومجالس السوفيات والجمعيات العمومية المحلية والاقلمية والوطنية ومجلس السوفيات الاعلى ان تضطلع بمسؤولية القرارات العملية.

حتى الآن، كانت الجمعيات العمومية صورية وتقوم بالمصادقة بالاجماع على ما تقرره هيئات الحزب. كانت اجهزة الحزب هي التي تختار النواب بحسب ترتيب يحدد مسبقاً نسبة العمال والفلاحين والمفكرين والرجال والنساء من اعمار مختلفة. وكان يتمّ هذا الاختيار على اساس السلوك السياسي القويم، ولا يدعى النواب سوى لبضع جلسات في السنة فقط. زد على ذلك انهم عاجزون عن القيام باي عمل موضوعي. كان يمنع عليهم نقد قرارات الحزب، ويشعرون أنهم آلة في يد حزب يعينهم ويقيلهم متى شاء، فيما يقتصر دور الشعب على الموافقة على تسمية المرشحين المعينين، من خلال صندوق الاقتراع. بهذه الطريقة، لا تشكل الهيئات المسماة زوراً منتجة، ثقلاً موازناً لجهاز الحزب الذي يمكنه اتخاذ كافة القرارات التي يرغب بها من دون توقع اية معارضة او احتجاج.

في موسكو، لقي الاصلاحيون التشجيع لجهة اثارة القوى المناوئة لجهاز الحزب في المجتمع. واوحى خطاب غورباتشيف بانه يحتاج الى حزب آخر لاجراء اصلاحاته، وان المجتمع السوفياتي لن يستعبد الحياة والنشاط سوى بزعزعة الثقة بالموظف الذي ينبغي ان ترتكز شرعيته بعد الآن على العمل الفعليّ. كان غورباتشيف واثقاً من امكاناته الشخصية في ممارسة الحكم ويظن انه قادر على مراقبة كل مرحلة من مراحل التحرير الاقتصادي والاجتماعي للبلاد. بالمقابل، كان خصومه يخشون انهيار نظام الحكم، اذا

ارتضوا اعتماد اللامركزية في الحكم، وفتح باب النقاش على مصراعيه حول المشاكل الحقيقية في البلاد. غير ان غورباتشيف وخصومه لم يدركوا في الواقع مدى هشاشة الدولة والمجتمع السوفياتي، اذ طمست أساليب الدعاية التي اعتمدها الحزب مشاكل البلاد طيلة عشرات السنين.

كان المحافظون يظنّون دائماً انهم قادرون على السيطرة على الأزمة بالعمل على تحسين الادارة وفرض النظام والانضباط. اما غورباتشيف فكان اكثر اطلاعاً منهم على المعلومات المتوفرة لديه فضلاً عن تفكيره العميق بالاوضاع المتردية؛ لكنه لم يكن قوياً بما فيه الكفاية كي يفرض نفسه على جهاز الحزب ويصلحه من الداخل. كان يحتاج لذلك الى مساندة الشعب وخصوصاً فئة النخبة العلمية والتقنية اضافة الى وسائل الاعلام. كان يخوض ميدان معركة لا يستطيع القاء نظرة عليها، حيث الجهاز الحزبي يمتلك منذ عشرات السنين، افواجاً من المحاربين الاشداء. زد على ذلك ان الاصلاحات المقترحة او المقررة في موسكو، قد تصاب بالنحول والهزال بفعل ضغوط البيروقراطية الحكومية وموظفي الحزب من المراتب الدنيا والوسطى.

اعتباراً من خريف عام ١٩٨٦، انصرف غورباتشيف الى جمع عدد من كبار الخبراء في الاتحاد السوفياتي كي يطلب اليهم اعداد خطة اصلاحات جذرية. بقيت توصيات الاقتصادي ابيل اغانبيجيان حبراً على ورق. كان يرى وجوب البدء بتسريع عجلة التطور الاقتصادي، باعتبار ان زيادة الانتاج تشكل حافزاً لمديري المؤسسات والعمال وتدفع للعمل بصورة افضل واسرع، والى الافساح في المجال للتجديد والابتكار، مما يؤثر ايجاباً على ايقاع التطوّر. لكن الامور جميعها مرهونة باطمئنان المواطنين، في المرحلة الاولى من المسيرة، الى نجاح السياسة الجديدة. والحال، ان الشعب كان منذ مدة طويلة، يعيش حالة حذر واستسلام، بعد ان خاض غمار تجربة بطلان الوعود وعدم جدوى خطط العمل السابقة. بحسب رأي اغانجبيان،

ان عجلة الاقتصاد السوفياتي تسير ببطء شديد. لكن على الرغم من وجود عدد لا بأس به من العناصر المفيدة، تبقى توصيته في جوهرها وعمقها ذات طابع محافظ. فهي تنطلق من الفكرة القائلة ان المزيد من العمل يؤدي الى مزيد من الارباح، والمزيد من الارباح يؤدي الى المزيد من العمل. والحال ان المواطنين السوفيات الذين كانوا يقفون في صفوف طويلة امام الواجهات الفارغة في المتاجر، كان بحوزتهم من الاموال اكثر مما يستطيعون انفاقه. وطالما ان السلع غير متوفرة، فان ارتفاع الاجور لن يحثهم على القيام بالعمل على نحو افضل واجدى. كانت البيروقراطية السائدة في الدولة والاقتصاد، تمنع في كل حال، المبادرة الفردية والعمل المستقل من كسب بدل جهدهما الاضافي، وتخنق بالتالي الاصلاح المطلوب. يتبين من ذلك ان زيادة الانتاج بمعدل بضع نقاط ستكون غير مجدية على الصعيد الاقتصادي، وذات فعالية ادني على الصعيد السياسي. اما على صعيد التقدم، فان التراجع الاقتصادي يطرق الباب...

يقول الاقتصادي غامزيل بوبوف اليوم، « ان غورباتشيف رجل يدرك الأمور بسرعة ويصحح دائماً آراءه في ضوء الواقع ». عندما استدعاه غورباتشيف في نهاية عام ١٩٨٦، للتشاور معه حول سياسته الاقتصادية، كان بوبوف يعرف، ان غورباتشيف لا يسعى فقط للحصول من محاوره على معلومات دقيقة، ولا يكتفي بالاستماع الى التقارير بل يأمل في فتح الحوار معه. فهم بوبوف ان غورباتشيف يرى الوضع الاقتصادي كما يلي : ان سياسة دفع عجلة الاقتصاد تراوح مكانها، والاصلاح الاقتصادي لايبنى على تغييرات تقنوقراطية وتنظيمية، بل ينبغي ان يرتكز على تغيير النظام السياسي.

بناء على امر غورباتشيف، انصرف اختصاصيون مرموقون في الاقتصاد امثال اوليغ بوغومولوف وليونيد ابالكين وغافريل بوبوف وابيل اغانبجيان وانتيشيشكين، الى العمل. انهم اعضاء في الاكاديمية او اساتذه جامعيين او مدراء مؤسسات ابحاث كبيرة، ويستطيع غورباتشيف الركون الى تحاليلهم

ونظرتهم المستقبلية. اعدوا معاً مسودة خطة اصلاحية اقتصادية جذرية من شأنها ان تقصم ظهر اللجنة الحكومية لشؤون التصميم المعروفة باسم « غوسبلان ». كانت غوسبلان قد اصبحت وزارة فوق الوزارات ولم تعد خدماتها، منذ زمن بعيد، تقتصر على وضع الخطط اللازمة للتطوير الاقتصادي، بل اخذت توجه تعليماتها المباشرة والمفصلّة الى الوزارات والمؤسسات، وقد ادى هذا الامر الى اثارة النزاعات بين « غوسبلان » من جهة وسائر الوزارات، ودوائر جهاز الحزب والهيئات الاقتصادية في الجمهورية من جهة اخرى. غير ان هؤلاء جميعاً وجدوا انفسهم الآن في موقع واحد مع « غوسبلان » في مواجهة خطة اصلاحية تضطرهم للتفكير بشكل مختلف وتهدد نفوذهم وسلطتهم.

كان الخبراء الاقتصاديون يدركون ذلك جيداً. كما اطلعوا على تلك النكتة التي شاعت آنذاك في موسكو : في ختام العرض العسكري في الساحة الحمراء، وبعد مرور الصواريخ العملاقة، شوهد وسط الدخان الازرق المتصاعد من مخارج الآليات السيارة فريق صغير من المواطنين يحملون شارات على اذرعهم.

تساءل أحد الأجانب عن معنى ذلك فقيل له: « انهم مجموعة « غوسبلان، السلاح الفتّاك ذو القوة التدميرية الهائلة. » بالفعل، حشدت هذه القوة قدراتها في جبهة موحدة مع الجهاز الاقتصادي والدولة، ضد الاصلاحات الجذرية. يقول غافريل بوبوف اليوم انه لو جرى تطبيق الخطة الاصلاحية الجذرية الجديدة، لما كان المواطنون السوفيات يقفون في صفوف طويلة امام المتاجر الفارغة من المواد الغذائية. ويعتقد الاستاذ اوليغ بوغومولوف ان غورباتشيف قد اقترف خطأه الاكبر بعدم فرضه خطته بكل شدة اثناء اجتماعات اللجنة المركزية التي عقدت اخطر جلساتها في حزيران (يونيو) عام ١٩٨٧، لبحث موضوع يشكل بحد ذاته برنامجاً متكاملاً وهو « مهمة الحزب في اصلاح الادارة الاقتصادية. »

التغيير

كان غورباتشيف يردد، منذ بداية العام ١٩٨٧، ان الاصلاحات التقنوقراطية وتسريع عجلة الاقتصاد وعقلنة مناهج التخطيط والانتاج، لم تعد كافية جميعاً لانقاذ المجتمع السوفياتي من ركوده. وهو يستخدم في خطبه، اليوم، كلمة « اصلاح » التي تجنبها في السنين الماضية. ويتحدث ايضاً، للمرة الاولى عن « اصلاح جذري » وعن ضرورة اجراء تغييرات نوعية في النظام الاقتصادي للاتحاد السوفياتي. خلال الاشهر التي سبقت موعد اجتماع اللجنة المركزية في حزيران (يونيو)، تبنّى غورباتشيف ملاحظات الخبراء الاقتصاديين الذين كانوا يعتقدون بانه يتعذر تغيير الاوضاع من دون القضاء على البيروقراطية على كافة المستويات وادخال عناصر « اقتصاد السوق » في النظام الاقتصادي.

كان بعض الذين استدعاهم غورباتشيف، وقتئذ، قد ساهموا، في الستينات، في ابحاث الاستاذ ليبرمان — وهذا الاخير خبير اقتصادي متخصص في الاقتصاد الحر وسبق له ان اعد خططاً اصلاحية سعى كوسيغين، رئيس المجلس عهد ذاك، الى اعتمادها. ذكرنا آنفاً ان خطة اولئك الخبراء الاقتصادين قد فشلت لانهم آثروا السير بخطى وئيدة، وان المعارضة البيروقراطية اجهزت على تلك الخطط من خلال امعانها في دراسة المشاريع الاصلاحية. ويأمل الاقتصاديون الاصلاحيون الآن ان يتاح لبرنامج غورباتشيف فتح ثغرة في خطوط خصومه. جرى الحديث بشكل عام، في السنتين الماضيتين، عن التغيير الثوري. اما الآن، فهناك مجموعة من التدابير الاصلاحية التي جرى

تحديد عناصرها المكوّنة بكل دقة، وتمّ ادخالها في خطة شاملة طويلة الأمد. واقرّت اللجنة المركزية هذه التدابير في احدى جلساتها العامة. وستتولى تنفيذ الخطة الخمسية المقبلة بنية اقتصادية جديدة. ويرى المستشارون العمليون لغورباتشيف بوجوب توجيه الاصلاحات المنشودة في خط « النظام الاشتراكي لاقتصاد السوق ».

تجدر الملاحظة الى ان هذا المفهوم لا يظهر في الوثائق المبرزة الى اللجنة المركزية ولا في الشروحات المقدمة الى اعضاء الهيئة العليا في الحزب الشيوعي : جلّ ما في الامر، ان الحديث كان يجري حول هذا الموضوع بشيء من الانزعاج، للدلالة على المبدأ الاساسي الذي ينبغي ان ينظم الحياة الاقتصادية « وعلاقات التبادل بين المال والسلع. » لم يكن مفهوم « اقتصاد السوق » مقبولاً حتى ولو نعت بالاشتراكي، لدى معظم موظفي الحزب ولدى القسم الاكبر من موظفي الدولة. ذلك ان فكرة « التعددية الاشتراكية » في السياسة كانت تقلقهم، لأنها تحرمهم من احتكار حق الاشراف على الرأي العام ووسائل الاعلام. والاقتصاد المبني على قاعدة العرض والطلب وليس على الجهاز السياسي يقتطع جزءاً مهماً من نفوذهم من خلال حرمانهم حق الاشراف على شؤون التصميم والتوزيع، كما قد يؤدي الى تهديد امتيازاتهم وموقعهم الاجتماعي. من الواضح للكثيرين ان الخطر لا يمكن تجنبّه عبر تغيير بسيط في المصطلحات المتداولة.

اتخذ النقد العلني للطبقة الحاكمة في الحزب والدولة، شيئاً فشيئاً منحى صريحاً ومباشراً. وانتفض المجتمع بكل فئاته ضد البيروقراطية، عدو الشعب الذي شلّ الاقتصاد السوفياتي واعاق زيادة الانتاج وتسبّب في ارتفاع كلفة المعيشة. وما يزال النقد الموجه الى بطء البيروقراطية يحظى بشعبية عارمة، والبيروقراطيون هم الآخرون. واصبح النقد اللاذع يستغلّ في الغالب ضد هؤلاء كمتنفس لحالات الاستياء والسخط. كان « البيروقراطيون » يمثلون، بنظر عامة الشعب، « جماعة المكاتب » اضافة الى مدراء المحلات التجارية

الصغيرة، وموظفي الادارات والوزارات وجهاز الحزب وصولاً الى قمة الهرم. كان المواطنون يتهمون بعضهم بتحقيق بعض المنافع في مجال التموين، والبعض الآخر بالتنعم ببعض الامتيازات كالداتشا، والسيارات والمخازن المحظورة على سواهم. بدا الصحافيون والخبراء العلميون ورئيس الحكومة الجديد وكذلك الامين العام للحزب، انهم حصروا في البيروقراطية داء مقاومة التغيير. في الواقع، كان الجهاز البيروقراطي الذي لم يتوقف عن التوسع منذ ستين سنة، العائق الرئيسي في وجه التطور. لكن السؤال لم يطرح يوماً حول الظروف التي رافقت نشأته وساعدته على الاستمرار في مواقعه.

كان من شأن هذا السؤال ان يقود الى طرح التغييرات السياسية المطلوبة على صعيد تمتع المجتمع بحقوقه الدمقراطية، ونادراً ما خطر في بال اعضاء الحزب والمسؤولين ان مثل هذا التحول الجذري ممكن الحدوث، وفي كل حال غير مقبول على الاطلاق. وكان هؤلاء يضعون دائماً الشروط نفسها : على الاصلاحات ان تؤدي الى تحسينات « داخل النظام القائم ». وما انفك غورباتشيف نفسه يشدد على هذا الامر حتى قبل انعقاد جلسة اللجنة المركزية حيث اقرت خطته الاصلاحية، وبعد اختتامها. وراح اصدقاؤه وخصومه على السواء، يتساءلون مذاك، هل كانت هذه الملاحظات التي شدد فيها غورباتشيف على حصر التحسينات « داخل النظام القائم » تهدف الى طمأنة اولئك الذين كانوا يرون في التغيير خطوة سريعة ومتقدمة، ام انها دليل على قناعة باطنية عميقة ؟ هل يرغب في ايجاد حلول محدودة تتيح التغيير في بعض قطاعات النظام دون سواها ام يطمح الى تغييرات اكثر عمقاً وشمولاً ؟

مهما يكن من امر، كانت احاديث غورباتشيف في تلك الفترة لا تخلو من التناقضات. فبعد اجتماع الهيئة العامة للجنة المركزية، اعلن مجدداً امام جمهرة من الصحافيين، عن حصر الاصلاحات المطلوبة في اطار محدد. واوضح ان المقترحات التي تدعو الى التخلي عن هيئة التصميم لم يؤخذ

بها وظهر من الطريقة التي عبّر فيها عن ذلك، انه نفسه يرفض تلك المقترحات ويتفق بالرأي مع اغلبية اعضاء اللجنة المركزية ! « لم نقبل بذلك ولن نقبل. نريد ترسيخ دعائم الاشتراكية وليس استبدالها بنظام آخر ». عندما قال ان الاصلاحات لن تخرج عن حدود الاشتراكية، كان يمكن في الواقع، التساؤل عن اي شكل من الاشتراكية يتحدث. لكن من الواضح في رأيه انه يجب الحفاظ على الدور القيادي للحزب الشيوعي الذي ينبغي له الاشراف على المسيرة الاصلاحية.

اثارت هذه الملاحظات التي اعقبتها ملاحظات اخرى، الشكوك في نفوس اولئك الذين يؤيدون اجراء اصلاحات اكثر عمقاً. كان من شأن هذه الملاحظات ان تثير الظن بالفعل، بان غورباتشيف لم يكن يرغب في تغيير النظام بشكل جذري بل يأمل فقط في تحسين ادائه وضبط اجهزته — تلك الاجهزة ذاتها التي تعيق التقدم الاقتصادي. لكنّ النخبة السوفياتية التي كانت تتوقع قدراً من الاصلاحات يفوق ما تستطيع غالبية موظفي الحزب التنازل عنه، مازالت تؤمن بغورباتشيف وبسياسة « الغلاسنوست » التي يجب ان تكون محرك التطور نحو تعزيز الدمقراطية في المجتمع والتخلي عن البنيات البيروقراطية.

لا شك ان غورباتشيف قد وعى التناقضات الداخلية لتلك السياسة التي تهدف من جهة الى القضاء على نفوذ البيروقراطية والادارة المركزية، ومن جهة اخرى الى تحقيق التغيير من خلال تلك الطغمة من موظفي الحزب والدولة الذين يشكلون، حسبما كان احياناً يقول غورباتشيف عنهم « مجموعة الضاغطين على الفرامل ». وقال عنهم بنفسه، بعد اربعة اسابيع من انعقاد الهيئة العامة للجنة المركزية، ان السنوات الاخيرة قد شهدت اسلوباً انتهجته حكومة نخبوية وأدى الى حرمان الشعب من كل نفوذ سياسي. في الخريف التالي، اوضح هذه النقطة، خلال زيارته الى مورمانسك الواقعة في اقصى الشمال من الاتحاد السوفياتي. قال ذلك اليوم : ينبغي التفكير بعمق حول الطريقة التي يمكن اعتمادها لاختصار الجهاز المتضخم في القيادة. سعى،

في الحقيقة الى اشاعة الطمأنينة من خلال التشديد على ان اختصار التضخم لن يكون بلا روية. سوف يصار الى التصرف بروية وحذر والاخذ بعين الاعتبار وضع كل موظف وعائلته.

قبل ذلك، قدّم وصفاً دقيقاً للوضع السائد في حينه عندما قال : هناك مبالغة في الرهان، منذ عشرات السنين، على التناقضات وعلى الطرائق الادارية والاستبدادية المعتمدة في ادارة شؤون الاقتصاد والمجتمع. وهذا ما أدى الى تضخم كبير في جهاز الدولة والجهاز الاقتصادي، وكذلك جهاز الهيئات الاقتصادية، وبمعدل ادنى، في جهاز الحزب. فالادارة تعد اليوم ثمانية عشر مليون شخصاً، منهم مليونان ونصف المليون في اجهزة مختلف الهيئات الادارية وتلك المكلفة بحفظ الامن، وخمسة عشر مليوناً من المساعدين الاداريين في الرابطات والهيئات والمؤسسات. وهم يمثّلون ١٥٪ من مجموع العمال والمستخدمين. لفت غورباتشيف الانتباه الى الوفر الذي يمكن تحقيقه بتقليص عدد الموظفين الذين يتقاضون سنوياً مبلغ اربعين مليار روبل.

بعد بضعة ايام، شهرّ بالبيروقراطية ناعتاً اياها بالعدو الاكثر ايذاء وخطراً على مسيرة التغيير الثوري. كان يتحدث الى جماعة من كبار الموظفين في لينينغراد؛ كانوا يجلسون هناك، امامه، ولاشيء على وجوههم يدّل انهم يؤيدون بقوة التغييرات الثورية المطروحة. من الطبيعي ان غورباتشيف كان يعرف الى من يتوجه واية مقاومة تنتظره. وقال لمستمعيه انه لا يدعو الى فتح النار على مقر الحزب والحكومة، كما فعل ماوتسي توتغ خلال الثورة الثقافية. كان يراعي مشاعر هذا الجهاز الذي يدرك بطء حركته وقوة جموده، ولكنه يسعى الى اشراكه في تنفيذ سياسته.

سبق له ان ردّد، قبل عام، امام بعض الكتّاب، ان الشعب يأمل في التغيير، لكن بين الشعب والقيادة، يقف جهاز الوزارة والحزب الذي لا يرغب باي تغيير ولا يريد التخلي عن حقوقه وامتيازاته. تحدث أيضاً بطريقة مماثلة وواضحة في خريف عام ١٩٨٧ حين قال : « غالباً ما يطرح علينا

السؤال التالي : هل تقوم معارضة سياسية في وجه البيريسترويكا ؟ لا معارضة سياسية في الاتحاد السوفياتي. فالمعارضة هي في داخلنا ولا أستثني ذاتي. العمال والطبقة العاملة يقفون الى جانب البيريسترويكا ويدفعون بنا بقوة الى الامام. انهم يراقبون المسيرة وموقف القيادة منها، ويحرضوننا باستمرار كيلا نتراجع او نوقف مسيرة التقدم. »

ادرك غورباتشيف ان الجهاز الاداري سوف يتصدى، مدفوعاً بردة فعل طبقية، لكل ما يؤدي الى حرمانه من امتيازاته ونفوذه. في الوقت عينه كان يضع آماله وتوقعاته في العمال — متبعاً بذلك ما اعتاد الفكر الشيوعي ان يقوم به لجهة اعتبار الطبقة العاملة المكان المفضل للذهنية التقدمية والقوة المحركة للتغيير. لكن الجدل القائم حول « الاصلاحات الجذرية » للنظام الاقتصادي، كان في الواقع، يتخطى ما تحتمله غالبية الشعب السوفياتي. ففي المؤسسات كان معظم العمال يتوقعون من البيريسترويكا تحسين وضعهم الاجتماعي وظروفهم المعيشية. ويؤكدون ان القيادة والبيروقراطية عملتا على تبديد ثمرة عملهم، من دون الالتفات الى تحركاتهم. ذلك ان المسؤولين حققوا الثروات وحصلوا على الامتيازات سالبين من المواطنين العاديين ثمرة جهودهم وتعبهم. ويطالبون الآن برفع مستوى الاجور، وتجهيز المساكن التي خصصتها المؤسسات لهم على نحو افضل، وتعزيز وسائل التسلية والترفيه. اما فيما خص الاصلاحات الجذرية، فان العمال يدركون انها قد تؤدي الى زيادة الانتاجية في العمل او الى البلبلة في التوظيف او الى ارتفاع الاسعار... ولم يكونوا يتحدثون عنها كثيراً.

عند ذاك حاولت النقابات السوفياتية التي لا تحظى بالكثير من اهتمام العمال، اخذ هذه المطالب لحسابها كي تستطيع تقديم نفسها كممثلة حقيقية لمصالح العمال، — حالياً في ما خصّ شؤون المؤسسة، وغداً في النقاش الاقتصادي والسياسي.

اظهرت خطب غورباتشيف عام ١٩٨٧، عن ضيق هامش المناورة الذي

يمتلكه لتمرير مشاريعه. لا شك ان رئيس الحزب كان يعي حدود سياسته وتناقضاتها ـــ حتى ولو لم يكن على يقين وبيّنة من النتائج المترتبة على احاديثه وشروحاته او من مدى استعداده لخوض غمار التغيير العميق للنظام القائم. ومما لا شك فيه انه كان يفكر ملياً في ذلك وتستحثه الصحافة والمنشورات العلمية والاحداث التي يتبادلها مع الخبراء امثال الكسندر ياكوفليف.

في ربيع العام ١٩٨٧، كتب ياكوفليف الذي درس المسائل المتصلة بسلطة البيروقراطية والتزمت العقائدي واشكال الملكية الاجتماعية، في مجلة الحزب « كومونسيت » يقول : تعتمد البيروقراطية على التزمت العقائدي، والتزمت العقائدي يعتمد بدوره على البيروقراطية، والبيروقراطيون مثل المتزمتين العقائديين لا يمكنهم البقاء والعيش من دون الحاق الضرر والأذى بمصالح المجتمع، وهم يفيدون من انتمائهم الى جهاز الدولة التي تنزع نحو امتلاك سلطة جبارة لا مثيل لها. من هنا الميل الحثيث « لتدويل » كل شيء والى ربط كل الاعمال الناجحة بالنمط الذي تعتمده الدولة في ادارة شؤونها واعتبار هذا النمط هو الافضل ». ويعزو ياكوفليف السبب الرئيسي للركود الاقتصادي الى تأميم الدولة للملكية الخاصة، وقد افاد البيروقراطيون من ذلك على نحو كبير بحجة توفير الملكية لكل فئات الشعب.

كان يعدد الاسباب الرئيسية للركود باسلوب خالٍ من التهجم على احد، وبتحليل عملي دقيق، ويضعها ضمن اطار التطور مشيراً الى التغييرات الاساسية التي تفرض نفسها اذا شئنا تحقيق البيريسترويكا. من المؤكد ان غورباتشيف قرأ هذه المقالة قبل نشرها.

كان غورباتشيف يدرك ايضاً ان عليه مواجهة مقاومة شديدة بعضها ايديولوجي، وبعضها الآخر انفعالي، داخل المكتب السياسي وفي اوساط كبار موظفي الحزب والدولة والاقتصاد. في تلك الحقبة، كان ايغور ليغاتشيف الرجل الثاني في الحزب، والجهاز الاداري يراهن عليه على الرغم من تدني

نفوذه بشكل ظاهر. كان عميد السن في المكتب السياسي (تسعة وستون سنة). كان قصير القامة، رمادي الشعر، ويحمل نظارتين على انفه. ويشبه في مظهره مدير مؤسسة صناعية متوسطة الاهمية في الريف الالماني. لطيف المعشر في تعاطيه اليومي مع الآخرين؛ كان ينشط كموظف واثق من سلطته حين كان يعتلي المنصة ويروح يقذف مستمعيه بعبارات ايديولوجية رنانة.

خلال الجدل القائم عام ١٩٨٧ حول الاصلاح، شدّد ليغاتشيف على ان التوجه الجديد لا يسير في خط تحرير النظام بحسب النهج الغربي، انما يسلك سبيل تعميق الدمقراطية « الاشتراكية ». وكان يجد ايضاً في هذا التوجه تعزيزاً للادارة الذاتية الشعبية، مشدداً اكثر من الآخرين على وجوب تحقيق مسيرة الاصلاح تحت اشراف الحزب. كما يرى ايضاً ان اعادة الملكية للفلاحين، ولو بخطوات بطيئة، تشكّل خرقاً للعقيدة الاشتراكية وباباً مشرعاً لاقامة نظام سياسي واجتماعي آخر. كذلك يعتبر ان مبادىء اقتصاد السوق تهدد سيطرة الحزب وهيمنته، مشيراً الى ان الاتحاد السوفياتي بقي اميناً تماماً للخط الذي رسمه لينين، وان الكتّاب والمفكرين المشككين ينتقصون من قدر النتائج الاقتصادية التي تحققت في البلاد. وفي حال تنفيذ سلسلة من التدابير التصحيحية، فان النظام الاشتراكي سوف يتكشف افضل من الرأسمالية.

لم يعرض ليغاتشيف تصوره للاصلاح بشكل منهجي على الاطلاق. لاشك انه اعتبر هذا الموضوع غير مجدٍ، لان الافكار التي ينادي بها كانت بديهية ومعروفة في الاوساط التي يخالطها، منذ عشرات السنين، سواء في جهاز الحزب او الدولة.

من بين المعارضين لسياسة غورباتشيف الاصلاحية، لم يكن المحافظون والخصوم الالداء وحدهم من يرفض التغيير الجذري للنظام القائم في الاتحاد السوفياتي، اذ كان لوكيانوف قد انضم، عام ١٩٨٧، الى اولئك الذين

كانوا يناضلون للحدّ من مدى تلك الاصلاحات واهميتها. وكان غورباتشيف يكنّ التقدير للوكيانوف منذ سنوات عدة لمواهبه التنظيمية وذكائه، وقد جعل منه احد مساعديه المقربين. وكان لوكيانوف يمتدح ستالين من دون ان يسمّيه، معتبراً النموذج السوفياتي وتأميم الزراعة من الانجازات الضرورية لبناء الاشتراكية والانتصار على الفاشية.

في تلك الحقبة، كان بعض المؤرخين والاختصاصين العلميين السوفيات قد ذهب بعيداً في نقده. يرى هؤلاء ان السبب الحقيقي لتدهور الزراعة السوفياتية يكمن في التأميم القسري الذي أوقع ملايين الضحايا في صفوف الفلاحين. ويعيدون نشأة النظام الاقتصادي المركزي والموجّه الى نظام التصنيع الذي اقامه ستالين ـــ نشأ هذا النظام قبل وصول هتلر الى الحكم ـــ ويعتبرون ان بطء هذا النظام قد تسبب في الركود الاقتصادي.

تزايد عدد الكتّاب السوفيات الذين كانوا يرفضون المبدأ القائل بان التاريخ السوفياتي لا يتيح خيارات اخرى. فقد كان الكسندر بوفين، وهو من اشد الصحافيين السوفيات استقلالية فكرية ونفاذ بصيرة، في طليعة من اشار الى ان النهج الاقتصادي المركزي الموجه، لم يكن في العشرينات، النهج الوحيد المتاح، وان هناك سبلاً اخرى بقيت مفتوحة امام الاشتراكية. كان المهم بالنسبة لبوفين وسواه من المفكرين، ان يفسح في المجال لمناقشة النماذج الاصلاحية المتاحة في الاشتراكية. ولما كانت السنوات العشرون، اي قبل ستالين، قد شهدت مناقشة النماذج الاصلاحية داخل الحزب والمجتمع، فينبغي اليوم ان تتوافر حرية النقاش كاملة حول هذا الموضوع وتتخطى الحدود التي يرى ليغاتشيف ومعه غورباتشيف احياناً، وجوب التزامها. يعتقد بوفين ان من سخرية القدر الّا يكون النموذج الذي تحقق في الاتحاد السوفياتي، وليد الافكار السائدة في عصر لينين والسنوات التي اعقبت موته، لدرجة ان المجتمع السوفياتي لم يكن يستطيع احياء الاشتراكية وكان ينبغي استبدال ذلك الشكل الاشتراكي الذي تخطاه الزمن، بشكل آخر. واذا تعرّضت

البيريسترويكا للفشل، فان الهزيمة امام الرأسمالية ستكون تاريخية.

بعد ذلك، عبّر العديد من الخبراء العلميين والصحافيين عن عدم موافقتهم على النهج الاقتصادي البيروقراطي الموجّه في البلاد، معتبرينه مرضاً سرطانياً اجتماعياً خطيراً، ذلك ان المساومات والخساسة الذي يفترضها هذا النهج، تضرب بمبادئ المردودية والكفاية والأهلية عرض الحائط. ففي البيروقراطية، يقوم تحالف بين حصر السلطة واللامسؤولية. هكذا شهدنا منذ الثورة نشأة جهاز ضخم في غاية البطء، يعمل على ضرب قدرات القوى المنتجة في المجتمع السوفياتي.

كتب نيقولاي شيمليف يقول : كان للايمان الشديد بالنظام القائم نتائج خطيرة ــ كاللامبالاة والفساد والهدر ــ على الوضع الاقتصادي، وولّد في المجتمع حقداً عدوانياً. ادّى احتكار البيروقراطية لسلطات الدولة الى استسلام المنتجين دون قيد او شرط. فالنظام الذي لا مكان فيه لا للسوق الحقيقية ولا حتى لعناصر اقتصاد السوق لن يولّد سوى القحط والحاجة. وهكذا راح شيمليف وغيره يطالبون بحل جذري لمشكلة البيروقراطية. وبات من الضروري الاسراع في تجريد الجهاز الاداري في الدولة والاقتصاد من كافة صلاحياته، ويجب الانتقال من نظام الاقتصاد الموجّه الى نظام اقتصادي اشتراكي يأخذ بعين الاعتبار الفعالية والمردودية. غير انهم كانوا يعلمون ايضاً ان كبار المسؤولين في الاقتصاد هم اسرى ذهنية محافظة ويناوئون هذا التطور.

كان يحق لمن يناوئ البيروقراطية الاستناد الى لينين والاستشهاد باقواله. وبالفعل قامت الاكاديمية السوفياتية للعلوم باحتساب عدد المرات التي هاجم لينين بشدة فيها البيروقراطية، فبلغ مئتي مرة خلال السنوات الاخيرة من حياته. كما اعتبر البيروقراطي اسوأ عدو داخلي، ينبغي التخلص منه بمساعدة العمال الفلاحين، خصوصاً اذا كان شيوعياً يتولّى منصباً مسؤولاً.

في خريف عام ١٩٨٧، لاحظ اوتو لاتسيس، مساعد رئيس تحرير مجلة كومونيست، ان الجهاز الإداري، في الماضي، لم يتوقف عن التضخم على الرغم من كافة القرارات المخالفة. وكان لاتسيس يعتقد، في تلك الفترة بإمكانية إنقلاب الأوضاع رأساً على عقب بحيث يتاح للنظام الاقتصادي التحرر من الهيمنة البيروقراطية. انها الفترة التي كان المفكرون والخبراء العلميون والأدباء والصحافيون لا يتلاقون فيها في موسكو من غير أن يشربوا نخب غورباتشيف.

كان يعزز آمالهم على نحو لا يقبل الشك، ما يجدونه لدى غورباتشيف من توق إلى إجراء إصلاح عميق في المجتمع، وإحلال الدمقراطية السياسية بغية تعميق الإصلاح الاقتصادي. بات من السهل أيضاً تقديم برنامج للاصلاحات السياسية ــ الاقتصادية الى المراجع العليا في الحزب. فالمسؤولون والموظفون باتوا على بينة، منذ عهد بريجنيف ان التركيبة الاقتصادية التقليدية قد بلغت منذ أمد بعيد حدود فعاليتها القصوى وباتت جموديتها تشكل عائقاً في وجه كل تقدم.

لكن غورباتشيف لم ينجح، منذ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٨٧، في الحصول على موافقة هيئات الحزب لتنفيذ البرنامج الاصلاحي. في الخريف، خاض المعركة مجدداً بعزم أشد يسانده الخبراء العلميون والصحافة. وكانت سبقت هذا الهجوم الجديد فترة توقف من تلك الفترات التي أقلقت تكراراً أصدقاء غورباتشيف ومؤيديه. في نهاية الصيف، انتقل الأمين العام، لقضاء فترة من الراحة في « الداتشا » الحكومية الواقعة قرب بيتسوندا، على البحر الأسود، وامتد غيابه لفترة طالت أكثر من المعتاد. وقد أفاد من هذا الوقت لإعادة تجميع أفكاره وكتابة مؤلفه « البيريسترويكا، نظرة جديدة على بلادنا والعالم ». لكنه ما كاد يغادر العاصمة حتى ظهر خصومه في الحكم على شاشة التلفزيون وفي مناسبة الجولات التفتيشية في المناطق الريفية ليتحدثوا عن الاصلاحات وشجونها.

فقد أعلن ايغور ليغاتشيف ورئيس جهاز الـ ك.ج.ب. تشيبريكوف وكلاهما عضوان في المكتب السياسي، في خطبهما والمقابلات التلفزيونية انهما ينويان وضع حدود ضيقة للمناقشات الدائرة حول جرائم العهد الستاليني واخطائه، وكبح جماح التغييرات المقترحة. فأعربت الصحف الغربية عن قلقها على مستقبل غورباتشيف الذي لم يعد يظهر أمام الناس... في موسكو، أبدى مؤيدو البيريسترويكا استياءهم من رؤية القادة المحافظين يحرزون تقدماً في وسائل الإعلام. وخشي بعضهم أن يرتكب الأمين العام خطأ تكتيكياً جسيماً من جراء تجديد فترة استراحته لاسابيع عدة على البحر الأسود، في هذه المرحلة الحرجة من المعركة. غير انه كان باستطاعتهم الاتكال على بعض الدعم والمساندة من أصحاب المكانة الرفيعة في السلطة. مثاله ان الكسندر ياكوفليف المقرب من غورباتشيف في المكتب السياسي، استمر في هجماته العنيفة ضد العهد الستاليني من دون ان يردعه احد.

تبين بعد عودة غورباتشيف وإلقاء خطابه في مورمانسك الذي أعلن فيه عن إجراء تغييرات في جهاز الحزب وإحالة موظفين على التقاعد لمناوئتهم المسيرة الاصلاحية، ان ذلك الفاصل الزمني الذي اخذ خلاله قسطاً من الراحة، لم ينتقص من نفوذه وسلطته.

نجح مرة أخرى في إحراج خصومه المحافظين من خلال تجنبه العبارات الفجّة والحلول الوسط. لم تبدِ غالبية الشعب السوفياتي أي قلق بشأن البيريسترويكا التي تجد فيها أملها لحياة أفضل، وكذلك فعل المفكرون من مؤيدي غورباتشيف اذ ظلوا على إيمانهم بمتابعة البرنامج الاصلاحي.

بالمقابل، يرى بوريس يلتسين أمين سر الحزب في موسكو ان تلك المساومات مع جناح اليمين قد ذهبت بعيداً. وكان غورباتشيف قد استقدمه من مدينة سفيرلوسك الصناعية، بالقرب من الأورال، الى موسكو. عمل يلتسين مهندساً في حقل البناء قبل أن يصبح في السبعينات عضواً في الحزب ويصعد درجات السلم حتى بلوغه اللجنة المركزية. يحظى يلتسين

بإعجاب كبير وشعبية واسعة لشعره الرمادي الفضي وجرأته ووقاره. يتحدث بهدوء وحذر، ويترك لمستمعيه بعد كل نقدة لاذعة فرصة للتفكير والتأمل. يدرك تماماً ردات فعل الجمهور في القاعة أمامه ويتجاوب معه متحسساً الأجواء السائدة في صفوفه. ومما يزيد في وقع كلامه على الجمهور، كونه ضخم الجثة ويتحدث بتمهل. يميل الى العجرفة قليلاً، مما يولدّ في الجمهور انطباعاً شديداً عن حيويته ونشاطه.

يعتبر يلتسين من أشد مؤيدي السياسة الإصلاحية لغورباتشيف وفي طليعة الذين قاوموا الركود والسير بالاصلاحات المطلوبة بخطى بطيئة. كان من اوائل الذين انتقدوا بشدة وبقساوة بالغة (منذ المؤتمر الثاني والعشرين للحزب، في ربيع عام ١٩٨٦)، جهاز الحزب والدولة مطالباً بإعادة توزيع المهام والمسؤوليات. أخذ على زملائه إنعدام تحسسهم بالمسؤولية والانضباط، وسوء تصرفهم كقادة وعجزهم عن تحمل النقد. تحدث عن الانتهازيين الذين يسعون، حاملين بطاقة الحزب في جيوبهم، إلى إجهاض التغييرات الجذرية، وهاجم امتيازات الطبقة الحاكمة والمنافع التي تكسبها، داعياً الى اقتلاع البيروقراطية من جذورها بغية وضع حد للظلم الاجتماعي المتحكم في رقاب الناس. وسبق له أيضاً، في الفترة نفسها، أن رفع الصوت عالياً مدافعاً عن حقوق الشعب، الأمر الذي حقق له شعبية واسعة، غير انه شدد أيضاً في تلك الآونة، ومن ضمن الضرب على وتيرة موظفي الحزب، على ان الحزب هو القوة الوحيدة القادرة على تحقيق الإصلاح والمرجع الوحيد الذي يضمن عدم تطاحن أصحاب المصالح المتباينة وتناحرهم على الشأن العام.

لكنه، اذا كان في عام ١٩٨٦، اتهم بعض كبار الموظفين بإدعاء صنع المعجزات؛ فان أسلوبه في إدارة الشؤون العامة في موسكو أظهر انه ما يزال سلفياً تقليدياً. فقد لاحظ بعض المراقبين السوفيات ممن يكّن ليلتسين مشاعر المودة، انه يميل من قبل محاولته التصدي لجهاز الحزب، وحتى

لغورباتشيف نفسه، الى التفرّد في العمل والى المظاهر الانفعالية التمثيلية. وهكذا مثلاً، دخل ذات يوم الى متجر المواد الغذائية « غاسترونوم ١ » ولم يكن بعد معروفاً جداً في موسكو، وطلب شراء بعض لحم البقر. وعندما قيل له انه غير متوفر، عرفّ عن نفسه كأمين سر الحزب في موسكو واستوضح عن كمية اللحوم التي سلّمت الى المتجر في الصباح. فقيل له انها بقيت، كما يحدث غالباً في موسكو، في البرادات كي تباع بسعر أرفع لأناس نافذين...

حقق هذا الطراز من الأعمال والعقوبات التي استتبعتها، ليلستين شعبية واسعة. غير ان خصومه أخذوا عليه ان هذه الأساليب لا توفر حلولاً لمشاكل التموين الحقيقية في موسكو. وقالوا ان يلتسين ما يزال يتصرف كرئيس حزب في سفيرلوفسك، ولا يدرك ان موسكو، بسكانها البالغ عددهم التسعة ملايين، هي وحدها دولة ببنياتها السياسية المعقدة وادغالها المتشابكة المصالح والأهواء. في الواقع وجد يلتسين نفسه في موسكو وجهاً لوجه مع عدد كبير من الهيئات الحزبية العريقة في الخبرة والحنكة والتي لا تميل الى الانتقاص من امتيازات البيروقراطية...

يقصد بهيئات الحزب تلك التي تعمل في الوزارات الكبرى والإدارات الحكومية والوحدات الصناعية والتجارية في المدينة وتكشفت ليلتسين صعوبة فتح ثغرة في هذه الجبهة الموحدّة خلف الروتين والمكاسب الطبقية... واضطر في غالب الأحيان إلى الاكتفاء بنقل بعض الموظفين من أصحاب الشأن بصورة مباغتة، هو الذي يتباهى كل يوم بشعبيته الواسعة، مما أثار الإنطباع بانه مُني بالخيبة كأمين سر للحزب يناضل في سبيل إصلاح الجهاز الإداري فيه.

كان بين يلتسين وغورباتشيف وجوه شبه شديدة في العديد من النواحي، سواء في مسيرتهما السياسية أو في طريقة تصدّيهما للمشاكل العملية. تخلى

كلاهما عن الغشاوة الايديولوجية التي يتلحف بها سواه. ارتقى كلاهما درجات الحزب من دون صخب أو سلوك مسلك وصولي بأي شكل كان، ولكنهما كانا يشعران بالاشمئزاز لتردي وضع الحزب والدولة وينفران من نمط الحياة التي يعيشها المسؤولون. وأدرك كلاهما انه يتعذر بلوغ الأهداف السياسية، في المدى البعيد، من دون القبول بتسويات معينة. عاش كل منهما حياة بسيطة وأفادا من الحد الأدنى من الامتيازات الممنوحة لهما كمسؤولين؛ أثار كل ذلك الإنطباع بانهما على صلات وثيقة من الصداقة والتعاون. عندما كان يلتسين يذهب في نقده اللاذع، أبعد من غورباتشيف، كان أبناء موسكو يعتقدون بان الأمر يتعلق بعملية تكتيكية متفق عليها، حيث يتولى يلتسين الهجوم، فيما ينصرف غورباتشيف الى تحصين المواقع المحتلة.

لكن تكشّف في تشرين الأول (اوكتوبر) عام ١٩٨٧ ان بينهما تبايناً عميقاً في الرأي. لم يكن يلتسين مستعداً لقبول كافة التسويات التي يعتقد غورباتشيف انها كفيلة بدعم سياسته الاصلاحية. وسعى، خلافاً لرغبة غورباتشيف ونصيحته، الى الصدام المباشر في اللجنة المركزية، مع ايغور ليغاتشيف، الذي يحظى بتعاطف الموظفين العارم. فأثار خطابه صخباً شديداً.

إفتتح يلتسين مداخلته عن موضوعه المفضل حول امتيازات كبار الموظفين. وقال: يجب التخلص من أبواب الرزق هذه سيما وان التموين في البلاد لم يتحسن. لن تتقدم البيريسترويكا طالما ان حزب البيروقراطيين والكتبة لم تُدّك صروحه. ثم استشهد ببعض الرسائل التي تطالب بانسحاب الجيش السوفياتي من افغانستان. والتفت الى اللجنة المركزية متوسلاً: حان الوقت، ايها الرفاق، ان ننتقل بعد الكلام الى العمل. حان الوقت ان نستخدم السلطة. السلطة بيدنا. وقد « اؤتمنا عليها من الشعب. فإذا سقطنا في المستنقع ولم نستخدم هذه السلطة في سبيل الدفاع عن مصالح الشعب، فان البيرويسترويكا تبقى حبراً على ورق ».

عند ذاك، تصدى يلتسين مباشرة الى ليغاتشيف واتهمه بالصراخ والزعيق وتوجيه التأنيب اليه. ولم يكتفِ بمهاجمة زعيم المحافظين ورئيس جهاز الـ ك.ج.ب.، تشيبريكوف، بل راح ينتقد رايسا غورباتشيف زوجة الأمين العام ويتهمها بالتدخل في شؤون زوجها عبر المخابرات الهاتفية والإنذارات والتنبيه. وأعلن أنه يمتنع شخصياً عن مثل هذه التجاوزات. لا شك ان هذا الكلام يلقى استحساناً شعبياً واسعاً، اذ كان الحزب والوسط السياسي يتساءل، منذ مدة طويلة، عن الدور الذي تلعبه زوجة غورباتشيف، وبأي حق تمارس تدخلها. لكن هذا الهجوم المباشر ضد زوجة الأمين العام وأمام اللجنة المركزية تخطى كل ما كان يمكن تصوّره، وهو يعني، في كل حال، ان العلاقات بين غورباتشيف ويلتسين كانت على وشك التحوّل — ان لم تكن قد تحولت — الى تلك الكراهية التي برزت الى العلن بعد سنتين.

وضع هجوم يلتسين غير المنتظر غورباتشيف في وضع صعب. كانت جلسة اللجنة المركزية تهدف إلى تحضير الخطاب الذي ينوي غورباتشيف القاءه في ذكرى الثورة — وهو خطاب مخصص لعرض الوضع السياسي ونقد الماضي الستاليني. وإذا بيلتسين يشن هجوماً على البيروقراطية والمحافظين، مؤكداً بذلك قيام جبهة تضم مناوئي حركة الإصلاح ! توالى على الكلام أربعة وعشرون خطيباً، لكن الجميع انتقد « روح المغامرة السياسية » عنده وتطرفه « اليساري المزعوم ». اتهمه العديد منهم بالتهرب من النقد الذاتي والتصرف الفردي. عرض غورباتشيف، كسواه من الخطباء، نتائج الأعمال التي حققها يلتسين، وأعلن انه يفتقر الى النشاط والتبصر في إدارة الحزب في العاصمة. ووصف خطابه بعدم النضج السياسي وإثارة البلبلة والتناقض، وأعلن ان يلتسين يعطي الأولوية لطموحه قبل مصالح الحزب ويلقي على الآخرين مغبة اخطائه وتقصيره.

بدا يلتسين وكأنه انتهى على صعيد عمله السياسي في الحزب. وإذا به يستدير فجأة على نفسه ويقرّ بالأخطاء التي اتهم بها ويعزوها الى طموحه.

ثم أعلن انه يسحب انتقاده الموجه نحو البيريسترويكا ويعترف بأنه أخطأ تجاه جهاز الحزب في موسكو والمكتب السياسي وميخائيل غورباتشيف. مهما كان التباين في الرأي شديداً بين غورباتشيف ويلتسين ومهما كان سببه، فان هذا الأخير أضعف موقف غورباتشيف بتصدّيه للجبهة الموحدة المؤلفة من أعضاء اللجنة المركزية الذين لا يرغبون بالتخلي عن امتيازاتهم.

لم يطبع خطاب يلتسين بعد جلسة اللجنة المركزية. لكن سرعان ما راج نصه بين الناس. كما أقدمت صحف الحزب، بغية استقطاب الشعب الى جانبها، على نشر خطب خصوم يلتسين، التي تتيح إعادة تركيب خطابه بخطوطه الكبرى وجرى وضع ملصقات على جدران عدد من محطات المترو في موسكو؛ تشير هذه الملصقات المجهولة المصدر، إلى ان المواطنين السوفيات يلتفون حول يلتسين ويؤيدون انتقاداته. وفي عدة محطات، تجرأ بعض الشبان على توزيع منشورات التأييد له، وجرى تنظيم مظاهرة في ساحة « تروبنايا »، لم يشارك فيها سوى أربعين الى خمسين شخصاً توزعوا جماعات ووحداناً، في جو من البرد القارس، فيما تمركزت في زاوية الشارع شاحنات مليئة برجال الشرطة. كانت المظاهرة مبكرة وفي غير أوانها. لم تُلقَ الخطب فيها ولا الهتافات. لم يكن يجرؤ أحد، بعد، على الجهر بتأييده لبوريس يلتسين.

في الواقع، لم يبدُ بوريس يلتسين مقنعاً في جلسة اللجنة المركزية. ومن وجهة النظر التكتيكية، أساء تقدير علاقات القوة القائمة بين الأطراف وأثار ردة فعل معاكسة لما كان يبغيه. تحدّى غورباتشيف ووضعه في موقف حرج. ثم بعد انتقاد خصومه له، قام بعملية نقد ذاتي لم يألف الحزب مثيلاً لها في عمقها وبعدها، فضلاً عن انها جرت في جو من الندم المصطنع أو التوبة المؤقتة. غير ان كل ذلك لم يسئ اليه في أوساط الشعب السوفياتي، الذي كان يشاطره تبرّمه من بطء الاصلاحات وعيوبها، وحالة التموين المتردية والامتيازات، كما يعتبره المعبّر عن سخطه وخيبات آماله. صنع جهاز الحزب

من يلتسين شهيداً. ويستطيع الشهداء دوماً الإتكال على تفهّم الروس وقبولهم. وعى غورباتشيف حالة الرأي العام وأدرك ان يلتسين لم ينتهِ تماماً. واذا كان خسر منصبه كأمين سر الحزب في موسكو، فقد عيّن، خلافاً لكل توّقع، وزيراً مساعداً لشؤون البناء، وهو منصب يجعل منه عضواً كامل الصلاحية داخل الحكومة. ففي موسكو، حيث المكاتب المجهزة بالهاتف والآلة الكاتبة وحتى بالناسخة الفوتوغرافية ــ منعت لفترة طويلة ــ من الأمور النادرة، فان الحصول على مكتب وزاري مجهز يشكل ورقة رابحة لا غنى عنها لمن يرغب تهيئة عودته الى المسرح السياسي.

أدت الضجة التي قامت حول قضية يلتسين الى إغفال حادثة أخرى. جرت اثناء انعقاد الهيئة العامة للجنة المركزية، وهي خروج غيدار آليف من المكتب السياسي. كان آليف يتحدر من اذربيجان وينتمي إلى عهد بريجنيف حيث اعتلى قمة الهرم في الحزب والحكومة. وهو يرمز بنظر اصدقاء غورباتشيف، الى الامتيازات غير العادية والى النهب والسلب والفساد. كان الاصلاحيون يرون فيه الناطق باسم المحافظين. أفاد غورباتشيف من سقوط يلتسين للتخلص من آليف، ليس باتهامه وإدانته، بل بإعادته إلى أذربيجان لدواع صحية. كان ذلك بمثابة نصر سياسي حتى ولو لم يفهم مؤيدو غورباتشيف معنى ان يترك هذا الرجل يرحل مكرّماً ويدفع له معاش تقاعدي مرتفع بصورة استثنائية، وظنّوا به متآمراً في اذربيجان ضد السياسة الجديدة المتبعة وضد أنصار غورباتشيف.

في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٨٧، الذي تصادف فيه الذكرى السبعون لثورة تشرين (اوكتوبر)، القى غورباتشيف خطابه ــ البرنامج أمام ستة آلاف عضو من نخبة الحزب في قصر الكرملين. أمضى عدة أسابيع في تحضيره. قرأ دراسات المؤرخين والخبراء العلميين الذين انكبوا على دراسة تلك الحقبة الرهيبة من عهد ستالين ونتائجها.

يعرف غورباتشيف ان معظم الأعضاء النافذين في اللجنة المركزية والمكتب السياسي يرغبون في الحدّ من النقد. إنما ينبغي إقرار الخطاب في المكتب السياسي ومناقشته في اللجنة المركزية، أو أقله التعليق عليه. لم يشك غورباتشيف ان التوصيات والمسودة التي أعدها مستشاروه ومعاونوه المقربون كانت تذهب في مضمونها أبعد مما تقبل به غالبية اعضاء المكتب السياسي.

قبل أيام من القاء الخطاب السنوي، بدا غورباتشيف وهو يعرض « الفكر الجديد »، في غاية الوضوح في نقده للسياسة الخارجية السوفياتية السابقة. وأعلن انه لا ينبغي، بعد اليوم، النظر الى قضايا العالم من زاوية الصراع بين نظامين اجتماعيين متناقضين. وقد جاء حديثه في إطار « لقاء دولي » شاركت فيه وفود أجنبية تضم، فضلاً عن الشيوعيين والدمقراطيين الشيوعيين، عدداً من أنصار البيئة وممثلين عن حركات اخرى يطلق عليها « تقدمية » بدا غورباتشيف في خطابه السنوي في قصر الكرملين، متعاطفاً مع التنازلات التي كان يعتزم منحها للمحافظين. فقد تحدث عن التطور التاريخي للاتحاد السوفياتي، وعن السياسة الداخلية والاقتصادية، وكذلك عن الوضع الدولي. وبدا في تعليقه على الماضي انه لم يذهب بعيداً كما في السابق. تحدث عن مظالم السنوات الثلاثين، وعن الأعمال الاعتباطية وغير المشروعة في عهد ستالين، فأدانها كأنها جرائم عادية، لكنه لم يشر سوى الى « بضعة آلاف من الضحايا من داخل الحزب وخارجه » في الوقت الذي أشارت فيه المنشورات السوفياتية عن « بضعة ملايين » ضحية... بقي خطاب غورباتشيف السنوي، من نواح عديدة، دون الخطاب الذي ألقاه نيكيتا خروتشيف مفتتحاً به المرحلة الأولى من القضاء على الستالينية. أثار خطاب غورباتشيف خيبة عدد من المفكرين السوفيات. شكا اندره ساخاروف علانية من ان غورباتشيف لم يقل كل الحقيقة الرهيبة عن جرائم ستالين. غير ان غورباتشيف لم يغلق باب النقد لعهد ستالين واكتفى بشق الطريق. من جهته أبلغ الكسندر باكوفليف المفكرين بانه عليهم عدم اخذ

« ملاحظات » غورباتشيف على انها تعليمات وأوامر نافذة؛ وبدا غورباتشيف كمن يسير، مرة أخرى، بحذر شديد في حقل زرعه خصومه المحافظون بالألغام.

شدّد غورباتشيف في ملاحظاته حول الوضع في الاتحاد السوفياتي على ان اصلاح المجتمع بات يفرض نفسه بإلحاح. وجعل من مسألةِ تطبيق الدمقراطية الشرط الأول لكل إصلاح اقتصادي جذري، باعتبار ان هذا الاصلاح مسألة جوهرية تأتي مباشرة في المرتبة الثانية في سياق حركة البيريسترويكا. كما رأى غورباتشيف انه ينبغي على النظام الاقتصادي الذي يتصوره ان يوفّق قدر المستطاع بين المركزية والإدارة الذاتية ـــ وهي صيغة جديدة للحل الوسط ـــ بناء عليه، أبدى غورباتشيف رأياً متفائلاً أثار الاستغراب والدهشة حول النتائج التي اقترنت مسيرة الإصلاح بها حتى الآن، معرباً عن تصوّره بان السنوات المقبلة ستكون صعبة وحاسمة وأشار الى المقاومة المتنامية للاصلاح على جبهة القوى المحافظة، ملمحاً في هذا الصدد الى حركة « تجمعات العمل » ـــ من دون اعطاء المزيد من الإيضاح حولها ـــ ويدل هذا التلميح على مدى اطلاعه على تطور الأمور، ذلك ان منظمي ما عرف باسم حركة « تجمعات العمل » التي ستصبح فيما بعد خلايا المقاومة ضد الاصلاح الاقتصادي وتطبيق الدمقراطية، لم يكشفوا عن وجوههم الا بعد سنة في لينينغراد.

حذّر غورباتشيف مستمعيه، هذه المرة أيضاً، كما في معظم خطبه السابقة من القوى الحزبية والمحافظة، وكذلك من اولئك المتبرّمين المغالين في اندفاعهم وحماسهم، الذين يعتبرون ان البيريسترويكا لم تؤتِ ثمارها بشكل سريع ويرغبون في تجاوز المراحل واستعجالها.

كما كان متوقعاً، أثار خطاب غورباتشيف شعوراً بعدم الإرتياح في صفوف اولئك الذين استهدفهم في نقده، فيما أسف الجناح الإصلاحي لخلوه من أية اجراءات عملية وروزنامة تنفيذية. أما السياسة الخارجية التي نادى بها

فقد لاقت قدراً اكبر من الإستحسان والقبول، ذلك ان الأمين العام سعى لرسم سياسة خارجية تقوم على علاقات جديدة بين كافة الدول الرأسمالية والاشتراكية على السواء، ومبنية على الترابط فيما بينها. اذ ينبغي على المصالح المشتركة بين الشعوب، وليس الصراع بين الطبقات، ان يحدد آفاق المستقبل.

غير ان غورباتشيف راعى أيضاً، في هذه النقطة، جانب المحافظين والجيش حين أعلن ان القوة العسكرية للاتحاد السوفياتي تقوم بمهمة منع « الاستعمار » من التغلب على الاشتراكية. ودعا العسكريين الى تغيير رؤيتهم للأمور، وهم الذين كانوا حتى الآن يحلّلونها بعبارات التفوق (بهدف ضمان قدراتهم الدفاعية كما يقولون) وبات عليهم اليوم القبول بمبدأ التكافؤ وتعادل القوى. في معاهد الأبحاث العلمية، وصل الأمر الى أبعد من ذلك، لجهة التخلي عن مبدأ تعادل القوى، لصالح مبدأ « القدرة الدفاعية الكافية ». وهنا أيضاً حرّك غورباتشيف الأمور على الصعيد العسكري من دون أن يحرج المحافظين أو يصل الى حدود المواجهة معهم.

لدى مناقشة السياسة الخارجية وسياسة التسلح، كان غورباتشيف يمتلك أوراقاً مهمة بين يديه. فبعد رحلاته الأولى الى الخارج أثار لدى الشعب شعوراً بان رئيس الحزب قادر على التعاطي مع مسؤولي العالم الغربي من الندّ الى الندّ. ونقل التلفزيون مشاهد عما قام به في لندن وباريس ورايجافيك حيث تبين للمشاهدات السوفياتيات ان رايسا لا تختلف عن سائر زوجات المسؤولين الغربيين. في تلك المرحلة لم يثر ظهوره أمام الجمهور أي نقد، بل على العكس، ساهمت سياسته الجديدة في تدعيم موقعه بشكل حاسم. وكان الشعب يتوق الى السلم بعد ان صوّر عهد بريجنيف ان هذا السلم معرّض للخطر في غالب الأحيان. وتراءت له اشارات مشجعة تمثلت في استعداد الحكومة السوفياتية على سحب جنودها من افغانيستان وكان يتوقع من المفاوضات الجارية للحدّ من سباق التسلح أو وقفه ان تؤدي الى رفع مستوى المعيشة. وهكذا أتاحت مؤتمرات القمة لغورباتشيف ان يستعيد

مواقعه التي خسرها اثر خلافه مع يلتسين، سواء من جانب المحافظين أو من مؤيدي « الإصلاحات الجذرية ».

كان لقاؤه مع رونالد ريغان في البيت الأبيض بمثابة عيد للسلام ونصرٍ كبير له، وعاش مشاهدو التلفزيون السوفيات تلك اللحظات التاريخية في جو من الحماس والغبطة: غورباتشيف بين الجماهير المحتشدة، نزوله من السيارة لمصافحة الأيدي الممدودة، الأميركيون المتحمسون، فان كليبورن على البيانو في البيت الأبيض يعزف ويغني مع ريغان وغورباتشيف « ليالي موسكو ». كل ذلك انفجر صوراً تلفزيونية كان لها وقعها على المشاهدين السوفيات بالقدر نفسه الذي شكله توقيع معاهدة خفض الصواريخ المتوسطة المدى او الامل بتوقيع معاهدة بين السوفيات والاميركيين حول افغانيستان.

ارست معاهدة خفض التسلح مبدأ تدمير صنف كامل من الصواريخ الذرية. واضطّر العسكريون السوفيات للتسليم بخسارة كميّة من الصواريخ تفوق ما خسرته الولايات المتحدة (نظراً لتفوق السوفيات في عدد الصواريخ المتوسطة المدى)، ولكنهم اغتبطوا لتخلصّهم من تلك الصواريخ التي كانوا يعتبرونها دائماً مصدر خطر كبير، لكونها الوحيدة التي تستطيع إصابة اهدافها في الاتحاد السوفياتي انطلاقاً من قواعدها في اوروبا. وسبق لقمة رايجافيك ان هيأت الأجواء لتلك المعاهدة، عندما اصطحب غورباتشيف معه رئيس هيئة الأركان العامة الماريشال اكرومييف.

فيما بعد نجح غورباتشيف في فرض تصوّره لنزع التسلح على جيش أبدى كبار قادته في البداية القلق والتحفظ الشديدين لفكرة خفض القوات السوفياتية. فيما كان الإصلاح الإقتصادي يتقدم بخطى بطيئة ولا يعد بالكثير من التحسن الملموس في مستوى المعيشة، وتطبيق الدمقراطية يثير الخلافات والرفض بين صفوف موظفي الدولة والحزب، حققت السياسة الخارجية نجاحاً ظاهراً. واخذت مكانة الاتحاد السوفياتي ترتفع على المسرح الدولي بموازاة

ازدياد نفوذ غورباتشيف وشعبيته. فاستغل الأمين العام نجاحاته الخارجية لمواجهة الصراعات الداخلية.

جرت العادة في الغرب وكذلك في الاتحاد السوفياتي على نعت الخلافات السياسية « بالصراع على السلطة في الكرملين »، كأن في الأمر ظاهرة فريدة وسوفياتية بنوع خاص. غير ان ما جرى منذ منتصف الثمانينات في قلب القيادة الجماعية كان شبيهاً بالمعركة السياسية التي يمكن رصدها داخل الحكومات الائتلافية في الدول الغربية أو العالم الثالث. غير ان المصطلحات الشيوعية تخفي هذه التشابيه لأنها ما تزال تؤكد على إجماع الرأي داخل الفريق الحاكم وفي اوساط الحزب كافة. في الواقع، قام في المكتب السياسي في الاتحاد السوفياتي، بدءاً من منتصف الثمانينات فريق جامع يضم تيارات سياسية تمتد من المحافظين المعتدلين لتصل الى الليبراليين الدمقراطيين. وكان يتعين على كل تيار منها ان يستقطب الأنصار في الحزب والجهاز الاداري وبين اوساط المفكّرين وفي صفوف الشعب، وان يحرص بموازاة ذلك على فرض وجهة نظره السياسية من خلال إتخاذ القرارات السياسنية وسنّ القوانين. ولا بدّ لمن يتوصل الى تحقيق افكاره وتصوراته من ان يتضاعف عدد الأنصار حوله بشكل مطرد.

في تلك الأثناء، لم يكن لأي عضو من اعضاء المكتب السياسي جماعات محددة الهوية يستطيع حشدها بسهولة عند الاقتضاء. كان من المهم بالتالي، الحصول على معلومات دقيقة حول سيرة حياة معاونيه وأنصاره وعملهم ونمط عيشهم. وبذلك يمكن إشعارهم، في الوقت المناسب، ان وضعهم أو منصبهم غير منيع أو حصين. ولذلك أيضاً ينبغي إقامة علاقات وثيقة مع الشرطة السرية في جهاز الـ ك.ج.ب. الذي لم يعد يؤلف كتلة متجانسة. وكان من الملائم تجنب المواجهات المباشرة والإتهامات القائمة داخل الفريق الحاكم، والتأهب الدائم للحصول على المناصب المناسبة متى حان أوان توزيعها.

كان غورباتشيف من البارعين في فن السياسة، فلا تغيب أهدافه عن ناظريه، ويعرف كيف يقبل الحلول الوسط والتسويات وكيف يوصل أنصاره الى المناصب العليا في الحزب، متحاشياً عدم إثارة مشاعر المطرودين منها لجهة إعتبار استبعادهم كأنه عقوبة لهم أو انتقاصاً من أهليتهم. ذلك ان حرمانهم من الامتيازات والمكاسب والشقق السكنية المرفّهة، من شأنه تعقيد مهمة الأمين العام في عملية نقل الموظفين وتبديلهم. غير انه لم يكن يمتلك في ربيع عام ١٩٨٨ أرضية صلبة لاتخاذ القرارات السياسية والتنظيمية بمفرده وبالسرعة المطلوبة.

في ربيع عام ١٩٨٩ استقال تسعة وتسعون عضواً وعضواً رديفاً من اللجنة المركزية. فقد اعلنوا بشكل عفوي مذهل ان تقدمهم في السن لم يعد يتيح لهم الاضطلاع باعباء المهام الملقاة على عاتقهم في هذه المرحلة من التغييرات المتسارعة، عندئذٍ أقدم غورباتشيف على ترفيع أربعة وعشرين عضواً للحلول مكانهم من بين المحافظين المعتدلين. لكنه لم يؤمن الى جانبه غالبية الأعضاء البالغ عددهم ٢٥١ في اللجنة المركزية الجديدة، فيما كان المكتب السياسي يتألف في مطلع عام ١٩٩٠ من اعضاء يداخلهم الشك في إجراء إصلاحات سريعة في المجتمع ــ حتى ولو كانوا، على غرار ليغاتشيف قد ناهضوا الفساد المستشري في الحزب الى جانب غورباتشيف.

شهد الوضع السياسي عام ١٩٨٨ أوج البلبلة والتردد، من جراء الجدل الذي احتدم بين صحيفتي « سوفيتسكابا روسيا » و « البرافدا ». وقد نشأت المواجهة في أعقاب رسالة وجهتها طالبة جامعية غير معروفة في لينينغراد، تدعى نينا اندرييفا، الى صحيفة سوفيتسكايا روسيا الناطقة باسم الحزب في روسيا الاتحادية. تجاهر هذه الطالبة بتأييدها الشديد للمبادئ الماركسية اللينينية، وتندد بتعددية الاحزاب باعتبارها تلحق الضرر بالدور القيادي للحزب



ـــ غورباتشيف يتحدث في كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٨٨ مع اهالي مدينة سبيتاك لدى زيارته لها بعد الهزة الارضية في ارمينيا (الى اليسار رئيس الحكومة ريجكوف)

الشيوعي. نشرت الرسالة في ١٣ آذار (مارس) في الصحيفة المذكورة التي اعتادت منذ عدة أشهر نشر مقالات تؤيد الستالينية الجديدة وتناهض السامية وحركة « الغلاستوست ». وزعت نسخ عن تلك الرسالة في موسكو ومدن اخرى، ووضع مجهولون اعداداً منها في صناديق بريد الموظفين والمفكرين.

تبين من قراءة الرسالة بإمعان وروية انها وثيقة صيغت بعناية لمهاجمة البيريسترويكا وليست ردة فعل ساخطة عادية. وتندد صاحبتها بالانتقادات الموجهة للستالينية وتطالب بإعادة الاعتبار لدور ستالين مستهجنة بشدة الفكرة التي تطالب أنصاره بالندم والتوبة. كما تندد بتلك « الاشتراكية الليبرالية اليسارية » الناشئة، التي تبشر بمذهب انساني متحرر من صراع الطبقات، وتتهم الليبراليين والتروتسكيين بخيانة الطبقة العاملة والأمة الروسية. أما آثار

اللاسامية فكانت ظاهرة تماماً في تلك الرسالة. من جهة أخرى، كانت نينا اندريغا تتملق الشعور الوطني لدى انصار روسيا الكبرى، وفي الوقت نفسه، تهاجم ممثلي التيارات الروسية التقليدية الذين يرون في التأميم القسري والقضاء على فئة الفلاحين مصدر كل البلايا في الاتحاد السوفياتي. عبّر نص الرسالة بمجمله عن موقف واضح ضد سياسة الغلاسنوست والبيريسترويكا كما يراها غورباتشيف. وطالب بالعودة الى نهج سياسة مركزية لا تخجل من أصولها الستالينية.

بعد نشر الرسالة شكك العديد من المفكرين في موسكو بصحتها. وساد الاعتقاد بان ليغاتشيف الناطق باسم المحافظين في المكتب السياسي، ومعاونوه اشرفوا على وضعها جزئياً او كلياً.

في الواقع، كانت الرسالة من إعداد تلك الطالبة الجامعية التي ما تزال الى اليوم أيضاً من المعجبات بستالين الى حد التزمّت، إضافة إلى تمسكها بالعقيدة الماركسية ــ اللينينية. ولا علاقة لليغاتشيف وفريقه بتحرير تلك الرسالة. ويقال اليوم أيضاً انهم خففوا من حدتها بحذف بعض المقاطع الموجهة مباشرة ضد شخص غورباتشيف وأهدافه الدمقراطية. لكن بات من الواضح ان ليغاتشيف يؤيد مضمون الرسالة وينوي الإفادة منها، لأن المحافظين الملتفين حوله كانوا يهجون بنفس الكلام الذي قالته نينا اندريغا.

نشرت الرسالة مباشرة قبل سفر الأمين العام الى بلغراد. وكان للقوى المحافظة بالتالي، متسع من الوقت لاستغلال الرسالة بصورة رسمية. واستخدمت طيلة بضعة أيام كمادة تعليمية في عدة اجتماعات حزبية وفي الجيش أيضاً.

كان الوضع خطراً بالنسبة لغورباتشيف، اذ يخشى ان ينجرف الحزب في سياسة محافظة اكثر تشدداً. ويمكن اعتبار هذه الرسالة مؤشراً لمعركة تهدف الى تغيير المسار السياسي.

عقب نشر الرسالة بخمسة أيام، عاد غورباتشيف من يوغوسلافيا. وامضى اسبوعين في اعداد ردّ دحض فيه رسالة نينا اندرييغا أمام المكتب السياسي. نشر الردّ في صحيفة البرافدا، لسان حال اللجنة المركزية ووزع في كافة أنحاء الاتحاذ السوفياتي. وقد تولّى الكسندر ياكوفليف ومعاونوه صياغته بالاتفاق مع غورباتشيف. تمّ فيه عرض رسالة نينا اندرييغا على انها تعبير عن موقف محافظ وعقائدي يرمي الى منع كل محاولة تجديدية، فيما اتهمّ الردّ اولئك الذين استخدموا الرسالة على انها بيان ايديولوجي ضد مسيرة الإصلاح، بانهم وطنيون متزمتون ويعتنقون مفهوماً قدرياً حول التاريخ، اذ ان الذين يدافعون عن ستالين بهذه الطريقة، ينادون أيضاً باللّجوء إلى الوسائل الستالينية في الاتحاد السوفياتي اليوم، ويعارضون المسيرة الدمقراطية التي لا يمكن تصوّر تحقيقها من دون توفير حرية الفكر والرأي وقيام مواجهة شاملة ونقد الأفكار المتداولة. لا تشير مقالة « البرافدا » الى قوى الحزب التي تعمل على وقف مسيرة الإصلاح ولا تذكر اية أسماء، فيما تناولت بالسخرية هيئة تحرير صحيفة « سوفيتسكايا روسيا » وحدها، واصفة إياها بالخفة لنشرها رسالة تطرح مقررات الحزب على بساط البحث والمناقشة.

أعادت صحيفة « سوفيتسكايا روسيا » نشر مقالة « البرافدا » دون تعليق، لكنها اعترفت بعد عشرة أيام بان نشر المقالة من دون اتخاذ موقف منها كان خطأً. غير ان النقد الذاتي الذي مارسته لم يذهب بعيداً، اذ كانت تتوقع ان يعفيها التوازن القائم بين القوى المحافظة وفريق غورباتشيف من الجهر بالمزيد من الاخطاء.

كانت مقالة البرافدا، في كل حال، مناسبة لغورباتشيف كي يوضح لكافة الموظفين وعموم الشعب، بشكل قاطع بان لا عودة الى الوراء، حتى ولو كانت المعركة في سبيل البيريسترويكا، قاسية ويخشى ان تكون أشد وأدهى. وكان لا بدّ من تنبيه موظفي الأرياف أيضاً، لان غورباتشيف كان بحاجة الى دعمهم لدى اختيار المندوبين الى المؤتمر التاسع عشر للحزب الذي

كان يستعد لوضع معالم الإصلاح على الصعيدين الاجتماعي والسياسي. ولما كان عموم الموظفين يتقيدون بالنهج الجديد على مضض، فلا يمكن لغورباتشيف ان يدعهم يظنون ان كبار الموظفين في الحزب قادرون على حمايتهم اذا عنّ لهم مقاومة سياسته الجديدة.

تابعت عملية الكشف عن جرائم العهد الستاليني مسيرتها بموازاة البلبلة التي احدثتها رسالة نينا اندرييفا. وكانت الصحف تنشر التحقيقات الواسعة عن التجاوزات المرتكبة في تلك الحقبة، وصور الجثث المكدسة لأولئك الذين قتلوا اعداماً بالرصاص. وتقدم ارقاماً عن عدد الضحايا تفوق بمقدار كبير « الآلاف » التي ذكرها غورباتشيف في الخريف الماضي. واعيد الاعتبار في الوقت عينه الى عدد من الزعماء الشيوعيين الذين جرى ابعادهم أو « تصفيتهم »، وإلى ممثلي المعارضة في اليمين واليسار. واقتصر الأمر على رد الاعتبار القانوني في الشكل (بالاعلان عن عدم شرعية الاحكام الصادرة بالاعدام) من دون اتخاذ موقف محدد حول الجوهر. غير ان رد الاعتبار لنيقولاي بوخارين اكتسب معنى آخر، اذ اعيد درس « السياسة الاقتصادية الجديدة » للسنوات العشرين، التي لعب بوخارين دوراً كبيراً في رسمها وتحديدها وجرت مناقشتها على نحو يوحي بانها تؤذن « بالإصلاحات الجذرية ». المهم ان عمليات رد الاعتبار كانت في كل مرة فرصة لإدانة مظالم العهد الستاليني، الأمر الذي كان يشجع على مناقشة الخيارات المطروحة في السياسة الاشتراكية وتعبيد الطريق المؤدية الى التعددية الحزبية.

لكن الوضع بقي غامضاً. فالمندوبون الذين عينتهم القواعد الحزبية لتمثيلها في المؤتمر التاسع عشر للحزب (١٩٨٨)، كانوا بغالبيتهم محافظين. بعض المفكرين من داخل الحزب وخارجه، مثل اندره ساخاروف، حذر بصراحة غورباتشيف من مغبة هذا الإخلال بميزان القوى. اعلن غورباتشيف من جهته عن تفاؤله بان المؤتمر سوف يعطي دفعاً جديداً للبيريسترويكا، ونجح أيضاً في التصدي لأولئك الذين كانت مسيرة البيريسترويكا تقلقهم،

من دون المساومة في موضوع الاصلاحات، وفي الحصول على موافقة قيادة الحزب على عشرة بنود ينبغي عرضها على المؤتمر. ويشكل كل ذلك نصراً رائعاً له.

تبين من توالي الأحداث فيما بعد ان الطرفين المتنازعين في اليمين واليسار كانا على تباين واضح في سلوكهما. فالجناح الاصلاحي هاجم مقترحات غورباتشيف. في المقابل وافق المحافظون في الحزب على مقررات المكتب السياسي، من دون إبداء معارضة شديدة كما امتنعوا كعادتهم عن توجيه النقد للمقامات العليا في الحزب. وبدأت أغلبية المحافظين في صفوف ممثلي الجهاز والهيئات في الأرياف تميل على مضض إلى تأييد النهج الذي رسمه المكتب السياسي واللجنة المركزية، ومن دون إبداء معارضة شديدة.

كان غورباتشيف، في الاساس، هو الذي أعدّ البنود العشرة التي تولّى معاونوه وضعها في صيغتها النهائية. وظهر واضحاً انها أعدت على عجل، كون بعض المقاطع بدا مضافاً فيما بعد. في الواقع، يمكن القول استناداً إلى النتيجة النهائية، ان هناك تغييراً في الشكل والمضمون قد طرأ في الدقيقة الأخيرة، لمراعاة جانب الغالبية المحافظة. يقول بوريس يلتسين ان معظم اعضاء اللجنة المركزية لم يطلعوا على البنود قبل المؤتمر ولم تتوفر لهم فرصة إبداء الرأي بها. ولما كان المكتب السياسي قد وافق عليها، فقد كان الإحتمال وارداً بان توافق عليها الغالبية المحافظة بين الوفود من دون اعتراض. تلك كانت خطة غورباتشيف.

غير ان هذه الخطة فشلت على نطاق واسع، اذ وافق معظم مندوبي المؤتمر على برنامج الاصلاحات الاجتماعية دون كبير حماس، فيما علا التصفيق للخطباء الذين طالبوا بالحدّ من حركة الغلاسنوست ووضع البيريسترويكا على نار خفيفة. وقد تساءل فيكتور أفاناسييف المحافظ والذي شغل منصب رئيس تحرير « البرافدا » حتى خريف عام ١٩٨٩، لماذا يناهض النواب حركة الغلاسنوست والصحافة.

أوضح الجنرال غروموف، قائد القوات السوفياتية في افغانيستان سبب ذلك في خطابه حين قال: « لا يحق لأحد في بلادنا، ان يقضي على الشعور الذي يخالج قلوب الشباب بان خدمة البلاد واجب وانهم لا يؤدون الخدمة العسكرية عبثاً ». وفيما كان الجنرال غروموف يبرر الحرب في افغانيستان، هاجم آخرون الصحافة « العدمية » التي تهدف إلى القضاء على الإيمان في الماضي.

حذر الكاتب يوري بونداريف، بنبرة مأساوية من مخاطر الإنحراف الايديولوجي الذي يؤدي الى الانحراف الروحي. وحذا فلاديمير كاربوف أمين السر الجديد لاتحاد الكتاب حذوه بالقول: « ان محاولة التخلص من الزعماء والقادة في اي ميدان كان هو نوع من المثالية التي تؤدي الى الفوضى ». وأجاد عدد من الخطباء المرموقين في امتداح الغلاسنوست، من دون ان يوافق غورباتشيف على أقوالهم، اذ أوقف عن الكلام أبرز المدافعين عن الانفتاح والدمقراطية، فيما أفسح في المجال لسائر الخطباء المحافظين للكلام من دون أية مقاطعة أو تدخل.

شكا عدد من المندوبين من ان الصحافيين خلقوا جواً من التشاؤم في المؤتمر، ولكن سرعان ما تبين ان المندوبين أنفسهم قد جعلوا من المؤتمر حائط مبكى، اذ ان معظم الخطباء البالغ عددهم ما يزيد عن السبعين، رسموا صورة عن أوضاع مناطقهم وقطاعات العمل فيها في غاية البشاعة. فقد نقلوا ان الفلاحين يعيشون منذ عهد بريجنيف حياة الرق والعبودية وان أعمال التأميم والتصنيع قد تمّت على حسابهم. واعلن احد المندوبين ان الوقت حان كي تعيد الدولة الى البلاد على الأقل جزءاً من الأرض التي اغتصبتها منهم اذا كانت تنوي حلّ مشكلة التموين. واعترف وزير الصحة بان الاتحاد السوفياتي يحتل المرتبة الدنيا بين الدول على صعيد الصحة العامة بحيث ان الوفيات بين الأطفال بلغت مستوى يفوق ما سجلته بعض دول العالم الثالث مثل « جزيرة موريس » و « بارباد ». وروى رئيس

لجنة التربية الوطنية ان خمسين بالمئة من المدارس لا تتوفر فيها التدفئة ومياه الشرب والخدمة، وان التعليم بالمناوبة يتناول ربع التلامذة، وهناك ما يناهز المليون والنصف مليون تلميذ لا يجدون مكاناً لهم في دور الحضانة. ولفت أمين سر اتحاد الشبيبة الشيوعية ان النهج السياسي الجديد لم يتغلب على شعور الحذر واللامبالاة لدى الشباب الذي لا يرى فيه عدد منهم سوى تشدّق بكلام ثوري رنان. وأوضح خطباء آخرون ان العمال غير متحمسين للاصلاحات الجديدة، لان المحلات التجارية فارغة والأسعار ترتفع...

تحدث بعض المندوبين بطريقة توحي بأن الاصلاح الاقتصادي قد فشل، حتى الخبير الاقتصادي ليونيد ابالكين الذي يحظى بتقدير غورباتشيف وقد عينه لاحقاً نائباً لرئيس الوزراء، شكك في صحة السياسة الاقتصادية الجديدة وتساءل اذا كان المسؤولون في القمة يتفهمون المشاكل القائمة...

لكن، في النهاية، أقر المندوبون، بحسب العرف المتبع وبالإجماع البنود التي قدّمها غورباتشيف، واعتبروا ان الإصلاح الاقتصادي الجذري بات ضرورياً لان البلاد اوشكت على شفير أزمة خطيرة. وأعلنوا اعتماد الدمقراطية في الحزب والمجتمع بغية الإفساح في المجال لاختيار المسؤولين من بين عدة مرشحين بالإقتراع السري (وليس بتسميتهم من قبل الجهاز). وتمنوا إقامة دولة القانون الاشتراكي حيث لا يتعين على المواطنين، وحدهم تأدية الحساب نحو الدولة، بل كذلك الدولة الى المواطنين، وحيث قرارات المحاكم تمليها القوانين وليس بناء لتعليمات امناء سر الحزب. كما وافقوا على قيام هيئات ومنظمات تدافع عن حقوقهم وتتمتع بحق المشاركة في النقاش السياسي.

من الصعب القول فيما اذا كان المندوبون قد أدركوا معنى البند السادس الذي ينص على إعادة السلطات الكاملة « لسوفيات » نواب الشعب. يؤلف

« السوفيات » (مجالس) بحسب الدستور، الجمعية الوطنية. لكن اعضاءه الذين تعينهم قيادة الحزب والسلطة الاجرائية، كانوا منذ عشرات السنين، مسؤولين في الواقع أمام السلطة التي عينتهم وليس أمام الشعب. أما البند السادس فقد نص على إخضاع السلطة الاجرائية لسلطة السوفيات ومندوبيه. وبذلك أصبحت البرلمانات المنتخبة في الاتحاد السوفياتي تتمتع بدور أكثر أهمية ويضعها على قدم المساواة والاستقلالية مع الحزب.

من المحتمل ان المندوبين وحتى بعض كبار الموظفين لم يفقهوا ماهية النتائج التي أدّى اليها هذا التغيير، اذ اعتادوا منذ زمن بعيد سماع عبارات براقة حول الدمقراطية السوفياتية من دون أن يؤدي ذلك إلى إعادة النظر في سلطة الحزب. من المؤكد انهم اصيبوا بالذهول او بما يشابه الضياع، حين طلب اليهم غورباتشيف الموافقة على احداث تغيير لم يكونوا أنفسهم ولا معظم كبار المسؤولين قد أمعنوا التفكير فيه. نصّ اقتراح غورباتشيف على حصر عدة وظائف سياسية بشخص واحد. مثاله ان أمين سر الحزب في منطقة ما يصبح رئيس السوفيات المحلي (مجلس النواب المحلي) الامر الذي يبدو انه يعزز مركز أمين سر الحزب. ولكن عليه، كي يكون عضواً في المجلس المحلي، ان يترشح للانتخابات، ويتعرض بالتالي في حال فشله، الى خسارة مركزه أيضاً داخل الحزب...

لعل المندوبين لم يدركوا خطورة الأمر لانه في حياتهم لم يسقط مرشحو الحزب في الانتخابات على الإطلاق. لكنهم ظلّوا في حيرتهم أيضاً حين اقترح غورباتشيف تطبيق « مبدأ حصر عدة وظائف في شخص واحد » فيما خص اعلى المنصبين السياسيين فقط. وعليه، بعد انتخاب مجلس جديد لنواب الشعب، يصبح أمين عام الحزب رئيساً للدولة أيضاً (مع صلاحيات أوسع مما كان يتمتع به حتى الآن رؤساء السوفيات الأعلى الذين كانت وظائفهم في الإجمال فخرية). وجد بعض المندوبين في إقتراح غورباتشيف مناورة منه لحصر كافة السلطات بين يديه. فلم يأخذوا بعين الاعتبار النتائج

المحققة لهذا الإصلاح، اذ يتولى الرجل الأول في الحزب والدولة سلطات أوسع بصفته رئيساً للدولة منه كرئيس للحزب. وسوف يؤدي تطبيق مبدأ الانتخابات بالاقتراع السري ولعدة مرشحين الى تقليص نفوذ الحزب. فضلاً عن ذلك، قد يؤدي إجراء الانتخابات في مجلس النواب (السوفيات)، حتى ولو لم يطبّق مبدأ تعددية الأحزاب، الى قيام هيئات رقابة برلمانية مستقلة عن الحزب والحكومة. عند ذاك يصبح غورباتشيف يتمتع بسلطات مماثلة لتلك التي يتمتع بها رئيس الولايات المتحدة، ويستطيع بالتالي نقل محور نشاطه من جهاز الحزب الى جهاز الدولة، اذا خطر للموظفين الوقوف في وجه التغيير. لخصّت احدى الشيوعيات الايطاليات من اللواتي دعين لحضور المؤتمر، الوضع الجديد بقولها: « لقد تحمّل غورباتشيف من الموظفين ما فيه الكفاية، وينوي حلّ هذا النادي عن طريق الانتخاب ».

جاء تعزيز صلاحيات رئيس مجلس السوفيات الأعلى — وهو منصب كان مصمماً على قياس غورباتشيف نفسه — ليثير القلق في نفوس مؤيديه الاصلاحيين الذين لم يكونوا على ثقة من ان حصر السلطات في شخصه سيكون خطوة متقدمة على طريق الدمقراطية. حتى ان غورباتشيف اتهم مستشاره اباكلين بسوء فهم معنى ما جرى حول الإصلاح، ذلك ان نائب رئيس الوزراء المقبل أثار الشكوك الجدّية حول جدوى الدمقراطية التي تبقي على مبدأ الحزب الواحد...

أسفر مؤتمر الحزب عن نتائج غامضة، ذلك ان المقررات التي صادق عليها المندوبون لم تنشر الا بعد أربعة أيام من اختتامه، وبعد انعقاد المكتب السياسي حيث — ربما — جرى تعديلها، إذ جاءت الصياغة النهائية لبند حصر السلطات بين يدي رئيس مجلس السوفيات الأعلى، كما اقترحه غورباتشيف، معدّلة ومخففة. كما اقتضى انعقاد الهيئة العامة للجنة المركزية في ٢٩ حزيران (يونيو) لوضع دقائق تطبيق هذا البند... وهنا أيضاً تراجع غورباتشيف قليلاً كي يتحفز للوثوب الى الامام. غير ان استئناف مناقشة

حركة « الغلاسنوست » في المكتب السياسي بعد المؤتمر ادّى بدوره الى بلورة صيغة أطلقت عملياً حرية العمل لوسائل الإعلام: « لا لاحتكار الحقيقة ولا لاحتكار الصدق والصراحة ». لم يسبق للحزب الشيوعي حتى الآن ان اكدّ مثل هذا الأمر على الإطلاق.

توسل غورباتشيف في خطابه الختامي للمؤتمر، الأعضاء ان يتخلوا عن « إيمان اعمى، بمستقبل مشرق » وحدّد أهداف التجديد بما يلي: إعطاء الاشتراكية وجهاً جديداً، وجهاً انسانياً ». هذا ما كان عليه الهدف المعلن في براغ قبل عشرين سنة، قبل تدخل الدبابات الروسية والبلدان الشقيقة !

الخصوم

قد يكون من قبيل تحصيل الحاصل القول ان بلادة غالبية الموظفين لا تتيح في الإجمال لهؤلاء، التكيف مع نشاط وحركة الفريق الاصلاحي الذي احاط غورباتشيف نفسه به. غير ان ساعة المجتمع السوفياتي كانت تسبق هي أيضاً ساعة الحزب. وكانت « الشفافية » في وسائل الإعلام قد فتحت بابَ النقد على مصراعيه، ولم يعد هذا النقد مقتصراً فقط على المواطنين السوفيات الساخطين لوقوفهم صفوفاً طويلة أمام المتاجر. فازداد عدد العمال الذين تجرأوا الكتابة إلى الصحف لبيان مآخذهم حول إدارة شؤون مؤسستهم او مدينتهم وعرض شكواهم من الوضع التمويني السيء الذي سجّل تردياً كبيراً في ظل البيريسترويكا بدلاً من ان يشهد التحسن. مثاله ان لجنة العمل في احدى المؤسسات تساءلت أمام التلفزيون: لدينا حالياً البيريسترويكا ولكن، أين السجق ؟ » حتى الآن، كان العلماء والكتّاب والصحافيون المستفيدين الرئيسيين الذين أتاحت لهم حركة الغلاسنوست فرصة التعبير الحر.

غير ان حرية التعبير شجعت أيضاً مختلف الفئات على التجمع والتضامن فيما بينها للدفاع عن مصالح كل منها. في الماضي، كان الحزب وجهاز الـ ك.ج.ب. يمنع ذلك. واذا « برابطات غير محددة الشكل » تبرز الى

الوجود بأعداد كبيرة تراوحت في مطلع عام ١٩٨٨، على حد قول الصحف، بين الثلاثين والأربعين « رابطة ».

ضمت معظم تلك الرابطات شباناً يريدون إتباع نمط من العيش الحر كان حتى الآن ممنوعاً لاعتباره من « الثقافات المنحّطة ». وهكذا نشأت فرق الروك وأندية الأنصار لهذا المغني او ذاك الممثل، الذين راحوا يعقدون اللقاءات في الأقبية وتسقيفات البيوت. وكانت موسيقى الروك الأجنبية وكذلك مؤلفات فرق الروك الروسية تستجيب لحاجة غامضة محورها التمرّد ضد دولة البالغين وضد إتحاد الشبيبة الشيوعية.

لكن سرعان ما تشكلت أيضاً مجموعات تسعى للتدخل بصورة نشطة في الحياة الاجتماعية. وقد اطلقت احدى تلك المجموعات على نفسها اسم « الرحمة ». لما كانت الاحصاءات الرسمية تعترف بوجود أربعين مليون مواطن سوفياتي يعيشون بمستوى أدنى من الفقر، فقد اعتبر المؤسسون الشباب لرابطة « الرحمة » ان المجال مفتوح، الى جانب بنيات الدولة الاجتماعية لقيام رابطات خيرية تمدّ يد المساعدة للمحتاجين والبؤساء. واخذت تلك الرابطات تهتم بالمسنين والمرضى في المدن الكبرى، وتستميل الى جانبها الإدارات الرسمية والمؤسسات الكبرى ومنظمة الشبيبة الشيوعية التي وفرّت لها فيما بعد الدعم والعون. اعتبرت تلك الرابطات غير ذي خطر على الصعيد السياسي، ومفيدة في الحقل الاجتماعي لكونها تأخذ عن كاهل الهيئات الرسمية قسطاً من مهامها الاجتماعية. ولكن تلك الرابطات قد كسرت، بنشوئها، إحتكار الحزب الذي كان حتى الآن المرجع المكلف بتنظيم المساعدة الاجتماعية.

غير ان رابطات اخرى سرعان ما أثارت حذر السلطات المعنية. فكانت اولها رابطة المدافعين عن البيئة الذين أخذوا يوقفون العمل في بعض ورش البناء بهدف انقاذ معالم تاريخية من الهدم او يحتجون ضد المفاعلات

النووية. وقد أفادوا من الدعم المعنوي الذي وفرّه لهم العلماء والكتاب المعروفون الذين غالباً ما وجهوا في الماضي الى المكتب السياسي عرائض احتجاج ضد تهديم المعالم الطبيعية، من دون طرح المشكلة على الرأي العام. والجدير بالذكر ان النضال البيئوي الذي يستخدم اليوم في تحركّه أساليب اللاعنف، شكلّ ظاهرة مستحدثة في المجتمع السوفياتي.

تشكّلت أيضاً رابطات اخرى للعمل التطوعي، في عطلة الأسبوع، هدفها إعادة ترميم الكنائس المهدّمة. بعضها كان مرتبطاً بحركة جديدة تحمل اسم « باميا » (ذكرى) وتلتزم احياء التراث الثقافي الروسي. شهدت باميا التفاف المؤيدين حولها بسرعة. وضم الجناح المتطرف في هذه الحركة آلاف المناصرين لها في شوارع موسكو والمدن الكبرى الأخرى. وأظهرت المظاهرات التي نظمتها ان الانفتاح لا يقود تلقائياً الى تحرير المجتمع السوفياتي، اذ اخذت تبرز تحت ستار شعارات الحركة روح التزمت الوطني لروسيا الكبرى، إضافة إلى نوع مبطن من العداء للسامية الروسية، من البديهي ان ترخص السلطات الرسمية لحركة باميا في ظل المناخ السياسي الجديد، ويمكن القول أيضاً ان بعض موظفي الحزب من المشهود لهم بالتزام خط الحزب، كان على استعداد للانضمام الى تلك القوى الوطنية ـــ المحافظة بغية محاربة الغلاسنوست والبيريسترويكا.

تشكلّت في موسكو والمناطق لجان تابعة لرابطة « ميموريال » (تذكار)، التي تهدف إلى الإبقاء على ذكرى اخرى مختلفة حية في النفوس، من خلال التشهير بلا هوادة بالإرهاب الستاليني وردّ الإعتبار لضحاياه وإقامة النصب التذكارية لهم. غير ان تصديّهم للماضي كان موجهاً ايضاً نحو المستقبل، اذ ينبغي عليهم الكشف عن رواسب الستالينية التي ما تزال حيّة في المجتمع السوفياتي.

شهد عدد من المؤسسات والمدن ولادة أندية لدعم حركة البيريسترويكا،

حيث تجري مناقشة التغييرات الحاصلة ويتم اللقاء مع أبرز مؤيدي الدمقراطية وأنصارها. وقد أتيح العمل لهذه المجموعات بصفتها « رابطات غير محددة الشكل »، إذ ان الأحزاب كانت ما تزال ممنوعة، وكانت المجموعات الجديدة تتحاشى في مجملها وبحذر كبير تسمية نفسها « بالحزب ». لكن في موسكو، سعى بعض المعارضين إلى التجمع تحت اسم « الاتحاد الدمقراطي » الذي نظم مظاهرات في ساحة بوشكين تطالب بتعدد الأحزاب وحرّية العمل النقابي وحقّ تقرير المصير للجمهوريات القومية. وقد أظهرت السلطات السوفياتية موقفاً اكثر تشدداً مما فعلته تجاه الرابطات التقليدية السابقة وجرى منع المظاهرات التي نظمها الاتحاد الدمقراطي وتفرقتها بواسطة الشرطة. غير ان تدخل مفارز حفظ الأمن المشكلة حديثاً شهد اعمالاً عنيفة وتلته ملاحقات وتعقبات بدت خفيفة الوطأة بالمقارنة مع القمع الوحشي في العهود السابقة، اذ تراوحت العقوبة بين الحبس لمدة ثلاثة الى خمسة عشر يوماً او الغرامة النقدية. ضمت المظاهرات نحواً من مئة شخص تأييداً للدمقراطية وتعدد الأحزاب، ثم تضاعف هذا العدد في موسكو ولينينغراد، اذ أفاد المعترضون من التوجه الجديد للقيادة السياسية التي لم تكن تنوي إعادة جو القمع والاضطهاد في البلاد.

خارج مدن اتحاد روسيا، انشأت « الرابطات غير المحددة الشكل » حركات ذات أهداف متنوعة، من دون ان تدرك قيادة الحزب في موسكو بوضوح مراميها البعيدة. ففي أرمينيا، مثلاً، ادى الاحتجاج على هدم المعالم الطبيعية الى ولادة شبكة من المجموعات تمتع قادتها من العلماء والفنانين بالكثير من النفوذ. وتحوّل صراعهم ضد مشاريع بناء المصانع الكيماوية والنووية الى مقاومة في سبيل بقاء بلدهم. وهذا الجمع بين المطالب البيئوية والقومية أكسب الحركة دفعاً حيوياً لم تعرفه سائر الرابطات الأخرى في العاصمة. وبذلك عادت الى الحياة مجدداً مطالب قومية قديمة العهد أدت الى إنفجار الصراع مع اذربيجان المجاورة. حاولت الأجهزة المركزية في

موسكو وقف النزاع. واستخدمت كافة الوسائل المتوفرة لدى الرقابة، لكنها اكتشفت ان هناك شبكة اتصالات غير رسمية تمتد الى كافة الاتحاد السوفياتي؛ واستمرت وكالات الأنباء وبعض المنظمات الأرمنية في نقل المعلومات وتوزيع الشرائط التلفزيونية المصورة عن المظاهرات على المراسلين الأجانب. فقد الحزب احتكار وسائل الإعلام. وفي أرمينيا نفسها تضامن مجلس السوفيات المحلي وبعض موظفي الحزب مع الحركة الوطنية. من كتلة متراصّة في الماضي، انشقّ الحزب الى عدة كتل متفرقة.

في جمهوريات البلطيق الثلاث، بدا تطور الأحداث في ظاهره اقل حدة. غير انه، اعتباراً من عام ١٩٨٦، جرى اعداد خطط طويلة الأجل، بمساندة رسمية من قيادة الحزب والحكومة، من أجل نقل السلطة الاقتصادية (الاقتصادية فقط..) إلى الجمهوريات المذكورة. تمّ كل ذلك باسم البيريسترويكا التي بدت اهدافها في ميدان التحديث الاقتصادي اكثر قبولاً في استونيا وليتونيا وليتوانيا منها في المناطق الاقل تخلفاً في الاتحاد السوفياتي. وهكذا تمكّنت جمهوريات البلطيق الثلاث من ان تصبح رائدة حركة البيريسترويكا ومحركها الناشط، ولم تجد سلطات موسكو اي داعٍ لاسكات النقاش الذي كان يرمي الى تحسين النظام الاقتصادي.

غير ان المطالبة بادارة الشأن الاقتصادي أضحت القاسم المشترك للعديد من المنظمات البلطيقية وأنضمت الى الحركة مجموعات كانت ممنوعة من القيام بأي نشاط الى الآن، مطالبة بالاستقلال الوطني والإنفصال عن الاتحاد السوفياتي. وتشكلت المجموعات الخضر التي أخذت تطالب بحماية الثروات المنجمية وبيئة بلادها ضد استيلاء وزارة الصناعة في موسكو عليها. ويرى بعض الشيوعيين ان من واجب الحزب اخذ المصالح القومية بالحسبان اذا كان ينوي الحفاظ على نفسه من الاضمحلال. وعرف مسؤولون وقياديون شيوعيون شعبية واسعة في جمهورياتهم عندما تزعموا الحركات القومية وعبّروا عن أماني الشعب وتطلعاته في وجه السلطة المركزية في موسكو. لكنهم

سرعان ما فقدوا القدرة على توجيه الحركة. وبات القيام بأي شيء متعذراً بعد الآن، من دون مساندة تلك الحركات الجماهيرية التي تعرف اليوم باسم « الجبهة الشعبية » والتي تمتلك كل واحدة منها، في جمهوريتها، وسائلها الإعلامية الحرة من صحافة وتلفزيون، وتستطيع من خلالها إسكات أبواق موسكو الدعائية. هنا أيضاً، فقد الحزب بصورة فعلية، السيطرة المطلقة التي كانت له على وسائل الإعلام.

شهد المجتمع السوفياتي، اذاً حركة ونشاطاً عندما بدأت حملة انتخاب اعضاء مجلس نواب الشعب. لأول مرة منذ ما يزيد عن ستين سنة، لم تعد قيادة الحزب هي التي تسمي المرشحين. لأول مرة يتعين على الناخبين ان يقرروا من يمثلهم داخل الهيئة الاشتراعية العليا. صحيح ان مؤتمر الحزب كان اتخذ في الصيف الماضي سلسلة من الاجراءات التي تكفل للسلطات المركزية في الحزب السيطرة على اختيار المرشحين. ثم ان الحزب ما زال يحتكر، في كل حال، حق تقديم الترشيحات...

مع ذلك، فرض المرشحون الذين يثيرون اللغط حولهم أنفسهم بصورة رئيسية في المدن الكبرى. وعندما حاولت اللجان الانتخابية التلاعب بسير العملية الانتخابية واجهت في غالب الأحيان معارضة شديدة.

حتى في المدن الداخلية، توالت الوف الاحتجاجات عندما سعى أمين سر الحزب مثلاً الى شطب اسم صحافية من لائحة المرشحين، لانها وجهت اليه النقد. لاحظ الموظفون بدهشة بالغة، ان غالبية الشعب السوفياتي كانت مصممة على المحافظة على حقوقها التي تكرست حديثاً.

إتقاءً لأية مفاجأة، اتخذ الحزب قراراً بان تتولى المؤسسات الاجتماعية انتخاب ٧٥٠ نائباً من أجل ٢٢٥٠. غير ان هذه المناورة باءت بالفشل أيضاً ورشح اتحاد السينمائيين واتحاد الكتاب ممثلين عنهم من الراديكاليين. وفي أكاديمية العلوم لم تنجح قيادة الحزب في فرض لائحتها المحافظة.

والعديد من المؤسسات أوصلت الى المجلس نواباً ما كانوا ينجحون بالاستفتاء الشعبي. وعندما شطبت ادارة أكاديمية العلوم اسم اندره ساخاروف من لائحة المرشحين، طالب بعض العلماء الشباب بإجراء تصويت جديد ونجحوا في الحصول على قرار بتبني ترشيحه اسوة بالعديد من الخبراء المشهورين في الجناح الاصلاحي.

اعتقد جهاز الحزب انه حمى نفسه على الأقل من مثل هذه المفاجآت المزعجة، عندما إدعى لنفسه حق اختيار مئة مندوب الى المجلس، ومن بينهم غورباتشيف. وبالتالي ضمان قيادة الحزب تمثيلها في مجلس نواب الشعب. من البديهي أيضاً أن المقاعد غير متوفرة لكل المحازبين من ضمن المئة المختارة، واضطر بعض امناء سر الحزب الاقليميون والمحليون، خصوصاً المحافظون منهم الى تقديم ترشيحهم للانتخابات. فكانت مناسبة سانحة لغورباتشيف كي يخضع معارضيه المتشددين ضد الاصلاح للامتحان أمام الشعب بواسطة الانتخاب.

ظن ما يناهز الأربع مئة منهم انهم اتخذوا الاحتياطات اللازمة ضد السقوط، اذ تدبروا شأنهم كي يكونوا مرشحين وحيدين، ولم يساورهم القلق لاقتراب موعد الانتخابات. وشهدت معظم الدوائر الانتخابية معارك حامية بين مرشحين او ثلاثة. ولم يسبق لجهاز الحزب والبيروقراطية والنظام بكامله ان شهد على الإطلاق هذا القدر من الهجوم العنيف، مثلما شهده في ربيع عام ١٩٨٩. كانت مشاكل التموين تحتل واجهة الإهتمام، وعبّر الخصوم الرئيسيون عن آرائهم بصراحة قاسية لدى وصف الوضع المأساوي. مثاله ان أحد أساتذة أكاديمية الحزب للعلوم الاجتماعية، أشار في حديثه أمام الناخبين ان الشعب مضطر للوقوف في صفوف طويلة لشراء سلع غذائية هي في الوقت عينه غير كافية وذات نوعية سيئة بحيث ان القطط تأنف من شمّها، فيما يستطيع مسؤولو الحزب الحصول من المتاجر المخصصة لهم، على السجق المملح وعلى الخضار « الاحيائية ». برر أحد الجنرالات

اكلاف برنامج غزو الفضاء بالقول ان الحملة ضد شرب الكحول قد فاقت بكلفتها ذلك البرنامج. وصف أحد معلقي التلفزيون، البيروقراطيين في الوزارات والادارات (ثمانية عشر مليون موظفاً) بانهم « أفواه لا فائدة منها، تعيق التقدم » وتتمسك بمناصبها، لدرجة ان « غورباتشيف لم يتوصل الى التخلص منها ». طالب قائد قاعدة الدفاع الجوية في موسكو بتخفيض النفقات الدفاعية ووعد الناخبين بان مستوى معيشتهم سيرتفع عندما تخفض نفقات الجيش...

عشية الانتخابات، كان معظم المراقبين السوفيات ما يزالون يعتقدون ان الناخبين سيصوتون في غالبيتهم لصالح المرشحين المعتدلين سواء إنتموا إلى الحزب أو الى حركة البيريسترويكا. غير ان نتيجة اول دائرة انتخابية في الاتحاد السوفياتي، اي في العاصمة أحدثت وقعاً شديداً يشبه الصاعقة. كان بوريس يلتسين يواجه فيها مدير مصنع للسيارات، وهو شخصية لها مكانتها بالنظر لما حققه من نجاح اقتصادي. وكان جهاز الحزب قد فعل كل ما في وسعه لمنع ترشيح يلتسين. اذ أقامت اللجنة المركزية في اللحظة الأخيرة الدعوى ضده، بحجة تفوهه بأحاديث تسيء بحسب زعمهم الى الحزب. وكان يمكن لهذه الدعوى ان تؤدي الى اقصائه عن الترشيح. وهاجم اعضاء نافذون في الحزب يلتسين مباشرة. وسخروا منه مرددين، انه ليس سوى أمين سر فاشل في الحزب، وغوغائي سطحي...

كانت هذه المناورات محفوفة بالخطر. ألم تكن قيادة الحزب تبالغ في تقدير الإعتبار الذي تتمتع به ؟ لقد صنعت من يلتسين شهيداً. وأظهرت التجمعات العديدة التي قامت في موسكو، قبل الانتخابات بأيام معدودة، ان قسماً من الناخبين كان على استعداد للتصويت ليلتسين بقدر ما كان الحزب يسعى لاسقاطه. ووضع مؤيدوه في مكاتب الاقتراع فرقاً للمراقبة تسهر على أوراق الإقتراع باسم يلتسين منعاً لتبخرها أو إعتبارها ملغاة.

بلغ تعداد الدائرة التي ترشح فيها يلتسين ٦,٧ مليون نسمة. واحرز فوزاً ساحقاً اذ نال ٨٩,٤٪ من الأصوات.

كذلك تلقى موظفون ظنوا انهم في مأمن من السقوط، صدمة العمر، فسقط رجل لينينغراد القوي، يوري سولوفييف امين سر الحزب في المنطقة والعضو الرديف في المكتب السياسي، مع انه كان مرشحاً وحيداً، اذ عمد معظم الناخبين بكل بساطة الى شطب اسمه، ولم ينل سوى ١٥٪ من الأصوات. ووصلت أخبار الكارثة التي حلّت بعدد من أمناء سر الحزب بطيئة الى موسكو حيث رفض الكثيرون تصديقها. وفي استونيا فاز جميع المرشحين الذين دعمتهم « الجبهة الشعبية ». في المدن الكبرى، فاز المرشحون الذين انتقدوا الحزب والحكومة بشدة. في المدن الصغرى من المناطق الزراعية، كان الوضع مختلفاً، اذ نجح الحزب، على العموم، في إنجاح مرشحيه من خلال التلاعب بالانتخابات. غير ان نفوذه سجل في معظم المدن الرئيسية في البلاد انحساراً كبيراً.

من الوجهة الاحصائية، كانت غالبية النواب الجدد في المجلس من الشيوعيين، و ٨٨٪ من النواب المنتخبين كانوا اعضاء في الحزب الشيوعي، وهي نسبة تفوق بكثير تلك التي كانت متوفرة في مجلس السوفيات الأعلى لعام ١٩٨١. غير ان عدداً منهم كانوا شيوعياً من نوع جديد، من المفكرين والنقاد الذين انتسبوا الى الحزب للتخلص من مضايقاته، ولا علاقة لهم البتة مع جهاز الحزب التقليدي.

انصرف المواطنون السوفيات الى متابعة المناظرات الخطابية على الشاشة الصغيرة والتي كانت تحتدم بين نوابهم المنتخبين، حتى ساعة متأخرة من الليل. وكان العمل يتوقف بصورة شبه تامة في الوزارات اثناء البث التلفزيوني، ولفتت بعض المؤسسات الصناعية الى ان إعادة بث المناقشات قد أدّت الى التأخير في عمليات الانتاج. وغالباً ما تقطعت الدروس والمحاضرات في المعاهد والكليات. كانت البلاد بكاملها مسحورة بهذا الإنفجار الدمقراطي المفاجئ.

في المجلس، تناولت المناقشات ليس فقط السياسة الاقتصادية كما كان

متوقعاً، بل أسس النظام بحد ذاتها. حتى ان نائباً جديداً اشتهر برياضة رفع الأثقال، تجرأ مهاجمة جهاز الـ ك.ج.ب.، مطالباً بإخضاع الشرطة السرية لرقابة ممثلي الشعب. خلال المناقشات، تم السعي للكشف عن المسؤولين عن التجاوزات التي حصلت في اذربيجان وعن الأعمال القمعية الدامية التي رافقت التظاهرات في جيورجيا.

إقترح أحد النواب جرف تمثال لينين ونقل رفات ايلليتش الى جوار أمه كما طلب بنفسه. أما الكاتب تشينكيز إيتماتون فقد نعت « بالبربرية » فكرة الثورة العالمية. ولم تعد تسمع تلك الخطب الطنانة حول « تقدم الاتحاد السوفياتي » أو « الهدف الاسمى للشيوعية ». سعى النواب المحافظون الى تسويغ « النضال الدولي » في افغانيستان، لكنهم لم يعترضوا عندما أدين الاجتياح باعتباره صادراً عن مجموعة صغيرة من أعضاء المكتب السياسي.

كان المجلس بأكثريته من المحافظين، لكن المحافظين فقدوا الثقة بأنفسهم، ولم يعودوا يتفوهون سوى بخطابات رتيبة تحذر من مساوئ النقد المتواصل وتعميم التشاؤم على كل الصعد.

كان غورباتشيف يتولى مسؤولية إدارة هذا المجلس المؤلف من ٢٢٥٠ نائباً. وكان هؤلاء يعانون باستمرار من حاجتهم إلى التعبير عن مطالب ناخبيهم إضافة الى شكاويهم الشخصية المتراكمة منذ سنوات طويلة. وكانوا جميعاً يناضلون منفردين لان القاعدة القديمة التي تمنع تشكيل تيارات داخل الحزب الشيوعي ما تزال مرعية الاجراء. ولذلك كان يتعذر التنبؤ بأي إتجاه سوف يصوّت النواب ولم يكن سير عمليات الإقتراع على الدوام سليماً. فكان غورباتشيف، بصفته رئيس المجلس، يقف قرب المنصة محاولاً تعداد الأصوات مستعيناً بالفهرس... ثم جرى تركيب مراكز تعداد متصلة هاتفياً بمكتب الرئيس وموزعة في مختلف ارجاء القاعة الضخمة. لم يكن يخفى على مشاهدي التلفزيون ان غورباتشيف كان الوحيد القادر على إدارة المناقشات في هذا البرلمان الضخم والتحكم بمجراها.

برزت صورته كمروّض يسعى للسيطرة على الـ ٢٢٥٠ نائباً، مثيرة الإعجاب والحذر معاً. غير ان المعارضة لم تأتِ من جانب الموظفين الذين شاخوا في الخدمة، وما زالوا يخضعون ــ كأنهم تعودوا ذلك ــ لسلطة أمين عام الحزب، بل من جانب الاصلاحيين الذين يمثلون ثلث المجلس. كانوا يخشون ان يأخذ الرئيس القوي المجلس الجديد تحت كنفه ووصايته. كان الكثيرون منهم يتفهمون وضع غورباتشيف الذي يحتاج لسلطات واسعة للتغلب على الصعاب التي تواجه البلاد وإقرار الاصلاحات اللازمة وتخطي اللحظات الحرجة. لكن هذا الأمر قد يشكل تهديداً لمسيرة الدمقراطية، فيما إذا حصل غورباتشيف ــ وهو الامين العام للحزب ورئيس الدولة ــ على سلطات واسعة.

كان اندره ساخاروف أحد الناطقين الأكثر تمثيلاً لهذا التيار الاصلاحي، وسبق لغورباتشيف ان استعاده من المنفى، ويتعذر إتهامه بالسعي الى منفعة شخصية أو الطموح الى السلطة. وأضحى هذا العالم الفيزيائي النووي الذي يعتبر أب القنبلة الذرية السوفياتية مرجعاً معنوياً يحظى بتقدير الجميع. دافع بشجاعة عن حقوق الانسان والدمقراطية في حقبة كان هذا النوع من المواقف يشكل خطراً في الاتحاد السوفياتي، ودفع ثمن شجاعته نفياً الى غوركي. لم يتمكن، طوال سنوات مديدة من إسماع صوته في موسكو. غير ان بعض اصدقائه الشجعان حرصوا على تذكير الناس به. كان ساخاروف في طليعة الذين رفعوا الصوت عالياً ضد تهديم البيئة واستمر من منفاه في غوركي، يطالب الحكومة باحترام حقوق الانسان.

كتب هنريش بول عنه، يقول: يثير الانطباع لديك بانه ضائع في حلمه، وأحياناً كأنه شبه غائب، في حين انه يقظ وحاضر أبداً، فضلاً عن كونه ــ يا للغرابة ــ مناضلاً ناعماً لا يلين. يستهويني وصفه بالمعجزة، ولعلّ ما فيه من الجوانب التي يصعب ظاهرياً شرحها هو الذي يثير حفيظة الحكام في الاتحاد السوفياتي، ويجعلهم شرسين ضده: فهم لا يفهمونه ولا يفهمون

ان رجلاً يتمتع بشهرة العالم العبقري ومجده، ويكلّل الغار جبينه ويستطيع ان ينام على أمجاده ويستمتع بما استحقه من شهرة، مع كل ذلك، يناضل هذا الرجل بصورة منزهة عن كل غاية، في سبيل مأساة نصت عليها كل دساتير العالم، ولكن القليل من دوله تحترمها تماماً: انها حقوق الانسان. من الصعب، لا بل من المستحيل إفهام موظف يجلس أمام مكتبه، ويقبض على كل مظاهر السلطة وأدواتها، ان هناك من يريد المزيد « للآخرين » وليس لنفسه ».

غير ان الموظف الاقوى في الاتحاد السوفياتي فهم من كان اندره ساخاروف. من الصعب التصور ان ساخاروف قد عرف في حياته لحظة اكثر عمقاً من تلك التي رفع فيها ميخائيل سيرغيفيتش غورباتشيف سماعة الهاتف ليستدعيه من منفاه. جرى تحرير اكثر من مئتي منشقّ في تلك المرحلة. غير ان غورباتشيف شعر ان عملاً إدارياً بحتاً لا يوازي عظمة هذا الرجل الذي ينبغي عليه الآن ان يستعيد مكانته في العالم الفكري للاتحاد السوفياتي الذي يشهد تحولات كثيرة.

عرفت الظروف التي حصل فيها حدث الإفراج عنه اموراً غريبة ومثيرة. في ١٥ كانون الاول (ديسمبر) ١٩٨٦، حوالى الساعة العاشرة ليلاً، حضر فنيان كهربائيان وموظف في جهاز الـ ك.ج.ب. الى الشقة التي يقيم فيها ساخاروف، وعملوا على تركيب جهاز هاتفي، بعد ثماني عشرة ساعة، اي حوالي الساعة الثالثة من بعد الظهر، رن جرس الهاتف لأول مرة. يروي اندره ساخاروف: « صوت امرأة يقول: لا تقطع، ميخائيل سيرغيفيتش يود التحدث اليك — استمع — صباح الخير، أنا غورباتشيف على الهاتف — صباح الخير، اني استمع اليك ». أبلغني ان رئاسة مجلس السوفيات الأعلى قد قررت ان بامكاني العودة الى موسكو [...] وتابع: « سوف تعود الى موسكو. لديك هناك شقة تقيم فيها. لا مشكلة من هذه الناحية. آمل ان تستأنف نشاطك الوطني ». شكرته للإفراج عني غير انني أضفت

ان اغتيال ــ وهي الكلمة التي استعملتها ــ صديقي اناتولي مارتشينكو في احدى المستشفيات ــ السجن، احزنني كثيراً. لم يجب، لكنه قال لي انه تلقى رسالتي المؤرخة في ١٥ كانون الثاني، والتي طلبت إليه فيها الإفراج عن كل المفكرين المعتقلين في بلدي. أجابني: « راجعنا كل الأسماء التي ذكرتها في رسالتك، وأفرجنا عن الكثيرين منهم. لكن، هناك آخرون من نوع خاص ». فقلت له انني لم أشر في رسالتي إلى أناس من نوع خاص. والأمر يتعلق بمعتقلين بسبب آرائهم، أي اناس لم يعتقلوا إلا بسبب معتقداتهم ولم يلجأوا الى العنف إطلاقاً. بدا بوضوح انه كان يستمع، لكنه لم يعلق البتة على كلامي. ثم اني ــ إذا صحّت ذاكرتي ــ وضعت حداً للمكالمة. لا أدري لماذا. واعتقد انه كان باستطاعتنا متابعتها ».

لم يسبق لأمين عام للحزب الشيوعي السوفياتي ان استعاد منشقاً. وكانت مثل هذه الخطوة حتى الآن امراً لا يمكن تصوّره. ظن عدد من الموظفين ان المسألة تتعلق « باكتشاف مدهش » حققه الأمين العام الذي فسّر خطوته على انها تعبير عن التقدير الكبير الذي يتمتع به ساخاروف في الغرب. في الغرب أيضاً، هناك ميل لاعتبار عملية الإفراج عن ساخاروف عملاً دعائياً واستعراضياً. غير ان تلك الخطوة كانت من النبل بحيث لا يجوز اعتبارها مناورة تكتيكية. كان يعرف جيداً من هو ساخاروف، واطلع على مؤلفه بعنوان « خواطر في التقدم والتعايش السلمي والحرية الفكرية ». الذي تلته ايلينا بونّر، زوجة ساخاروف، لدى منحه جائزة نوبل. وكان مطلعاً أيضاً على آرائه الاقتصادية ودعواته لتطبيق الدمقراطية في المجتمع.

كان غورباتشيف يشعر « بجاذبية حميمة » ــ بحسب تعبير بعض المساعدين السابقين ــ نحو فكر هذا العالم الفيزيائي الذي تحوّل الى مصلح سياسي. ويعتقد ان المجتمع السوفياتي الذي يواجه متغيرات عميقة لا يسعه الاستغناء عن رجل مثل ساخاروف. وجاء قرار الإفراج عنه ليكشف عن الحس الإنساني والسياسي الذي يتحلى به غورباتشيف.

قضى اندره ساخاروف ما يقارب السنة ليشفى من العذابات التي قاساها، ويجد مواقعه في الإطار السياسي الجديد. بعدها، طفق مجدداً في الحديث، عن الإصلاح لدرجة انه أثار الشبهة حوله في الغرب من جراء دفاعه عن السياسة الإصلاحية لغورباتشيف. ولا شيء يدعوه للقيام بدور الناطق الرسمي بإسم السياسة الرسمية، على الرغم من قناعته بان الخط الذي رسمه الأمين العام سوف يقود الى الدمقراطية وإلى احترام حقوق الإنسان. غير ان مثاليته كانت تمنعه باستمرار من الاكتفاء بالتسويات وطالب بتغييرات سياسية حاسمة وسريعة. وكان تحرره المطلق من كل قيد أو شرط جعل منه وجهاً متميزاً في مجلس نواب الشعب. واثبت في سن السابعة والستين، أنه يتمتع بشجاعة لا تتزعزع، وانه الرجل الوحيد القادر على مواجهة غورباتشيف. وقد أبدى الرئيس غورباتشيف حياله بعض التبرم أحياناً، لحرصه على تنشيط بحث المسائل العلمية. وقد نشأ بين الرجلين، تفاهم عميق قائم على الإحترام المتبادل بقطع النظر عن الاختلاف العارض في الرأي. وأصبح ساخاروف العدو الرئيسي لعدد من النواب المحافظين. ذات يوم، كان احد الخطباء يهاجم ساخاروف بطريقة فظة، فيما نصف الحضور في الصالة يصفق تأييداً، فالتفت غورباتشيف الجالس الى منصة الرئاسة الى نائبه لوكيانوف، معلقاً بالقول، بحيث سمعه العديد من النواب عبر المذياع الذي نسي ان يقفله: « عليه ان يثبت اقواله بالادلة. هذا ما يسمونه دمقراطية ! ».

كان بعض النواب يعمد إلى قطع مداخلات ساخاروف باستجوابات حاقدة. ذات يوم، غطّى زعيقهم صوت ساخاروف، اذ كان بعض اللاساميين يصرخون: زوكرمان، زوكرمان ! ». يقول النائب الليبرالي المعتدل ايرا اندرييغا: « ان اللحظات الهامة في جلسات مجلس نواب الشعب، والتي أثارت الألم في نفسي، تلك اللحظة التي حاولوا فيها منع ساخاروف من الكلام. في نهاية الجلسة، اقترب بعضنا من الرجل الكبير بغية التخفيف عنه، والتفت لاجد غورباتشيف جالساً وحيداً على منصة الرئاسة. بدا، على

تلك المنصة الضخمة صغيراً، متعباً وخائر القوى. فانقبض قلبي. اذ لولا غورباتشيف لما كان لهذا المجلس من وجود، ولولاه لما انعقدت جلساته. توجهت الى المنصة، فرفع رأسه نحوي. عندما تتحدث إليه، يحدق بك دائماً. قلت له: « ميخائيل سيرغيفيتش، أودّ باسم نواب موسكو، ان أشكرك ». بدا كأنه لم يسمع كلامي، وقال بصوت حزين: « ألا تعي ما يحدث ؟ ألا ترأف بهذا الرجل العجوز ؟ أعرف نوعية هؤلاء النواب عن ظهر قلب ». وبدا شديد الإحباط من الطريقة التي عومل بها ساخاروف ».

قبل يومين من وفاة اندره ساخاروف، كانت الدورة الثانية للمجلس سانحة لحوار مأساوي بين الرجلين. كان غورباتشيف قد انتهى لتوه بصفته رئيس المجلس، من معالجة مسألة تتعلق بالنظام، وقال: « هذا كل شيء. لننتقل الى جدول الأعمال ». ثم توجه الى اندره ساخاروف وناداه باندره ديمتريفيتش، جامعاً بلهجة مؤدبة ورقيقة اسمه الشخصي إلى اسم اسرته. ضجت الصالة. رفع غورباتشيف يده طالباً السكوت وقال متوجهاً بكلامه الى ساخاروف: « مقترحات جديدة ». كان ساخاروف ينوي إدخال تعديلات على مشروع القانون المتعلق بملكية المؤسسات والأرض. فقامت إعتراضات ضد المشروع، بانه يخالف الدستور. وينبغي بالتالي عدم التطرق الى هذه المسألة الرئيسية في التشريع الاقتصادي خلال هذه الدورة. أما ساخاروف فكان ينوي في الحال طلب تعديل نص المشروع كي يأتي متوافقاً مع الدستور بغية التصويت عليه في الدورة الحالية. كان غورباتشيف يستمع وعلامات التبرم بادية عليه. ثم قال: « اظن انك لا تعرف شخصّياً ما يجب عمله. ونحن كذلك لا نعرف ».

اراد ساخاروف ان يرد بالقول ان المسألة بسيطة، لكن غورباتشيف لم يعد لديه متسع من الوقت. فقاطع ساخاروف مرات عدة بمداخلات قصيرة. واراد ساخاروف ان يسلمّه برقيات ورسائل تدعم موقفه — « تعالَ اليّ، لأريك ثلاثة أكياس ملأى بآلاف البرقيات »، رد غورباتشيف. — لدي

٦٠٠٠٠ برقية، أجاب ساخاروف: عند ذاك، رفع غورباتشيف يده قائلاً: انتهى الموضوع. ليتوقف كل منا عن السعي لإقناع الآخر. لنكفّ عن التلاعب بمشاعر الرأي العام وعن الإتكال عليه. كلا، هذا الأمر، لن نقوم به ». ساد الضحك في القاعة. وضع ساخاروف البرقيات والرسائل على مكتب غورباتشيف وترك المنصة. وكانت تلك آخر الكلمات المتبادلة بين ساخاروف وغورباتشيف قبل يومين من وفاة حامل جائزة نوبل للسلام.

كان غورباتشيف يدير الجلسات. غير ان الشعب بجميع فئاته في الاتحاد السوفياتي ادرك عبر التلفزيون ان نواب مجلس الشعب، ثم فيما بعد اعضاء السوفيات الأعلى المنتخبين من صفوفهم، يعرفون ما يريدون. لم تعد لهذه الاجتماعات اية علاقة مع تلك الاجتماعات المغلقة القصيرة للجنة المركزية، والتي تنشر الصحف مقتطفات موجزة عن مقرراتها وعن الخطب الملقاة ضمن جدرانها. في مجلس النواب، يعود لغورباتشيف والنواب اتخاذ القرارات. أما أعضاء المكتب السياسي الذين كانوا، فيما مضى حكام البلاد، فلم يعد لهم من وجود في المجلس ولا يشاركون في المناقشات. جرى في البدء تخصيص مقاعد لهم بالقرب من منصة الرئاسة، ثم انشئت لهم منصة شرف. فاعترض بعض النواب على هذه التدابير. ثم اعتلى احد النواب المنبر وهدأ من روع المعترضين بقوله: لا أهمية في ان يجلس اعضاء المكتب السياسي هنا أو هناك، اذ ما عادوا يلعبون اي دور في المجلس ». في النهاية، اتخذ اعضاء المكتب السياسي مقاعد لهم في القاعة مثل سائر النواب. وبذلك انتقلت السلطة علانية من يدي الحزب إلى مجلس النواب المنتخبين والى مجلس السوفيات الأعلى. ومما لا شك فيه ان غورباتشيف اراد ذلك وعمل له بكل براعة.

بالمقابل، كان عليه ان يتحمل ايضاً ردّة فعل النواب لوعيهم أهمية دورهم الجديد، اذ اخذوا يستجوبونه طويلاً — طالبين اليه توضيحات دقيقة عن « الداتشا » التي أمضى عطلته فيها — ثم صوتوا بأكثرية ساحقة لانتخابه

رئيس مجلس السوفيات الأعلى، اي في الواقع، رئيساً مطلق الصلاحية للدولة السوفياتية. ردّ غورباتشيف بهدوء تام على هذا الإستجواب غير المألوف، ولكن مسحة خفيفة من الغضب سرت على وجهه حين قال لهم انه اذا كان يحرص على اعتبار هذه الجلسة جزءاً لا يتجزأ من المسيرة الدمقراطية، فهو يدرك الدوافع الكامنة وراء تصرف بعض النواب. ثم رفع سبابته وأضاف: « غورباتشيف يرى كل شيء ». وضجّ النواب بالضحك.

كذلك خصص النواب الوقت الكثير لمناقشة اسماء المرشحين الذين اختارهم غورباتشيف لملء المراكز الإدارية والحكومية الرئيسية. حتى مساعده لوكيانوف، الذي يعرفه منذ سني الدراسة، لم ينتخب لمنصبه الا بعد مناقشات طويلة وقاسية. واضطر رئيس الحكومة المعين، نيقولاي ريجكوف، الى تبرير نشاطه السابق داخل جهاز الحكومة، وذلك طيلة بضع ساعات، قبل ان يوافق النواب على تعيينه بغالبية محترمة. وتعرّض تسعة مرشحين من الوزراء للرفض، فيما اضطّر غورباتشيف لاستخدام كل الوسائل الاجرائية كي يحتفظ وزير الدفاع، يازوف بمنصبه.

مع استمرار المناقشات الدائرة، اخذت مواقف النواب تتضح اكثر فأكثر. بعد اكثر من سبعين سنة، عادت تتشكل في الاتحاد السوفياتي ما يمكن وصفه، في غياب الكتل البرلمانية الحقيقية، بالمعارضة الرسمية. فنشأت « المجموعة المناطقية » حول بوريس يلتسين واندره ساخاروف؛ تميزت هذه المجموعة بكونها تضم حوالي أربعماية نائب يؤيدون حركة البيريسترويكا، فيما غالبية اعضاء المجلس من المحافظين. كان معظم هؤلاء النواب يؤيدون غورباتشيف ويودون استعجال مسيرة قطار الاصلاحات، فيما يتهم بعضهم الامين العام بالتردد والمراوغة. وكان غورباتشيف اضطر لمقاتلة المعارضين المحافظين، كي يصل الى الدمقراطية، وها هي الدمقراطية تقوده الآن إلى مواجهة جديدة مع الاصلاحيين...

كان غورباتشيف يعرف تماماً انه سوف يصطدم بعوائق مختلفة، ولكنه

تصوّر بلا شك ان طريقة الدمقراطية لن تكون شائكة بهذا القدر. مهما كان من أمر، فان إشارات التبرم وحتى التعصب أحياناً تضاعف ظهورها في أجواء مكتب الرئيس.

ربح غورباتشيف معركته في الوصول الى قمة المسؤولية في الاتحاد السوفياتي، أصبح الآن رئيس مجلس السوفيات الأعلى والأمين العام. وهو يمتلك في الظاهر الوسائل الضرورية لتنفيذ سياسته. غير ان المهام التي ينبغي عليه انجازها هي من الجسامة بحيث يخشى ان تغمره وتبتلعه، مهما كانت قدراته ومواهبه مميزة واستثنائية.

كان السؤال الذي يطرح باستمرار في الخارج كما في الاتحاد السوفياتي، في تلك الفترة: ما هي قوة غورباتشيف الفعلية؟ كان يبدو بصفته أمين عام الحزب ورئيس مجلس السوفيات الاعلى، متمتعاً بسلطات شبه مطلقة توازي في الكثير من جوانبها سلطات رئيس الجمهورية. لكنه، خلافاً لاسلافه، قيّد بنفسه تلك السلطات، لان خطته لتغيير الاتحاد السوفياتي تفترض التعددية الحزبية والدمقراطية الحقيقية. لا يستطيع غورباتشيف ممارسة الحكم الدكتاتوري اذا كان يريد للقوى الحية في البلاد أن تنهض وتنتشر. في الماضي، حافظ جهاز الحزب والشرطة السرية على وحدة البلاد بالقوة. أما اليوم، فهناك داخل الحزب وخارجه، مجموعات سياسية مختلفة، كما في العديد من الجمهوريات، حركات من طراز «الجبهة الشعبية» هي أقوى من الهيئات الحزبية والحكومية. ويخشى بالتالي على الاتحاد السوفياتي من خطر التفكك من جراء اعتماد الليونة في السياسة الداخلية. ففي جمهورية روسيا الكبرى التي تشكل من أوروبا حتى الاسكا، قلب الاتحاد السوفياتي غيرت المسيرة الدمقراطية معالم الوعي السياسي، وقاد غورباتشيف الحزب الى نظام التعددية السياسية. في هذه المرحلة الانتقالية بين نظام الحزب الوحيد والتعددية السياسية، بقيت الأمور غير واضحة على الصعيد السياسي. فلم تكن هناك مجموعة ثابتة يمكن لغورباتشيف ان يستند اليها. وليس

في البرلمان واللجنة المركزية سوى مجموعات متقلبة تعلن في معظمها تأييدها لسياسة غورباتشيف، ولكن كل مجموعة على طريقتها...

سعى بعض علماء الاجتماع السوفيات في مركز الأبحاث السوسيولوجية « علوم »، الى القاء الضوء على المرشحين الذين تقدموا الى مجلس السوفيات في جمهورية روسيا في ربيع عام ١٩٩٠، والى تكوين فكرة عن مناصريهم. وبذلك رسموا صورة تقريبية عن القوى السياسية الجديدة التي تكونت في الاتحاد السوفياتي، من دون ان تتمكن من تنظيم ذاتها فعلاً. فهناك اولاً « الغربيون » الموالون لمبدأ التعددية ويميلون ناحية الثقافة الدمقراطية لاوروبا الغربية والولايات المتحدة الاميركية. وهم يرون ان اعتماد السياسة الاقتصادية الليبرالية القائمة على المنافسة في السوق الحرة والملكية الفردية لوسائل الانتاج والأرض، من شأنه وحده ان يساعد على تحسين الوضع الاقتصادي. ويقدر علماء الاجتماع عدد « الغربيين بنسبة ١٥٪ من سكان موسكو. ولكن بين الشباب الذين لا تزيد أعمارهم عن الثلاثين سنة، هناك اكثر من ٣٠٪ يؤيدون قيام هذا القدر من التغيير الجذري في الاتحاد السوفياتي.

هناك أيضاً فئة « اليسار الشعبي » الذي يختصر توجههم السياسي بشعار: « اشتراكية ذات وجه انساني »، اي مجتمع اكثر انسانية، وبالتالي، مزيد من الحقوق للفرد. وهم يشاركون « الغربيين » في العديد من أفكارهم، لكنهم يدعون لفرض حدود ضيقة للإصلاح الاقتصادي وللملكية الخاصة. وتمثل هذه الفئة ١٧٪ من العينة المستجوبة في موسكو.

أما فئة « اليمين الشعبي » فهي اكثر عدداً ــ ٢٥٪ من المجموع (ولكن ١٧٪ فقط من الشبان). هي تنتقد حالة الاتحاد السوفياتي وتسلط البيروقراطية. ولا تطمئن لفئة المفكرين والمثقفين الذين اشتد نفوذهم في وسائل الإعلام. وتعتبر ان الفساد والسوق السوداء والإباحية من المشاكل الرئيسية في المجتمع. على الصعيد السوسيولوجي تتشكل فئة « اليمين الشعبي » من العمال وصغار الموظفين والوسط.

وتمثل فئة « الوطنيين القوميين » نسبة ٥٪ من المجموع ولا تضم سوى نفر قليل من الشباب، وهي تقع في أقصى اليمين في هذا التصنيف. وهي تشدد على إقامة دولة قوية يكون فيها الشعب الروسي المدافع الأول عن وحدة الاتحاد السوفياتي. وترى ان سلطة القياصرة المطلقة وديكتاتورية ستالين قد ارتكزتا على نوع من المثالية الاسطورية التي ينبغي الدفاع عنها ضد التأثيرات الغربية والرأسمالية.

أطلق علماء الاجتماع تسمية « انصار الدولة » على المجموعة الاكثر عدداً والتي تمثل ٢٧٪ من ابناء موسكو. هذه المجموعة لا تهاجم الحزب ولا الحكومة. وتطمح الى تحقيق التقدم ومزيد من الاستقرار، لكنها لا ترغب في مزيد من الدمقراطية والحرية. وتعتبر ان النصر الذي تحقق في الحرب العالمية الثانية قد عزز إيمانهم في الاتحاد السوفياتي الذي يستطيع، بنظرها، ان يتقدم في إطار السلطة القائمة.

يلاحظ، اذن، داخل الدولة ــ الحزب التي كانت في الماضي كتلة متراصة واحدة، بداية تحوّل داخل المجتمع السياسي السوفياتي يمكن تشبيهها بمجموعات الأحزاب التي نعرفها في اوروبا الغربية. لكن الوضع الخاص في البلاد لا يتيح بعد لهذه المجموعات ان تتخذ شكلاً محدداً. فضلاً عن ذلك، تطرح مسألة اليمين واليسار مشكلة، اذ يُصنَّف « الغربيون » و « اليسار الشعبي »، و « الوطنيون القوميون » و « الشيوعيون المحافظون » في خانة اليمين. ومعنى ذلك ان المصنفين في خانة اليمين هم الذين يتمسكون بالنظام الاجتماعي ويقاومون اي تغيير ليبرالي في ميداني الاقتصاد والثقافة.

بالمقابل، يقترب موقع الذين يصنفون في خانة اليسار، من الأحزاب الاجتماعية ــ الدمقراطية في أوروبا الغربية وحتى أحياناً من أنصار النظام الاقتصادي الليبرالي. ومما يزيد الغموض في هذا التصنيف، ان هذه التيارات المختلفة تتشكل من الشيوعيين وحدهم ! ذلك ان الحزب الواحد قد اجتذب

اليه خلال عشرات السنين، القوى الفاعلة في البلاد؛ وهذه القوى تدرك الآن، داخل الحزب الواحد، انها تنتمي، في الواقع إلى عائلات سياسية مختلفة وان عليها ان تتجمع، ذات يوم، على هذا الاساس. لكن، ما دامت الأحزاب ممنوعة، فلا بدّ للمرشحين من ان يتقدموا الى الانتخابات على أساس انهم شيوعيون، وفي الوقت عينه، ضد الحزب.

في هذا الوضع المتقلب، كان من الصعب على غورباتشيف ان يستند الى قاعدة سياسية صلبة. فأنصاره الكثر ينتمون الى التيار الاصلاحي في اليسار. غير انهم من الأنصار الذين يوجهون النقد اليه، وما تزال آراؤهم السياسية شديدة التناقض. وكان اليسار يطالب بالمزيد من الدمقراطية ويحرّض بذات الوقت، غورباتشيف بصفته رئيس الدولة، على ضرب المحافظين بيد من حديد. كذلك كان اليمين يتوقع منه انتهاج سياسة صلبة، ولكنه يأمل في ان يكبح جماح الإصلاحات ويحدّ من حرية النقد والنقاش.

لما كانت البلاد تعي تماماً حجم الأزمة، فان جميع المواطنين كانوا يتوقعون التغيير. وبذلك تعيَّن على غورباتشيف ان يتولى إدارة قوى متعارضة ومتناقضة. وكيف له ان ينجح في دولة تفتقر الى نظام برلماني، وتعارض تقليدياً كل التسويات.

تجدر الإشارة إلى ان غورباتشيف أحكم سيطرته على المسرح المسرحي من خلال شخصيته وليس من خلال سلطاته الرسمية. كذلك المجموعات الناشئة كانت بحاجة إلى زعماء قياديين. ولهذا ظهر على المسرح رجال برزوا كمنافسين لغورباتشيف ومن بينهم، بوريس يلتسين الذي سرعان ما ادّعى علناً القيام بهذا الدور. أما ليغاتشيف حليف غورباتشيف وخصمه معاً، فسوف يتحدث باسم الفئة المحافظة القلقة من الاصلاحات، إلى أن قرر المؤتمر الأخير للحزب في صيف عام ١٩٩٠، احالته على التقاعد.

بوريس يلتسين من أبرع السياسيين في البلاد بعد غورباتشيف. تصرف

في البدء كزعيم شعبي معارض اكثر منه كصاحب رؤيا سياسية شاملة. وسرعان ما اعتبر نفسه الرئيس المقبل للاتحاد السوفياتي، ساعياً في المرحلة الأولى للوصول الى رئاسة اتحاد روسيا. وهذا ما تحقق له في ربيع عام ١٩٩٠. اكسبه المنصب الجديد على رأس أكبر الجمهوريات السوفياتية وأهمها على الإطلاق، نفوذاً واسعاً يأتي من حيث المرتبة بعد غورباتشيف مباشرة. فنشأت بينه وبين الأمين العام، منافسة تعتريها خصومة شخصية، منذ ان فقد مقعده في المكتب السياسي. غير ان فوزه الانتخابي الساحق في موسكو، جعل منه محامي الشعب القادر على تحقيق النصر ضد الحزب. حظي بدعم العديد من أهل الفكر، وتأييد المناصرين من أصحاب الخبرة والتنظيم، وأصبح الخصم الرئيسي لغورباتشيف واكثر منتقديه حدة وشراسة.

يقول يلتسين: « لا نستطيع بالطبع الاندفاع حالاً الى الامام باقصى السرعة. واعرف ان التغيير يجب ان يتم تدريجياً. لكنني آخذ على غورباتشيف اعتماده التسويف وأنصاف الحلول. خلال خمس سنوات من البيريسترويكا، لم يضع خطة شاملة، كأننا نبني بيتاً من خلال تركيب نافذة هنا، وانشاء قسم من السقف هناك، وقبل تأمين الاساسات اللازمة. لا تختلف السياسة الاقتصادية في الكثير من وجوهها عما حاول خروتشيف وكوسيغين القيام به. تشير الاحصاءات لشهر كانون الثاني (يناير) عام ١٩٩٠، ان النمو الاقتصادي معدوم والانتاج الى انخفاض ». يتهم يلتسين غورباتشيف بانه أضعف سياسته لأسباب تكتيكية، وأدت محاولته لاشراك كل الحزب في المسيرة الإصلاحية الى الشلل والركود.

غير ان يلتسين لا يحسن، على ما يبدو، تقدير ميزان القوى. مع انه على الأرجح يدرك ذلك شخصياً. وهو ينعت غورباتشيف « بقائد البيريسترويكا، من دون جنود ». لكن يلتسين لم ينجح هو أيضاً في إقناع سوى حفنة ضئيلة من اللجنة المركزية ونواب الشعب. إضافة إلى انه عاجز

عن شرح خطته لتنفيذ مشروعه المتكامل حول تغيير اللجنة المركزية والمكتب السياسي.

في كانون الثاني (يناير) عام ١٩٩٠، وجد نفسه معزولاً تماماً في الجمعية العمومية للجنة المركزية، حيث واجه وحده برنامج الحزب. كان وحده ضد الجميع ومن دون ان تتوافر لدية أية فرصة لتقديم برنامج آخر. ظلت أفكاره السياسية غامضة عندما اتهم غورباتشيف، مثلاً بانه أهمل طيلة خمس سنوات تطوير دول البلطيق، ولم يقم بزيارة ليتوانيا إلا بعد ما ترسخت الحركة الاستقلالية فيها. أو حين يقول ان غورباتشيف تأخر في استخدام الجيش في النزاع القوقازي. يرى أيضاً ان سياسة التسويف هي المسؤولة عن الانتفاضات التي أدّت الى عزل قادة الحزب المحليين في المدن الصناعية الكبرى. لا شك ان يلتسين يتقن فن المزايدة الشعبية من خلال الظهور بمظهر رجل النظام: ألا تذكّر أحاديثه اليوم بما كان يقوله حين كان أمين سر الحزب ويهاجم الموظفين والمستخدمين في موسكو ؟.

يأمل يلتسين من غورباتشيف ان يحطم سلطة جهاز الحزب ويرخّص بانشاء احزاب سياسية ويعمل على إقرار برنامج جذري لجهة اعتماد نظام اقتصاد السوق، على الرغم من أن الغالبية الكبرى من اعضاء مجلس السوفيات الأعلى يعارضون هذا التوجه. يضيف يلتسين: كنت أُكنّ له الاحترام لذكائه وشجاعته. وقد ساندته عندما انتهج سياسة البيريسترويكا. لكنه تبدّل حين انتقل من ستافروبول الى موسكو. في الماضي كان متواضعاً ويعيش حياة بسيطة. أما اليوم، فلم يعد يحتمل النقد ولا يسمع الا ما يرغب بسماعه. خلال الجمعية العمومية للجنة المركزية، في تشرين الثاني (نوفمبر)، فقد غورباتشيف السيطرة على نفسه تماماً، إذ نهض من مكانه وأزاح الكرسي بعنف، وصرخ عالياً: « هل ترغب بمنصب الأمين العام ؟ خذه ! ». وفي مناسبات أخرى أيضاً، كان يصرخ، بدل أن يستمع ».

هذه المظاهر من التبرم ونفاذ الصبر عند غورباتشيف، شهدها آخرون

غير يلتسين ووجدوا تفسيراً لها في المهمة المرهقة التي يمارسها. اما يلتسين الذي يتهمه بانتهاج سياسة تقوم على التسويف والتردد، فهو ينسب اليه أيضاً تعطشاً الى السلطة قد يهدد الدمقراطية مشيراً من جهته الى انه تخلى عن كل الامتيازات التي تعود إليه من الحزب. فتقوم زوجته بالتسوّق من المتاجر التي يتسوق منها ابناء موسكو، ولم يتمكن ذات مرة من تأمين الأدوية التي كان يحتاجها لمعالجة حفيده. ويعلق يلتسين بالقول: هذا أفضل من أن يكون المرء ذا وجهين وسلوكين... وعندما يتطرّق الى بند الامتيازات، يهمس قائلاً ان غورباتشيف ابتنى لنفسه أربعة مساكن ريفية جديدة، من دون ان يقدم أي دليل لإثبات ما يدعيه.

من المؤكد ان الداتشا الموضوعة بتصرف غورباتشيف في راسدوري، بالقرب من موسكو، ليست حديثة البناء أو ملكاً خاصاً له. يقول يلتسين، ان لغورباتشيف داتشا أخرى في مكان ما في دول البلطيق، كما يستخدم اخرى تملكها الحكومة على البحر الاسود، قرب بيتسوندا. لكن يلتسين يصحح قائلاً ان رايسا غورباتشيف لم تذهب اليها البتة. ويبدو ان يلتسين غير محق في إتهامه إلا فيما خص الداتشا الرابعة. اذ بنيت، في « فوروس » في بلاد القرم، داتشا جديدة غير بعيدة عن داتشا غورباتشيف التي زارها ذات يوم ويلي براندت. يقول يلتسين ان رايسا غورباتشيف رغبت في قضاء الصيف في بيت يقع في منطقة نائية عن عيون السياح، وكلفّ بناؤه نفقات باهظة وهو لا يدخل في ملكية غورباتشيف، بل يعود الى اللجنة المركزية. ومنذ ان اصبح غورباتشيف رئيساً، يعلن رسمياً في موسكو انه لا ينتقل البتة الى فوروس او راسدوري، بل يكتفي بالإقامة في الداتشا العائدة للدولة. مداخيله معروفة أيضاً، اذ تبلغ مخصصاته الرئاسية ٤٢٠٠ روبل، ولا يتقاضى شيئاً بدل وظيفته كأمين عام. نفقات التمثيل محدودة أيضاً. حتى لو لم يتعين على غورباتشيف ان يدفع، بحسب القانون الضرائبي الصادر حديثاً، ٦٠٪ كضريبة على مداخيله، فان هذه المداخيل تبقى متدنية جداً قياساً

على مستويات الدخل الغربية. ولكن بالمقارنة مع متوسط الدخل لـدى المواطنين السوفيات، فان غورباتشيف يتمتع، بالواقع بمستوى معيشة مرتفع.

عندما يأخذ يلتسين على غورباتشيف تمتعه بالامتيازات الممنوحة له، فانه يتعمد ذكر اسم رايسا غورباتشيف في سياق أحاديثه، ملاحظاً انها شديدة الطموح ولها تأثير كبير على زوجها. ولا يوضح يلتسين ماهية التأثير الذي تمارسه عليه. لكنه يقول ان النساء يعرفن كيف يتصرفن مع ازواجهن. عندما تتحدث مع يلتسين عن غورباتشيف، فانه يدعك تلمس مدى كراهيته له.

في كل حال، تحوّل بوريس يلتسين من حليف ورفيق سلاح لغورباتشيف الى خصم لدود. وهو يتنبأ بقيام ثورة شعبية تطيـح بـه أو « بانتفاضـة المحافظين » لإستعادة سلطاتهم التي فقدوها. ويبدي خيبة أمله من بطء مسيرة التطور. يقول: في أوروبا الشرقية، حقق الناس في بضعة أسابيع، أكثر مما انجزناه في خمس سنوات ». تبدو خطاباته التي يخلط فيها البرامج الاصلاحية بالكلام الغوغائي، ذا تأثير على تلك الفئة من الشعب التي خاب أملها بنتائج السياسة الاقتصادية الجديدة. تراه تارة ناقداً وطوراً حاقداً، وفي الحالتين ينجح في استقطاب قاعدة واسعة من المؤيدين بدءاً من الاصلاحيين في صفوف اليسار، وصولاً إلى يمين الوسط. من الطبيعي ان يكون المرء شعبياً حين يدعو موظفي الحزب للتخلي عن امتيازاتهم كي يتأكدوا بأنفسهم كم ان الحياة اليومية صعبة. ومن السهل إقناع الآخرين حين يطالب بقيادة حازمة تعالج بسرعة مسألة النقص في المواد الغذائية...

في بداية حركة البيريسترويكا، كان العديد من المفكرين قد ساهموا في إعداد السياسة الاقتصادية الجديدة، مع غورباتشيف، واليوم أصيبوا بخيبة أمل شديدة لأن غورباتشيف لم يضعها موضع التنفيذ، وانضموا إلى فريق يلتسين. وهم مقتنعون مثله بان الإصلاح لن يؤتِ ثماره الا بشرط تغيير النظام بكامله. وتأتي تحاليلهم للوضع مؤيدة لأفكار يلتسين السياسية. لكنهم

لا يعرفون تماماً المدى الذي ينوي هذا الرجل الوصول اليه. لان يلتسين، الذي يبحث عن أوسع قاعدة ممكنة من الدعم الشعبي، يسعى أيضاً لاستقطاب تأييد اولئك الذين يريدون الإصلاحات الجذرية واولئك الذين يخشون النظام الليبرالي القائم على اقتصاد السوق، على حد سواء. وعليه ان يتحلى بالكثير من القدرة على المساومة كي يستطيع كسب تأييد فئات على هذا القدر من التباين في الرأي...

إختار غورباتشيف طريقاً اخرى. فهو يستند على بنيات الحزب والدولة لتغييرهما من الداخل. انه استعراض بهلواني دقيق يتطلب الكثير من التسويات التكتيكية والاستراتيجية. يرى سيرغي سانغيفيتش ــ وهو من أشد النواب الليبراليين تبصراً وفطنة ــ ان خيار غورباتشيف ينطوي على قدر متساوٍ من الحسنات والسيئات. ذلك ان غورباتشيف قد نجح، بالطريقة التي انتهجها، في تجنّب مواجهة علنية وشرسة مع جهاز الحزب. ويعتقد سانغيفيتش « ان غورباتشيف امضى حياته في أوساط جهاز الحزب، والجهاز يعرف ذلك. فهو يبدي لجماعة الجهاز انه واحد منهم ويستخدم الصيغ التقليدية التي اعتادوا سماعها. فهو يضع رجلاً في بور الجهاز، الأمر الذي يتيح له اعتماد اصلاحات جذرية من دون ان يصطدم مباشرة بمقاومة جماعة الحزب. ويضع رجلاً اخرى في الفلاحة خارج الجهاز، وعليه في هذه الحال ان يضع كل ثقله في هذا الموقع كي يستطيع البلوغ بالإصلاحات الى خاتمتها السعيدة. غير ان الجهاز شديد الحذر، اذ حالما يستشعر خطراً فعلياً يستهدفه ــ والإصلاحات الجذرية تشكل خطراً حقيقياً عليه ــ سوف يبدّل موقفه. وما تزال القوى المحافظة تحاول اجتذاب غورباتشيف الى جانبها، والمستقبل مرتبط بمدى حزم غورباتشيف: فهل يستطيع فرض الاصلاحات ضدهم عند الاقتضاء ؟

في هذا السياق، استطاع ايغور ليغاتشيف ان يكون حليف غورباتشيف وخصمه معاً. كان هذا الرجل يعتبر في المكتب السياسي الناطق باسم

جهاز الحزب؛ وبقي على نزعته المحافظة حتى اقصائه في تموز عام ١٩٩٠. وكان قد قدم الى موسكو، بعدما امضى في الريف ردحاً من حياته المهنية لا غبار عليها (مثل غورباتشيف ويلتسين)، فكلفه الأمين العام اندروبوف بمهمة تنظيمية داخل الحزب. كان على معرفة بغورباتشيف منذ نهاية الستينات، حين كان يتولى رئاسة لجنة الشباب في مجلس السوفيات الأعلى، وقد خلفه غورباتشيف في هذا المنصب عام ١٩٧٤، فيكونان قد عملا معاً في مجلس السوفيات الأعلى وفي الحزب.

في البداية، حين شرع غورباتشيف في تطهير الحزب من عناصره الفاسدة وغير الكفوءة، كان ليغاتشيف سنده الأمين. وكان يردد بان انتخاب غورباتشيف لمنصب الأمين العام ما كان ممكناً لولا دعمه وانه أعدّ البيريسترويكا بالاتفاق معه. وبقي في كل حال لمدة طويلة الرجل الثاني في القيادة الجديدة، مشرفاً على أمانة سر اللجنة المركزية عاملاً على إعداد مشاريع القرارات التي تصدر عنها، ومتولياً مسؤولية الإشراف على شؤون موظفي الحزب والعقيدة. كان يرى وجوب حصر التغيير في نطاق أضيق مما يتصوره غورباتشيف؛ واعتبر الغلاسنوست وحرية الصحافة مصدر خطر على مكانة الحزب الشيوعي وايديولوجيته. وتصدى عندئذٍ للنقد الموجه الى التاريخ السوفياتي والذي كان يملأ أعمدة الصحف والمجلات، وعلّق على ذلك ساخطاً بالقول: « اذا صدقنا ما ينشر، فيكون الشعب السوفياتي جماعات من العبيد أشبعوا طوال سنوات كذباً وافتراء. في الواقع، ناضل ملايين الناس بإخلاص في سبيل بلادهم وأدّوا واجبهم بكل نزاهة في ظل حكم ستالين وبريجنيف ».

هذه الكلمات تجسّد أحاسيس عدد كبير من السوفيات الذين أصيبوا بالإحباط للطريقة التي يجري فيها الحكم على التاريخ والمجتمع. وهم لا يدركون معنى النقد الجارح لماضٍ شغل حيزاً كبيراً من حياتهم. فقد دافعوا تحت راية ستالين عن وطنهم وأنقذوه. وفي ظل حكم بريجنيف، عملوا

بكل نزاهة ونبل، ولا بدّ لإعادة النظر في الفكرة التي كونّوها عن تاريخهم من ان تعني لهم التنكّر لما كانت عليه حياتهم. كذلك كان يتحدث ليغاتشيف أمام موظفي الحزب، عندما أشاد بهم في معرض اشارته الى ان متوسط الاجرة لدى مستخدمي الحزب لا يتجاوز مايتين وستين روبلاً وانهم يمثلون المرتبة السادسة والعشرين في سلم الأجور. غالباً ما كان يقابل حديث ليغاتشيف في اجتماعات الحزب بعاصفة من التصفيق أشد مما يلقاه غورباتشيف.

من البديهي، بالنسبة لليغاتشيف، ان الحزب يجب ان يبقى المرجع الأعلى في البلاد وليس له ان يؤدي الحساب لأحد باستثناء قيادته. والتعددية الحزبية تهدّد ليس مقامه فحسب، بل من خلال ذلك، تماسك الاتحاد السوفياتي كله. ويرى في هذا السياق انه ينبغي تحديث نظام الحزب الواحد والتماسك الايديولوجي. من هنا فان المغالاة في حركتي الغلاسنوست والبيريسترويكا قد تشكل خطراً شديداً على هذه الجوانب الاساسية من الاستقرار. (وعندما يقول ليغاتشيف « بالمغالاة » فهو يعني حرية التعبير والإصلاحات الاقتصادية).

لم يكن ليغاتشيف خطيباً لامعاً، فهو يستخدم اللهجة الآمرة التي اعتادها في الحزب. انه شيوعي محافظ من الجيل القديم. غير ان هذا الرجل الذي كان يشغل، في نهاية الحرب، منصب رئيس المهندسين في مصنع للطيران، ليس بالخصم الرجعي للتحديث الاقتصادي. ففي السنوات الأولى من البيريسترويكا انطلق مع غورباتشيف في مسيرة الإصلاح التقنوقراطي الذي كان من شأنه أن يؤدي بالاتحاد السوفياتي لبلوغ المستوى المتقدم الذي وصل اليه العالم الغربي. في اعتقاده، يجب على التحديث ان يرتكز على الوعي الاجتماعي الذي كوّنه التاريخ الروسي والسوفياتي.

كان ليغاتشيف قد ارسى علاقات وثيقة بين الشيوعيين المحافظين والقوميين الروس. وقال في مطلع عام ١٩٨٦: « على الحزب ان يطالب بتأدية حسابات

دقيقة عندما تعالج المسائل القومية بخفة. فالتاريخ والثورة والانصاب التذكارية هي وسائل قيّمة لتنشئة الشعب. وعلينا تنشئة الناس بطريقة يلتقطون فيها روح الشعب التي تحيا في الأنصاب التاريخية والآثار الفنية، في الحجر والبرونز، وفي مثالية أسماء مدننا وشوارعنا وقرانا ».

حين كانت كلمة السر في السياسة الجديدة هي « التسريع » بقي ليغاتشيف صامداً الى جانب غورباتشيف. ولكن عندما ظهر جلياً ان غورباتشيف يرمي الى أبعد من تحديث الاقتصاد المركزي، ساورت الشكوك ليغاتشيف وقال ملمحاً الى بوريس يلتسين: « لم يسبق لي ان طرت حول تمثال الحرية. اعتقد اننا نسير نحو الشيوعية ». كان يرى ان القبول بتحويل ملكية المؤسسات الصغيرة والمطاعم والمتاجر الى القطاع الخاص يشكل خطوة نحو الرأسمالية، حتى ولو ارتكز هذا التحول على نظريات لينين التعاونية. ولم يتوانَ عن تشويه سمعة بعض المتعهدين الجدد ونعتهم بالمضاربين. وسرعان ما لقيت انتقاداته أصداء واسعة لدى الشعب وتحولت الى معارضة مفتوحة ضد كل المحاولات الرامية لإدخال المبادرة الفردية والملكية الخاصة في صلب القوانين السوفياتية.

يعتبر ليغاتشيف ان الترخيص للفلاحين باستئجار أرضهم أو تملكّها هو نهاية للكولخوزات ولملكية الدولة. وعلى الاقتصاد ان يرتكز على الملكية الجماعية اذا شئنا عدم تقويض النظام القائم. في نهاية صيف ١٩٨٩، عاد ليغاتشيف من زيارة الى جمهورية المانيا الدمقراطية وتشيكوسلوفاكيا، حاملاً بشرى جديدة: لا تحتاج الزراعة السوفياتية إلى إدخال أي تغيير فيها لانه لاحظ هناك ان التعاونيات الانتاجية وقطاع الدولة قد حققا تقدماً ملحوظاً !

يرى ليغاتشيف ان كل إصلاح اقتصادي يهدف إلى تحقيق « اقتصاد السوق الاشتراكي » (نظام العرض والطلب) من شأنه أن يؤدي الى أشكال جديدة من المؤسسات التي لا تخضع للقيادة المركزية وبالتالي يقود إلى الملكية الفردية.

كان لمواقفه العديد من المؤيدين في صفوف الشعب وليس فقط من موظفي الحزب والوزارات الذين يخافون على مراكزهم. كذلك كان بعض مدراء المؤسسات الصناعية يتوجسون خيفة من عواقب التحوّل نحو النظام الاقتصادي الحر. فضلاً عن أن كافة الأطراف غير مهيأة عملياً لهذه الخطوة. فالمتقاعدون والعمال يخشون ان يؤدي الاصلاح الى رفع الأسعار وبالتالي الى تذويب مداخيلهم المتدنية. وهم يطمحون، في هذه الفترة من التحولات السريعة، الى الاستقرار الذي أعلن ليغاتشيف تمسكه به من خلال تمسكه بالحزب والدولة والوطن.

في الواقع، لا شيء يدعو ليغاتشيف للخوف من التعددية. ففي النظام التعددي يصبح الزعيمَ الطبيعي « لجبهات العمال المتحدة » و « لكتل الحركة الوطنية »، وكلها تنادي مثله بالمبادئ الشيوعية التقليدية والوطنية الروسية. مهما كان الامر، وعلى الرغم من إقصاء ليغاتشيف عن مواقعه الحساسة في جهاز الحزب، فلم يقدم على التصدي علانية لغورباتشيف، ـــ كما فعل يلتسين. لم يعد، منذ مدة طويلة، الرجل الثاني بعد غورباتشيف ـــ اذ ان هذا المركز لم يعد قائماً في الحزب ـــ لكنه سعى، في المكتب السياسي، إلى التخفيف من حدة التباين في الآراء بينه وبين الأمين العام، لأن هذا الرجل الحزبي كان يحرص قبل كل شيء على الحفاظ على وحدة الحزب ولو في الظاهر. والحال، ان المعارضة المفتوحة والعلنية قد تؤدي الى قيام تيارات في القيادة العليا تكون مقدمة نحو تشريع الأحزاب. وهذا ما كان ليغاتشيف يعمل على تجنبه، ويكتفي باشراك الآخرين في السلطة بدل احتكارها. بصفته محافظاً، راهن على جمود الحزب، لكن الجهاز نفسه ادرك، بعد حين، انه لن يستطيع الاستمرار من دون اللجوء الى الاصلاح والتغيير.

لم يتوانَ غورباتشيف عن الضغط باستمرار على الحزب للقبول بسياسته الاصلاحية. ففي شباط (فبراير) عام ١٩٩٠، وافقت اللجنة المركزية على

إنهاء الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي لاحتكاره العمل السياسي، وهذا الأمر كان غير وارد قبل سنة على الإطلاق. وسوف يتعين على الحزب الشيوعي ان يناضل في المستقبل للدفاع عن موقعه كحزب قيادي، وعليه القيام بذلك في الإطار الدمقراطي. والتخلي عن سلطاته القانونية والسياسية، والدفاع عن برنامجه من خلال النقاش والتعاون مع سائر القوى الاجتماعية والسياسية. لم نصل بعد الى مرحلة تعددية الأحزاب ــ كما نادى بها مئتا الف متظاهر، في عطلة نهاية الأسبوع التي سبقت اجتماع اللجنة المركزية ــ لكنها نهاية نظام حكم عمره سبعون سنة.

أخذ أعضاء اللجنة المركزية، ومعظمهم من المحافظين، علماً بالتحولات العميقة التي تحققت في المجتمع. وقال لهم رئيس الحكومة نيقولاي ريجكوف بان هناك تعددية واقعية قائمة في الاتحاد السوفياتي، ولن يستطيع الحزب الشيوعي شيئاً إزاء هذا الواقع، مع ان غورباتشيف وصف، قبل أقل من سنة، الجدل القائم حول التعددية الحزبية « بالأخرق ». لكن قيام تيارات سياسية جديدة قد رسخ لديه القناعة بان الحزب الشيوعي سوف يفقد مصداقيته اذا حاول التصدي للحركة.

عند ذاك، سعى معاونو غورباتشيف الى ترسيخ نظام الحكومة لجهة منح رئيسها حق النقض، مع سلطات واسعة تتيح له التصدي بقوة للمشاكل الاقتصادية والسياسية في الاتحاد. وقف غورباتشيف كعادته على الحياد، وحتى انه عبّر عن شكوكه حول مدى ملاءمة إنشاء نظام رئاسي في مثل هذه الأحوال، لكن مساعده السابق، إيفان فرولوف ــ الذي يشغل منصب رئيس تحرير « البرافدا » منذ خريف عام ١٩٨٩ ــ أعلن في ٩ شباط (فبراير) عام ١٩٩٠، ان مجلس السوفيات الأعلى سوف يناقش مسألة إنشاء نظام رئاسي حقيقي، وانه يتعين على أعضاء مجلس نواب الشعب وعددهم ٢٢٥٠ نائباً، البتّ بمسألة تعديل الدستور تحقيقاً لذلك. وفي هذه الحالة، يقع على مجلس النواب الخيار بين حلّين: أما ان يعيّن بنفسه

رئيساً لفترة انتقالية، وإما أن يحدّد على الفور تاريخ انتخاب الرئيس بالإقتراع العام المباشر. وفي الحالين، تقع البلاد تحت حكم رجل يتمتع بسلطات قوية ويكون الوحيد القادر على الحفاظ على وحدتها وتماسكها.

هل تردد غورباتشيف ؟ في الواقع، استمر في قيادة حزب شيوعي لم يعد يحتكر العمل السياسي وحده، فيما كاد ان يصبح الرئيس المنتخب للاتحاد السوفياتي، الرئيس الذي لا يقاسمه الحزب سلطاته...

في الخارج والداخل

فيما كان غورباتشيف مضطراً لشن حرب قاسية داخل الاتحاد السوفياتي، ليفرض نفسه، اشتهر في الخارج بكونه رجلاً سياسياً من الطراز الرفيع. فقد انتزع سياسة بلاده الخارجية من التقوقع والعزلة، وأظهر القدرة والحنكة في كل جولة من جولاته الخارجية. وبرز في استطلاعات الرأي، الرجل السياسي الأكثر شعبية في العالم، متخطياً بدرجات رئيس الولايات المتحدة، رونالد ريغان. ساهمت شخصيته وطريقة ادائه السياسي في تخفيف التوتر في الأجواء الدولية بعد عشرات السنين من الحرب الباردة وسباق التسلح. لقد كان السياسي السوفياتي الأول والوحيد الذي كان العالم مستعداً لتصديقه حين أعلن انه لم يعد ممكناً تصور قيام حرب نووية بعد اليوم. كان العالم يريد التسليم معه بان التعايش السلمي ينبغي ان يكون اكثر من استراحة تتيح الفرصة للاتحاد السوفياتي كي يستعيد أنفاسه، وبان الفكر السياسي يراهن على التعاون الدولي في سبيل حلّ المعضلات العامة التي تهدد البشرية. وهذا ما كان يستجيب لتطلعات الشعوب التي خابت آمالها من جراء جنون الدول الكبرى في سباقها نحو التسلح. ونجح رجل موسكو في تخفيف حدة التوتر في الوضع الدولي الذي بات مسدوداً ويهدد بخطره الجميع.

تحدّر هذا الرجل من قرية صغيرة وشغل منصب أمين سر الحزب في منطقة بعيدة عن موسكو، لمدة تزيد عن عشرين سنة، ونجح بالتالي في

لعب دور رئيسي في السياسة العالمية. لم يكن احد يعرف شيئاً عن مضمون فكره السياسي، وارتاب قادة العالم بشخصيته اذ قد يكون من الجيل الجديد الذي يتقن أصول اللعبة اكثر من سلفه لبلوغ أهدافه. أما الشعوب في معظمها فقد فهمته على نحو أفضل من القادة السياسيين.

في السفارات، جرى تمحيص الرحلات التي قام بها الى الخارج. الى اين توجه؟ عام ١٩٦٦، قام أمين سر الحزب، وكان شاباً، بأول رحلة له الى الخارج، وحطّ في جمهورية المانيا الدمقراطية. وكانت الزراعة فيها محط اهتمامه، وبدا لضيوفه فضولياً لمعرفة ظروف معيشة العمال والفلاحين، ولم يترك انطباعاً مميزاً لديهم، اذ رأوا فيه رجلاً متوسط الأهمية ويمكنه في أحسن حال بلوغ قمة الهرم في اتحاد الشبيبة الشيوعية.

لم تثر زيارته الأولى الى الدول الغربية أية ضجة، فقد إنتقل أمين سر الحزب في ستافروبول عام ١٩٧٥ الى المانيا الاتحادية للمشاركة في مؤتمر الحزب الشيوعي الألماني المنعقد في شتوتغارت، وفي احتفالات الذكرى الثلاثين للانتصار على النازية. لم يلفت اليه الأنظار فيها. لكنه استفاد منها لزيارة اول مدينة غربية له. ويبدو انه يتذكر اليوم لقاءه مع عامل في إحدى محطات المحروقات. وفي احاديثه مع الشخصيات الالمانية، مثل ريشار فون ويزاكير أو هيلموت كول، يحلو له رواية هذه النكتة:

«تحدثت بالقرب من فرنكفورت مع صاحب محطة للمحروقات. قال لي: ستالين يقول بان هتلر وأمثاله يأتون ويذهبون، أما الشعب الالماني فيبقى. لكن في نهاية الحرب، عمد الاتحاد السوفياتي الى تقسيم الشعب الألماني الى قسمين. ولفت غورباتشيف نظر رئيس الجمهورية فون ويزاكير، بعد استعادته لهذه الواقعة، الى ان الدول الغربية قد ساندت فكرة قيام دولة منفصلة في المانيا الغربية، قبل إنشاء الجمهورية الدمقراطية الألمانية، وإن قيام دولتين المانيتين يشكل، بنظر كل رجل سياسي واقعي، حدثاً لا يمكن

تفاديه. ولو اكتفى، عام ١٩٧٥، بالاستماع الى صاحب محطة المحروقات لكان سمع منه، بلا شك الكلام نفسه.

في زيارته الثانية الى الخارج حيث انتقل الى كندا في ربيع عام ١٩٨٣، التقى فيه أبرز الشخصيات في عالم السياسة والاقتصاد. كان في حينه عضو مجلس السوفيات الأعلى والمكتب السياسي، إضافة إلى كونه أمين سر اللجنة المركزية لشؤون الزراعة. في البداية، أبرزته صحافة اميركا الشمالية كأنه الولد المدلل للقيادة السوفياتية. عام ١٩٨٣، ليس في سيرة حياته، ما يتيح له احتلال الصفحة الأولى في الصحف. غير ان االكنديين اكتشفوا فيه رجلاً يتدفق حيوية، فضولياً، منفتحاً، وقادراً على التعبير بحرية، واميركياً في طريقة عيشه. لم يكن لزيارته أهمية كبيرة على الصعيد السياسي، غير ان الأيام التي قضاها في كندا علمّت ميخائيل غورباتشيف ان بامكانه إقامة علاقات وديّة مع عالم تعلّم المواطنون السوفيات الخوف منه.

أثبتت زيارة غورباتشيف لكندا انه قادر على تمثيل الاتحاد السوفياتي بشكل رائع في الخارج. حتى غروميكو، « غروميكو المشاكس » وزير الخارجية السوفياتية السابق الذي طبع السياسة الخارجية السوفياتي بطابع مختلف، بات مقتنعاً أيضاً بان يترك لغورباتشيف الطالع من الجيل الجديد، شؤون السياسة الخارجية. أما غورباتشيف فكان يحرص، من جهته أشد الحرص على التطلع الى العالم بعينيه شخصياً.

كان يتميز في هذه المسألة عن سواه من المسؤولين السوفيات الأكبر سناً. كان غروميكو يرتضي ــ لأن ذلك واجبه ــ استقبال مئات الزوار الأجانب، لكنه لم يكن يجد أية لذة في ذلك. ذات يوم قال سوسلوف لابنة ستالين، بغية ردعها عن الذهاب لحضور مأتم زوجها في الهند: « ولكن ما الذي يجتذبك في الخارج ؟ لم أتمنَّ واسبرتي يوماً الانتقال الى الخارج. لا فائدة من ذلك البتة ». منذ ان قرر ستالين بناء الاشتراكية « في بلد

واحد »، تحوّلت بقية دول العالم إلى عدو بنظر القادة السوفيات الذين راحوا يستمدون معلوماتهم عنها من السفارات وأجهزة الاستخبارات ـــ وحين كانت الزيارات إلى الخارج تفرض نفسها، كان ينبغي ان تراعي نظاماً بروتوكولياً خاصاً يقتصر على اللقاءات والخطب الرسمية.

تحرّر غورباتشيف من هذه المحرّمات، ففي حزيران (يونيو) عام ١٩٨٤، استفاد من مناسبة مأتم رئيس الحزب الشيوعي الإيطالي انريغو برلينغر، للقيام بزيارة رسمية إلى ايطاليا. وسبق لموسكو ان انتقدت طوال سنوات المسؤولين الشيوعيين الإيطاليين واتهمتهم بانهم « شيوعيون على الطريقة الأوروبية ». وقد دهشوا لدى استقبالهم غورباتشيف لأن الضيف السوفياتي لم يأتِ اليهم ليلقنهم درساً جديداً في الشيوعية. على العكس كان يحدثهم عن مشاكل بلاده وعن المركزية الشديدة التي تعيق التقدم وعن نمط الحكم الذي لا يترك قدراً كافياً من الاستقلالية للشعوب غير الروسية. بدا جلياً ان هذا الرجل لم يأتِ اليهم كي يطلب اليهم التقيد بسياسة موسكو، بل لتكوين فكرة عن أصول الفكر غير العقائدي لحزب شيوعي عملاق في بلد رأسمالي.

في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٩٨٤، قام غورباتشيف بزيارة إلى لندن، على رأس وفد من مجلس السوفيات الأعلى، بدعوة من أعرق برلمان في العالم. واستقبل كرجل دولة. في لندن، كان يعرف غورباتشيف انه يمثل تشيرنينكو المريض، ويحتمل ان يخلفه في قمة السلطة في فترة قريبة. غير ان هذه الحسابات السياسية لم تكن هي الحاسمة، بل سلوكه السياسي. اتخذ الانكليز اقصى الاحتياطات لعدم تعكير زيارته بمظاهرات تدعو لاحترام حقوق الانسان. لكنه نزل من الطائرة السوفياتية واثقاً من نفسه وعازماً على عدم التقيد بالبروتوكول والاجراءات الأمنية الضيقة. كان يرغب في ان يرى ويستمع ويناقش. وبما انه يتقن المزاح بالمناسبات من خلال عرض جاذبيته ولطفه، كما يستطيع أيضاً الإجابة بجفاء حين يسأل عن المسائل

المتعلقة بعدم احترام حقوق الانسان في الاتحاد السوفياتي، ومن دون التلفظ بشعارات رنانة، فانه سرعان ما نال إعجاب محاوريه.

كتبت صحيفة التايمز في لندن تقول: « كان لرقة غورباتشيف وبشاشته، وكذلكِ لسحر زوجته أثرٌ طيبٌ في نفوس ضيوفه البريطانيين ». لم يكن العرف يقضي، في تلك الفترة، ان يصطحب الزائر الرسمي السوفياتي، زوجته معه. ولم يكن البروتوكول واضحاً تماماً حول الطريقة التي ينبغي التعامل بها مع زوجة عضو في المكتب السياسي ورئيس الوفد الزائر. عندما حطت طائرة « الاليوشين » في مطار لندن، انتظرت رايسا في الطائرة نهاية الاستقبال الرسمي وذهاب الوفد. لدى زيارته باريس، بعد سنة، كان كل شيء قد تغير؛ صحيح ان احداً في موسكو لم يشاهد رايسا تصعد الطائرة في موسكو، لكنها نزلت منها في باريس الى جانب زوجها. في تشرين الثاني (نوفمبر) عام ١٩٨٥، بمناسبة مؤتمر القمة في جينيف، كانت الى جانب زوجها في الذهاب والإياب. في المكتب السياسي، كانت الآراء متباينة حول الطريقة التي يجب على زوجة الأمين العام التصرف بموجبها والظهور أمام الجمهور. في اللجنة المركزية، اشتكى بوريس يلتسين الى غورباتشيف من مرافقة رايسا له في رحلاته داخل الاتحاد السوفياتي، فأجابه غورباتشيف: « اذا كان الناس لا يفهمون ذلك، فيجب ان نرفع من مستواهم الثقافي ». كان من السهل عليه، فيما خص الزيارات الرسمية الى الخارج، ان يردّ ذلك الى وجوب مراعاة البروتوكول الدولي. مع ذلك، كان الموظفون والناس العاديون في الاتحاد السوفياتي يتساءلون عن جدوى ذلك، وعما تستطيع زوجة الأمين العام القيام به اثناء الزيارات الرسمية...

لم تطرح وسائل الإعلام الغربية من صحافة وتلفزيون، مثل هذه الأسئلة بسبب السحر الذي مارسته رايسا عليهم. فهي أنيقة وتتقن الابتسامة وتبدو مهتمة فعلاً بما تكتشفه. وقد افتتن المصورون الانكليز بها لدرجة انهم جمعوا المال فيما بينهم لتقديم باقة زهور اليها لدى ذهابها.

سألت رايسا السيدة تاتشر من أين حصلت على حلقات أذنيها. وفي اليوم التالي، كانت في متجر « كارتيه » الكائن في شارع « بوند ستريت » لشراء حلقات مماثلة، بلغ ثمنها ألوف الماركات دفعها احد المرافقين من رجال البروتوكول. جلبت لها هذه الصفقة بعض المتاعب. بالفعل، سرت الشائعات في موسكو بان رايسا غورباتشيف تحمل بطاقة « الاميركان اكسبرس » وانها أنفقت ثروة طائلة في لندن. في الحقيقة لم تشتر سوى القليل. لدى عودتها روت لإدارة « دار الازياء » التي أشرفت على تحضير ثيابها قبل الزيارة، انه يجدر بها تحضير ثيابها لدى خياطاتها في موسكو بدلاً من شراء تلك الثياب من الغرب. تفحصت بإمعان طيلة يومين الأزياء الرائجة فتبين لها انها لا تلائمها. وقالت أيضاً ذلك اليوم لإدارة دار الأزياء ان ما يمكن شراؤه من الغرب يلائم ابنتها ايرينا على نحو أفضل.

مما لا شك فيه، ان الأزياء ونمط الحياة الغربية قد سحرت لبّ رايسا في تلك الفترة. وبدا ذلك في غاية الوضوح، في خريف عام ١٩٨٥، عندما شاهدت الأزياء الباريسية في صالون بيار كاردان وامتدحت مبتكرها بالقول انها تعتبر ازياءه بمثابة تحفة فنية. تحدثت في تلك المناسبة أيضاً بطريقة العارف الذكي عن الفنانين الانطباعيين، الامر الذي ساهم في تبديل الصورة التي يكوّنها الغربيون عن السوفيات.

اثناء مأتم تشيرنينكو، ساد الإنطباع في أذهان الرسميين الأجانب الذين تحدثوا مع غورباتشيف بان الرجل الذي يحكم الاتحاد السوفياتي اليوم مختلف تماماً عن اسلافه. في الماضي، كانت العادة ان يعّد وزير الخارجية غروميكو نصاً يعالج شؤوناً دولية، ويلقيه رئيس الدولة الذي يبقي لنفسه حق إدخال بعض التعديلات الملائمة عليه. هذه المرة، تولى الكلام غورباتشيف بنفسه، واكتفى غروميكو بالاصغاء. وسرعان ما لاحظ الخبراء الدوليون، بمناسبة اللقاءات الخاطفة ومؤتمرات القمة، ان غورباتشيف هو الذي يتحدث باستمرار

من دون الاستعانة بأية أفكار مدوّنة، وانه يتمتع بذاكرة قوية فضلاً عن اطلاعه الدقيق على كامل الملفات التي يتحدث بشأنها.

اثناء مؤتمرات القمة في « جينيف » و « ريكجافيك » و « واشنطن »، دشنّ ميخائيل غورباتشيف اسلوباً جديداً تبين انه شديد الفعالية. فاصطحب معه شخصيات علمية مرموقة وكتاباً وخبراء في السياسة الخارجية والاقتصاد. كان هؤلاء على استعداد دائم كي يشرحوا للصحافيين ـــ الذين لا يعرفون الكثير عن محادثات القمة ـــ التطورات السياسية للأمين العام الجديد. كان هؤلاء يبادرون للاتصال بالصحافيين والتحدث اليهم بحيث بزّوا الاميركيين الذين لم يعتادوا مثل هذه المناقشة وحققوا نجاحاً فورياً، اذ اطلع الصحافيون على أفكار غورباتشيف بصورة أفضل مما لو اقتصر الأمر على المؤتمرات الصحفية. كان خبراء غورباتشيف يجرون مقابلات في المطاعم وغرف الفندق، ويتحدثون بحرية عن المشكلات الاقتصادية التي يعاني منها الاتحاد السوفياتي أو عن مشاكل البيئة، مشيرين الى ان كلفة سباق التسلح تثقل كاهل البلاد وتعيق تطورها. وينطوي حديثهم عن « الفكر السياسي الجديد » الذي يجب على السياسة العالمية ان تهتدي به بعد الآن، على الكثير من المصداقية...

بدت السياسة الخارجية الجديدة شديدة الترابط والإنسجام من الوجهة المنطقية: لما كانت الحرب النووية أصبحت مستبعدة، فلا داعي بعد اليوم لتركيز السياسة الخارجية على مبدأ توازن القوى بين الكتلتين الجبارتين ويمكن بالتالي استشفاف نهاية سباق التسلح قريباً. ولما كانت الاعتبارات الايديولوجية لم تعد هي الغالبة في السياسة الخارجية، فمن الواجب تطبيع العلاقات بين الدول وتعزيز التبادل الاقتصادي فيما بينها. من هذا المنظور الجديد، يتحول التعايش السلمي الى تعاون طويل الأمد وعلى نطاق واسع بين الشرق والغرب بغية حلّ المشكلات الكبرى في العالم. تلك كانت الخطوط الكبرى للفكر السياسي الجديد الذي نادى به غورباتشيف. وقد تسنى لخبرائه، اثناء انعقاد

مؤتمرات القمة ان يشرحوا بالتفصيل دوافع غورباتشيف وأهدافه البعيدة، في الوقت الذي كان منشغلاً في بحث دقائق نزع السلاح. وبات واضحاً في أذهان الغربيين ان السياسة الخارجية السوفياتية شهدت تحولاً فاق كل تصور.

أدرك غورباتشيف ان نجاح البيريسترويكا مرتبط الى حد بعيد بتوفير إطار دولي يرتكز على مبدأ نزع السلاح. وتبنّى بعض أهداف السياسة الغربية في السبعينات ـــ مثل خيار منظمة الأطلسي حول الصواريخ المتوسطة المدى ـــ في تلك الفترة، كانت موسكو ترفض السير في سياسة نزع السلاح متذرعة بدواعٍ ايديولوجية. فجأة، برزت في الغرب، بعد عام ١٩٨٠، فكرة التوازن المبني على التسلح المطرد الذي يهدف الى تأمين التفوق العسكري. وبذلك انحصرت السياسة الخارجية ومشاكل الأمن، في الشرق والغرب، بتعداد الصواريخ المنصوبة في هذا الجانب او ذاك، واقتصر التفكير على عبارات تتعلق بميزان القوى المسلحة. في هذا الإطار، سعى غورباتشيف الى كسر جليد سياسة عالمية تقوقعت ضمن خطوط من المواجهة العقيمة.

ثابر بعناد على تجديد اقتراحاته التي كانت تصطدم بحذر الاميركيين والاوروبيين. كانت هذه الاقتراحات تسبق مقترحات الاميركيين باشواط قليلة. لكنه كان في كل مرة يتقدم بضع خطوات على الاميركيين لاقناعهم. في بدء المفاوضات عام ١٩٨٥، أوقف كافة التجارب النووية متحملاً كل الضرر الحاصل على الصعيد العسكري، وسحب الجيوش السوفياتية من افغانيستان دون الحصول على اي مقابل من الطرف الاميركي:

عندما تعرضت مفاوضات خفض الصواريخ المتوسطة المدى للفشل في رايكجافيك، لان الاتحاد السوفياتي كان يصرّ على تخلي الاميركيين عن برنامج الدفاع الاستراتيجي المعروف « بحرب النجوم »، لم يعمد غورباتشيف من جراء ذلك الى قطع مفاوضات السلام. بعد بضعة أشهر، قام بتصحيح

بعض مطاليبه بحيث جعل الاتفاق ممكناً بين الطرفين: لاول مرة في التاريخ اتفق الجباران على تدمير فئة كاملة من الصواريخ ذات الرؤوس النووية. واوعز بسحب الجيوش من اوروبا. الشرقية من دون ان ينتظر توقيع الاتفاقات الثنائية. أتاحت التنازلات السوفياتية لمؤتمر الأمن والتعاون في أوروبا ان ينجح وان ينعش مفاوضات فيينا حول الجيوش التقليدية المتمركزة في أوروبا — وهي مفاوضات كانت ما تزال تدور على نفسها منذ سنوات. لاحق هدفه الكبير خطوة خطوة، وهو الوصول الى إتفاق للحدّ من الاسلحة الأشد فتكاً في تاريخ البشرية، وتدمير الصواريخ النووية الاستراتيجية.

أظهرت السياسة التي يتبّعها درجة عالية من المصداقية كون علاقات الاتحاد السوفياتي بالدول الاشتراكية في أوروبا الشرقية شهدت تحولاً عميقاً، بموازاة تقدم المفاوضات حول نزع السلاح. من البديهي مثلاً ان بولونيا والمجر اللتين كانتا تسيران في نهج الإصلاحات السياسية لن تتعرضا لخطر التدخل العسكري السوفياتي. ذلك ان عقيدة بريجنيف التي سوغت إجتياح تشيكوسلوفاكيا عام ١٩٦٨، لم تعد مقبولة في موسكو.

تعين على غورباتشيف ان يعارك في بلده ليكسب الى جانب سياسته الجديدة تأييد التقليديين الذين يعششون في الحزب والجيش. فنجح في ذلك لأنه تمكّن من حشد الخبراء القادرين على الإثبات بالحجة الدامغة ان الإصلاح الداخلي لن يبلغ أهدافه إلا في مناخ من التعاون الدولي السليم.

ظل المتقدمون في السن في محيط بريجنيف، من الذين تأثروا بالحرب العالمية الثانية، على قناعتهم بان قوة الاتحاد السوفياتي، العسكرية — اي تفوقه — هي الضمانة الفضلى للسلام. وكان العسكريون يطالبون باستمرار بجيش سوفياتي على قدر كافٍ من القوة للتصدّي لكل مؤامرة. وينبغي عليهم الآن نقل البندقية الى الكتف الاخرى والقبول بمبدأ عدم الانفاق سوى على الحد الادنى من السلاح الذي يضمن قدرة دفاعية « معقولة ».

كانت هذه السياسة الجديدة تجد مبرراً لها في المشكلات الاقتصادية التي تشهدها البلاد.

غير ان غورباتشيف انطلق في فكره العميق أبعد من ذلك. بنظره، على العالم ان يواجه اولاً مشكلة البيئة، وعلى النظام العالمي الجديد ان يرتكز بالتالي على التعايش السلمي. وهذا يعني، في نهاية المطاف، وجوب تمتع الشعوب بالقدرة على اختيار نظامها السياسي والاجتماعي بكل حرية. إذا كان غورباتشيف قد وصف البيريسترويكا والفكر الجديد « بالثورة » فإن سياسته الخارجية هي الوجه الأكثر ثورية في السياسة التي اتبعها. وقد أظهرت سنة ١٩٨٩ بشكل بارز كم تمكنت هذه السياسة الجديدة من تغيير العالم.

هبت رياح التغيير عاصفة على أوروبا الشرقية. وخرجت الدول الاشتراكية من دائرة الهيمنة السوفياتية؛ أما البنى الحكومية المتسلطة، والموروثة من عهد ستالين، فقد فقدت كل شرعيتها إزاء الغلاسنوست والبيريسترويكا. ووضعت نهاية الحرب الباردة حداً لانقسام العالم إلى كتل عسكرية. تلك كانت نتائج السياسة التي اتبعها غورباتشيف ووزير خارجيته شيفارنادزه، وهي سياسة أعدّها خبراء مؤسسات الأبحاث في موسكو. ما كانت التغييرات التي حصلت في أوروبا الشرقية ممكنة لولا البيريسترويكا. وإذا كانت هذه التغييرات لم تحصل ضد رغبته، فإنها في كل حال تخطت في سرعتها وحجمها كل ما توقعّه غورباتشيف أو شاءه. لقد اضطر للحال ان يواجه معارضة جدية في موسكو وأوعز الى الدبلوماسيين والخبراء بوجوب قبول الانقلابات الواقعة في الشرق، مشيراً إلى ان الاتحاد السوفياتي يحتاج إلى ترسيخ السلام لأسباب داخلية. لكن من الثابت ان أحداً في موسكو لم يقدّر قوة الإنفجار التي تراكمت في تلك الدول.

خلال سنوات الركود، كانت موسكو تراقب بريبة حكومات أوروبا الشرقية تتخذ لنفسها مزيداً من الحرية. في الواقع، دفع الضياع الذي غرقت فيه

السياسة السوفياتية الداخلية والخارجية، بالمسؤولين الشيوعيين، حتى الأكثر تقيداً بالخط الرسمي، إلى إيجاد الحلول لمشاكل بلادهم بأنفسهم. وبات من الواضح ان النموذج السوفياتي العائد لآخر عهد بريجنيف قد ولّى زمانه.

حتى ذلك الحين، كانت الدول الاشتراكية قد ساهمت بكل إخلاص في برنامج التسلح السوفياتي وتحملت بالتالي العواقب الاقتصادية والاجتماعية الناجمة عنه. ثم اخذت تبحث كل دولة عن العلاج الناجع لها. فالفوارق السياسية بين بولونيا والمجر، والمانيا الدمقراطية وبلغاريا او تشيكوسلوفاكيا ورومانيا هي ظاهرة وأكيدة. غير انه لوحظ أيضاً ان هذه الحكومات كانت على استعداد للتعاون فيما بينها عندما كان الامر يتعلق بالدفاع عن هامش تحركها إزاء موسكو والدفاع عنه.

من المؤكد ان موسكو لاحظت ان السياسة السوفياتية قد فقدت تأثيرها على تلك الدول، وانها لم تعد شيئاً فشيئاً ذلك النموذج الذي تقتدي به الأحزاب الشقيقة. وعندما كشفت قوى التغيير عن كل قوتها من خلال إنفجار حركة « التضامن » في بولونيا، أمل القادة الموالون لموسكو تدخل الجيش الأحمر فيما التزم الشيوعيون الاصلاحيون السلبية استجابة للضغط السوفياتي. وأسفر هذا الفرز الجديد للقوى عن اضطراب الأوضاع في أوروبا الشرقية.

كانت المجر البلد الوحيد الذي انتهج سياسة اصلاحية متجانسة. وكانت العلاقات بين الحزب والحكومة والشعب اقل تشنجاً منها في سائر الدول الشيوعية الاخرى. لكن كان من الصعب عليها الذهاب أبعد من ذلك من دون إقلاق الاتحاد السوفياتي والتعرض مجدداً لضغط الشقيقة الكبرى. عندما تسلّم اندروبوف السلطة في موسكو وجرى طرح مسائل إصلاحية لأول مرة، تجرأ المجريون على قول ما كان يجري تداوله في حلقات مقفلة في الدول الاشتراكية الاخرى، اي انه لا يمكن العمل في سبيل المصلحة

المشتركة لكافة الدول الاشتراكية الا اذا كانت هذه المصلحة تمثل أيضاً المصلحة القومية لكل دولة من تلك الدول.

في جمهورية المانيا الدمقراطية، أظهر ايريك هونيكر عداءً شرساً للاصلاحات السياسية والاقتصادية القائمة في المجر. لكنه ما لبث ان وجد نفسه منبوذاً في موسكو وبدأ يبني علاقات إقتصادية مع المانيا الغربية ويتحدث عن مسؤولية الدولتين الالمانيتين في الحفاظ على السلام. إرتابت موسكو في البدء فيما يجري ثم وجهت تحذيراً ضد ما أطلق عليه « ربيعاً المانياً ــ المانياً » كانت اللجنة المركزية مصممة على الا تذهب الامور بعيداً واعتمدت في ذلك على حاجز الصواريخ الذي يجعل الحوار صعباً بينهما...

في السنوات الأخيرة التي سبقت البريسترويكا، لم تعد موسكو تملك سوى وصفة واحدة لضمان نجاح الاشتراكية وهي تشديد النظام. لكن سبق للاصلاحيين والمحافظين في دول اوروبا الشرقية، ان أدركوا قبل موسكو حجم الأزمة وتدارسوها بكل تبصر وروية. وهكذا حققت القدرة على التجديد التقني ــ العلمي والخطط الإصلاحية سبقاً على الاتحاد السوفياتي. ذلك ان الخوف من رؤية الركود السوفياتي يرتّد على بلادهم ويولّد التوترات الاجتماعية كان يقلق القادة الشيوعيين. صحيح ان معظمهم لم يكن يتمتع بنفاذ البصيرة وبالإبداع السياسي، والحنكة كي يجرأوا على التقدم فعلاً. وعندما سنحت الفرصة في الاتحاد السوفياتي، بتحريض من غورباتشيف، لتحقيق الاصلاح وللبحث علانية في أوضاع المجتمع، تبين ان القادة التقليديين في جمهورية المانيا الدمقراطية وتشيكوسلوفاكيا وبلغاريا ورومانيا لم يكونوا مهيأين لذلك وعجزوا عن مقاومة القوى الاجتماعية الجديدة التي تحررّت فجأة.

امل غورباتشيف في إنتهاج تغيير تدريجي، من دون تقلبات مأساوية، سواء في الاتحاد السوفياتي أو في الدول الحليفة. كان يتصور ان عبارة

« الثورة الثانية » (وهي العبارة التي كان يستعملها للدلالة على البيريسترويكا) تعكس في العمق حركة يمكنها تلافي الانتفاضات العنيفة. ويرى أيضاً انه ينبغي بناء العلاقات بين الدول الاشتراكية بهذه الطريقة أيضاً. في كتابه بعنوان: البيريسترويكا، كتب عام ١٩٨٦: « في الواقع، منذ نهاية السبعينات كانت الاتصالات بين المسؤولين في الدول الشقيقة تجري أكثر فأكثر على سبيل التظاهر بدلاً من اجرائها لمعالجة المشاكل العملية، وكانت تفتقر اكثر فأكثر الى الثقة والجدية. أما الآن فهناك أمور كثيرة تغيرت. ففي العامين المنصرمين، انضم إلينا بعض الاصدقاء في المجموعة الاشتراكية لإنجاز خطوات هامة. يقتضي الاستمرار في هذه الطريق. وهذا ما حدث. فهناك مجموعة كاملة من العلاقات السياسية والاقتصادية والانسانية مع الدول الاشتراكية، هي في طريق التجديد. وهي مسيرة أملتها الضرورات الموضوعية لتطور كل بلد وللوضع الدولي بمجمله، اكثر مما أملتها العواطف » (الترجمة الفرنسية لجان بونفوا ووليم ديمون، منشورات فلاماريون ١٩٨٧، ص ٢٣٦) كان غورباتشيف يخشى التغيير الذي يتم تحت ضغط « الشارع » وينتقص من أهمية الانقلابات التي تتم بفعل الاستياء المتراكم عندما يستفيق الحس القومي.

عندما بدا واضحاً ان كل اوروبا الشرقية آخذة في التحرك، ادرك غورباتشيف ان السياسة القديمة القائمة على الإحتلال العسكري صارت من الماضي. وكان يأمل في ان يشرع المسؤولون المحافظون في نهج سياسة إصلاحية وينجحوا في تخفيف التوترات الاجتماعية قبل إنفجارها. فالتغييرات التي حصلت في بولونيا ــ وهو اول بلد حطم احتكار الحزب الشيوعي للعمل السياسي ــ حظيت برضى الاتحاد السوفياتي التام لأن ياروزلسكي قد عرف ــ (لعله خشي خطر التدخل العسكري) كيف يقود البلاد الى وضع سياسي مستقر. وهكذا أصبحت بولونيا في نهاية عام ١٩٨٩، بعد المجر، البلد الاكثر استقراراً في اوروبا الشرقية. لكن كان من المؤكد

ان المسؤولين المحافظين الذين رفضوا كل تغيير، كانوا يجلسون على برميل من البارود.

هذا الأمر كان صحيحاً أيضاً بالنسبة لجمهورية المانيا الدمقراطية حيث امل المسؤولون طويلاً ان يضع التقليديون السوفيات حداً لسياسة غورباتشيف الاصلاحية لكن البيريسترويكا واصلت مسيرتها في ترسيخ موقع غورباتشيف داخل الاتحاد السوفياتي فيما أخذ الوضع الداخلي في المانيا الدمقراطية يشهد الاضطراب والفوضى. والغريب ان سياسة غورباتشيف نفسها قد ساهمت في شلل هذا البلد، لان عدم التدخل في الشؤون الداخلية للدول الشقيقة أصبح احدى العقائد الراسخة في الفكر الجديد لقيادة الكرملين. بحث فريق غورباتشيف دون جدوى عن شخصيات قادرة على القيام بالإصلاح والإفادة من الدعم الشعبي. كان الوقت داهماً: خلال وجوده في جمهورية المانيا الدمقراطية، بمناسبة الذكرى الأربعين لإنشاء الدولة، قال غورباتشيف بوضوح تام: « من يصل متأخراً، تتكفل الحياة بمعاقبته ».

كان غورباتشيف وشيفارنادزه يعلمان منذ مدة طويلة ان المسؤولين في المانيا الشرقية يواجهون مشاكل جدية. وكان مستشاروها يتشكون من ان « اريك هونيكر لم يعد يفهم شيئاً ». لكن، عندما قام قادة الحزب الاشتراكي الموحد بإنقلاب ضد هونيكر، استبدل بايغون غرانز، وهو موظف أنيق عمل طويلاً في الشبيبة الشيوعية ولا يحظى باعتبار كبير في اوساط موسكو. خلال الزيارة الخاطفة التي قام بها غرانز الى موسكو، ساد الإنطباع عنه في أوساط العاصمة السوفياتية انه لا يقدّر الوضع وحالة الرأي العام في المانيا الدمقراطية على حقيقتهما، وانه يبدي تفاؤلاً وثقة بالمستقبل لا مبرر لهما، ولم يحفظ من حديثه مع غورباتشيف سوى ما أكده له من صحة تحليلاته عن الوضع، فيما كان قضى غورباتشيف وقته يحذره من دقة الوضع.

عندما استسلم غرانز للنزف الشعبي ووافق على منح حرية السفر، كانت

المياه قد فجرت السدود التي حاصرتها طويلاً وجرفته معها. في ٩ تشرين الثاني (نوفمبر) سقط الجدار. ووجد الاتحاد السوفياتي نفسه، مثل العالم كله، أمام وضع جديد تماماً في اوروبا الوسطى. لا شيء كان ينبئ باستعجال المسيرة الى هذا الحد. لكنها في الحقيقة كانت نتيجة منطقية لجمود ابناء برلين الشرقية، والتي كان مستشارو غورباتشيف يراقبونها بقلق منذ أشهر.

المانيا بلا جدار! لم يكن ذلك هدف غورباتشيف على الإطلاق، ولكن علينا التسليم بانه كان من نتائج سياسته، وهي سياسة هيأت الاتحاد السوفياتي للبحث عن حلول سلمية وبناءة في مواجهة تلك التغييرات غير المتوقعة ـــ والمقلقة أيضاً ـــ في أوروبا. وتجدر الإشارة الى ان موسكو لم يخطر في بالها القيام بتدخل عسكري في تلك الآونة. لا ريب ان مثل هذا التدخل كان قد وقع قبل عشر سنوات. والعودة الى السياسة القديمة باتت مستحيلة بعد الآن، حتى في نظر الموظفين والضباط المحافظين. وهذا الإنجاز الكبير الذي حققه غورباتشيف جعل الضمانة الاساسية لمصالح الاتحاد السوفياتي ترتكز على المفاوضات والمعاهدات وليس على المصفحات.

من الطبيعي ان غورباتشيف كان يعلم ان السياسة الالمانية يمكنها ان تشكل مصدر خطر لرجل الدولة السوفياتي. ذلك ان الحرس القديم في الحزب والجيش قد انطبع الى الأبد بالنصر على المانيا وما تزال ذكرى الستة والعشرين مليوناً من السوفيات الذي ضحوا بحياتهم في سبيل الاتحاد السوفياتي، وكذلك ذكرى جرائم الاحتلال الالماني والدمار الذي خلّفه، تفسر الى اليوم الطريقة التي يتصور فيها السوفيات المانيا. تمثّل جمهورية المانيا الدمقراطية حلقة أساسية في الحفاظ على الأمن السوفياتي في اوروبا. من الصعب على كبار العسكريين التخلي عن فكرة الأمن في اوروبا ولم يتوانَ خصوم غورباتشيف في الحزب عن إنعاش الذاكرة بتلك الذكريات الرهيبة. ألن تضعف السياسة الجديدة موقع الاتحاد السوفياتي في العالم من جراء حرمانه من معقله المتقدم في اوروبا؟ بعضهم ذهب الى حد القول

بان سياسة غورباتشيف قد أدت بالاتحاد السوفياتي الى خسارة الحرب، بعد خمس وأربعين سنة.

لما كان غورباتشيف يعرف خصومه جيداً فقد جهد طويلاً للإبقاء على « المسألة الالمانية » بمنأى عن الجدل السياسي. « ما تكوّن هناك عبر التاريخ، من الأفضل تركه للتاريخ »، يجيب غورباتشيف رداً على اسئلة طرحت عليه حول القومية الالمانية وشكل دولها في المستقبل. لكنه لم يرفض أساساً فكرة توحيد الدولتين الألمانيتين، ولا شيء يسمح بتفسير سقوط جدار برلين على انه فشل لسياسته. قبل شيفارنادزه، لم يرَ في تفكك الامبراطورية السوفياتية في أوروبا الشرقية وأوروبا الوسطى سوى نتيجة الأخطاء التي اقترفها الاتحاد السوفياتي وتراكمت عبر عشرات السنين. ينبغي الآن إقامة نظام جديد مبني على مبادئ جديدة. غير ان هذا التفكك في المانيا الدمقراطية قد تم بسرعة بحيث لم يتسنَ لموسكو او لسواها من دول العالم، ان تحاول توجيه الحركة من خلال الأفكار السياسية والعسكرية الجديدة.

في غمرة تلك الاحداث المؤثرة، حافظ غورباتشيف وشيفارنادزه على اتزانهما وهدوئهما. وشعرا بقدر كاف من القوة لمتابعة تسارع الأحداث يوماً بيوم. وجرى توجيه ما كان مرشحاً له ان يثير أزمة داخلية وخارجية، من خلال المفاوضات الدبلوماسية. يظهر الموقف الذي اتخذه شيفارنادزه حول علاقات الاتحاد السوفياتي بدول اوروبا الشرقية ونشرته صحيفة الازفستيا في ٢٧ شباط (فبراير) عام ١٩٩٠، كم كانت الدبلوماسية الروسية هادئة في تلك الآونة. لدى زيارة رئيس تشيكوسلوفاكيا الجديد، « فاكلاف هافل »، اوضح شيفارنادزه انه « يؤيد » حركات الإصلاح الدمقراطي في اوروبا الشرقية وان موسكو تأمل ان يكون هذا التطور « في إتجاه واحد ». وينبغي تأسيس العلاقات الجديدة مع الحكومات التي تبنت نهجاً اصلاحياً في أوروبا الشرقية، على « قاعدة المساواة في الحقوق ». في الواقع، كان شيفارنادزه يؤكد

بكلماته ما طمأن غورباتشيف به « فاكلاف هافل ». وأضاف وزير الخارجية: « كل ما يحدث اليوم في أوروبا الشرقية، نعتبره بمثابة ثورة دمقراطية تتوافق مع مصالحنا الوطنية ». كان من الواضح ان السياسة الخارجية الأوروبية الجديدة التي ينتهجها غورباتشيف لن تقتصر على قبول التغيير، بل سوف تسانده من خلال العمل على ترسيخه.

لم تكن « الأحداث » ممكنة لو لم تتطور العلاقات بين الاتحاد السوفياتي وجمهورية المانيا الاتحادية على نحو أفضل مما كان يؤمل لها في بداية عهد غورباتشيف. في مطلع عام ١٩٨٥، بمناسبة الذكرى الأربعين لاستسلام المانيا، اتهمت الدعاية السوفياتية المانيا الاتحادية بانها دولة عسكريتارية تعمل لحساب الولايات المتحدة. لذلك أبدت الغالبية المحافظة في المانيا حذرها تجاه الأمين العام الجديد. ولم تجد فيه سوى المتمم البارع لسياسة اسلافه المتعطشة الى القوة.

اعتبرت الدبلوماسية السوفياتية الرغبة التي أبدتها الحكومة الفدرالية لإشراك المصانع الألمانية في « برنامج حرب النجوم » الاميركي، بمثابة إستفزاز متعمد. وبقيت العلاقات متردية بين البلدين حتى زيارة وزير الخارجية الالمانية هينز ديتريش غينشر الى موسكو من ٢٠ الى ٢٢ حزيران (يونيو) عام ١٩٨٦. إضافة إلى المحادثات الطويلة مع ادوار شيفارنادزه، تحدث غينشر طيلة ثلاث ساعات مع ميخائيل غورباتشيف. وصرح السفير السوفياتي في بون يولي كيزنسكي ان هذه اللقاءات سوف تؤدي الى ترسيخ الحوار بين البلدين. وأوضح غورباتشيف ان محادثاته مع غينشر فتحت صفحة جديدة في العلاقات بين الدولتين. وتوقفت الصحافة السوفياتية عن الحديث عن المانيا الفدرالية بحسب اللهجة نفسها، وجرى إحياء الاتصالات الثنائية التي كانت تراوح مكانها. واستؤنفت المحادثات بين غينشر وشيفارنادزه في آب (أغسطس) في نيويورك، ثم، بعد فشل مؤتمر القمة في رايكجافيك حضر مساعد وزير

الخارجية، كاربوف شخصياً إلى بون لإبلاغ وزير الخارجية الألمانية مباشرة عن الطريقة التي يرى فيها الاتحاد السوفياتي الأمور.

غير ان العلاقات ساءت مجدداً في خريف عام ١٩٨٦، فقد تحدث المستشار هيلموت كول عن غورباتشيف بلا روية، واصفاً إياه بالسياسي المخطط على طريقة « غوبلز ». وفي مقابلة مع السفير السوفياتي ثم أمام البوندستاغ، جهد كول لاحقاً لتصويب حديثه قائلاً انه لم يرغب بمقارنة غورباتشيف بغوبلز أو بإهانته. لكن موسكو عمدت الى الغاء اللقاءات المتوقعة بين الوزراء، ولم يجتمع شيفارنادزه مع غينشر بعد ذلك الا خلال لقاء قصير على هامش مؤتمر فيينا.

استمرت العلاقات متردية طيلة بضعة أشهر. ولم تستأنف الإتصالات على أعلى المستويات الا في نيسان (إبريل) عام ١٩٨٧ حين قدم رئيس الوزراء المساعد، انطونوف، الى بون لإجراء محادثات حول المسائل الاقتصادية، ذلك ان العلاقات مع بون تحتل مركزاً مرموقاً في اهتمامات الدبلوماسية السوفياتية بحيث لا يجوز للحرد ان يستمر الى ما نهاية. بعد ذلك جاءت الزيارة الرسمية التي قام بها رئيس الجمهورية ريشار فون ويزاكر، لتزيل ما بقي من غيوم ملبدّة في الأجواء. لاحظ غورباتشيف اثناء حديثه مع الرئيس الالماني، انه يشاطره الرأي في مسألتين: الانتماء الى ثقافة اوروبية واحدة وترابط كافة دول القارة الأوروبية فيما بينها. وقد صدّقه حين قال ان الالمان الغربيين يضعون آمالهم في البيريسترويكا ويراهنون على قيام البيت الأوروبي الجامع. وشدد على أهمية استقرار العلاقات بين المانيا والاتحاد السوفياتي. وقال له أيضاً ان الاتحاد السوفياتي يتمنى ان تبقى المانيا الاتحادية دولة قوية ومستقرة اذ من دون ذلك لا استقرار في اوروبا وفي العالم. لا بد من الاشارة الى ان كل الاعتبارات التي ساقها غورباتشيف تفترض وجود دولتين، لكن زيارته اظهرت الأهمية التي تعلقها موسكو على علاقاتها مع المانيا الاتحادية.

عاد الحذر السوفياتي يلف مرة اخرى العلاقات بين البلدين، خلال صيف عام ١٩٨٧، حين بدا ان حكومة المانيا الاتحادية تعارض الإتفاقات السوفياتية ــ الاميركية حول تدمير الصواريخ المتوسطة المدى لانها لا تنوي التخلي عن الصواريخ « بيرشينغ » المنصوبة على أرضها. وحين وافقت المانيا الاتحادية اخيراً على التخلي عنها، في آب (اغسطس) عام ١٩٨٧، امتدح الاتحاد السوفياتي بصورة رسمية هذا القرار واعتبره مساهمة ايجابية في الانفراج الدولي. كانت الطريق سالكة لمتابعة الحوار. خلال محادثاتهما الطويلة، قيّض لوزيري الخارجية، غينشر وشيفارنادزه ان يتعارفا ويتبادلا الاعتبار والتقدير. ازدادت الاتصالات الثنائية بين الوزراء المختصين، من جديد. وتحادث فرانز جوزف شتراوس مطولاً مع غورباتشيف في موسكو. وتبين لهذا الأخير ان حاكم بافاريا المحافظ لم يكن ذلك الشيطان الذي تصوّره الصحافة السوفياتية. ومن زوار الامين العام في تلك الفترة، كل من رئيس الوزراء لاندر، رو وسبات، إضافة الى رئيس الحزب الدمقراطي نوجل، إضافة الى ويلي براندت الذي كان السوفيات يثقون به على وجه الخصوص.

في تشرين الأول عام ١٩٨٨، كانت النفوس مهيأة لزيارة رسمية يقوم بها المستشار هيلموت كول. منذ اللقاء الأول (دامت اللقاءات حوالي عشر ساعات)، ساد الشعور بان حرارة الإتصال آخذة في الارتفاع، على الرغم من مشاعر التعاطف التي يكنّها الواحد تجاه الآخر. اعقب الزيارة توقيع سلسلة من الاتفاقات الحكومية. لأول مرة يتحدث وزير الدفاع في المانيا الاتحادية مطولاً الى نظيره السوفياتي، ويزور وحدات سوفياتية ويلقي خطاباً في الاكاديمية العسكرية للوحدات المدرعة.

أثبتت هذه اللقاءات ان الاتحاد السوفياتي يرفض طرح مسألة وجود دولتين المانيتين، على المدى البعيد. لكن النصوص الرسمية ذهبت أبعد من ذلك. ففي تموز (يوليو) عام ١٩٨٨، ظهر في مجلة « ليتراتورنايا غازيتا » مقال كتبه ليونيد بوتشيفالوف، وأثار عنوانه احتجاج حكومة المانيا الدمقراطية:

« نحن والألمان » وقد أوضح بوتشيفالوف ان تقسيم المانيا ليس بالقديم كي نستطيع الحديث عن قوميتين. ثم حاول التخفيف من أهمية حديثه مضيفاً بان استقرار البيت الأوروبي الجامع يتطلب استمرار الدولتين الألمانيتين في وضعهما الحالي. لكنه أشار إلى ضرورة التعاون مع الدولتين اللتين يضعهما في مرتبة واحدة.

في حديث حول مصير اوروبا، نشر في مجلة « اميمو » ناقش اختصاصيان في العلوم السياسية مسألة « المجموعة الالمانية ». فرأى الأول ان المسألة الالمانية قد وجدت حلها النهائي. أما الثاني وهو بوريس أورلوف فيعتبر ان أوروبا لن تعرف الاستقرار طالما لم تجد المسألة الالمانية حلاً ملائماً. وأوضح اورلوف ان المسألة القومية ما تزال تثير إهتمام الالمان. ثم اردف قائلاً: ان الذين يفضلون التعامي عن الأشياء، يشبهون تلك القوى التي ستحاول ذات يوم حلّ المشكلة بالقوة. لا يكفي انشاء البيت الأوروبي الجامع على أسس متينة إلا بشرط عدم التهرب من المسألة الالمانية. وأضاف اورلوف: على الدولتين الالمانيتين ان تقررا كيف ينبغي « للمجموعة الالمانية » ان تتطور، اذ انه يتعذر إيجاد الحل المنشود إلا في مناخ اوروبي جديد. دلّ نشر هذه المناقشة على ان المسألة تستحوذ باهتمام الأوساط العلمية وان بعض الاختصاصيين لم يكن يتردد في إعادة طرح عقيدة الدولتين الالمانيتين على بساط البحث.

حققت زيارة غورباتشيف الى بون في حزيران (يونيو) عام ١٩٨٩، نجاحاً كبيراً لدرجة ان المراقبين السوفيات الذين اعتادوا نجاحات الأمين العام في الخارج، دهشوا لنتائج تلك الزيارة. فقد صفق بعفوية تامة الوف الالمان. وفجأة غابت عن شاشات التلفزيون السوفياتي تلك الصورة القديمة عن المانيا التي تشكل خطراً على محيطها بسبب نزعتها للانتقام والقوة...

اقلقت هذه السياسة المحافظين وعدداً لا بأس به من القادة العسكريين من الرتب الرفيعة. ذات يوم من صيف عام ١٩٩٠، فيما كان غورباتشيف

يستقبل في الكرملين، الكسندر دوبتشيك الذي عمل الاتحاد السوفياتي على قلب حكمه بعد ربيع براغ، كان ايغور ليغاتشيف يتحدث في التلفزيون السوفياتي عن المخاطر التي تتكشف عنها السياسة الجديدة في مجال الأمن وتضامن الاتحاد الاشتراكي. وقال ان المواطنين السوفيات قلقون من جراء تقويض الاشتراكية ويخشون عودة الرأسمالية والدمقراطية البرلمانية الى اوروبا الشرقية. وليس من باب الصدفة ان يشير الى النصب القائم في ساحة المعركة في كوليكوفو حيث الجيوش الروسية حررت البلاد فيما مضى من تسلط التتر والمنغول. كان ليغاتشيف يرى، كسواه من المحافظين، ان سياسة غورباتشيف في أوروبا الشرقية أفقدت الاتحاد السوفياتي المكاسب التي حققها له ستالين خلال الحرب العالمية الثانية. كان احتمال رؤية الدولتين الألمانيتين منضمتين الى الاتحاد الأطلسي يثير قلق السياسيين والخبراء الذين هدفوا طوال سنوات، الى سلخ المانيا الاتحادية عن منظمة حلف الأطلسي بغية توسيع المساحة الدفاعية المحيطة بالاتحاد السوفياتي. غير ان غالبية الشعب كانت تؤيد الانسحاب من أوروبا الشرقية وإنهاء تقسيم المانيا. وفي هذا المجال أيضاً ظهر غورباتشيف بعيد النظر اكثر من نقاده المتشددين.

في ٢٧ شباط (فبراير) عام ١٩٩٠، قرر مجلس السوفيات الأعلى تعزيز سلطات الرئيس. وسبق لالكسندر ياكوفليف عضو المكتب السياسي وأمين سر اللجنة المركزية، ان أوضح مجدداً قبل بضعة أيام، الأسباب التي تستدعي كي يكون على رأس الاتحاد السوفياتي رجل قوي، في هذه الفترة المضطربة. فكتب في صحيفة ازفستيا بتاريخ ٢٣ شباط (فبراير) يقول: ان الاتحاد السوفياتي بلد لا يمتلك اية تجربة في الدمقراطية والحياة السياسية ويحتاج بالتالي إلى وجه يرمز الى الوحدة والى ضامن للدمقراطية والأمن، والى حارس للاسس الدستورية في الدولة (من الواضح، في تصوره، ان هذا الرجل يجب ان يبقى مسؤولاً أمام القانون والشعب). وأضاف: هناك في الاتحاد السوفياتي فراغ في السلطة سقطت فيه القوى غير الشرعية والغوغائية.

« فالبيريسترويكا تعني الدمقراطية وسلطة الشعب، لكن القانون وحده يستطيع ضمان الدمقراطية. أما سلطة الشارع فهي خلاف الدمقراطية، وهي بالأحرى سلطة استبدادية تعسفية ».

وجد الإتحاد السوفياتي نفسه وجهاً لوجه أمام أزمة عميقة. ذلك ان مسيرة التغيير الاجتماعي التي أطلقها غورباتشيف تهدد بتفكيك الاتحاد؛ وجمهوريتا أرمينيا واذربيجان في جنوب القوقاز تعيشان ما يشبه حالة الحرب. كانت النار تطلق من الأسلحة الرشّاشة والصواريخ على الجنود السوفيات المكلفين بالفصل بين المتنازعين وإعادة الأمن والنظام الى اذربيجان. كذلك أقدم بعض سكان أذربيجان على انتزاع الشريط الشائك على الحدود مع إيران وإحراق إشارات الحدود مطالبين بالاستقلال الذاتي او الانضمام الى تركيا...

في جيورجيا وفي جمهورية مولدافيا، في اوكرانيا وفي روسيا البيضاء، اشتد ساعد الحركات القومية. ففي دول البلطيق الثلاث، تشكلت مجالس النواب من أكثرية تطالب بالاستقلال التام والخروج من الاتحاد. وفي ١٢ آذار (مارس) عام ١٩٩٠، أعلنت ليتوانيا رسمياً الاستقلال. وفي جمهوريات آسيا الوسطى، ادّى الاستياء العام والمطالب القومية الى مواجهات دامية. وفي بعض المدن الروسية الكبرى، مثل « فولوغراد » و « سفيرلوفسك »، أدّت التظاهرات الشعبية الحاشدة الى إقالة مسؤولي الحزب المحليين. وفي قطاع المناجم المحيطة بكيميروفو، إستولت لجان الأحزاب على السلطة الإدارية، في ختام اضرابات طويلة. وفي شباط (فبراير) عام ١٩٩٠، إجتاز مئات الألوف من المتظاهرين شوارع موسكو، مرتين، كان معظمهم يطالب بالإسراع في مسيرة التغيير الاجتماعي والاقتصادي فيما دعا بعضهم الى استقالة الأمين العام والمكتب السياسي والحكومة.

بدأ شعب جمهورية روسيا بالتحرك أيضاً. فبعد خمس وأربعين سنة من

الحرب، تدفق عشرات الألوف من الروس اللاجئين في جمهوريات الاتحاد الى روسيا وطن أجدادهم (قدرت صحيفة « ارغومانتي دي فاكتي » عددهم بحوالي نصف مليون)، حيث سجل ظهور حركة قومية روسية مناهضة للتغريب (نسبة للغرب) وللإصلاح وللتحرر الاقتصادي، إضافة إلى عدائها التقليدي للسامية.

اساءت القيادة في موسكو تقدير القوى التي ستتحرر من جراء تنفيذ الإصلاحات. عندما إنفجر الصراع بين اذربيجان وارمينيا تمسك الحزب والحكومة بالمبدأ الشيوعي التقليدي القائل بأن النزاعات القومية هي من رواسب المجتمع البورجوازي وان تحسين الظروف الاجتماعية كفيل بإزالتها. غير ان الوعد بمثل هذا التحسين في الظروف المعيشية لم يكن كافياً لتهدئة الإنفعالات القومية لا في أرمينيا ولا في اذربيجان ولا في سائر الجمهوريات الأخرى.

فضلاً عما تقدم، أدت كارثة تشيرنوبيل النووية الى تحطيم الأمل بتحقيق تقدّم تقني لا حد له. اكتشف الاتحاد السوفياتي حجم الكارثة من خلال الوقائع التالية: هناك مساحة شاسعة أصبحت غير صالحة للزراعة لعشرات بل لمئات السنين وعدد هائل من الضحايا المباشرة وغير المباشرة. وجرى التداول بروايات عن كوارث بيئوية في كافة أنحاء البلاد، بدءاً من ايستونيا الى اوربكستان حيث حلّ الدمار في مناطق شاسعة. والزراعة الاحادية التي تكتفي بمحصول واحد إضافة الى الوسائل الكيماوية التي اعتمدتها الخطط الزراعية أدت جميعها الى قحط الأرض وتحوّل الناس الى البطالة. وكثرت حالات التلوث وتدنّى معدّل الحياة بشكل كبير في المناطق المنكوبة.

على صعيد آخر، تحالفت المصالح الفردية، وعلى رأسها المؤسسات والسلطات المحلية لتضرب بالمصلحة العامة عرض الحائط. فأعلنت الجمهوريات والمدن الحظر على المواد الغذائية والسلع الاستهلاكية ومنعت

بيعها الا للمقيمين الرسميين. واستخدمت مؤسسات صناعية كبرى موظفين يتميزون بالكفاءة متعهدة بتوفير منتجات مستوردة من الغرب. فنشأ نظام من المنافع والامتيازات، لا يراعي التعليمات والأنظمة المرعية وبات من المستحيل مراقبته والسيطرة عليه؛ فاندفعت الأزمة في اتجاه واحد، ودفع الصالح العام ثمن صراع الانانيات.

حذر غورباتشيف من أن الوضع سيشهد تردياً قبل ان يتحسن. غير ان الغالبية العظمى من الشعب فقدت الثقة، في مطلع عام ١٩٩٠: أين أضحى البرنامج الاساسي ؟ ما هي الأهداف القصيرة الأجل ؟ كان الشعب يقاسي من ارتفاع الأسعار اكثر من أي وقت مضى، ومن رواج السوق السوداء وزيادة حدة الإجرام. وإنهارت سلطة الحزب. وامتنعت الشرطة السرية التابعة لجهاز الـ ك.ج.ب. الذي بقي سليماً، عن التدخل.

كذلك فقدت المجالس النيابية الجديدة بريقها بعد ان كان السوفيات قد اخذوا بسحرها، اذ سقطت المناقشات في جدال لا نهاية له وبدا النواب عاجزين عن التصويت على قانون يساعد على تحسين الوضع التمويني.

قد يظن المراقب المحايد ان الفوضى هي ظاهرة مألوفة عند قيام تغييرات عميقة. لكن الناس الذين يقاسون مرارة التغيير يوماً بعد يوم، سوف يحصدون الخيبة والعذاب بعد انهيار الحماس الذي ساد في الأيام الأولى للتغيير.

عندما عيّن غورباتشيف اميناً عاماً، كان يدرك المشاكل التي تراكمت في البلاد اكثر من أي كان في قيادة الحزب. لكنه اساء تقدير الصعوبات، وبدا النظام السوفياتي اكثر هشاشة مما كان يظن. واقتصرت خبرته في مشكلة القوميات على التجربة التي خاضتها الشعوب الجبلية المقيمة في جنوبي منطقة ستافروبول والتي عانت من التدابير التعسفية ومرارة النفي والابعاد في عهد ستالين. من المؤكد ان غورباتشيف كان على اطلاع على المدّ القومي الذي يهب بانتظام في هذه الناحية او تلك ــ وقد عرف

الاتحاد السوفياتي الكثير من الحركات القومية في تاريخه ــ غير انه ومستشاريه كانوا يحللون الأمور انطلاقاً من مبادئ الاصلاحات العقلانية. ولذلك حرصوا في البدء على إعادة بناء الحزب وأجهزة الدولة والاقتصاد. وإذا كانوا يدركون تماماً ان إعادة البناء سوف تفضي بهم الى إعادة تنظيم الاتحاد والى قيام توازن جديد بين السلطة المركزية والجمهوريات، فان تحسين الظروف المعيشية في الاتحاد السوفياتي كان يحتل مرتبة الأولوية في سلم اهتماماتهم. ولم يدركوا أهمية التوترات التي كانت تنذر بخطر تفجير الاتحاد السوفياتي، إلا عندما اقترن الاستياء الاقتصادي بالشعور القومي الحاد.

كان على غورباتشيف ان يتحرك سريعاً من خلال استخدام الجيش، كما يقول منتقدوه اليوم. لكنه، لو فعل ذلك، لكان وقع في تناقض مع المبادئ التي نادى بها. من هنا تردده، خلال الاضطرابات التي وقعت في اذربيجان، الى ان فات الأوان على استخدام الجيش لفرض النظام. وسوف يصرح غورباتشيف، في تموز (يوليو) عام ١٩٩٠، في مقابلة تلفزيونية لم تبث في الاتحاد السوفياتي، بانه لا يستبعد اللجوء إلى الجيش في حال استفحال الأزمة. « ينبغي استخدام القوة حيث الضرورة تقضي بذلك. هناك حالات تضطرنا لاتخاذ اجراءات وقائية لصالح الثورة والناس أنفسهم ضد الاخطار التي تهددهم. نحن بحاجة لمؤسسة الرئاسة لانه يتعين علينا الدفاع عن الدمقراطية والبيريسترويكا ككل. وسبق لنا ان اضطررنا للجوء الى مثل تلك الأساليب. كانت تلك الاجراءات استثنائية وتقررت بعد تفكير عميق، لأنه من غير السهل اتخاذها فهي تترك آثارها في نفوس المسؤولين وفي المناطق المعنية. قبل الوصول إلى هذه النقطة، ينبغي إمعان الفكر في كل مرة وتقدير الوضع تماماً ». وقد شدّد غورباتشيف على انه لا يمكن التخلي دائماً عن استخدام القوة. « يجب الاعتراف بهذا الأمر. كل ذلك ينقضي في النهاية. ونحن نتعلم بسرعة كيفية إجراء الحوار وكيف نصغي الى بعضنا

بعضاً. هدفي الرئيسي هو إتاحة الفرصة لهذا البلد للسير في طريق جديدة ــ هذا البلد الذي قاسى الكثير من الاضطرابات والمآسي والظلم ».

أدرك غورباتشيف باستمرار انه لن يحظى بموافقة الحزب ومجلس السوفيات الأعلى على إعادة تنظيم العلاقات بين الاتحاد السوفياتي وجمهورياته، طالما ان هذه الجمهوريات لم تدرك ماهية المشكلة. لذلك غالباً ما انتظر ان تتطور المشكلة إلى أزمة قبل أن يتحرك، لكي يدفع خصومه للحاق به بغية إيجاد الحل. وهذه المنهجية في العمل تتطلب الصبر والتصميم والقدرة على إتخاذ القرار. غير ان التحرك السريع يفترض امتلاك الوسائل.

اكتفى مجلس السوفيات الأعلى بفترة يومين فقط لتقديم القانون حول إنشاء نظام رئاسي، في ١٥ آذار (مارس) عام ١٩٩٠. واختار ٥٧٪ من النواب غورباتشيف رئيساً. انها أكثرية ضئيلة. لو نال القانون ثلثي الاصوات، لما كان انتخب غورباتشيف رئيساً في هذه الدورة من الإقتراع. اذ ان بعض نواب اليمين واليسار لم يمنحوه أصواتهم. غير ان النتيجة لم تكن بهذا القدر من الوضوح. ولذا وافق غورباتشيف على ان يكون اول رئيس للاتحاد السوفياتي.

الرئيس في وجه الاعصار

ما ان أقسم الرئيس اليمين، في آذار (مارس) عام ١٩٩٠ في قصر الكرملين حتى تعرض لضغط التاريخ. قبل أربعة أيام، أعلنت ليتوانيا استقلالها من جانب واحد، فاتحة بذلك الطريق أمام تفكك الاتحاد. فردّ غورباتشيف بإصدار مرسوم رئاسي يطلب فيه من البرلمان الليتواني الغاء اعلان الاستقلال، تحت طائلة وقف الحوار.

أظهر الرئيس الكثير من الحزم والعناد. ولكن، ما العمل للحفاظ على وحدة البلاد ؟ في السنة الفائتة، أدى تدخل الجيش في تيبليسي الى تفاقم الأزمة وإشتداد النزاعات الإنفصالية. لذا قرر الرئيس حصاراً اقتصادياً جزئياً على ليتوانيا لإجبارها على التراجع. في « فيلنيوس » اضطرت قوى الأمن الداخلي والجيش لحماية مباني الحزب الشيوعي الموالي لموسكو من هجمات الشيوعيين الليتوانيين، وجابت الشوارع أرتال من المصفحات. وهنا ظهرت بوضوح حدود السلطة الرئاسية، اذ استبعدت مسألة إحتلال ليتوانيا، او غزوها مجدداً إثر انتخاب مجلس نوابها الجديد.

يعدّ الاتحاد السوفياتي خمس عشرة جمهورية. بين آذار (مارس) وايلول (سبتمبر) عام ١٩٩٠، أعلن خمس منها الاستقلال وهي ليتوانيا واستونيا وجيورجيا وليتونيا وارمينيا. وأعلنت سبع جمهوريات أخرى السيادة في إطار

اتحاد شاءته مرناً، وهي اذربيجان وروسيا البيضاء ومولدافيا، وتركمانيستان واوزباكيستان وتاجيكستان واتحاد روسيا قلب الاتحاد السوفياتي.

أظهر الرئيس مجدداً الكثير من التردد والحيرة. فردّ بشدة في بادئ الأمر إدعاءات السيادة، ثم صحح رمايته وفقاً لتطور الوضع، فرفض التفاوض مع رؤساء دول البلطيق، غير انه انتهى إلى إقامة حوار معهم. ثم دعا الى توقيع معاهدة تجعل من الاتحاد جامعة كونفدرالية لدول ذات سيادة. غير ان القانون الذي صدر على عجل في الربيع فرض شروطاً صعبة ومعقدة على الخروج من الاتحاد بحيث لم تستطع الحركات القومية القبول بها. وسقط في النسيان. بعدئذٍ استؤنفت المناقشات، لكنها كانت تجرجر طويلاً اذ كان غورباتشيف ينوي الاحتفاظ لرئيس الاتحاد بسلطة التقرير في حقل السياسة الخارجية والطاقة النووية، بينما لم تستطع جمهوريات اخرى تخالفه الرأي ان تتصور إمكانية العودة إلى الوراء...

لم يفهم الشعب هذا المزيج من التصلب والليونة، واعتبرها دليل ضعف. وعلّق احد معاوني غورباتشيف بالقول: « ان المعلم يرتجل الأمور ارتجالاً » اما الكسندر ياكوفليف فيصف طريقة غورباتشيف في إنتهاج سياسته بالكلمات التالية: اعتقد ان غورباتشيف يتميز بالقدرة على تغيير نظرته إلى الأمور حتى ولو اتهم بذلك في غالب الأحيان. اقدرّ له، من جهتي، تمتّعه بالقدرة على إعادة النظر، من خلال رؤية جديدة، في كل ما جرى تقريره. لا يستطيع الجميع القول: « ما كتبته البارحة هو مجرد حماقة ». اقرّ بانني عاجز شخصياً عن ذلك. هذا الكلام الصادر عن لسان رفيق نضال مقرب إليه، يدل على ابتعاد ياكوفليف عنه، حتى ولو استعمل الكلمات ذاتها التي استخدمت للتشديد على النقاط القوية في شخصية لينين.

يرى منتقدو غورباتشيف ان قراراته تصل دائماً متأخرة من سنة الى سنتين. يقولون، مثلاً ان الوضع الاقتصادي الذي شهد تدهوراً ذريعاً، كان

يستدعي إتخاذ قرارات سريعة وحازمة. وقد فرض غورباتشيف على البرلمان، بشخص نيقولاي ريجكوف رئيس حكومة باهت اللون، لا رونق له ويفتقر إلى روح العزم والمبادرة واقتصر برنامجه الاصلاحي على سلسلة من التسويات. لذلك لم يتحدث عن « اقتصاد السوق الاشتراكي » بل عن « اقتصاد منضبط اي في النتيجة اقتصاد موجه ومنظم. وهذا الأمر على درجة كبيرة من الخطورة لان الشعب وجد فيه كل مساوئ اقتصاد السوق: انخفاض في الانتاج، تضخم وإقفال المؤسسات، إلى جانب بطالة بلغت حوالي أربعين مليوناً من العاطلين عن العمل. وفي الوقت الذي تعهد ريجكوف بالانتقال الى نظام اقتصادي « منضبط »، أعلن أيضاً ان الحكومة ستحدد أسعاراً أرفع للخبز واللحوم وسائر السلع الغذائية، الأمر الذي أدّى الى هلع بين المستهلكين، وتهافتهم على المتاجر، وفقدان السلع التموينية من السوق. حتى الملح أصبح نادراً. ولم تقدم الحكومة على تنفيذ نظام اقتصادي جديد إلا... بعد ست سنوات.

مع ان غورباتشيف قد حث رئيس حكومته على تسريع الانتقال الى اقتصاد السوق. ومعنى ذلك، بنظر الشعب ان ما يعلنه ريجكوف لا يختلف عن برنامج غورباتشيف. غير ان هذا الأخير لم يعلن علانية تأييده لبرنامج ريجكوف الاقتصادي، محافظاً على بعض المسافة بينه وبين رئيس الحكومة الذي يتعرض للنقد من كل جهة. يقول ستانيسلاس شاتالين، مستشار غورباتشيف الاقتصادي لدى المجلس الرئاسي، في صيف عام ١٩٩٠: لم يدافع غورباتشيف يوماً عن برنامج رئيس الحكومة ريجكوف، لا أمام المجلس الرئاسي ولا أمام التلفزيون. ذلك ان غورباتشيف يتحدث عن ضرورة الانتقال الى اقتصاد السوق، ويدعم بصورة مبدئية إصلاح النظام الاقتصادي في مجمله. ويسعى أيضاً لتوفير الحماية الاجتماعية للطبقات الفقيرة من الشعب. ولكن اذا لم يتم تعديل برنامج الحكومة الاقتصادية بصورة جذرية، فسنقع في المأزق ». كان شاتالين يلمح في الأفق، مثل العديد من المراقبين أزمة حكومية

تؤدي إلى إستبدال ريجكوف. لكن غورباتشيف تمسك برئيس الحكومة، وكلف شاتالين إعداد برنامج اكثر جرأة بغية تحقيق الانتقال الى اقتصاد السوق.

كان على غورباتشيف ان يناضل على جبهات عدّة، ومرة أخرى ظهر متردداً لا يثبت على رأي. وهذه المماطلات تشوّه صورته أمام أعين الشعب والنقاد وحتى مؤيديه. كما تشجع الموظفين المحافظين داخل الحزب على معارضته. مثاله ان جهاز الحزب الشيوعي التابع لاتحاد روسيا، والذي كان يخضع مباشرة لسلطة أمين العام واللجنة المركزية، قرر التحول الى حزب مستقل وأقرّ لنفسه برنامجاً محافظاً، وانتخب رئيساً يكن العداء لسياسة غورباتشيف؛ وشهد الحزب في مختلف فئاته تحوّلاً نحو اليمين وتساءل الكثيرون في موسكو عما اذا كان المؤتمر الثالث والعشرون للحزب سوف يجدد ولاية الأمين العام... لم يكن مطمئناً هو نفسه لدى القائه اول خطاب له أمام الخمسة آلاف مندوب، كما ان التصفيق الذي حيّا وصوله لم يكن حماسياً. فيما لقي إيغور ليغاتشيف استقبالاً افضل وقوطع بالتصفيق باستمرار؛ أما رفاق النضال المقربين من غورباتشيف أمثال الكسندر ياكوفليف وادوار شيفارنادزه فتعرضوا للنقد والسخرية. وتوقع المراقبون ان يحقق خصوم الإصلاح انتصاراً رائعاً.

قبل وضع مسألة اختيار الأمين العام على جدول الأعمال، اعتلى غورباتشيف المنصة لإلقاء الخطاب الختامي، حيث ثأر لنفسه بمهارة فائقة من اولئك الذين يعيقون الإصلاح، داخل الحزب نفسه. بدا واثقاً من نفسه تماماً، كأنه يعلم مسبقاً ان مركزه غير معرض للخطر، على الرغم من انتقادات النواب وتأففهم. وعرض برنامجه الإصلاحي، دون تسويف أو حذف أي مقطع منه. كان يريد ان يكون المندوبون على وعي تام للسياسة التي يختارونها فيما لو انتخبوه. وقال: لا عودة الى البنيات السلطوية السابقة ومسيرة الدمقراطية ذات اتجاه واحد، وما على الذين لا يوافقون على هذه السياسة سوى ان يستقيلوا. وشكا من تردي النقاش على المستويين الفكري والاخلاقي.

وردّ على النواب المحافظين ــ وهم أكثرية في المؤتمر ــ الذين اتهموه بخسارة اوروبا الشرقية، قائلاً: « هل تريدون استخدام المدرعات مرة أخرى ؟ هل ينبغي علينا مرة اخرى ان نعطيهم أمثولة ونعلّمهم كيف يجب عليهم ان يعيشوا ؟ ».

ووقع ما لم يكن بالحسبان، فالنواب الذين وبخّهم لتوّه، جددوا له الولاية. صفّقوا لايغور ليغاتشيف، لكنهم رفضوه كأمين عام وعضو في المكتب السياسي، ولم يصوّت له سوى أقلية ضئيلة بلغت ثمانماية صوتاً، بحيث لم يجدد انتخابه لعضوية اللجنة المركزية. عند ذاك أعلن ليغاتشيف انتقاله الى المعارضة الشديدة مهدداً بالقول: ان العمل الحقيقي سيبدأ بعد المؤتمر. ولكن ما يستطيعه بعد الآن موظف سابق فقد مركزه داخل الجهاز ؟ وانسحب الى سيبريا ثم أحيل بعد ثلاثة أشهر على التقاعد.

يرى اوتو لاتسيس، احد مؤيدي غورباتشيف، ان هذا الأخير قد سحر المؤتمر كما يستطيع وحده ان يفعل. أما يوري بروكوفييف، أحد نواب اليمين الوسط الذي تعرض أيضاً لانتقاد المحافظين، فيقدم تفسيراً آخرَ: أدرك نواب اليمين ان الإنقسام سيؤدي بهم الى خسارة نفوذهم ومراكزهم وسلطة الحزب. ولعل الموظفين الذين يشكلون الأكثرية المحافظة داخل المؤتمر، قد شعروا بان هيمنة الحزب أوشكت على النهاية وان غورباتشيف سوف يخفّف من سقوطها. مع ان غورباتشيف قال بوضوح ــ وليس فقط بمناسبة خطابه الختامي ــ مدى إنعدام ثقته بالحزب، وأيدّ كلامه باقتراح تعيين نائب أمين عام جديد ومكتب سياسي جديد، ومن ثم تخصيص كل منهما بدور ثانوي لا يتيح لهما التدخل في القرارات الهامة. كان باستطاعته أيضاً تقليد الوظائف القيادية لاشخاص لا أهمية لهم. لكنه يعرّض نفسه من جراء ذلك للنقد مجدداً، كأن يقال انه يهوى إحاطة نفسه باشخاص ضعفاء دونه منزلة بحيث لا يستطيعون بالتالي معارضته ومخالفته الرأي. تلقى، بإرتياح بالغ، قرار آخر أبرز خصومه على ترك الحزب. وبعد ان

اجتاز بوريس يلتسين بخطواته الواثقة وحركاته الاستعراضية، ردهات قصر المؤتمر، وصولاً إلى المنصة، وبعد القاء كلمته الوداعية التي أوضح فيها قرار رحيله، ثم عودته إلى مقعده وسط هتافات الاستنكار، وبعد خروجه من القاعة وإقفال الباب خلفه، علق غورباتشيف بالقول: هذه هي الخاتمة المنطقية لمسيرته ».

لم يتعرض بوريس يلتسين في خطابه، للنواب والحزب بالنقد. وأوضح انه، في ٣٠ أيار (مايو) انتخب رئيساً لجمهورية روسيا، ولا يحق له بالتالي، بصفته رئيساً للشعب الروسي، ان يكون متشيعاً لحزب. وينطوي هذا التفسير على نقد غير مباشر لغورباتشيف لكونه يتولى منصبي الرئيس والأمين العام معاً. غير ان يلتسين يعلم ايضاً ان الحزب الذي تزدريه غالبية اعضائه، لن يكون ذا فائدة له بعد اليوم. وفكرّ ملياً بالقرار الذي اتخذه واستعدّ له، خلافاً لاسلافه الذين تخاصموا مع اللجنة المركزية.

في الواقع، تغيّر يلتسين خلال السنة. فقد نجح في التغلب على أزمة شخصية، أقلقت عواقبها البيت الأبيض لدى زيارته للولايات المتحدة، فيما وقعت في موسكو فضيحة خاصة لا أهمية لها ولا معنى لها في الظاهر؛ ففي اليوم الذي انتخبه مجلس السوفيات الأعلى لجمهورية روسيا رئيساً لها، اتخذ فجأة خطاً سياسياً جديداً. وهذا التبدل أدهش بعض مؤيديه الذين دعموه على مضض. ذلك انه فاز بعد عدة دورات اقتراعية وبغالبية ضئيلة لم تتجاوز نسبتها الغالبية التي أوصلت غورباتشيف الى سدة رئاسة الاتحاد. فقد نال يلتسين ٥٣٥ صوتاً اي بغالبية أربعة أصوات فقط. والأصوات التي نالها في البرلمان الروسي حيث الغالبية محافظة، لم تقتصر على مؤيديه من « الكتلة الدمقراطية ». وقد سعى غورباتشيف دون جدوى الى حشد النواب الشيوعيين المعتدلين ضده ــ مجازفاً بإيصال رئيس الحزب الروسي بولوسكوف الى رئاسة جمهورية روسيا، وهذا الأخير محافظ متطرف وخصم لدود ليلتسين والأمين العام معاً. من الصعب التمييز بين الجانبين الانفعالي

والمنطقي في الخلافات التي تنشب بين غورباتشيف ويلتسين. فحين يتحدث يلتسين عن انتخابه، يبدو عليه الارتياح لتغلبه على غورباتشيف ويقول: « قبل ساعات من انتخابي رئيساً لمجلس السوفيات الأعلى لجمهورية روسيا، جمع غورباتشيف ٢٥٠ شيوعياً، ساعياً لإقناعهم بان عليهم منع انتخاب يلتسين بكافة الوسائل. أبلغ غورباتشيف هذه الرسالة الى النواب وطار في زيارة رسمية الى كندا والولايات المتحدة. في اليوم التالي، انتخبت رئيساً لمجلس السوفيات. ذلك ان خصومي لم يتغيروا وقد ساهموا بألاعيبهم الرعناء في فوزي. بعد هذه الدعاية الرائعة، أصبح فوزي مضموناً. غير انه خلف هذا التردد والارتباك، ساد الخوف الذي ولدّ الهلع والبلبلة. فهم يعرفون جيداً ما سيفعله يلتسين بعد انتخابه، اذ سيعلن استقلال روسيا وسيادتها، وإعادة توزيع السلطات الإدارية، ووقف تسييس الجهاز الحكومي الخ... قبل ذلك، كانت مشكلتهم مع ليتوانيا وجمهوريات البلطيق. أما الآن، فقد انضمت روسيا الى اللائحة، وأصبح من غير الممكن فرض الحصار عليها. لا بل هي التي تستطيع فرض الحصار على سائر الجمهوريات الاخرى، لكنها لن تفعل ذلك البتة ».

اطلّع غورباتشيف على نبأ انتخاب يلتسين، في الطائرة فوق المحيط. خلال الاستقبال الرسمي الحافل الذي أعدّ له في اوتاوا، كانت نظراته تتوزع خلسة على الجنود الذين يرتدون بزات حمراء، فيما وجهه العابس يفضح قلقه، وأفكاره المشتتة ترود هائمة فوق موسكو. ذلك ان انتخاب يلتسين على رأس اتحاد روسيا يمثل اخطر تحدٍ واجهه غورباتشيف. والذي زاد الأمور تعقيداً ان الأزمة لم تكن مرشحة للحل داخل الحزب حيث ما يزال غورباتشيف مهيمناً بقوة. فضلاً عن ذلك، استمال يلتسين الى جانبه، إضافة الى النواب الدمقراطيين، مئات النواب الشيوعيين. وبدا ان نواباً من الوسط وحتى من المحافظين لم يتقيدوا بقواعد التصويت وانتهزوا الفرصة لتأديب غورباتشيف والاقتصاص منه.

ادرك يلتسين ان موقعه داخل البرلمان سيبقى هشاً اذا لم ينجح في استمالة المحافظين المعتدلين الى جانبه. واخذ يتقدم بتؤدة وحذر، واحاط نفسه بمستشارين على جانب كبير من الحنكة والتبصر، ورسم خطته بعناية وتحاشى ارتكاب الاخطاء. وفي تصريحه الاول، استمال المحافظين الى جانبه عبر تأكيده على سيادة روسيا. واذا كانت كلمة « سيادة » تثير حماس المعارضة الدمقراطية، فان كلمة « روسيا » كانت تشيع في نفوس المحافظين أحاسيس عاطفية شديدة. والسيادة داخل اتحاد يقوم على تنظيم جديد تعني ان باستطاعة روسيا التصرف بثرواتها المنجمية وتقرير مصيرها بنفسها. يقول يلتسين: ينبغي لقوانين روسيا ان ترجح على قوانين الاتحاد. سوف نستخدم أجهزة الحكومة المركزية لحلّ المشاكل الهامة في روسيا. وسندفع بدل هذه الخدمات. لنا الحق بالاستقلال وبالخروج من الاتحاد. اذا اختلفت الحكومة المركزية معنا، ومع روسيا، فلن يبقى لها شيء تحكمه على الإطلاق. من غير الوارد ان تتخاصم معنا، وعليها البحث عن تسوية كما يتوجب علينا نحن أيضاً السعي لإيجاد التسوية الملائمة ».

في البداية، بدا ان غورباتشيف ويلتسين يسعيان للمواجهة فأعلن رئيس الاتحاد بان روسيا هي المالكة الوحيدة للثروات تحت الأرضية، وللمناجم ومحطات توليد الكهرباء والمصانع. وعليه فلم يعد من داع لوجود الأجهزة الوزارية التابعة للحكومة المركزية، وأصبحت بالتالي عاطلة عن العمل... مثاله ان ثروات الألماس العائدة لروسيا ينبغي بيعها مباشرة من خلال الوسيط الغربي « بيرز »، ويعود ثمنها الى خزينة اتحاد روسيا وليس الى وزارة المالية في حكومة الاتحاد السوفياتي. كان واضحاً في ذهن يلتسين، ان الذهب والنفط وكل ما تصدّره روسيا، ينبغي ان يتحوّل ملكية روسية. وهكذا يصبح غورباتشيف فارغ اليدين ويضطر لاستعطاء المساعدة من يلتسين لتمويل موازنته. لذا، أصدر غورباتشيف مرسوماً رئاسياً اعتبر بموجبه قرار الاتحاد غير ذي مفعول. غير ان غورباتشيف كان يدرك ايضاً انه يخوض صراعاً

شائكاً يفتقر الى التأييد الشعبي. ذلك ان مطالبة روسيا بإفادة سكانها وحدهم من ثرواتها من دون مشاركة الاتحاد السوفياتي وسائر الجمهوريات الاخرى، تلقي التأييد العارم في أوساط الشعب الروسي. وكان مجلس السوفيات الاعلى مصمماً على فرض مشيئته. في كل حال، رفعت جميع الجمهوريات تقريباً مطالب مماثلة، وعرّض غورباتشيف نفسه الآن لخطر فقدان السيطرة على أوضاع البلاد.

تكررت فصول المسرحية التي كنا نشهدها كل صيف منذ سنوات، مع ممثلين جدد. في الماضي، كان ليغاتشيف ينتهز فرصة غياب غورباتشيف في عطلته السنوية للاستيلاء على الإذاعة والتلفزيون. فيما كانت الصحافة العالمية تفسح في المجال له للقيام بالاعيبه: ألم يتغلب المحافظون في النهاية على غورباتشيف؟ خلال صيف عام ١٩٩٠، جرّب يلتسين حظه، فجال في جمهوريته الممتدة حتى المحيط الهادئ، متنقلاً في قطاراتها الحديدية كأي مسافر عادي، وهو أمر غير مألوف لمسؤول سوفياتي، وقد أثار إعجاب الناس. كان ينزل الى أسفل المناجم ويصعد منها مسوّد الوجه والثياب من الفحم. كان ينتقل في السيارات السياحية والشاحنات، ساعياً وراء الإثارة. فيما كان يلتسين يقوم بجولته، كان غورباتشيف يقضي عطلته في الداتشا خاصته في «فوروس» على البحر الاسود... غير ان يلتسين اكتشف هو أيضاً ان هناك مشاكل تواجهه مثل غورباتشيف، اذ طالب التتر الذين زارهم، روسيا بما كان يلتسين يطالب به الاتحاد السوفياتي، اي الحق بانشاء جمهورية مستقلة لها الحق بالتصرف بنفطها وثرواتها المنجمية. وهددّ عمال المناجم الذين تحدّث يلتسين اليهم، بإعلان الاضراب في وجه رئيس الحكومة ريجكوف والحكم المركزي. غير ان إضرابهم كان يهدد روسيا بالشلل، ويؤثر في الهالة التي تحيط بها. لكنّ الصعوبات المتنامية والإنهيار الاقتصادي الذي ينذر بالخطر على كافة الجبهات، لم تكن تتيح ليلتسين مواجهة أقسى

مع الرئيس غورباتشيف. فسلك طريق المهادنة والتسوية التي تحدث عنها في خطابه الاول.

ربما كان من الصعب على غورباتشيف ان يقبل بهذه التسوية. غير ان تطورّ الوضع لم يترك له الخيار. فالقوى التي أطلقتها حركته الاصلاحية كانت غريبة عنه. واذا كان أثبت قدرته على السيطرة على الحزب وجهاز الدولة، فقد بات عليه الآن اتخاذ القرارات في إطار القوى السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجديدة والمتعددة التعقيد. في الواقع، اضطر ان يرتجل المواقف ارتجالاً.

في ختام محادثات استمرت خمس ساعات، ومن دون إلقاء نظرة على برنامج رئيس حكومته الاقتصادي، اتفق غورباتشيف مع يلتسين على تشكيل لجنة مهمتها اعداد برنامج اصلاحي جديد. فابدى ستانيسلاس شاتالين وخبراء غورباتشيف تصوراتهم، فيما أعدّ خبراء يلتسين برنامج يتضمن الانتقال الى اقتصاد السوق في مهلة خمس مئة يوم. وظهر الرئيسان على التلفزيون لتأكيد تحالفهما ضد خطر الفوضى الاقتصادية. كان المشهد غريباً وغير معقول كون كلماتهما تفضح التناقض الصارخ في قناعاتهما. وبدا يلتسين الذي يعلو غورباتشيف قداً وقامة، شديد الإرتياح لوقوفه على قدم المساواة معه، وكظم كل حقده خلف مظاهر السلبية، لإنشغاله في إثارة إنطباع حسن لدى المشاهدين. ومنح المذيع وفقاً للعرف، وقتاً أطول لغورباتشيف، ولكن لوحظ ان كلاً منهما كان يجهد كي تكون له الكلمة الاخيرة. وهذا ما فعله غورباتشيف حين ختم مشدداً على عدم وجود اي توتر شخصي أو سياسي بينه وبين يلتسين وانهما يعملان كلاهما للهدف ذاته.

ليس من عادة غورباتشيف ان يتعامل من الند للند في السياسة الداخلية. فهو يتخذ قراراته وحده، منذ زمن بعيد. ونادراً ما أدخل بين مستشاريه اشخاصاً ينتقدون وجهة نظره بشكل أساسي وفاضح. وبصفته رئيساً فهو

يمارس دور الحَكَم، عاملاً باستمرار على جمع مختلف الآراء قبل ان يتخذ القرار في الوقت الملائم. وهكذا تبدو علاقات الرئيس مع الحكومة، متشامخة بشكل غريب، ولا تتبع قواعد معينة، كما ان مهام المجلس الرئاسي حيث كانت تعدّ القرارات الاستراتيجية حتى نهاية ١٩٩٠، لم تكن بأفضل حال. وكان غورباتشيف قد عيّن في هذا المجلس المصغر، خليطاً غريباً من ست عشرة شخصية مختلفة الميول والاتجاهات. بعضهم كان ذا صفة مثل رئيس الحكومة ريجكوف، ووزير الدفاع يازوف، ووزير الداخلية باكاتين، ورئيس جهاز الـ ك.ج.ب. كريوتشكوف إضافة إلى رفيقي النضال ياكوفليف وشيفارنادزه. ثم جاء بعدهم الاختصاصيون في العلوم الاقتصادية والاجتماعية، وجلّهم من الاصلاحيين المرموقين، إضافة إلى بعض الشخصيات البارزة وغير العادية أمثال شاتالين الذي يعتبر نفسه دمقراطياً ــ اجتماعياً ولما يزال منتسباً للحزب كي يمنع سقوطه بين أيدي المحافظين.

في جناح اليمين، كان يارين ــ ويعمل في صناعة الاقفال والحدادة ــ يدافع عن مصالح العمال في وجه الاصلاحات الاقتصادية. أما القسم الاسيوي في الاتحاد السوفياتي فيمثله الكاتب تشينغيز ايتماتوف الذي يستمد اخلاقياته من القيم المسيحية. فيما كان الكاتب فالنتين راسبوتين الذي يمكن نعته « بالاخضر » المتمسك بالقيم التقليدية، يعترض منذ عشرين سنة، في رواياته ضد هدم الطبيعة والبشرية من خلال التطور التقني والمادي ــ وفي السنوات الأخيرة، اخذ يشدد على القيم الروسية التقليدية بحيث تقرّب كثيراً من باميا.

يقول غورباتشيف اليوم عن هؤلاء الاشخاص انهم يشاركونه قناعاته على الرغم من تعدديتهم. لكننا لا نرى بوضوح بما ساهموا في رسم سياسته. صرح شاتالين ذات يوم: « بصراحة لا أحد يعرف بدقة ما هو نظام المجلس الرئاسي، لكنها المرة الأولى، في تاريخ الاتحاد السوفياتي، التي لنا فيها رئيس. فكيف تريدون ان تكون مهام المجلس الرئاسي محددة بوضوح.

لا يعتمد المجلس الرئاسي على التصويت الشكلي. لكل واحد ان يبدي رأيه والرئيس وحده هو الذي يتخذ القرار ». لاحظ الكسندر ياكوفليف ان المجلس الرئاسي يضم مجموعة من أصحاب الحساسيات المتناقضة وهذا ما يضمن بنظره قيام مناقشات مثمرة. أما غورباتشيف فيقرّ بدوره ان المؤسسات ما تزال تفتش عن ذاتها ويقول: « نحن ندرس النظام المتبع في الدول الاخرى ونراقب الدور الذي يلعبه المختارون ورؤساء البلديات وحكام المقاطعات. وينبغي معالجة هذه المسائل ضمن الإطار الشامل للمسيرة الدمقراطية ».

كلّف بعض اعضاء المجلس الرئاسي بمهمات خاصة وخصصت لهم مكاتب صغيرة لهذه الغاية، مثل غريغوري ريفنكو الذي كلف بمهمة تحضير معاهدة جديدة للاتحاد. كانت وظيفتهم الاستشارية محددة المعالم، لكن صلاحياتهم السياسية بقيت مبهمة. كان الخبير الاقتصادي شاتالين على اتصال بمسؤولي الجهاز. لكنه كان يتساءل: كيف يجب ان نبني علاقاتنا ؟ هل استطيع، مثلاً، ان أطلب إلى وزير المالية ان يقوم بكذا وكذا، وهل يحق لي أن أقول له ان يفعل كذا وكذا ؟ ». وهكذا أنشأ غورباتشيف نواة حكومة موازية للحكومة القائمة لا صلاحية تقريرية لها. وصف وزير الداخلية الوضع على الوجه التالي: الرئيس هو ما هو عليه، ويحتاج إلى المجلس للإفادة من خبرته. مهما كانت توصيات المجلس فان الرئيس هو الذي يقرر وحده ويتحمل مسؤولية قراراته بمفرده. غير ان الرئيس مقيد ولا يستطيع الخروج عن نطاق الدستور، فيما الزمن عفا عن هذا الدستور وعليه التأثير في مجرى التشريع والقانون، لكنه لا يستطيع تغيير حرف واحد في القوانين النافذة مهما كان شأنها ».

يقول غورباتشيف لمن يريد ان يسمعه انه يريد الاكتفاء بالوسائل والأهداف السياسية: « ان تفعيل اقتصاد السوق وعقد معاهدة الاتحاد ليسا سوى وجهين لعملة واحدة. فالسوق يحثّ الناس على التبادل ويعزز العلاقات الطبيعية،

والعلاقات الجديدة داخل الاتحاد تتيح للجمهوريات استغلال طاقاتها. علينا سلوك هذا الطريق اذا كنا نودّ احياء مجتمعنا ». في واشنطن، أفصح غورباتشيف عن أفكاره بصورة أوضح أمام السياسيين والمفكرين الاميركيين حين قال: لقد وصلنا الى هذا الاستنتاج البسيط بانه لا يمكن الاستمرار في العيش هكذا. مجتمعنا بحاجة إلى قوة دافعة اخرى، هو بحاجة الى الاوكسيجين. يمكننا تنفيذ كل ذلك، غير اننا لا نستطيع البناء سوى على أسس من الحرية ». مع ذلك، فان هذا الرئيس ما يزال، منذ بدء ولايته، ينشط من خلال المراسيم التي يصدرها. وهذه المراسيم تعيق سيادة الجمهوريات وتمنع المظاهرات في موسكو، وتطرد جنرالاً كبيراً في جهاز الـ ك.ج.ب.، لتجرؤه على انتقاد القيادة، ذاهباً الى حد تجريده من رتبه وراتبه. ولا يتردد عن توجيه الانذار الى المجموعات في ارمينيا، مهدداً باللجوء إلى الجيش. إزاء خطر نشوب حرب أهلية، وعهد الى رئيس أرمينيا العمل على تجريد المجموعات القومية المسلحة من سلاحها خلال مهلة شهرين.

كيف يحكم غورباتشيف ؟

هل يملي القرارات على الهيئات الحكومية، كما كان يفعل المكتب السياسي في السابق ؟ هل تقتصر صلاحياته على إصدار التعليمات ورسم الخطوط العريضة للسياسة السوفياتية ؟ أم يلعب دور الحَكَم فوق الحكومة والبرلمان والمنظمات الجديدة ؟. في الواقع ليس غورباتشيف نفسه على بيّنة من أمور المسؤولية التي يتولاها. وينبغي القول بانه اول رئيس للاتحاد السوفياتي. وقبل سنة من توليه مهام الرئاسة، لم يكن احد يفكّر في ان يكون للدولة رئيس، حتى غورباتشيف نفسه. فضلاً عن ذلك، يرأس غورباتشيف بلداً ذا نظام اقتصادي غير قابل للحياة، وبنياته وثقافته السياسية أضحت مدمّرة. أما على صعيد النظام البرلماني الجديد، فالأحزاب لم تنشأ بعد، فيما الحزب الشيوعي لا يتخلى عن مواقعه الا على مضض. وفي المدن

الصغرى والمقاطعات، ما يزال موظفوه يتمتعون بنفوذ واسع، فيما لم يعد له شخصياً اي دور يلعبه في قيادة المكتب السياسي...

من المؤكد ان غورباتشيف هو اليوم رئيس اكثر مما هو أمين عام الحزب الشيوعي. لقد فرض عليه مؤتمر الحزب هذه الوظيفة الأخيرة في حين كان ينوي التخلي عنها والاكتفاء بالرئاسة وحدها. وهو يتملص شيئاً فشيئاً من الوظيفة التي تربطه بالحزب كمن يتولى مسؤوليته بالنيابة. وتنبثق سلطته الحقيقية من رئاسة مجلس السوفيات الأعلى. وهنا عليه أيضاً ان يألف حجمها ويدرك حدودها.

بحثاً عن ترسيخ دوره، أعاد غورباتشيف فتح الحوار مع المفكرين الاصلاحيين، وبعضهم يتولى اليوم مهام سياسية على جانب كبير من الأهمية. فالاقتصادي غافريل بوبوف انتخب رئيس بلدية موسكو من جانب أكثرية غير شيوعية في مجلس سوفيات المدينة، وترك الحزب الشيوعي بعيد ترك يلتسين له. أمّا اناتولي سوبتشاك — وهو رجل قانون — فهو في وضع مماثل اذ انتخب رئيساً لبلدية لينينغراد. تحدث غورباتشيف مطولاً اليهما وكذلك فعل مع يلتسين. وسبق لغافريل بوبوف ان ترك العنان لانتقاده، في السنوات الماضية، لكنه اخذ يلمح الآن « بارقة أمل ». لأن غورباتشيف ينكب الآن جدياً على وضع برنامجه الاصلاحي — هذا البرنامج الذي ينتظره الليبراليون اليساريون منذ مدة طويلة. لكنه يبقى حذراً في كل حال. فاذا نجح غورباتشيف في التغلب على المحافظين، فان المشكلة تبقى دون حلّ، لأن سياسة الأمين العام قد عززت من شأن اليمين الوسط، في حين ان هذا الأخير لا يستطيع تنفيذ سياسة البلاد.

فاجأ الرئيس الجميع بدعوة ثلاثين اختصاصياً في الاقتصاد السياسي والعلوم الاجتماعية والنقل، الى اجتماع في الكرملين في نهاية شهر تموز (يوليو) عام ١٩٩٠. يروي احدهم انه تلقى اتصالاً هاتفياً يدعوه للتوجه في اليوم

التالي الى المدخل رقم ١٩ للتحدث الى غورباتشيف. فسأل الضيف: « هل المدخل ١٩ يؤدي الى مكتب اللجنة المركزية؟ كلا، أجابه المتحدث على الهاتف. المدخل ١٩ في الكرملين ». في اليوم التالي، التقى المدعوون غورباتشيف حول طاولة عمل كبيرة. في تمام الساعة ١٢، دخل غورباتشيف مع عضوين من المجلس الرئاسي هما الكسندر ياكوفليف وايفغني بريماكوف، اللذين حضرا المناقشات صامتين، حتى الساعة ٦ مساء. نقل احد المشاركين وقائع ما جرى بقوله: « كان غورباتشيف يشع صحة وعافية، وهادئاً وبشرته سمراء من جراء تعرضه للشمس المحرقة. خلافاً للسابق، كان يتحدث بصوت خافت واضطر بعض الحضور للدنو منه كي يفهموا ما يقوله ».

خرج ستريلياني من الاجتماع بقناعة مؤداها ان غورباتشيف قد قرأ الكثير حول الاصلاح الاقتصادي، سواء لكتّاب سوفياتيين أم أجانب، لكنه لا يستطيع تكوين حكم سديد حول وجهات نظر على قدر كبير من الاختلاف. وجد بعض المشاركين الآخرين ان غورباتشيف بدا متعالياً كأنه يقول للمشاركين: لستم سوى جماعة من المنظّرين، وعليّ تقع مهمة القبض على الواقع المرّ ؟؟.

لا شك ان غورباتشيف قد استمع الى كافة وجهات النظر، ولكن بصفة حَكَم يكتفي باخذ العلم بالبراهين المختلفة. لم يردّ على الانتقادات حين كانت تصاغ بصراحة قاسية. وجّه الحديث لبرهة نحو بولونيا، فيما بدا انه يفكرّ في إمكانية نقل تجربة الاصلاح الاقتصادي البولونية الى الاتحاد السوفياتي. استناداً إلى المعلومات المتوافرة أوضح غورباتشيف انه يتوقع للتجربة البولونية الفشل. ثم استمع الى الخبراء يدلون بآرائهم حول هذه النقطة، من دون ان يتخذ موقفاً شخصياً منها. وساد الإنطباع لدى معظم الخبراء الاصلاحيين الجالسين حول الطاولة، بان غورباتشيف كان يبحث باستمرار عن برنامج توفيقي يجمع العناصر الايجابية في كل حركة اصلاحية. وشددوا على القول بان ما توصلّت اليه مختلف المدارس من نتائج في موضوع

الاقتصاد السياسي لا يتوافق فيما بينها كما لا يتلاءم مع البرنامج الاصلاحي للحكومة وتوجهها المركزي.

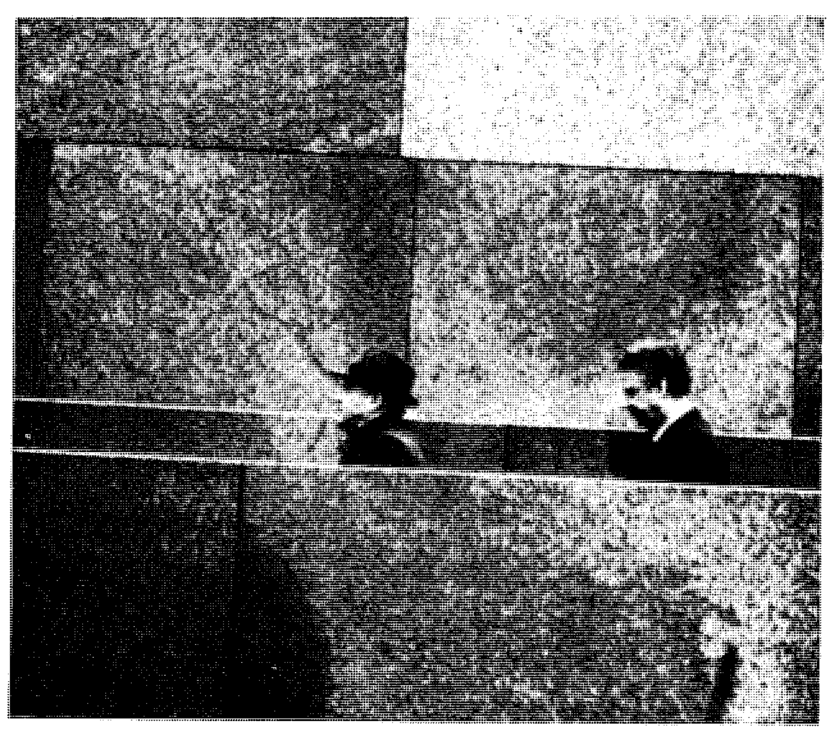
كان بين ضيوف الرئيس، اشتراكيون ودمقراطيون ــ اجتماعيون وليبراليون لكنهم لم يكونوا يمثلون تياراً اصلاحياً ذا شأن. وكانت الاقتصادية الشابة لاريسا بيا جيفا التي اشتهرت بانتقاداتها اللاذعة حاضرة أيضاً. ولدى مغادرتها الاجتماع كانت شديدة الاقتناع بان غورباتشيف سوف يبدل حكومته عاجلاً أم آجلاً وينتهج سياسة إصلاحية جذرية. « طيلة المناقشات، لم يستعمل غورباتشيف مرة واحدة كلمة اشتراكية. أظن انه سوف يسلك طريق الاصلاحات الجذرية. والشيء الوحيد الخطر في تلك المناقشات كان استعمال عبارتي اشتراكية ورأسمالية. هذه العبارات تقود الى المأزق. لقد جربنا بما فيه الكفاية مختلف النماذج الايديولوجية. لقد ولّى زمن إحياء الاشتراكية، حتى الاشتراكية ذات الوجه الانساني ». واكتفى غورباتشيف بالقول، في تلك الأثناء، انه من غير الوارد العودة عن البيريسترويكا.

لكن الانتظار الطويل بات اليوم يهدد نفوذه ويشوّه سمعته. فالوضع التمويني تردّى بشكل مأساوي. والسلع الغذائية أصبحت نادرة. وفرضت بعض المناطق التقنين. في آب ١٩٩٠، حددت منطقة ياروسلاف حصة الشخص الاستهلاكية بالكميات التالية: ٥٠٠ غرام من اللحوم، ٣٠٠ غرام من الزبدة، وكيلوغرام واحد من الخبز، و ٢٠ بيضة. وفي الشهر الذي تلاه، فقد الخبز، يوم الاحد، من أفران العاصمة. وكلما سقط الاقتصاد في الفوضى، كلما تعمقت أزمة الثقة. ويبدو ان غورباتشيف الذي حقق النجاح في السياسة الخارجية، وانتصر على خصومه في مؤتمر الحزب، لم يلاحظ ان خيبة الامل تتعاظم في الأوساط السياسية على اختلافها.

في الاول من ايار (مايو) ــ وكان قد اعتلى سدة الرئاسة منذ ثمانية وأربعين يوماً ــ تعرّض مباشرة ودون مواربة لمسألة خيبة الأمل التي تنامت في الأوساط الشعبية. كان يشهد الاحتفال السنوي للتضامن العمالي في



نقاش حاد بين غورباتشيف وساخاروف خلال مؤتمر نواب الشعب في كانون الاول (ديسمبر) سنة ١٩٨٩.



غورباتشيف، مغادراً المنصة في الكرملين، في اول أيار (مايو) عام ١٩٩٠.

الساحة الحمراء. وقد تمكن من ملاحظة النقابيين الذين لم يكونوا يكتفون في الحقيقة بالمجاهرة باتفاقهم مع الحزب والحكومة، اذ كانت بعض المجموعات تحذر من مخاطر اقتصاد السوق وموجات البطالة. غير ان غورباتشيف مطلع على شكواهم ويعرف كيف يعالجها. ثم تقدمت التظاهرة الجماهيرية غير المنظمة التي قرر غورباتشيف الترخيص لها.

على رأس تلك التظاهرة، مشت رابطة ناخبي موسكو وتبعتها رابطات القوميين الليتوانيين، والجبهة الشعبية، والدمقراطيين المسيحيين والدمقراطيين ـ الاجتماعيين، والملكيين وأنصار البيئة، والفوضويين والماركسيين ـ اللينيين المتطرفين. كل الذين كانوا يرغبون بالتظاهر، تمكنوا من ذلك. لم تشهد موسكو من قبل مثيلاً لذلك من قبل. كل الرايات والشعارات واليافطات التي ارتفعت كانت تنتقد غورباتشيف وتتهمه بعدم الحزم في مقاومته للمحافظين وجهاز الـ ك.ج.ب. كانت الموسيقى العسكرية التي تبثها مكبرات الصوت تغطي الهتافات والشعارات، لكن غورباتشيف لم يكن بحاجة لسماعها كي يدرك كم كان الرأي العام معادياً له. كان يقف خلف الدرابزين الحجري المحيط بضريح لينين، بين رئيس الحكومة ريجكوف ورئيس بلدية موسكو الليبرالي بوبوف. وكان يشرف من فوق على جثمان لينين المحنّط، وخلفه ضريح ستالين وأمامه القوى السياسية الجديدة. فجأة غادر المنصة.

ما ان ظهرت اعلام المجموعات المتظاهرة ويافطاتها، حتى قطع التلفزيون السوفياتي نقل وقائع الاحتفال. غير ان كافة الأوساط في موسكو تحدثت عن مغادرة غورباتشيف للاحتفال. وما عتّم الخبر ان انتشر في كل البلاد. واعتبره الكثيرون هزيمة للرئيس، فرأى بعضهم ان ضريح لينين هو بمثابة جسر للقيادة ولا يستطيع اي مسؤول مغادرته من دون ان يسقط من عليائه، فيما رأى البعض الآخر ان غورباتشيف عجز عن فتح الحوار مع القوى الجديدة.

لكن، هل يمكن تفسير هذا الانتصار لحرية التعبير على انه هزيمة ؟

هل الاب يشعر بالهزيمة حقاً، اذا تحرر ابنه ؟ ان الوضع لمؤلم حقاً بالنسبة لغورباتشيف، لان كل خطوة الى الأمام وكل نجاح في سياسته، يؤديان في الوقت عينه الى تقليص سلطته ونفوذه.

ما أطول الطريق التي سلكها غورباتشيف كي يدرك، في لحظات حكمه الهانئة، ان خلاص بلاده يكمن في اعتماد برنامج اصلاحي شامل، وفي تغيير ثوري لاتجاه السفينة. لم تكن تلك الطريق مستقيمة، غير ان مراحلها لم تفتقر الى المنطق. من التجارب الاساسية التي خاضها رجل بريفولنوي، تلك الهوة السحيقة التي تفصل بين واقع الحياة اليومية والنظرية السوفياتية. كان وضع الفلاحين القوقازيين على نقيض اللوحة المثالية التي تتغزل « بالحياة الاشتراكية في الريف »، وفقاً لما تروجه أساليب الدعاية في موسكو. في الجامعة، تعرف الى أساتذة وطلاب يضطرون الى التحدث بلغة لا تتوافق مع ما يفكرون به. وقرر ارتقاء درجات السلم في اتحاد الشبيبة الشيوعية، في مرحلة كان التشهير بالارهاب الستاليني يطرح على بساط البحث، لاول مرة في تاريخ الاتحاد السوفياتي، مشروعية هيمنة الحزب على العمل السياسي. فراهن، في عهد خروتشيف على تجديد النظام، وبعد سقوطه، عمل كموظف نشيط على تحسين الأوضاع في منطقته ستافروبول.

كان يمتدح الاستقامة والفعالية. غير انه كان يتميز عن باقي امناء سر الحزب بحسه للعدالة وسلوكه الدمقراطي. كان عليه التكيف مع التعليمات المتقلبة الصادرة عن الكرملين والتي كانت تقضي على المشاريع الجديدة قبل ان تؤتي ثمارها. سعى الى التصدي للتعليمات العوجاء بقدر ما يستطيعه امين سر للحزب في الريف... كان يفكر بمفرده، حتى ولو أفاد أحياناً من دعم الاقوياء في حينه. لا احد يستطيع القول بدقة متى ادرك ان البلاد بحاجة إلى أكثر من مجرد عملية تحديث بحتة. لكن هناك ما يدفع الى الاعتقاد بانه ادرك، في عام ١٩٨٠ على أبعد تقدير، ان اصلاحاً عميقاً وجذرياً من شأنه وحده التغلب على المشاكل الكبرى المطروحة. وبلور

أفكاره السياسية تحت ضغط الأزمة الخطيرة التي كانت تنذر بقربها في الاتحاد السوفياتي. وساوره الاعتقاد بان مشاكل البيئة ونزع السلاح ليست من اختصاص بلد واحد، وانها تتطلب نظاماً عالمياً جديداً وتعاوناً دولياً وثيقاً.

غير ان الرجل الذي تجرأ على التفكير بهذا العمق، هو أيضاً موظف تابع لجهاز الحزب، وترسخت لديه القناعة من خلال تربيته، بان التغيير من الأمور التي ينبغي على الحزب تحريكها وتفعيلها. ولذلك تردد طوال سنة كاملة من ممارسة مهماته الرئاسية، في صياغة برنامج سياسي يتلاءم مع الوعي الذي تكوّن لديه عن الوضع. وما كان جهاز الحزب ليفهمه أو يرضى به.

تطور غورباتشيف في فكره لدرجة انه يستطيع اليوم التخلي عن الصيغ الجامدة للماركسية، حتى ولو استمر في الاستشهاد بكبار الماركسيين الكلاسيكيين، كما كان يفعل اسلافه ستالين او خروتشيف او بريجنيف. في خطاب القاه عام ١٩٩٠ بمناسبة ذكرى ميلاد لينين. يقول: تبقى اللينينية، بالنسبة لنا تلك القوة النظرية والاخلاقية الرئيسية. لولا الارث الفكري الذي تركه لينين لما كنا نستطيع التقدم في طريقنا ». غير ان ما يستهويه لدى لينين على وجه الخصوص، هي تلك التحليلات التي وضعها في السنوات الاخيرة، وهي التي تشير الى المرحلة الحرجة التي عاناها بالنسبة للمسيرة الثورية. وهو يقدّر فيه ذلك السياسي الصلب الذي عرف ان ينتقد ذاته ويصحح مسيرته، والذي عرف أيضاً في الأوضاع الحرجة ان يقف بوجه الأكثرية ويهدد بالانسحاب...

ليس غورباتشيف بالحاكم المطلق ولم يشأ ان يكون كذلك البتة. ولكنه يمتلك الكثير من القدرة كي يكتفي بالاشراف على إنهيار الاتحاد السوفياتي. وفقاً لطبيعته ولما يعرفه، يسعى إلى تنفيذ سياسته، خطوة خطوة، مختاراً طريق التسوية وتغيير تحالفاته. بهذه الطريقة توصل الى جعل الحزب الشيوعي للاتحاد السوفياتي ـــ بعد توليه الحكم بخمس سنوات ـــ يتخلى عن الإشراف

على كافة شؤون الحياة، ويقبل بتولية السلطة إلى المنتخبين من الشعب. يرى ان مستقبل الاتحاد السوفياتي ما يزال مفتوحاً. يقول في معرض حديثه عن التعددية الحزبية، في ١٥ كانون الثاني (يناير) عام ١٩٩٠: « ليس هناك من مأساة اذا كانت التعددية تستجيب فعلاً لمصلحة المجتمع. وليس لنا أن نخاف التعددية الحزبية كأنها الشيطان في جرن الماء المقدس. كما لا يجوز فرضها بصورة مصطنعة. فالتعددية الحزبية ليست علاجاً سحرياً. المهم هو الدمقراطية والغلاسنوست ومشاركة الشعب العقلية في كافة المؤسسات وفي جميع المسيرات السياسية والاجتماعية ».

يمتنع غورباتشيف عن فرض التغيير بالقوة، لانه مقتنع في أعماقه بضرورة إحلال الدمقراطية في المجتمع السوفياتي. يقول: « سوف نستمر في طريق الحوار. لقد اخترت شخصياً هذه الطريق ومصيري مرتبط بهذا الخيار ».

بعد خروج البلاد من مرحلة استقرار ظاهري مكبوت، واجهت اليوم مرحلة من اللااستقرار الذي يشرع الباب واسعاً أمام مرحلة قيام بنيات دمقراطية جديدة. لكن، اذا كان غورباتشيف يسعى باحثاً عن قواعد جديدة تتكيف مع المجتمع الاشتراكي، فلأنه لا يستلهم في بحثه جانب الصراع الطبقي، بل جانب المثل المشتركة التي يزخر بها التراث الانساني. وبذلك يفرز غورباتشيف فكراً جديداً في عالم يشهد أزمة عميقة وتحولات شاملة.

أطلق نيقولاي بورتوغالوف، وهو خبير سوفياتي في الشؤون الالمانية، على غورباتشيف، ذات يوم، تسمية « لوثر العصر ». لعله كان يود الاكتفاء بالإصلاح، غير ان فكره قاده الى التحول الثوري. لا شك ان غورباتشيف قد قاد بلاده، عن إقتناع عميق، في مسار شهد ليس المزيد من حرية الرأي فحسب، بل أيضاً المزيد من الحرية الاصيلة في الاختيار السياسي — حتى ولو كان غورباتشيف يحذر من ضغط الشارع. عندما إرتفعت بعض الأصوات تنتقد، داخل مجلس السوفيات الأعلى، انشاء منصب الرئيس بحجة انها تمهد الطريق أمام قيام الديكتاتورية أعلن غورباتشيف أمام النواب:

« تفرض علينا الحياة جمع السلطات المختلفة في جوهرها، في أعلى القمة، اذ ينبغي تعزيز آلية السلطة الاجرائية كي تتمكن من تطبيق القوانين ووضعها موضع التنفيذ ».

لإخراج البلاد من هذه الأزمة ووضعها في ظل نظام جديد، ينبغي امتلاك الوسائل. غير ان الذي يتولى السلطة عليه أن يقبل أيضاً بالقيود التي ينص عليها الدستور والقوانين وما يصدر عن البرلمان حول سلطته. وهذا ما لم يكفّ غورباتشيف عن التشديد عليه. إنما هناك خطر من ان يتولى الرئاسة شخص قوي، وان يستغل السلطة الاجرائية ــ في حالات اشتداد الأزمة ــ للإجهاز على المسيرة الدمقراطية التي تتميز بالبطء والجمود. وهذا ما كانت تخشاه المعارضة الدمقراطية اثناء انتخابه. ولكن، ها هي سلطة غورباتشيف تعاني الضعف من جراء إعلان الجمهوريات لاستقلالها ولتفكك الإدارة المركزية، فيما سلطات الرئيس أصبحت شبه نظرية وحبراً على ورق. يعتبر بوريس يلتسين، بلؤم ظاهر، ان على غورباتشيف الاكتفاء بلعب دور مماثل لدور ملكة انكلترا. غير ان الاتحاد السوفياتي وجمهورياته لم يعرفوا يوماً نظاماً برلمانياً قادراً على نهج سياسة طويلة الأجل. واذا كنا نريد لهذا البلد الذي لم يمارس الدمقراطية ان يتفادى حمام الدم من جراء إنفجار النزاعات القومية، والاختناق في بحر المصالح الفردية، فينبغي ــ وغورباتشيف مقتنع بذلك ــ العمل على قيام مرحلة انتقالية تتيح وضع بنيات جديدة موضع التنفيذ: نظام اقتصادي مختلف، ونظام برلماني، وأحزاب سياسية، وعلاقات جديدة مع الجمهوريات التي تنوي اليوم ترك الاتحاد. ربّما على البلاد ان تمر بمرحلة تفكك قبل ان يكون في استطاعتها إنشاء مؤسسات جديدة. وعلى الرئيس، كائناً من كان، ان يستخدم عندئذٍ بحزم وبلا كلل كل الإمكانات التي تتيحها له سلطته وخبرته، مهما كان الأمر، لا أحد يستطيع التنبوء بما سيؤول اليه الاتحاد السوفياتي بعد خمس أو عشر سنوات.

لكنّ سياسة غورباتشيف غيرّت الاتحاد السوفياتي والعالم في خمس سنوات، ودخل الرجل التاريخ من بابه الواسع. ولا يهم من وجهة النظر هذه اذا خالفه التاريخ يوماً في قناعاته؛ ذلك ان غورباتشيف فعل أكثر من سواه لإقفال الباب نهائياً على الماضي.

خاتمة

ميخائيل غورباتشيف يعرِّف بنفسه

في أيار (مايو) عام ١٩٨٩، قيض للمواطنين السوفيات، للمرة الأولى (والوحيدة) تكوين فكرة عن حياة أمين عام الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي. فمنذ كانون الثاني (يناير)، عادت للظهور مطبوعة صدرت بين عام ١٩١٩ و ١٩٢٩. وكانت تتولى تغطية نشاطات اللجنة المركزية. طيلة ستين سنة، لم تنشر اللجنة المركزية معلومات مفصلّة عن نشاطاتها. بعودة « أخبار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي » الى الصدور، سجلت الغلاسنوست مرحلة جديدة من تاريخها.

نشرت هذه المجلة الشهرية التي تصدر بشكل مجلد كبير الحجم، في عددها الخامس، مقابلة مع ميخائيل غورباتشيف حافلة بالتفاصيل. وتتضمن هذه المقابلة كل ما عرفه المواطنون السوفيات الى الآن من مصدر رسمي عن طريق الصحافة.

المؤلف ج.ر.

تتلقى هيئة التحرير رسائل عديدة من شيوعيين وغير محازبين يتوجهون بها إلى قيادة الحزب ــ الى اعضاء أصيلين أو ردفاء في المكتب السياسي والى أمناء السر وإلى سواهم من أعضاء اللجنة المركزية. يهتم قراء « أخبار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي » لمختلف وجوه النشاط الذي يمارسه الاشخاص القيمون على قيادة الحزب، وبالطريقة التي يتعاملون بها مع البريسترويكا وينفذون بها السياسة الجديدة. هناك أيضاً سلسلة من الاسئلة تتناول جوانب الحياة الخاصة لأعضاء قيادة الحزب ــ عائلاتهم، عملهم، أوقات فراغهم وتسليتهم المفضلة.

تلقت هيئة التحرير، في الفترة الاخيرة خصوصاً، سيلاً من الرسائل من هذا الطراز، بمناسبة نشر سيرة حياة مختصرة لاعضاء قيادة الحزب واللجنة المركزية. لا شك ان العديد من القراء قد اغتبطوا لذلك، لكنهم عبروا أيضاً عن استيائهم لانهم كانوا يودون الحصول على معلومات أدق عن الحياة المهنية لاعضاء قيادة الدولة والحزب، ولا يمكنهم الاكتفاء بتعداد صرف للمناصب التي شغلوها تباعاً.

هكذا كتب ر.س. بوبليك، من لينينغراد، يقول: « لماذا لا تنشر « أخبار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي » سير حياة أكثر تفصيلاً لمسؤولي الحزب ؟ هل هناك تواضع مصطنع أم صمت متعمد ؟ هذا النقص في المعلومات يتيح لسيئي النية من الناس نشر حقائق مغلوطة. ومن الصعب التصدي لهذه الشائعات من دون الحصول على معلومات موثوقة ».

ن.ف. موسين المقيم في ضواحي موسكو هو من الرأي نفسه: « تتضمن سيرة الحياة التي تنشر عن اعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية في الحزب معطيات هزيلة وناقصة. من هنا تروج الشائعات والروايات المختلقة بين الناس. بصفتي من قراء مجلتكم، يصعب علي أحياناً الردّ على الاسئلة المطروحة. مثاله ان أحدهم يرغب بمعرفة كم يتقاضى اعضاء القيادة في الدولة والحزب ».

هذه الاسئلة وسواها نجدها في رسائل العديد من قرائنا.

لذلك طلب مراسلنا ل. ميخائيلوف الى الأمين العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي ورئيس مجلس السوفيات الاعلى في الاتحاد السوفياتي، ميخائيل سيرغيفيتش غورباتشيف الردّ على اسئلة القراء.

ـــ المراسل: ميخائيل سيرغيفيتش، يرغب العديد من قرائنا معرفة المزيد عنك وعن أهلك.

ـــ م.س. غورباتشيف: تلقيت شخصياً رسائل مماثلة. أود القول أولاً، ان الكثير من الاشياء قد كتبت منذ الغلاسنوست، حول نشاطات الهيئات العليا في الدولة والحزب وحول المسؤولين عنها ـــ اكثر مما كتب في الماضي ـــ والظهور العلني لاعضاء القيادة ورحلاتهم ولقاءاتهم وأحاديثهم مع العمال، كل ذلك أصبح جزءاً من حياتنا العامة في هذه المرحلة الانتقالية. وهكذا يمكن للمواطنين السوفيات ـــ على الأقل اولئك الذين يهتمون بذلك ـــ ان يطلعوا على عمل اعضاء قيادة البلاد، وعلى مواقفهم، وبالتالي تكوين فكرة محددة عن مؤهلاتهم السياسية والمهنية والانسانية.

لكن، اذا عدنا الى سؤالك بحد ذاته، ماذا عساي أن أقول مما لا يعرفه عامة الناس؟

ولدت وترعرعت في ستافروبول. والداي كانا، مثل جدّي من الفلاحين. وكان جدّي لامي، بانتلي افيموفيتش من الذي عملوا في تنظيم «توز» وهي تعاونية لاستثمار الأرض بصورة جماعية، ثم الكولخوزات. وقد أشرف طيلة بضع سنوات على إدارة احدى هذه الكولخوزات. والدي، سيرغي اندريفيتش، ووالدتي ماريا بانتليفنا اشتغلا أيضاً كفلاحين، في مزرعتهما أولاً، ثم في التعاونية، وأخيراً في الكولخوز وفي محطة إصلاح الآليات والجرارات. إشتغل والدي طيلة أربعين سنة في إصلاح الآليات. وحارب في كورسك وحرر كاركوف وكييف، واستحق اول ميدالية له ـــ ميدالية الشجاعة ـــ

لاجتيازه نهر دنيبر. قبل نهاية الحرب بقليل، جرح بالقرب من مدينة كوسيس التشيكوسلوفاكية ونقل إلى أحدى المستشفيات في كراكوفي. خلال الحرب، انتسب الى الحزب. ونال أوسمة حربية. كان مواطنوه يحترمونه لانه كان رجلاً نشيطاً، رصيناً ومتفهماً. انني لفخور بوالدي. كان لا بدّ لي، أسوة بسائر الفلاحين، أن أعمل باكراً. ففي الثالثة عشرة، عملت بانتظام في الكولخوز، وفي الخامسة عشرة، أصبحت مساعد سائق للحاصدة ـــ الدارسة. على العموم، إشتغلت خمس سنوات في محطة إصلاح الآليات والجرارات، كنت خلالها اذهب الى المدرسة.

لا شك ان الجو السائد في العائلة الفلاحية ونمط عيشها وتوزيع العمل بين الكبار منذ نعومة أظفارهم، كل ذلك له تأثيره في الطباع والموقف من الحياة. أنهيت دراستي بنجاح، وفي عام ١٩٥٠، التحقت بكلية الحقوق في جامعة موسكو الحكومية. في سنتي الجامعية الخامسة، عملت بجد ونشاط في إتحاد الشبيبة الشيوعية، وفي عام ١٩٥٢، انتسبت الى الحزب الشيوعي. اني شاكر لجامعة موسكو ـــ لاساتذتها ولهيئات الحزب وللشبيبة الشيوعية ولزملاء الدراسة (بقيت على إتصال مع العديد منهم) ـــ للمعرفة التي تزودت بها، وللصداقة والرفقة التي اعتز بها. كانت سنوات رائعة، ولولاها لكانت حياتي المهنية اللاحقة متعذرة.

ـــ المراسل: ميخائيل سيرغيفيتش، هل تفضلت بالحديث عن عائلتك ؟ متى تزوجت وما تمثلّ بالنسبة لك ؟

ـــ م.س. غورباتشيف: تعرفت الى رايسا ماكسيموفنا خلال سني الدراسة. ولدت في مدينة سيبيرية تدعى روبزوفسك، في منطقة « اتلي ». كان أهلها يعملون في سكة الحديد. انهت دراستها الثانوية بدرجة جيد جداً ثم بدأت دراستها الجامعية في كلية الفلسفة في جامعة موسكو الحكومية. تعارفنا في عام ١٩٥١ وتزوجنا عام ١٩٥٣. ومذاك نعيش معاً.

في ختام دراستنا، بدأنا العمل في موطني ستافروبول. لكن صودف انني لم أزاول طويلاً المهنة التي تعلمتها. عينت في الشبيبة الشيوعية. ومذاك عملت في الشبيبة الشيوعية وفي الحزب. عملت خلال سنوات طويلة في اللجنة الاقليمية للحزب، منها تسع سنوات كأمين سر لها. كانت تلك السنوات أيضاً مهمة وحاسمة في حياتي.

لما كنت على صلة وثيقة بالشؤون الزراعية، فقد تابعت دراستي بالمراسلة في الكلية الاقتصادية التابعة لمعهد الزراعة، وهي دراسة تكمّل دراستي القانونية.

عملت رايسا ماكسيموفنا في عدة مدارس ثانوية. وأعدّت أطروحة حول حياة الفلاحين في الكولخوزات وأصبحت أستاذة جامعية. درست الفلسفة ما يزيد عن عشرين سنة. كما عملت مع « زنامي » (وهي مؤسسة للتربية الشعبية). في ستافروبول، ولدت ابنتنا إيرينا. وهناك نشأت أيضاً وترعرعت وتابعت دروسها وتزوجت. هي وزوجها طبيبان. ناقشت إيرينا أطروحتها، وهي اليوم أستاذ مساعد في المعهد الطبي. أناتولي، زوجها يشغل منصب استاذ جامعي ويعمل منذ تسع سنوات جراحاً في احدى مستشفيات موسكو. وهو اختصاصي في جراحة الشرايين. في موسكو، كبرت عائلتنا: لدينا حفيدان: كزانيا وأناستازيا.

حالياً تتولى رايسا ماكسيموفنا العمل الاجتماعي والمهام البرتوكولية التي تتصل بزوجة رئيس مجلس السوفيات الأعلى في الاتحاد السوفياتي. يجدر بي القول بان كل أفراد عائلتي يشاركوني في تحمّل مسؤولياتي الحالية. واني أقدّر لرايسا ماكسيموفنا وبقية أفراد العائلة تفهمهم ودعمهم ومساعدتهم لي.

ــ المراسل: ميخائيل سيرغيفيتش، في الرسائل التي تلقتها المجلة، يرغب بعضهم معرفة المزيد عن مشاغلك وكيف تمضي يومك في العمل. كما

يوّد القراء أيضاً معرفة دقائق حياتك اليومية، ومداخيلك وأتعابك، الخ. هل يمكنك الإجابة عن هذه الاسئلة ؟

ـ م.س. غورباتشيف: إذا كانت هذه الاسئلة تهمّ القراء، فلا بدّ من الإجابة عنها. عملي، انه سؤال صعب. أما يوم العمل عندي فيرتبط بالمرحلة التي نعيشها، وبالمشاكل التي تطرح على مجتمع اليوم، وبالطبع بالمسؤوليات الملقاة على عاتق رئيس الدولة والحزب. عملياً أنا أعمل باستمرار باستثناء بعض ساعات النوم. فاما ان أكون في اللجنة المركزية أو في مجلس السوفيات الاعلى أو في البيت. ولا داعي للإشارة بان العمل يتبعني حتى ولو كنت في عطلة.

لنتحدث عن مداخيلي. مثل سائر أعضاء المكتب السياسي، اتقاضى، بصرف النظر عن المنصب الذي اشغله، مبلغ الف ومايتي روبل في الشهر. الاعضاء الردفاء في المكتب السياسي يتقاضون مبلغ الف وماية روبل، وامناء سر اللجنة المركزية، الف روبل. وتذهب كافة الأتعاب التي تعود لي عن مؤلفاتي ومحاضراتي وخطبي وتصاريحي الى صندوق الحزب.

يجب علي أن أضيف كلمة حول حقوق التأليف لكتابي « بيريسترويكا، نظرات جديدة حول بلادنا والعالم »، لكوني وضعت هذا الكتاب بناء لطلب ناشر اميركي وقد صدر في اكثر من مئة بلد، وبأعداد كبيرة ـ اكثر من مليوني نسخة ـ دفعت حقوقي في التأليف إلى الحزب وإلى هيئات اجتماعية: إلى صندوق ضحايا الزلزال في أرمينيا وتاجيكستان، وإلى الصندوق السوفياتي للثقافة ـ لإقامة نصب فاسيلي تيوركين ـ ومن أجل بناء جناح جديد لألعاب الاطفال في موسكو.

لننتقل الآن إلى مسكني. لدينا مسكن في المدينة. يشغل الأعضاء القياديون في البلاد « داتشا »، تتناسب مع أهمية الوظيفة التي يتولّونها. لم أتملك شخصياً ولم يتملك أي من أفراد عائلتي داتشا خاصة في أي مكان، على

الإطلاق. تحتوي الداتشا الموضوعة بتصرف الأمين العام للجنة المركزية ورئيس مجلس السوفيات الاعلى على التجهيزات الضرورية لعمله ومسؤولياته، وعلى القاعات التي تتيح إستقبال اعضاء المكتب السياسي ومجلس السوفيات الاعلى ــ إذا اقتضت الحاجة ــ ورؤساء الدول، فيها مكتب ومكتبة، وفيها محوّل هاتفي مركزي حديث جداً. كما نجد فيها التجهيزات التقنية اللازمة لممارسة وظيفة رئيس مجلس الدفاع عن البلاد. الى ذلك، هناك جناح منها مخصص لسكن العائلة الشخصي.

من جهة اخرى، تمتلك اللجنة المركزية والحكومة مبانٍ مخصصة لاستقبال الضيوف الأجانب ولغايات تمثيلية مختلفة.

رأينا مؤخراً انه من الممكن وضع قسم من « الفيلات » و « الداتشا » الحكومية، خصوصاً في بلاد القرم وعلى شاطئ البحر الاسود بتصرف هيئات صحية كي تجعل منها « بيوتاً للراحة » للاولاد والمسنين، وكذلك بتصرف منظمات ثقافية وسواها من المؤسسات.

فيما يختص بوسائل النقل الموضوعة تحت تصرفي، فهي محددة أيضاً بالمسؤوليات التي أتولاها. سأعطيك مثلاً. بعد القاء خطابي في الامم المتحدة، توجهت الى « غوفيرنور ايسلاند » للقاء الرئيس ريغان، ثم نائب الرئيس آنذاك بوش. كنا في سيارته. أما الهاتف المتحرك فكان في احدى السيارات المرافقة. فيما كنا على الزورق مع سياراتنا نستعد للعبور الى الجزيرة، تلقيت اتصالاً من موسكو. كان نيقولاي ايفانوفيتش ريجكوف على الخط لينبئني بالكارثة الأرمنية. فتوافقنا على الفور على إنشاء لجنة من المكتب السياسي وعلى إتخاذ التدابير التي تفرضها الحالة الطارئة. هذه التجهيزات الفنية تتيح لي الاتصال في كل لحظة ومن أي مكان مع أية جهة وناحية في البلاد، ومع ممثلي الاتحاد السوفياتي في الخارج ومع رؤساء الدول في البلدان الاخرى.

ـــ المراسل: ميخائيل سيرغيفيتش، ما هي تسليتك المفضلة في أوقات الفراغ التي تتوفر لك ؟ هذا السؤال يرد كثيراً في الرسائل الموجهة الينا.

ـــ م.س. غورباتشيف: أحاول الإفادة القصوى من ساعات الفراغ القليلة المتوافرة لدي. فأنا أهتم بأمور كثيرة كالأدب والمسرح والموسيقى والسينما. وأهوى اكثر ما أهوى التنزه في الغابة. غير ان وقت الفراغ لدي يتضاءل للأسف شيئاً فشيئاً.

ـــ المراسل: ميخائيل سيرغيفيتش، أود ان اشكرك، باسم القراء على حديثك، وآمل ان تكون مستعداً في المستقبل للإجابة على أسئلة قرائنا.

ـــ م.س. غورباتشيف: اعتقد ان من الممكن اجراء أحاديث اخرى من هذا النوع. أود إغتنام المناسبة كي اتمنى لقراء « اخبار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي » كل الخير الذي يتوقون اليه في حياتهم الشخصية، وكذلك النجاح المهني، في هذه المرحلة من تاريخنا، وهي مرحلة غير سهلة ولكنها لا تقل أهمية وإثارة عن سواها.

ملحق بأحداث عام ١٩٩١
سقوط غورباتشيف وانهيار الاتحاد السوفياتي

تميزت احداث سنة ١٩٩١، باشتداد المواجهة بين المتشدّدين والاصلاحيين وسط وضع متدهور على كل الجبهات السياسية والاقتصادية وفي المواقع الاستقلالية وعند الحدود العرقية والقومية، يسوّغها ركود اصلاحي اضعف غورباتشيف في مواجهة اي من الطرفين. فحاول عبثاً ان يرسم خريطة جديدة للاتحاد تحول دون انهياره، عارضاً على الجمهوريات سلطات اوسع في اطار ما سمّاه : « معاهدة الاتحاد للجمهوريات ذات السيادة ». ولم يلقَ استجابة من الغرب ايضاً حين تطلّع اليه بحثاً عن مساعدات اعتقد انها يمكن ان تدفع مسيرته المتعثرة. وسرعان ما شنّ المعسكران هجوماً مزدوجاً متزامناً على الكرملين، وقد ضعفت وسائل دفاعاته، فتمكن الشيوعيون المتشددون من الاستيلاء، في ١٨ آب (اغسطس) عام ١٩٩١، على السلطة فترة لم تصمد طويلاً امام مقاومة مدنية سلمية قادها يلتسين.

ففي ١٦ آب (اغسطس)، كان مقرراً عقد اجتماع لزعماء جمهوريات في الكرملين لتوقيع معاهدة الاتحاد التي وضعها الرئيس السوفياتي، ووسط نقمة شعبية عارمة على الاوضاع المعيشية، ونزاعات عرقية دموية في اكثر من منطقة، ودعوات انفصالية، استولت قيادة جماعية متشددة على السلطة في ١٨ آب (اغسطس) عام ١٩٩١، تألفت هذه القيادة من نائب الرئيس

ورئيس اركانه ووزير الدفاع ورئيس الاستخبارات ورئيس الحكومة. واطلقت على نفسها « لجنة الدولة لحال الطوارىء ». فاعلنت حال الطوارىء وطلبت من غورباتشيف تسليم سلطات الرئاسة الى نائبه عضو اللجنة غينادي نايايف ـ وهو الذي دافع عنه غورباتشيف لدى تعيينه نائباً له « وتشبثت به واعلنت حين رفضه الاخرون انني اريد الى جانبي من استطيع الوثوق به ». ورفض غورباتشيف توقيع كتاب استقالة ارسل اليه يبرر الاستقالة بدواعٍ صحية لا تتيح للرئيس ممارسته مهماته.

غير أن المواطنين في موسكو تحدوا بعشرات الالوف حال الطوارىء ونزلوا الى الشوارع التي امتلأت بمئات الدبابات والجنود. وفي « البيت الابيض » الروسي وقف يلتسن على دبابة للجيش يحميه نحو ٥٠ الف روسي ليعلن الثورة على الانقلابين، وسط تردد العديد من الوحدات العسكرية في اعلان تأييدها للإنقلاب.

بدا في ٢١ منه ان « لجنة الدولة لحال الطوارىء » اخفقت في الامساك بالسلطة في غياب اي دعم خارجي خصوصاً من جانب الولايات المتحدة الاميركية التي وصف رئيسها الانقلاب « بغير الدستوري »، وفي ظل نزعة قومية روسية بين صفوف الجيش اعلنت ولاءها ليلتسين.

في اليوم نفسه، عاد غورباتشيف الى موسكو، فيما اعتقل معظم افراد « عصابة الثمانية »، في اليوم التالي وهم : نائب الرئيس السوفياتي غينادي يانايف، ووزير الدفاع ديمتري يازوف ورئيس الوزراء فالنتين بافلوف، ورئيس جهاز امن الدولة ك ج ب فلادمير كريوتشكوف ووزير الداخلية بوغو الذي انتحر، والامين العام للجنة المركزية والمسؤول عن الصناعات الدفاعية اوليغ باخلاتوف ورئيس رابطة مؤسسات الدولة والمنشآت الصناعية الكسندر تيزياكوف ورئيس اتحاد الفلاحين في الاتحاد السوفياتي فاسيلي ستارودوتبشيف.

ادى الانقلاب الفاشل الى ضعف سيطرة الكرملين على السلطة وتحوّل ميزان القوى الى الجمهوريات التي بدأت الواحدة بعد الاخرى تعلن انفصالها، بعد حملات تطهير بلغت ذروتها بوقف نشاط الحزب الشيوعي ومصادرة ممتلكاته وصرف موظفيه وسط مخاوف من تعرضهم للوشاية والانتقام. وشملت حملة التطهير وزير الخارجية الكسندر بسمرتينخ الذي اقيل في ٢٨ آب (اغسطس) بتهمة تأييد الانقلابيين ضمناً، وحلّ محله السفير في براغ بوريس نانكين لفترة قصيرة اعيدت بعدها حقيبة الشؤون الخارجية الى شيفارنادزه في ١٩ كانون الاول (دسمبر).

بعد ذلك، اعلن غورباتشيف استقالته من منصب الامين العام للجنة المركزية في ٢٣ آب (اغسطس) واوصى اللجنة المركزية بحلّ نفسها وخسر اعضاء الحزب وظائفهم، وجرى تحطيم تمثال لينين، صنم الشيوعية، في غير مكان من البلاد.

من اسباب فشل الانقلاب، غياب الالتفاف الشعبي حول رموزه وتردّد هؤلاء في استخدام الجيش لضرب القوى المناوئة، وتحولّ المجتمع نحو الدمقراطية وتمسكّه بالقيم الجديدة.

الى ذلك، سارع يلتسين الى ملء الفراغ الذي أحدثه الانقلاب داخل السلطة وبرز بتزعمه مقاومة الانقلابيين منقذ الرئيس السوفياتي فاضطر غورباتشيف الى التنازل ليلتسين عن سلطات الكرملين شيئاً فشيئاً.

وفي ٨ كانون الاول (دسمبر)، وقع « الانقلاب الثاني » على غورباتشيف حين وقّع زعماء روسيا البيضاء (بيلوروسيا) واوكرانيا وروسيا الاتحادية اتفاقاً يقضي بانشاء كومنولث دول مستقلة على انقاض اتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية.

كان وقوع هذا الانقلاب شبه مؤكد ونتيجة طبيعية لمنطق الانهيار السياسي

والاقتصادي، وقد لاقى دعماً من الغرب حدد شروطه وزير الخارجية جيمس بايكر في جولة له على خمس جمهوريات سوفياتية في ١٦ كانون الاول (ديسمبر).

على الرغم من المواقف الاولى الرافضة لغورباتشيف، واعتباره التحالف الجديد غير دستوري واصراره على البقاء في الكرملين، اتفقت ١١ جمهورية سوفياتية على توسيع الكومنولت في اتفاق عقد في « المآآتا »، عاصمة كازاخستان في ٢١ كانون الاول (دسمبر).

واذ رأى غورباتشيف نفسه عاجزاً عن مواجهة الاحداث، وهو يشاهد يلتسين يصادر تجهيزات الرئاسة في الكرملين والوزارات الحكومية المركزية المختلفة والبنك المركزي، أقرّ بانتهاء دوره فسلم الحقيبة النووية الى يلتسين ووقّع كتاب استقالته قبل دقائق من اعلانها في كلمة متلفزة عدّد فيها الانجازات التي حققها وبرّر السياسة التي انتهجها وحدّد القوى التي واجهته واعاقت مسيرته الاصلاحية.

وعند منتصف ليلة رأس السنة، دقت ساعة الكرملين دقاتها الاثنتي عشرة معلنة رسمياً وفاة احد عملاقي العالم ونهاية جبار ولد عام ١٩٢٢، وأنزل العلم الاحمر عن الكرملين ورفع العلم الروسي مكانه، واطفئت آخر الانوار في القصر الذي غادره سيّده، ميخائيل سيرعينتش غورباتشيف، بعد حكم استمر ست سنوات، من ١١ آذار (مارس) عام ١٩٨٥ حتى نهاية عام ١٩٩١.

بزوال الاتحاد السوفياتي، ينتهي دور غورباتشيف ليبدأ دور بوريس يلتسين، وتبدأ في الوقت نفسه، مرحلة من أخطر المراحل على التوازن العالمي.

وفي أول خطوة ليلتسين في مطلع العام ١٩٩٢، اعلانه عن الانتقال الى اقتصاد السوق وتحرير الأسعار، الأمر الذي ادّى الى ارتفاع جنوني في أسعار

السلع الغذائية التي بقيت نادرة وسط مخاوف من تدهور جديد للأحوال المعيشية وقيام نزاعات عرقية وحروب أهلية في الجمهوريات. ويبدو ان الغرب على استعداد لمدّ يد المساعدة الى دول الكومنولث الجديد بعد ان اطمأن الى وضع يلتسين اصبعه على زناد السلاح النووي.

مهما يكن من امر، فان المتغيرات الهائلة في الاتحاد السوفياتي السابق لم تبلغ نهايتها بعد، ويبقى غورباتشيف ذلك المصلح الذي جاء من الهرمية السياسية للمجتمع الروسي والنظام السوفياتي، والذي كسر « طوق النظام ». لكنه لم يستطع احتواء طوفان القوى التي حررها، فتجاوزته الاحداث، وسقط.

غير انه صنع التاريخ وحقق انجازات عظيمة في المجتمع والنظام، فقد تحرر المجتمع سياسياً وروحياً وتمت تصفية النظام التوتاليناري. وادّت التحولات الدمقراطية الى قيام انتخابات حرة وصحافة حرة وممارسة دينية حرة والى الاعتراف بحقوق الانسان، والى التعددية الحزبية. وعلى الصعيد الاقتصادي، تم السير في اتجاه اقتصاد متعدد الاشكال وتحققت المساواة بين اشكال الملكية وتوفرت الحرية الاقتصادية للمنتج، وولد القطاع الزراعي من جديد، ولعّل ابرز ما تحقق كان توجيه الاقتصاد نحو اقتصاد السوق، فتحررت الاسعار كلياً.

على الصعيد الدولي، انتهت الحرب الباردة وزال خطر اندلاع حرب عالمية جديدة وتوقف سباق التسلح والعسكرة الجنونية. وازيلت ترسانة الصواريخ النووية لدى عملاقي العالم وحلّ حلف فرصونيا وزالت معظم الانظمة الشيوعية في اوروبا الشرقية، لتحلّ محلها انظمة دمقراطية حرة وشرعية القانون.

اذا كان غورباتشيف حقق في اقل من ست سنوات كل هذه المنجزات، فانه عجز عن توفير البحبوحة والسعادة للشعب السوفياتي. وانهار النظام القديم قبل ان يتسنى للنظام الجديد الذي وضعه ان يقف على قدميه.

فهل يتمكن زعماء دول الكومنولت الجديد من تحقيق ما عجز عنه غورباتشيف ؟

المترجم
يوسف ضومط

المراجع الأجنبية

١ ـــ **شاهد عيان في دولة لينين: ١٩٢١ ـــ ١٩٣٠** بول شيفر ـــ ميونيخ ١٩٧٢.

٢ ـــ **كيف تحكم روسيا ؟:** ميرل فينسود كولونيا ١٩٦٥.

٣ ـــ **الاتحاد السوفياتي في غمرة الثورة والتحول:** بوريس ميسنير ـــ شتوتغارت ١٩٨٨.

٤ ـــ **ميخائيل غورباتشيف:** كريستيان شميدث هوير، ماريا هوبير، ميونيخ ١٩٨٥.

٥ ـــ **غورباتشيف: بحث في ترابط أفكاره:** ولفغانغ فريتزهوغ ـــ همبورغ ١٩٨٩.

٦ ـــ **الى ساخاروف:** هنريش بول ـــ ميونيخ ١٩٨١.

٧ ـــ بين واشنطن وموسكو، اوروبا **في صراع الجبارَيْن.** جوزيف فيتشهور ـــ فرانكفورت ١٩٨٤.

المراجع العربية

ـــ مراجع الملحق باحداث ١٩٩١.

١ ـــ جريدة النهار ٢٨ كانون الأول ١٩٩١ ـــ بيروت.

٢ ـــ مجلة الحوادث اللبنانية.

٣ ـــ وسائل إعلام وصحافيين.

محتويات الكتاب